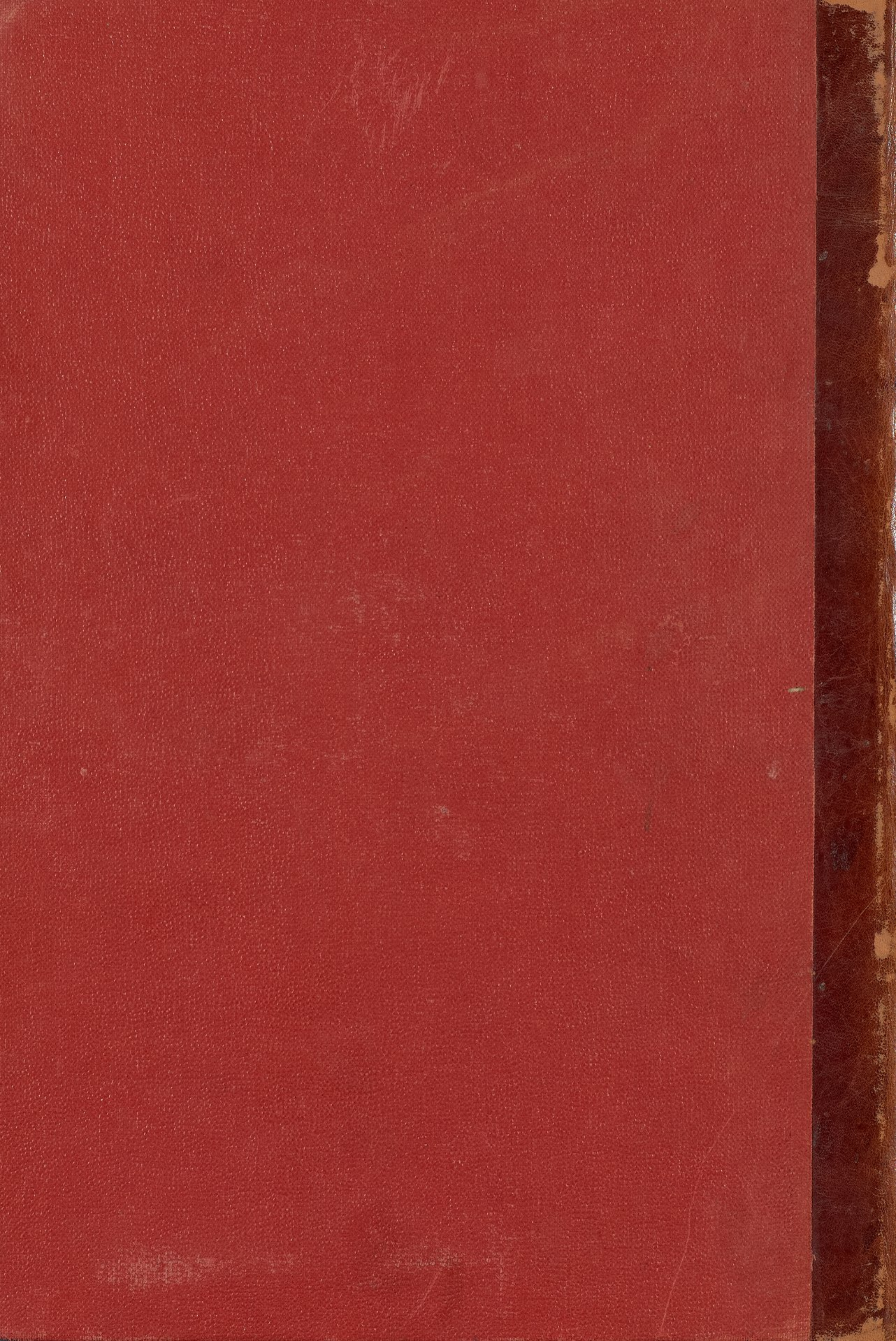
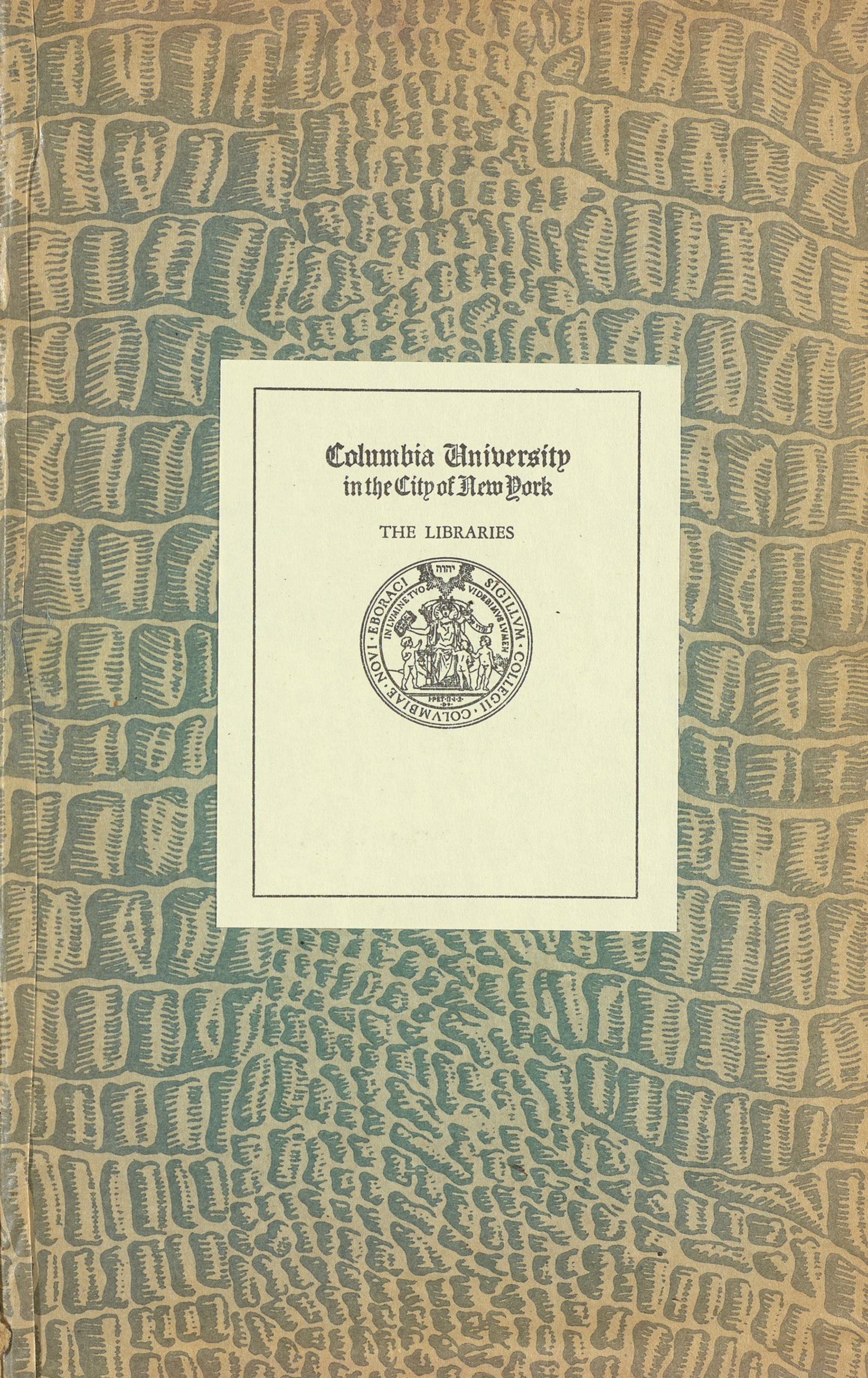
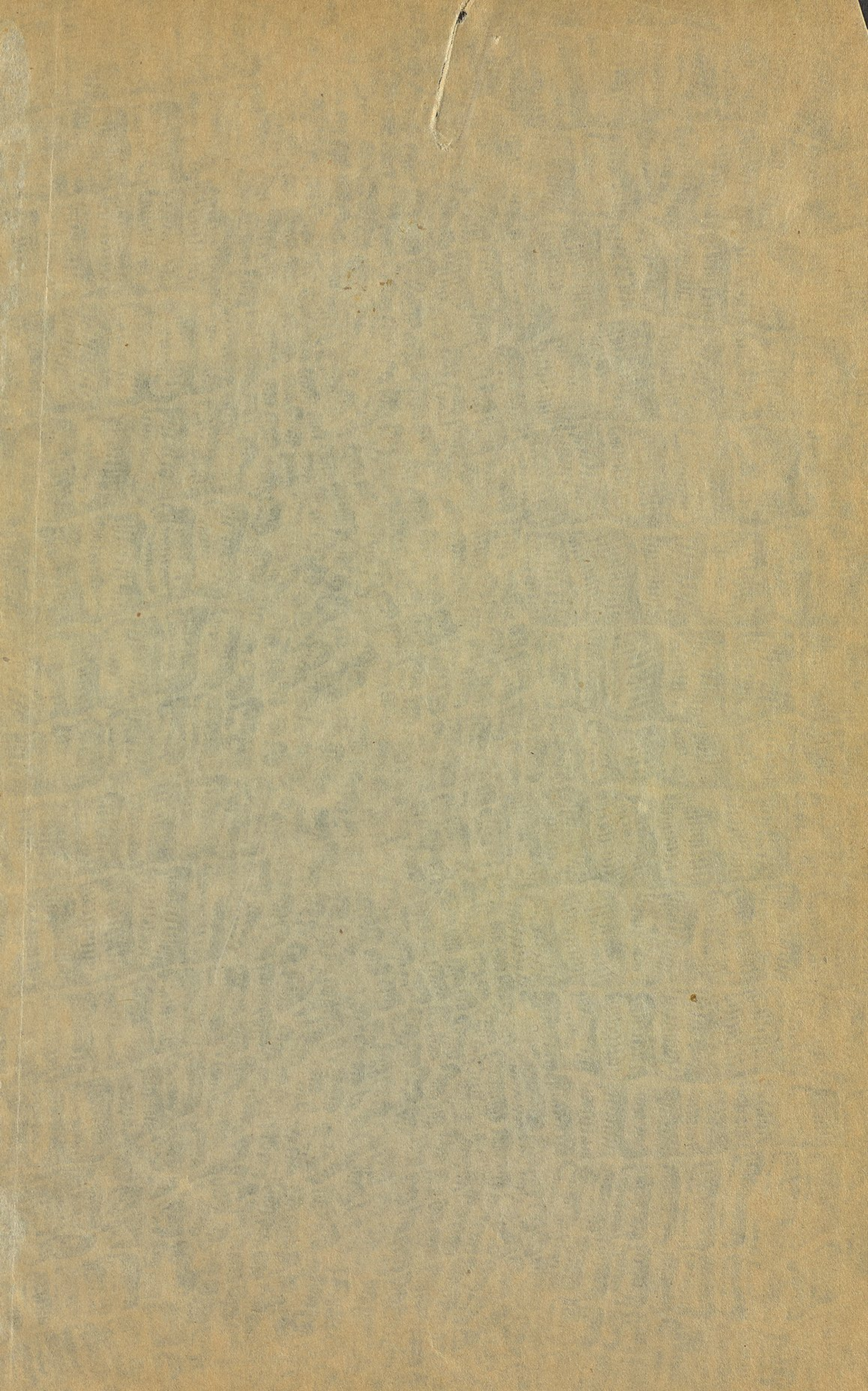
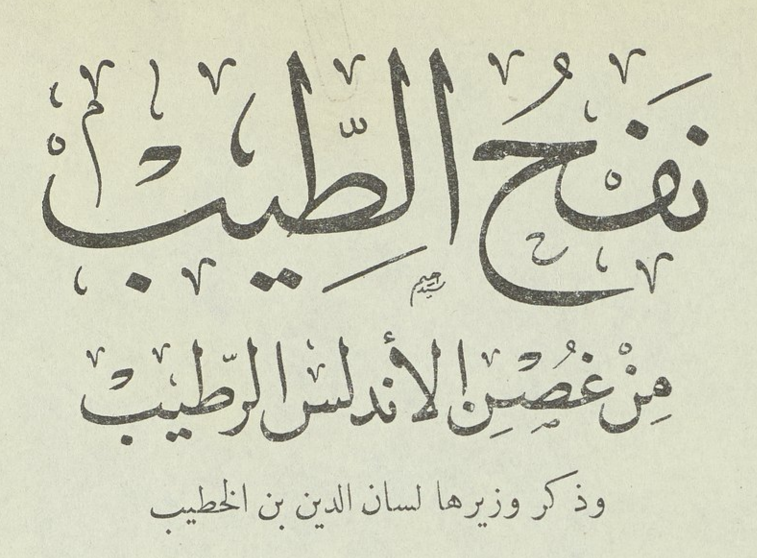




Columbia University
in the City of New York
THE LIBRARIES
SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI
IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN







وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقَّرِيّ التِّلِمْسَانِيّ

المتوفى فى عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محيي الدين عبد الحميد

الجزء السادس

الطبعة الأولى

فى عام ١٣٦٩ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى : بشارع محمد على ، بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رُسُلِ الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

من ابن زيدون إلى المعتمد

وكتب ابن زيدون المذكور إلى المعتمد رحمهما الله تعالى يشوقه إلى تعاطى الحميا ، فى قصوره البديعة التى منها المبارك والثريا :

فز بالنجاح وأحرز الإقْبالاَ وحُـزِ المنى وتَنَجَّزِ الآمالا(١)
وليهنك التأييد والظفر الَّذا صدقاك فى السمة العلية فالا(٢)
يا أيهـا الملك الذى لولاه لم تجد العقول الناشدات كمالا
أما الثريا فالـثريا نسبةً وإفادةً وإنافةً وجمـالا(٣)
قد شاقها الإغباب حتى إنهـا لو تستطيع سرت إليك خيالا
رفِّهْ ورودكها لتغنم راحـة وأطـل مزاركها لتنعم بالا
وتأمل القصر المبـارك وجنـة قـد وسطت فيها الثريا خالا
وأدر هناك من المدام كؤسها وأتمها وأشفها جـريالا(٤)
قصر يُقِرُّ العينَ منـه مصنعٌ بَهِجُ الجوانب لو مشى لاختالا
لازلت تفترش السرور حدائقا فيـه وتلتحف النعيم ظلالا

وأهدى إليه تفاحا ، واعتقد أن يكتب معه قطعة ، فبدأ بها ، ثم عرض له غيرها فتركها ثم ابتدأ :

دونَكَ الراحَ جامِدَهْ وفَدَتْ خيرَ وافـده
وجدت سُوقَ ذَوْبِهَا عندك اليوم كاسده
فاستحالت إلى الجمو دِ وجاءت مُكَايِدَهْ

وكتب إلى المعتمد :

يا أيها الظافر نلت المنى ولا أتانا فيك محْذُورُ
إن الخِلاَلَ الزهر قد ضمها ثوبٌ عليك الدهرَمَزْرُورُ

---

(١) فى ا ، ب « وأحرز الآمالا * وخذ المنى » وأثبتنا ما فى الديوان
(٢) فى ا ، ب « التأييد والظفر الذى » (٣) فى الديوان « أما الثريا فالثريا نصبة »
(٤) فى الديوان « من المدام أتمها * أرجا زكا وأشفها جريالا » والجريال : حمرة الخمر

لا زال للمجد الذى شِدْتَهُ رَبْعٌ بتعميرك معمور
وافاك نظمٌ لىَ فى طيّه معنًى معمَّى اللفظ مستورُ
مَرَامُهُ يصعب ما لم يَبُحْ بالسر قُمْرِىٌّ وشُحْرور

وذكر أبياتا فيها أسماء طيور عمَّى بها عن بيت طيره فيها ، والبيت المطير فيه :

أنت إن تغزُ ظافر فَلْيُطِعْ من ينافر

ففكه المعتمد وجاوبه :

يا خير من يلحظه ناظرى شهادة ما شَانَهَا زورُ
ومن إذا خطب دَجَا ليلُه لاح به من رأيه نور
جاءتنىَ الطير التى سرها نَظْمٌ به قلبىَ مسرور
شعر هو السحر فلا تنكروا أنِّى به ما عشت مسحور
اللفظ والقرطاس إن شُبِّهَا قيل هما مسك وكافور
هَوَى لحسن الطير من فكرتى صَقْرٌ فولَّى وهو مقهور
ولاح لى بيت فؤادى له دأباً على ودك مقصورُ
حظك من شكرىَ ياسيدى حظ نما لى منك موفور (١)
قصرت فى نظمىَ فاعذر فَمَنْ ضاهاك فى التقصير معذور
فأنت إن تنظم وتنثر فقد أعْوَزَ منظوم ومنثور
لا يعدكم روض من الحظ فى الإكرام والترفيع ممطور

فكتب إليه ابن زيدون :

حظى من نعماك موفور وذنب دهرى بك مغفور
وجانبى إن رامه أزمة حِجْرٌ لدى ظلك محجور
يا ابن الذى سِرْبُ الهدى آمنٌ منذ أُنبرى يحميه مخفور
وآمر الدهر الذى لم يزل يُصْغِى إليه منه مأمور

(١) فى ا « حظ تمالى » وفى نسخة عندها « حظ بما لى منك موفور »

ألبس منك الدهر أسنى الحلى بظافرٍ منحاه منصور
قام وفى المأثور يامن له مجد مع الأيام مأثور
عَبْدُكَ إن أكثر من شكره فهو بما توليه مكثور
إن تعفُ عن تقصيره منعما فاليسر أن يقبل معسور
إن حلالَ السحر إن صغته فى صحف الأنفس مسطور
نظم زهانى منه إذ جاءنى عِلْقٌ عظيم القدر مذخور
لا غرو أن أفْتَنَ إذ لاحظت فكرىَ منه أعينٌ حور
تنم عن معناه ألفاظه كما وَشَى بالراح بَلُّورُ
جهلت إذ عارضته غير أن لا بد أن يَنْفِثَ مصدور
يا آل عباد مُوَالاتكم زاكٍ من الأعمال مبرور (١)
إن الذى يرجو موازاتكم من المناوِينَ لَمغرور
مكانه منكم كما انحطَّ عن منزلة المرفوع مجرورُ
لا زلتمُ فى غبطة ما انجلى عن فلق الإصباح ديجور
ولا يَزَلْ يجرى بما شئتم أعمارَكُمْ لله مقدور (٢)

وكتب المعتمد إلى ابن زيدون بعد أن فكَّ معمى كتب (٣) به إليه ابن زيدون ما صورته :

العين بعدك تقْذَى بكلِّ شىء تراه
فليجل شخصك عنها ما بالمغيب جناه

وقد قدمنا من كلام أبى الوليد بن زيدون رحمه الله تعالى ما فيه كفاية .

بين بن حمديس والمعتمد ابن عباد

رجع إلى بنى عباد :

قال ابن حمديس : لما قدمت وافدا على المعتمد بن عباد استدعانى وقال : افتح

(١) فى ا ، وب «موالاتكم * ذاك من الأعمال» وأثبتنا مافى نسخة عند ا
(٢) في نسخة عند ا « ولم يزل ـ إلخ » وأعماركم : منصوب على الظرفية
(٣) فى ا « بعد أن فك المعمى الذى كتب به إليه ابن زيدون »

الطاق ، فإذا بكير زجاج[1] والنار تلوح من بابيه ، وواقدهُ يفتحهما تارة ويسدُّهما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما ، وفتح آخر ، فحين تأملتهما قال لى : أجز :

انظرهما فى الظلام قد نجما

فقلت :

كما رنا فى الدُّجُنَّةِ الأسدُ

فقال :

يفتح عينيـه ثم يُطْبقها

فقلت :

فِعْلَ امرئ فى جُفونه رَمَدُ

فقال :

فابتزه الدهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت :

وهل نجا من صُروفه أحدُ

فاستحسن ذلك وأطربه ، وأمر لى بجائزة ، وألزمنى الخدمة .

وعلى ذكر ابن حمديس فما أحسن قوله :

من شعر ابن حمديس

أراك ركبت فى الأهوال بَحْرًا عظيما ليس يؤمن من خطوبه

تُسَـيِّرُ فلكه شرقا وغربا وتدفع من صَباه إلى جَنُوبه

وأصعب من ركوب البحر عندى أمور ألجأتك إلى ركوبه

ولغيره :

إنْ ابن آدم طين والبحر ماء يُذِيبُـه

لولا الذى فيـه يتلى ما جاز عندى ركوبه[2]

وقال ابن حمديس فى هذا المعنى :

---

(١) فى نسخة عند ا « فإذا بكور زجاج » (٢) فى ا « لولا الذى جاء يتلى »

لا أركب البحر ، أخشى علىّ منــــه المعاطب
طين أنا وَهْوَ ماء والطين فى الماء ذائب

رجع إلى بنى عباد رحمهم الله تعالى :

قال ابن بسام : أخبرنى الحكيم النديم المطرب أبو بكر بن الإشبيلى ، قال : حضرت مجلس الرشيد بن المعتمد بن عباد وعنده الوزير أبو بكر بن عمار ، فلما دارت الكأس ، وتمكن الأنس ، وغنيت أصواتا ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب ، فارتجل يخاطب الرشيد :

ما ضر أن قيل إسحاق وموصله ها أنت أنت وذى حمص و إسحاق
أنت الرشيد فدع مَنْ قد سمعت به و إن تشابَهَ أخلاق وأعراق
لله درك دارِكها مُشَعْشَعة واحضر بساقِيكَ ماقامت بنا ساق (1)

وكان الرشيد هذا أحد أولاد المعتمد النجبا ، وله أخبار فى الكرم يقضى الناظر فيها من أمرها عجبا ، وكذلك إخوته ، وقد ألمعنا فى هذا الكتاب بجملة من محاسنهم ، وأمهم اعتماد الملقبة بالرُّميكية هى التى ترجمناها فى هذا الموضع ، واقتضت المناسبة ذكر أمر (2) بنى عباد ، فلنعد إلى ما كنا بصددهِ من أخبارها رحمها الله تعالى ، فنقول :

عود إلى ذكر اعتماد الرميكية

قال ابن سعيد فى بعض مصنفاته : كان المعتمد كثيرا ما يأنس بها ، و يستظرف نوادرها ، ولم تكن لها معرفة بالغناء ، وإنما كانت مليحة الوجه ، حسنة الحديث ، حلوة النادر ، كثيرة الفكاهة ، لها فى كل ذلك نوادر محكية ، وكانت فى عصرها ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن ، وهى أبدع منها مُلَحا ، وأحسن افتنانا ، وأجل منصبا ، وكان أبوها أمير قرطبة ، و يلقب بالمستكفى بالله ، وأخبار أبى الوليد بن زيدون معها وأشعاره فيها مشهورة ، انتهى ملخصا .

---

(1) فى نسخة عندا « واحصر بساقيك » بصاد مهملة

(2) فى ا « واقتضت المناسبة بعض ما ذكرناه من أمر بنى عباد »

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة فى قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنها رأت الناس يمشون فى الطين ، فاشتهت المشى فى الطين ، فأمر المعتمد ، فسحقت أشياء من الطيب ، وذُرَّتْ فى ساحة القصر حتى عمته ، ثم نصبت الغرابيل ، وصُبَّ فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين ، وخاضتها مع جواريها ، وغاضَبَها فى بعض الأيام ، فأقسمت أنها لم ترمنه خيراً قط ، فقال : ولا يوم الطين ؟ فاستحيت واعتذرت ، وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم فى حق النساء « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط »

قلت : ولعل المعتمد أشار فى أبياته الرائية إلى هذه القضية حيث قال فى بناته :

يَطَأْنَ فى الطين والأقدامُ حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ماجرت به عادة الملوك من ذَرِّ الطيب فى قصورهم حتى يطؤه بأقدامهم ، زيادة فى التنعم

وسبب قول المعتمد ذلك ماحكاه الفتح فقال : وأول عيد أخذه — يعنى المعتمد — بأغمات وهو سارح ، وما غير الشجون له مَسَارح (١) ، ولا رى إلاّ حالة الخمول ، واستحالة المأمول (٢) ، فدخل إليه ، مَنْ يسليه ويسلم عليه (٣) ، وفيهم بناته وعليهن أطمار ، كأنها كسوف وهن أقمار ، يبكين عند التساؤل ، ويبدين الخشوع بعد التخايل ، والضياع قد غير صورهن ، وحير نظرهن ، وأقدامهن حافية ، وآثار نعيمهن عافية ، فقال :

فيما مضى كُنْتَ بالأعياد مسرورا فساءك العيدُ فى أغماتَ مأسورا

ترى بناتك فى الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

---

(١) فى ب ونسخة عند ا « وما غير الشجون له مبارح »

(٢) فى ب « واستحالة الخمول » فيتكرر ويفسد المعنى

(٣) فى ا « فدخل عليه من بنيه ، من يسلم عليه ويهنيه »

برزن نحوك للتسليم خاشــعة أبصارهن حسيرات مكاسـيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
لاخَدَّ إلا تشكَّى الجدبَ ظاهرهُ وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
أفطرت فى العيد لا عادت مساءته فكان فطرك للأكباد تفطيرا[1]
قـد كان دهرك إن تأمره ممتثلا فـردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يُسَرُّ به فإنما بات بالأحــلام مغرورا

وقال الفتح أيضاً : ولمـا نقل المعتمد من بلاده ، وأعرى من طارفه وتِلادِه ، وحُمل فى السفين ، وأحِلَّ فى العدوة محلَّ الدفين ، تندبه منابره وأعواده ، ولا يدنو منه زُوَّاره ولا عُوَّاده ، بقى أسِفاً تتصعد زفراته ، وتطرد أطراد المَذَانب[2] عَبَراته ، لا يخلو بمؤانس ، ولا يرى إلا عَرِيناً بدلا من تلك المَـكَانس[3] ، ولما لم يجد سلوا ، ولم يؤمِّل دنوا ، ولم يَرَوجه مسرة مجلُوًّا ، تذكر منازله فشاقته ، وتصور بهجتها فراقته ، وتخيل استيحاش[4] أوطانه ، وإجهاش قصره إلى قُطَّانه ، وإظلام جوه من أقماره ، وخلوه من حُرَّاسه وسُمَّاره ، فقال :

بكى المبـارك فى إثر ابن عباد بكى على إثر غزلان وآساد
بكت ثرياه لاغمت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائح الغادى
بكى الوحيد ، بكى الزاهى وقبته والنهر والتاج ، كل ذله بادى
ماء السماء على أفيـائه دِرَرٌ يا لجة البحر دومى ذات إزباد[5]

وفى ذلك يقول ابن اللبانة :

أستودع الله أرضا عندما وضحت بشائر الصبح فيها بُدِّلَتْ حَلَـكا

---

(١) فى ا « لا عادت إساءته » وهى جملة دعائية على كل حال
(٢) المذانب : الدلاء (٣) العرين : مأوى السباع ، والمـكانس : مأوى الظباء
(٤) فى نسخة عند ا « استيجاش أوطانه »
(٥) فى ا « ماء السماء على أبنائه درر »

كان المؤيد بستانا بساحتها ... يُجْنِي النعيم وفى عليائها فلكا
فى أمره لملوك الدهر معتبر ... فليس يغتر ذو ملك بما مَلَكَا[1]
نبكيه من جبل خرت قواعده ... فكل من كان فى بَطْحائه هلكا

وكان القصر[2] الزاهى من أجمل المواضع لديه وأبهاها، وأحبها إليه وأشهاها، لإطلاله على النهر، و إشرافه على القصر، وجماله فى العيون، واشتماله بالزهر والزيتون[3]، وكان له به من الطرب، والعيش المزرى بحلاوة الضَّرَب[4]، ما لم يكن بحلب لبنى حَمْدَان، ولا لسيف بن ذى يَزَن فى رأس غُمْدَان، وكان كثيراً ما يُدِير به راحه، ويجعل فيه انشراحه، فلما امتد الزمان إليه بعُدْوَانه، وسد عليه أبواب سلوانه، لم يحنَّ إلا إليه، ولم يتمن غير الحلول لديه[5]، فقال :

غريب بأرض المغربين أسيرُ ... سيبكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيضُ الصوارم والقنا ... وينهلُّ دمع بينهن غزير
مضى زمن والملك مستأنِسٌ به ... وأصبح منه اليوم وهو نَفُورُ
برأى من الدهر المضلِّل فاسد ... متى صلحت للصالحين دهور
أذل بنى ماء السماء زمانُهم ... وذُلُّ بنى ماء السماء كبيرُ
فياليت شعرى هل أبيتَنَّ ليلة ... أمامى وخلفى روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا ... تغنى حمام أو ترنُّ طيورُ
بزاهرها السامى الذى جاده الحيا ... تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهى وسعدُ سعودِهِ ... غيورين والصب المحب غيور
تراه عسيراً لا يسيراً مناله ... ألا كل ما شاء الإلهُ يسير

(١) فى نسخة عند ا « فى امره لملوك الأرض معتبر »

(٢) فى ا « الحصن الزاهى » وفى نسخة عندها « القصر الزاهر »

(٣) فى أصل ا « بالشجر والزيتون »

(٤) الضرب ـ بالتحريك ـ العسل

(٥) فى ا « ولم يتمن الحلول إلا لديه »

وقال الحِجارى فى « المسهب » : إن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أهدى إلى المعتمد جارية مغنية قد نشأت بالعُدْوة ، وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس ، وجاء بها إلى إشبيلية وقد كثر الإرجاف بأن سلطان الملثَّمين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم ، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر فى ذلك ، فخرج بها إلى قصر الزهراء[١] على نهر إشبيلية ، وقعد على الراح ، فخطر بفكرها أن غنت عند ما انتشى هذه الأبيات :

حملوا قلوب الأسْدِ بين ضُلُوعهم وَلَوَوْا عمائمهم على الأقمار

وتَقَلَّدوا يوم الوغى هِنْدية أمضى إذا انتُضِيَتْ من الأقدار

إن خَوَّفُوكَ لقيت كل كريهة أو أمنوك حللت دار قرار[٢]

فوقع فى قلبه أنها عرضت[٣] بساداتها ، فلم يملك غضبه ، ورمى بها فى النهر ، فهلكت ، انتهى ، فقدر الله تعالى أن كان تمزيقُ ملكه على يدهم تصديقا للجارية فى قولها :

* إن خوفوك لقيت كل كريهة *

وحصره جيوش لمتونة الملثمين حتى أخذوه قهراً ، وسيق إلى أمير المسلمين ، والقصة[٤] مشهورة .

وقال الفتح فى شأن حصار المعتمد ما صورته : ولما تم فى الملك أمَدُه ، وأراد الله تعالى أن تخر عُمُدُه ، وتنقرض أيامه ، وتتقوض عن عِرَاصِ الملك خِيَامُه ، نازلته جيوش أمير المسلمين ومحلاته ، وظاهرته فساطيطه ومظلاته ، بعد ما نثرت حصونه وقلاعه ، وسُعِّرت بالنكاية جوانحه وأضلاعه ، وأخذت عليه الفروج والمضايق ، وانثنت[٥] إليه الموانع والعوائق ، وطرقته طوارقها بالإضرار ، وأمطرته من

(١) فى ا « إلى قصر الزاهر »

(٢) فى ا « دار فرار »

(٣) فى أصل ا « أنها وقعت بسادتها »

(٤) فى ا « والقضية مشهورة »

(٥) فى ا « وثنت إليه »

النكاية كل ديمة مِدْرَار ، وهو ساهٍ بروضٍ ونسيم ، لاه براح ومُحَيا وسيم ، زاه بفتاة تنادمه ، ناه عن هدم أنس هو هادمه ، لا يصيخ إلى نبأةٍ سمعهُ ، ولا ينيخ إلا على لهو يفرق جموعه جمعُهُ ، وقد ولى المدامة ملامه ، وثنى إلى ركنها طوافه واستلامه ، وتلك الجيوش تجوس خِلاَلَه ، وتقلص ظلاله ، وحين اشتد حصاره ، وعجز عن المدافعة أنصاره ، ودَلَّس عليه وُلاته ، وكثرت أدواؤه وعِلاَّته ، فتح باب الفرج ، وقد لفح شُوَاظ الهرج ، فدخلت عليه من المرابطين زُمْرَه ، واشتعلت من التغَلب(١) جَمْره ، تأجج اضطرامُهَا ، وسهل بها إيقاد الفتنة(٢) و إضرامها ، وعندما سقط الخبر عليه خرج حاسراً عن مُفَاضته(٣) ، جامحاً كالمهر قبل رياضته ، فلحق أوائلهم عند الباب المذكور وقد انتشروا فى جَنَبَاته ، وظهروا على البلد من أكثر جهاته ، وسَيفُهُ فى يده يتلمَّظ للطُّلَى والهام ، ويعد بانفراج ذلك الاستبهام ، فرماه أحَدُ الداخلين برمح تخطَّاه ، وجاوز مَطَاه ، فبادره بضربة أذهبت نفسه ، وأغربت شمسه ، ولقى ثانياً فضربه وقسمه ، وخاض حَشَاً(٤) ذلك الداء وحَسَمه ، فاجْلَوْا عنه ، وولوا فراراً منه ، فأمر بالباب فسد ، و بنى منه ماهد ، ثم انصرف وقد أراح نفسه وشفاها ، وأبعد الله تعالى عنه الملامة ونفَاها ، وفى ذلك يقول عند ما خلع ، وأودع من المكروهِ ما أودع :

إن يسلب القوم العدى ملكى وتُسْلِمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تُسْلِمِ القلبَ الضلوع
قد رمت يوم نزالهم أن لا تحصننى الدروع
و برزت ليس سوى القميص على الحشاشة دفوع

---

(١) فى ب « واشتعلت من التقلب جحره »
(٢) فى أصل ا « إيقاد البغية وإضرامها »
(٣) فى ا « حاسرا من مفاضته » والمفاضة : الدرع
(٤) فى ب « وخاص جيش ذلك الداء وحسمه »

أجَلِي تأخَّرَ لم يكن بِهَـواىَ ذلى والخشوع[1]
ما سرت قط إلى القتا ل وكان من أملى الرجوع
شيَمُ الألى أنا منهـم والأصل تتبعه الفروع

ومازالت عقارب تلك الداخلة تدب ، ثم ذكر الفتح تمام هذا الكلام فراجعه فيما مر بنحو ثلاث ورقات .

من مجالس أنس المعتمد

ومن حكايات مجالس أنسه أيام ملكه ، قبل أن ينظمه صرف الدهر فى سلكه ، ماحكاه الفتح عن ذخر الدولة أنه دخل عليه فى دار المزينية والزهر يحسد إشراق مجلسه ، والدر يحكى اتِّساق تأنسه ، وقد رددت[2] الطير شَدْوَها ، وجودت[3] طربها ولهوها ، وجَدَّدت كلفها وشَجْوَها[4] ، والغصون قد التحفت بسندسها ، والأزهار تحيي بطيب تنفسها ، والنسيم يلم بها فتضعه بين أجفانها ، وتُودِعُه أحاديث آذارها ونِيسانَها[5] ، و بين يديه فتى من فتيانه يتثنى تثنى القضيب ، ويحمل الكأس فى راحة أبهى من الكف الخضيب ، وقد توشح وكأن الثريا وشاحه ، وأنار فكأن الصبح من مُحياه كان اتضاحه ، فكلما[6] ناوله الكأس خامرته سَوْرَه ، وتخيل أن الشمس تهديه نوره ، فقال المعتمد :

لله ساق مهفهف غَنِـجٌ قد قام يسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته فى جامد الماء ذائبَ الذهب

ولما وصل لورقة استدعى ذا الوزارتين القائد أبا الحسن بن اليسع ليلته تلك فى وقت لم يَخَفْ فيه زائر من مُرَاقب ، ولم يَبْدُ فيه غير نجم ثاقب ، فوصل وما للأمن إلى فؤاده وصول ، وهو يتخيل أن الجو صَوَارم ونُصُول ، بعد أن وصى بما خلف ،

---

(١) فى ب « لم يكن * بهواه ذلى والخضوع »
(٢) فى أصل ا « وقد رددت الطير شجوها » (٣) فى نسخة « وجددت »
(٤) لا توجد هذه الفقرة في ا (٥) آذار ونيسان : من الشهور الرومية
(٦) فى ب « فلما ناوله »

وودع من تخلف ، فلما مثل بين يديه آنسه ، وأزال توجُّسَه ، وقال له : خرجت من إشبيلية وفى النفس غرام طويته بين ضلوعى ، وكفكفت [١] فيه غَرْبَ دُموعى ، بفتاة هى الشمس أو كالشمس إخالُهَا ، لا يجول قُلْبها ولا خَلْخالها ، وقد قلت فى يوم وَدَاعها ، عند تفطر كبدى وانصداعها :

ولما التقينا للوداع غُـدَيَّةً وقد خفقت فى ساحة القصر رايات

بكينا دَماً حتى كأن عيوننا لجرى الدموع الحمر منها جراحات [٢]

وقد زارتنى هذه الليلة فى مضجعى ، وأبرأتنى من توجُّعِى ، ومكنتنى من رُضَابها ، وفتنتنى بدلالها وخِضابها ، فقلت :

أباح لطيفى طيفُهَا الخدَّ والنَّهْدَا فعض بها تفاحة واجْتَنَى وردا [٣]

ولو قَدَرَتْ زارت على حال يقظة ولكن حجاب البين ما بيننا مدا

أما وجدت عنا الشجون معرجا ولا وجدت مناخطوبُ النوى بدا

سقى الله صوبَ القطر أم عبيدة كما قد سقت قلبى على حره بردا

هى الظبى جيداً ، والغزالة مقلة ، وروض الربا عَرْفاً ، وغصن النَّقاقدا

فكرر استجادته ، وأكثر استعادته ، فأمر له بخمسمائة دينار وولاه لورقة من حينه .

قال الفتح : وأخبرنى ابن اللبانة أنه استدعاه ليلة إلى مجلس قد كساه الروض وَشْيَه ، وامتثل الدهر فيه أمره ونَهْيَه ، فسقاه الساقى وحَيَّاه ، وسفر له الأنس عن مُونِقِ مُحَيَّاه ، فقام للمعتمد مادحا ، وعلى دَوْحَة تلك النعماء صادِحا ، فاستجاد قوله ، وأفاض عليه طَوْله ، فصدر وقد امتلأت يداه ، وغمرهُ جوده ونَدَاه ، فلما حل بمنزله

---

(١) فى ا « وكفففت فيه غرب دموعى »

(٢) فى ا « تجرى الدموع الحمر منها جراحات »

(٣) فى ا « فعض به تفاحة »

وافاه رسوله بقطيع وكاس من بلار ، قد أترعا بصِرْف العُقَار ، ومعهما :

جاءتك ليلا فى ثياب نهار من نورها وغِلَالة البلار

كالمشترى قد لَفَّ من مِرِّيخه إذلفه فى الماء جَذْوَةَ نار

لطف الجمود لذا وذا فتألفا لم يَلْقَ ضد ضده بنِفَارِ

يتحير الراؤن فى نَعْتَيهما أصفاء ماءٍ أم صفاء درارى

وقال الفتح أيضاً : وأخبرنى ذخر الدولة أنه استدعاه فى ليلة قد ألبسها البدرُ رُوَاءه، وأوقد فيها أضواءه ، وهو على البحيرة[1] الكبرى ، والنجوم قد انعكست فيها تخالها زهراً ، وقابلتها المجرة فسالت فيها نهراً ، وقد أرِجَتْ نوافجُ الند[2] ، وماست معاطف الرَّنْد ، وحسد النسيم الروض فوَشَى بأسراره ، وأفشى حديث[3] آسِهِ وعَرَاره ، ومشى مختالا بين لَبَّات النَّوْر وأزراره ، وهو وَجِم ، ودمعه مُنْسَجِم ، وزفراته تُتَرْجِمُ عن غَرَامه ، وتجمجم عن تعذر مَرَامه[4] ، فلما نظر إليه استدناه وقربه ، وشكا إليه من الهجران ما استغربه ، وأنشده :

أيا نفس لا تجزعى واصبرى وإلا فإنَّ الهوى مُتْلِفُ

حبيب جفاك وقلب عصاك ولاحٍ لحاك ولا منصف

شُجون مَنَعْنَ الجفونَ الكرى وعَوَّضْنَها أدمعا تنزف

فانصرف ولم يعلمه بقصته ، ولا كشف له عن غُصَّته ، انتهى .

وقال الفتح أيضا : أخبرنى ذخر الدولة بن المعتضد أنه دخل عليه فى ليلة قد ثَنَى[5] السرور مَنَامها ، وامتطى الحبور غاربها وسَنَامها ، وراع الأنس فؤادها ، وستر بياضُ الأمانى سوادَهَا ، وغازل نسيم الروض زوارها وعُوَّادها ، ونورُ السراج[6]

(١) فى ب « الحيرة الكبرى » (٢) فى ب « نوافح » بالمهملة ، والنوافج : جمع نافجة ، وهي وعاء المسك (٣) فى ا « أحاديث آسه وعراره »

(٤) فى ا « عن غرام » و « تعذر مرام »

(٥) فى ب « قد امتنى السرور منامها »

(٦) فى ا « ونور السرج » وهو جمع سراج .

قد قَلَّصَ أذيالها ، ومحاسن لجين الأرض نيالها ، والمجلسُ مُكْتَسٍ بالمعالى ، وصوت المثانى والمثالث عالى ، والبدر قد كمل ، والْتَحَفَ بضوئه القصر واشتمل ، وتزين بسناه وتجمل ، فقال المعتمد :

ولقد شربت الراح يسطع نورها … والليل قد مدّ الظلام رداء
حتى تبدى البدر فى جوزائه … ملكا تناهى بهجة وبهاء
وتناهضت زُهْرُ النجوم يحفه … لألاؤها فاستكمل اللألاء
لما أراد تنزها فى غربه … جعل المظلة فوقه الجوزاء[1]
وترى الكواكب كالمواكب حوله … رفعت ثُرَيَّاهَا عليه لواء
وحكيته فى الأرض بين كواكب … وكواعب جمعت سَنًا وسناء[2]
إن نشرت تلك الدروع حنادسا … ملأت لنا هذى الكؤس ضياء
وإذا تغنت هذه فى مِزْهَرٍ … لم تألُ تلك على التَّرِيك غناء

وأخبرنى ابن إقبال الدولة [بن مجاهد][3] أنه كان عنده فى يوم قد نشر من غيمه رداءَ ندٍّ ، وأسكب من قطره ماء وَرْد ، وأبدى من برقه لسان نار ، وأظهر من [قوس] قزَحِه حنايا قوسٍ[4] آس حفت بنرجس وجُلَّنار ، والروض قد بعث رَيَّاه ، وبث الشكر لسُقْياه ، فكتب إلى الطبيب الأديب أبى محمد المصرى :

أيها الصاحب الذى فارقت عيـ … ـنى ونفسى منه السنا والسناء
نحن فى المجلس الذى يهب الرا … حة والمسمع الغنى والغناء
نتعاطى التى تُنَسِّى من الرقـ … ـة واللذة الهوى والهواء
فأته تُلْفِ راحة ومحيا … قد أعدّا لك الحيا والحياء

---

(١) فى ب « لما أراد تنزها فى غربة »
(٢) في أصل ا « وحكيته فى الأرض بين مواكب »
(٣) ما بين المعقوفين زيادة فى أصل ا
(٤) فى ا « جناء آس حفت ـ إلخ » وفى نسخة « خبايا آس حفت »

فوافاه وألفى مجلسه[١] وقد أتلعت فيه الأباريقُ أجيادَها[٢]، وأقامت فيه خيل السرور طِرَادها، وأعطته الأمانى انطباعها وانقيادها، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعيادها، وخلعت عليه الشمس شُعَاعها، ونشرت فيه الحدائقُ إيناعها، فأديرت الراح، وتعوطيت الأقداح، وخامر النفوسَ الابتهاج والارتياح، وأظهر المعتمد من إيناسه، ما استرق به نفوسَ جُلاَّسه، ثم دعا بكبير، فشرب به كما غربت الشمس فى ثَبَير[٣]، وعند ما تناولها، قام المصرى ينشد أبياتا تمثلها :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا ... بشادَمِهْرَ ودَعْ غُمْدَانَ لليمن[٤]

فأنت أولى بتاج الملك تلبسه ... من هوذة بن على وابن ذى يَزَنِ

فطرب حتى زحف عن مجلسه، وأسرف فى تأنسه، وأمر فخلعت عليه خلع لا تصلح إلا للخلفاء، وأدناه حتى أجلسه مجلس الأكفاء، وأمر له بدنانير عددا، وملأ له بالمواهب يدا.

وله فى غلام رآه يوم العروبة من ثَنِيَّات الوغى طالعا، ولطُلَى الأبطال قارعا، وفى الدماء والغا، ولمستبشع كئوس المنايا سائغا، وهو ظبى قد فارق كِنَاسه، وعاد أسدا [قد] صارت القنا أخْيَاسه، ومتكاثف العجاج قد مزقه إشراقُه، وقلوب الدارعين قد شكتها أحداقه، فقال :

أبصرت طِرْفَكَ بين مشتجرِ القنا ... فبدا لطَرْفِى أنه فلك

أو ليس وجهك فوقه قمرا ... يُجْلَى بنير نوره الحلك

وقال فيه :

---

(١) فى أصل ا « ألفى مجلسا » وأتلعت : نصبت ورفعت

(٢) فى أصل ا « أتلعت أباريقه أجيادها »

(٣) فى ا « فشربه كالشمس غربت فى ثبير »

(٤) فى ا، ب « عليك التاج مرتفعا » وهذا صدر بيت هو بتمامه :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا ... فى رأس غمدان دارا منك محلالا

ولما اقتحمت الوغى دارعا وقَنَّعْتَ وجهك بالمغفر
حسبنا مُحَيَّاكَ شمس الضحى عليها سحاب من العنبر

وقد جمح بنا القلم فى ترجمة المعتمد بن عباد بعضَ جُمُوح ، وما ذلك إلا لما علمنا أن نفوس الأدباء إلى أخباره رحمه الله تعالى شديدة الطموح ، وقد جعل الله تعالى له كما قال ابن الأبار فى « الحلة السيراء » رقةً فى القلوب وخصوصا بالمغرب فإن أخباره وأخبار الرميكية إلى الآن متداولة بينهم ، وإن فيها لأعظم عبرة ، رحم الله تعالى الجميع !.

رجع إلى أخبار النساء .

العبادية جارية المعتضد

ومنهن العبادية جارية المعتضد عباد ، والد المعتمد ، أهداها إليه مجاهد العامرى من دانية ، وكانت أديبة ، ظريفة ، كاتبة ، شاعرة ، ذاكرة لكثيرمن اللغة ، قال ابن عليم فى شرحه لأدب الكاتب[1] لابن قتيبة ، وذكر الموسعة وهى خشبة بين حمالين يجعل كل واحد منهما طرفها على عنقه ، ما صورته : وبذكر الموسعة أغربَتْ جارية لمجاهد أهداها إلى عباد كاتبة شاعرة على علماء إشبيلية وبالغرمة التى تظهر فى أذقان بعض الأحداث ، وتعترى بعضهم فى الخدين عند الضحك ، فأما التى فى الذقن فهى النونة ، ومنه قول عثمان رضى الله تعالى عنه : رسموا[2] نونته لتدفع العين ، وأما التى فى الخدين عند الضحك فهى الفحصة ، فما كان فى ذلك الوقت فى إشبيلية مَنْ عرف منها واحدة .

وسهر[3] عباد ليلة لأمر حَزَبَه وهى نائمة ، فقال :

تنام ومُدْنَفُهَا يسهر وتصبر عنه ولا يصبر

---

(١) فى أصل ا « شرحه لآداب الكتاب » وكذلك هو فى نسخة عند ب
(٢) كذا فى أصل ا ، وفى ب ونسخة عند ا « وسموا نونته » وفى نسخة « دسموا »
(٣) فى أصل ا « وسهر ابن عباد »

فأجابته بديهة بقولها :

لئن دام هذا وهـذا له ... سيهلك وَجْدًا ولا يشعر

ويكفيك هذا شاهدا على فضلها رحمها الله تعالى [وسامحها] .

بثينة بنت المعتمد بن عباد

ومنهن : بثينة بنت المعتمد بن عباد ، وأمها الرميكية السابقة الذكر ، وكانت بثينة هذه نحوا من أمها فى الجمال والنادرة ونظم الشعر ، ولما أحيط بأبيها ووقع النهب فى قصره كانت فى جملة[1] من سُبى ، ولم يزل المعتمد والرميكية عليها فى وَلَه دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب ، وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سُرِّيَّة ووهبها لابنه ، فنظر من شأنها وهُيِّئت له ، فلما أراد الدخول عليها امتنعت ، وأظهرت نسبها ، وقالت : لا أحل لك إلا بعقد النكاح إن رضى أبى بذلك ، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها ، وانتظار جوابه ، فكان الذى كتبته بخطها من نظمها ما صورته :

اسمع كلامى واستمع لمقالتى ... فهى السلوك بَدَتْ من الأجياد

لا تنكروا أنى سبيت وأننى ... بنت لملك من بنى عباد

ملك عظيم قد تولّى عصره ... وكذا الزمان يؤول للافساد

لما أراد الله فرقة شملنا ... وأذاقنا طعم الأسى من زاد[2]

قام النفاق على أبى فى ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد

فخرجت هاربة فحازنىَ امرؤ ... لم يأت فى إعجاله بسداد[3]

إذ باعنى بيع العبيد فضمنى ... مَنْ صاننى إلا من الأنكاد

(١) فى أصل ا « كانت من جملة »

(٢) فى ا « طعم الأسى عن زاد »

(٣) فى أصل ا « لم يأت فى أفعاله بسداد »

وأرادنى لنكاح نجل طاهر حسن الخلائق من بنى الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك فى الرضا ولأنت تنظر فى طريق رشادى
فعساك يا أبتى تعرفنى به إن كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والإسعاد

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات ، واقعٌ فى شِراك الكروب والأزمات ، سُرَّ هو وأمها بحياتها ، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها ، إذ علما مآل أمرها ، وجبر كسرها ، إذ ذاك أخف الضررين ، وإن كان الكرب قد ستر القلب منه حجاب رَيْن ، وأشهد على نفسه بعَقْد نكاحها من الصبى المذكور ، وكتب إليها أثناء كتابه ما يدل[1] على حسن صبره المشكور :

بنيتى كونى به بَرَّةً فقَدْ قضى الدهر بإسعافه[2]

وأخبار المعتمد بن عباد ، تذيب الأكباد ، فلنرجع إلى ذكر نساء الأندلس فنقول :

حفصة بنت حمدون الحجارية

ومنهن حفصة بنت حمدون ، من وادى الحِجَارة ، ذكرها فى « المغرب » وقال : إنها من أهل المائة الرابعة ، ومن شعرها :

رأى ابن جميل أن يرى الدهر مجملا فكل الورى قد عمهم سَيْبُ نعمته
له خلق كالخمر بعد امتزاجها وحسن فما أحلاه من حين خلقته
بوجه كمثل الشمس يدعو ببشره عيونا ويعشيها بإفراط هيبته[3]

ولها أيضاً :

لى حبيب لا ينثنى لعتاب وإذا ما تركته زادتيها
قال لى هل رأيت لى من شبيه قلت أيضاً وهل ترى لى شبيها

---

(١) فى ا « مما يدل على صبره المشكور »
(٢) فى ا « فقد قضي الوقت بإسعافه »
(٣) فى نسخة عند ا « ويغشاها بإفراط هيبته »

ولها تذم عبيدها :

يا رب إنى من عبيـدى على جمر الغضا ، ما فيهم من نجيب

إما جهول أبـله متعب أو فطن من كيده لايجيب

وقال ابن الأبار : إنها كانت أديبة عالمة شاعرة ، وذكرها ابن فرج صاحب « الحدائق » وأنشد لها أشعاراً منها قولها :

يا وحشتى لأحبتى يا وحشة متماديه

يا ليـلة ودعتهم يا ليـلة هى ماهيه

زينب المرية

ومنهن زينب المرية[1] ، كانت أديبة شاعرة ، وهى القائلة :

يا أيها الراكب الغادى لطيته عرج أنبئك عن بعض الذى أجد[2]

ما عالج الناس من وجد تضمنهم إلا ووجدى بهم فوق الذى وجدوا

حسبى رضـاه وأنى فى مسرته ووده آخـر الأيام أجتهـد

غاية المنى

ومنهن غاية المنى ، وهى جارية أندلسية متأدبة ، قدمت إلى المعتصم بن صُمَادح ، فأراد اختبارها فقال لها : ما اسمك ؟ فقالت : غاية المنى ، فقال لها : أجيزى

* اُسْأَلُوا غاية المنى *

فقالت :

* مَنْ كسا جسمىَ الضنا *

وأرانى مولهـا سَيَقُول الهوى أنا

هكذا أورد السالمى هذه الحكاية فى تاريخه

قال ابن الأبار : وقرأت بخطه الثقة حاكيا عن القاضى أبى القاسم بن حبيش

(١) فى ا « زينب المربية »

(٢) طيته – بكسر الطاء – نيته ، ووقع فى ا « الغادى لطيبته »

قال : سيقت لابن صُمادح جارية[١] لبيبة تقول الشعر وتحسن المحاضرة ، فقال : تُحْمَل إلى الأستاذ ابن الفراء الخطيب ليختبرها ، وكان كفيفاً ، فلما وصلته قال : ما اسمك ؟ فقالت : غاية المنى ، فقال : أجيزى :

سل هوى غاية المنى مَنْ كسا جسمىَ الضنا

فقالت تجيزه :

وأرانى متيما سيقول الهوى أنا

فحكى ذلك لابن صمادح ، فاشتراها ، انتهى .

(حمدة حمدونة بنت زياد)

ومنهن حمدة ، ويقال حمدونة بنت زياد المؤدب من وادى آش ، وهى خنساء المغرب ، وشاعرة الأندلس ، ذكرها الملاحى وغيره ، وممن روى عنها أبو القاسم ابن البراق

ومن عجيب شعرها قولها :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهمُ عندى وعندك من ثار
وشَنُّوا على أسماعنا كلَّ غارة وقَلَّ حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهمُ من مقلتيك وأدمعى ومن نَفَسى بالسيف والسَّيْل والنار

وبعض يزعم أن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرزاق الغرناطية ، وكونها لحمدة أشهر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وخرجت حمدة مرة للوادى مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت قالت :

أباح الدمع أسرارى بِوَادى له للحسن آثار بَوَادى[٢]
فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يرفُّ بكل وادى
ومن بين الظِّباء مهاة أنس سبت لبى وقد ملكت فؤادى[٣]

(١) فى ا « جارية نبيلة »

(٢) بوادى فى قافية البيت : جمع باد ، ومعناها ظاهر

(٣) فى ا « لها لبى وقد سلبت فؤادى »

لهـــا لحظٌ ترقده لأمر وذاك الأمر يمنعنى رقادى

إذا سدلت ذوائبهَا عليهـــا رأيت البدر فى أفق السواد

كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تَسَرْبَلَ بالحـداد

وقال ابن البراق فى سَوْق هـذه الحـكاية : أنشدتنا حمدة العوفية لنفسها ، وقد خرجت متنزهة بالرملة من نواحى وادى آش فرأت ذات وجه وسيم أعجبها ، فقالت: — و بين الروايتين خلاف — * أباح الدمع ، إلى آخره * ونسب بعضهم إلى حمدة هذه الأَبيات الشهيرة بهذه البلاد المشرقية ، وهى :

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ سقاه مُضاَعف الغيث العميم

حَلَلْنَا دَوْحَه فَحَنـا علينـا حنو المرضعات على الفطيم[1]

وأرشفنا على ظمإ زُلاَلاً ألذ من المُدَامـــة للنديم

يصد الشمسَ أنى واجهتنا فيحجبها و يأذن للنسيم[2]

يَرُوعُ حصاه حاليةَ العذارى فتلمس جانب العقد النظيم[3]

وممن جزم بذلك الرعينى ، وقال : إن مؤرخى بلاد الاندلس[4] نسبوها لحمدة من قبل أن يوجد المنازى الذى ينسبها له أهل المشرق ، وقد رأيت أن أذكر كلامه برمته ونصه: كانت من ذوى الألباب ، وفحول أهل الآداب ، حتى إن بعض المنتحلين تعلق بهذه الأهداب ، وادعى نظم هذين البيتين — يعنى * ولما أبى الواشون — إلى آخره * لما فيهما من المعانى والألفاظ العذاب ، وما غره فى ذلك إلا بعدُ دارها ، وخلو هذه البلاد المشرقية من أخبارها ، وقد تلبس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غير هذا من أشعارها ، وهو قولها * وقانا لفحة الرمضاء واد * إلى آخره ، و إن هذه الأبيات نسبها

---

(١) فى نسخة عند ا « نزلنا دوحة فحنا علينا »

(٢) فى أصل ا « تصد الشمس أنى واجهتنا »

(٣) فى أصل ا « روع حصاه »

(٤) فى ا « مؤرخى بلادنا »

أهلُ البلاد للمنازى من شعرائهم[١] ، وركبوا التعصب فى جادة أدعائهم ، وهى أبيات لم يخلبها[٢] غير لسانها ، ولا رقم برديها غير إحسانها ، ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا وهى الأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى من العدم إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الموجود ، انتهى .

وهو أبو جعفر الأندلسى الغرناطى ، نزيل حلب .

المنازى الشاعر وأبو العلاء المعرى

وحكى ابن العديم فى تاريخ حلب ما نصه : و بلغنى أن المنازى عمل هـذه الأبيات ليعرضها على أبى العلاء المعرى ، فلما وصل إليه أنشده الأبيات ، فجعل المنازى كلما أنشد[٣] المصراع الأوّل من كل بيت سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثانى الذى هو تمام البيت كما نظمه ، ولما أنشده قوله :

* نزلنا دَوْحَهُ فحنا علينا *

قال أبو العلاء :

* حنوّ الوالدات على الفطيم *

فقال المنازى : إنما قلت « على اليتيم » فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى وهـذا يدل على أن الرواية عنده « حنوّ الوالدات » وقد تقدّم المرضعات ، والله تعالى أعلم .

عود إلى حمدة وأختها زينب

وقال ابن سعيد : يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة « العربيات » لمحافظتهنّ على المعانى العربية ، ومن أشهرهن زينب بنت زياد الوادى آشى ، وأختها حمدة ، وحمدة هـذه هى القائلة وقد خرجت إلى نهر منقسم الجداول بين الرياض مع نسائها فسبَحْنَ فى الماء وتلاعَبْنَ :

---

(١) فى ا « فى شعرائهم »

(٢) فى نسخة عند ا « لم يجلبها »

(٣) فى ا ب « أنشده »

* أباح الدمع أسرارى بوادى * الأبيات ، انتهى .

عائشة بنت أحمد القرطبية

ومنهنّ عائشة بنت أحمد القرطبية .

قال ابن حيان فى « المقتبس » : لم يكن فى زمانها من حرائر الأندلس من يَعْدِلها علما وفهما وأدبا وشعرا وفصاحة ، تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة ، وكانت حسنة الخط ، تكتب المصاحف ، وماتت عذراء لم تنكح سنة أربعمائة .

وقال فى «المغرب» : إنها من عجائب زمانها ، وغرائب أوانها ، وأبو عبد الله الطبيب عمها ، ولو قيل « إنها أشعر منه » لجاز ، ودخلت على المظفر بن المنصور ابن أبى عامر و بين يديه ولد ، فارتجلت :

أراك الله فيـــه ما تريد ولا برحت معاليـه تزيد
فقد دلت مخايله على ما تؤمله وطالعـــه السعيد
تشوّقت الجياد له وهز الحسـام هوى وأشرقت البنود
وكيف يخيب شبل قد نمته إلى العليا ضراغمة أسود[1]
فسوف تراه بدرا فى سماء من العليا كواكبه الجنود
فأنتم آل عامر خير آل زكا الأبناء منكم والجدودُ[2]
وليدكمُ لدى رأيٍ كشيخ وشيخكم لدى حربٍ وليدُ

وخطبها بعض الشعراء ممن لم ترضه فكتبت إليه :

أنا لبوة لكننى لا أرتضى نفسى مُنَاخاً طول دهرى من أحد
ولو أننى أختار ذلك لم أجب كلبا وكم غلقت سمعى عن أسد

---

(١) يقع هذا البيت فى ا تاليا لتاليه هنا

(٢) فى نسخة عند ا « زكا الإنبات منكم والجدود »

مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى

ومنهنّ مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى .

سكنت إشبيلية ، وأصلها والله أعلم من شِلْبَ .

وذكرها ابن دحية فى «المطرب» وقال : إنها أديبة شاعرة مشهورة ، وكانت تعلم النساء الأدب (١) ، وتحتشم لدينها وفضلها ، وعمرت عمراً طويلا ، سكنت إشبيلية ، واشتهرت بها بعد الأربعمائة ، وذكرها الحميدى ، وأنشد لها جوابها لما بعث المهدى إليها بدنانير ، وكتب إليها :

مالى بشكر الذى أوليتِ من قِبَلٍ … لو أننى حزت نطق اللسن فى الحلل
يا فذة الظرف فى هذا الزمان ويا … وحيدة العصر فى الإخلاص فى العمل (٢)
أشبهت مريماً العذراء فى ورع … وفقت خنساء فى الأشعار والمثل

ونص الجواب منها :

من ذا يجاريك فى قول وفى عمل … وقد بَدَرْتَ إلى فضل ولم تُسَلِ
مالى بشكر الذى نظمت فى عنقى … من اللآلى وما أوليت من قبل
حليتنى بحلى أصبحت زاهية … بها على كل أنثى من حلى عطل
لله أخلاقك الغر التى سقيت … ماء الفرات فرقت رقة الغزل (٣)
أشبهت مروان مَنْ غارت بدائعه … وأنجدت وغدت من أحسن المثل
من كان والده العضبَ المهند لم … يَلِدْ من النسل غير البيض والأسَلِ

ومن شعرها وقد كبرت :

وما يرتجى من بنت سبعين حجة … وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدبُّ دبيبَ الطفل تسعى إلى العصا … وتمشى بها مشى الأسير المكبل (٤)

---

(١) فى نسخة عند ا « تعلم الناس الأدب »
(٢) فى نسخة عند ا « يافذة الطرف » بالطاء مهملة
(٣) فى أصل ا « التى سبقت * ماء الفرات » تحريف
(٤) فى نسخة عند ا « تدب دبيب النمل »

أسماء العامرية

ومنهنّ أسماء العامرية ، من أهل إشبيلية ، كتبت إلى عبد المؤمن بن على رسالة نمت فيها إليه بنسبها العامرى ، وتسأله فى رفع[١] الإنزال عن دارها ، والاعتقال عن مالها ، وفى آخرها قصيدة أولها :

عرفنا النصر والفتح المبينا لسيدنا أمير المؤمنينا

إذا كان الحديث عن المعالى رأيت حديثكم فينا شُجُونَا[٢]

ومنها :

رويتم علمه فعلمتموه صُنْتم عهده فغدا مَصُونا

أم الهناء بنت عبد الحق بن عطية القاضى

ومنهن أم الهناء بنت القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية ، سمعَت أباها ، وكانت حاضرة النادرة ، سريعة التمثل ، من أهل العلم والفهم والعقل ، ولها تأليف فى القبور ، ولما ولى أبوها قضاء المرية دخل داره وعيناه تذرفان وجدا لمفارقة وطنه ، فأنشدته متمثلة :

يا عين صار الدمع عندك عادة تبكين فى فرح وفى أحزان

وهذا البيت من جملة أبيات هى :

جاء الكتاب من الحبيب بأنه سيزورنى فاستعبرَتْ أجفانى

غلبَ السرورُ علىَّ حتى أنه من عظم فرط مسرتى أبكانى[٣]

و بعده البيت ، و بعده :

فاستقبلى بالبشر يومِ لقائه ودعى الدموع لليلة الهجران

مهجة القرطبية

ومنهن مهجة القرطبية صاحبة وَلاّدة رحمهما الله تعالى ، وكانت من أجمل[٤] نساء زمانها ، وعلقت بها ولادة ، ولازمت تأديبها ، وكانت من أخف

---

(١) في نسخة عند ا « دفع الإنزال »

(٢) فى أصل ا « رأيت حديثكم فيه شجونا »

(٣) فى ا « من فرط عظم مسرتى أبكانى »

(٤) فى ا « أجل نساء زمانها »

الناس روحا ، ووقع بينها و بين ولادة ما اقتضى أن قالت :

ولادة قد صرت ولادة   من غير بعل، فُضِحَ الكاتمُ
حَكَتْ لنا مريَمَ لكنه   نخلة هذِى ذكر قائم

قال بعض الأكابر : لو سمع ابن الرومى هذا لأقر لها بالتقدم (١) .

ومن شعرها :

لئن قد حمى عن ثغرها كلّ حائم   فما زال يُحْمَى عن مُطَالبه الثغرُ
فذلك تحميه القواضبُ والقَنَا   وهذا حَمَاه من لواحظها السحر

وأهدى إليها من كان يهيم (٢) بها خوخا ، فكتبت إليه :

يا متحفا بالخوخ أحبابه   أهلا به من مثلج للصدور
حكى ثُدِىَّ الغيد تفليكه   لكنه أخزى رؤس الأيور

هند جارية الشاطبى

ومنهن هند جارية أبى محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبى ، وكانت أديبة شاعرة ، كتب إليها أبو عامر بن يَنَّق (٣) يدعوها للحضور عنده بعودها :

يا هند هل لك فى زيارة فتية   نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدَوْا فتذكروا   نغمات عودك فى الثقيل الأول

فكتبت إليه فى ظهر رقعته :

يا سيدا حاز العلا عن سادة   شم الأنوف من الطراز الأول
حَسْبِى من الإسراع نحوك أننى   كنت الجواب مع الرسول المقبل

الشلبية

ومنهن الشلبية ، قال ابن الأبار : ولم أقف على اسمها ، وكتبت إلى السلطان يعقوب المنصور تتظلم من وُلَاة بلدها وصاحب خراجها (٤) :

---

(١) فى ا « لأقر لها بالتقديم »
(٢) فى نسخة « يهتم بها »
(٣) فى ب ونسخة عند ا « بن نيق »
(٤) فى ا « وصاحب خراجه »

قد آن أن تبكى العيون الآبيه ولقد أرى أن الحجارة باكيه
يا قاصد المصر الذى يُرْجَى به إن قدر الرحمن رفع كراهيه
نادِ الأميرَ إذا وقفت ببابه يا راعيا إن الرعية فانيه
أرسلْتَهَا هَمَلاً ولا مرعى لها وتركتها نهب السباع العاديه
شِلْبُ كلا شلب ، وكانت جنة فأعادها الطاغون نارا حاميه
حافوا وما خافوا عقوبة ربهم والله لا تخفى عليه خافيه[1]

فيقال : إنها ألقيت يوم جمعة على مصلى المنصور ، فلما قضى الصلاة وتصفحها بحث عن القضية[2] فوقف على حقيقتها ، وأمر للمرأة بصلة .

وحكى أن بعض قضاة لُوشَة كانت له زوجة فاقت العلماء فى معرفة الأحكام والنوازل ، وكان قبل أن يتزوّجها ذكر له وصفها فتزوّجها ، وكان فى مجلس قضائه تنزل به النوازل ، فيقوم إليها فتشير عليه بما يحكم به ، فكتب إليه بعضُ أصحابه مداعبا بقوله

بلُوشَةَ قاضٍ له زوجة وأحكامُهَا فى الورى ماضيه
فياليته لم يكن قاضيا ويا ليتها كانتِ القاضيه

فأطلع زوجته عليه حين قرأه فقالت : ناولنى القلم ، فناولها ، فكتبت بديهة :

هو شيخ سوء مُزْدَرًى له شيوب عاصيه[3]
كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصيه

وسمعتُ بعضَ أشياخنا يحكى القضية عن لسان الدين بن الخطيب ، وأنه هو الذى كتب يُدَاعب زوج المرأة فكتبت إليه :

---

(١) فى نسخة عند ا « خانوا وما خافوا »
(٢) فى ا « عن القصة »
(٣) كذا فى ا ، ب ، وقال في هامش ب « لعله محرف عن شؤون »

إن الإمام ابن الخطيب　　له شيوب عاصيه

إلى آخره ، فالله أعلم .

نزهون الغرناطية

ومنهن نزهون الغَرْناطية .

قال فى «المغرب» : من أهل المائة الخامسة ذكرها الحِجاَرى فى « المسهب » ووصفها بخفة الروح ، والانطباع الزائد ، والحلاوة ، وحفظ الشعر ، والمعرفة بضرب الأمثال ، مع جمال فائق ، وحسن رائق ، وكان الوزير أبو بكر بن سعيد أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها ، فكتب لها مرة :

يا من له ألف خِلٍّ　　من عاشق وصديق

أراك خليت للنا　　س منزلا فى الطريق

فأجابته :

حللت أبا بكر محـــلا منعتهُ　　سواك ، وهل غير الحبيب له صدرى

وإن كان لى كم من حبيب فإنما　　يقدم أهل الحق حب أبى بكر

قيل : لو قالت « وإن كان خلانى كثيرا ـ إلخ » لكان أجود .

ولما قال فيها المخزومى :

على وجه نزهون من الحسن مسحة　　وتحت الثياب العار لو كان باديا(١)

قواصد نزهون توارك غيرها　　ومن قصد البحر استقل السواقيا(٢)

قالت :

إن كانت ما قُلْتَ حَقًّا　　من بعض عهد كريم

فصار ذكرى ذميا　　يعزى إلى كل لوم

(١) أخذ هذا البيت بأكثر ألفاظه من قول ذى الرمة ، ويقال : بل هو قول كنزة أم ذى الرمة :

علي وجه مي مسحة من ملاحة　　وتحت الثياب العار لوكان باديا

(٢) أخذ هذا البيت بأكثر ألفاظه من قول المتنبى يمدح كافورا الإخشيدى :

قواصد كافور ، توارك غيره　　ومن قصد البحر استقل السواقيا

وصرت أقبح شىء فى صورة المخزومى

وقد تقدمت حكايتها فى « الباب الأوّل » من هذا فلتراجع .

وقال لها بعض الثقلاء : ما على من أكل معك خمسمائة سوط ؟! فقالت :

وذى شقوة لما رآنى رأى له تمنيه أن يَصْلَى معى جاحم الضرب

فقلت له كلها هنيئا فإنما خلقت إلى لبس المطارف والشرب

وقال ابن سعيد فى طالعه لما وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة واجتماعه بجنته بقرية الزاوية من خارجها بنزهون القلاعية الأدبية ، وما جرى بينهما ، وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع — وكان يلبس غفارة صفراء على زى الفقهاء حينئذ — أحسنت يا بقرة بنى إسرائيل ، إلا أنك لا تسر الناظرين ، فقال لها : [إن لم أسر الناظرين][1] فأنا أسر السامعين ، و إنما يطلب سرور الناظرين منك يا فاعلة يا صانعة ، وتمكن السكر من ابن قزمان ، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه فى البركة ، فما خرج إلا وهو قد شرب كثيرا من الماء ، وثيابه تهطل ، فقال : اسمع يا وزير ، ثم أنشد :

إيه أبا بكر ولا حول لى بدَفْع أعيان وأنذال

وذات فرج واسع دافق بالماء يحكى حالَ أذيالى

غرقتنى فى الماء يا سيدى كَفِّرْهُ بالتغريق فى المال[2]

فأمر بتجريد ثيابه ، وخلع عليه ما يليق به ، ومَرَّ لهم يوم بَعُدَ عهدُهم بمثله ، ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة إلا من بعد ما أجزل له الإحسان ، ومدحه بما هو ثابت له فى ديوان أزجاله[3] ، وحكى عنه فيما أظن — أعنى ابن قزمان — ويحتمل أنه غيره

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ا

(٢) فى نسخة عند ا « كفره بالتفريق فى المال »

(٣) فى أصل ا « ديوان أجزاله » وتوقف مصححها فيها

أنه تبع إحدى الماجنات ، وكان أحول ، فأطمعته فى نفسها ، وأشارت إليه أن يتبعها، فاتبعها حتى أتت به سوق الصاغة بإشبيلية ، فوقفت على صائغ من صُيَّاغها ، وقالت له : يا معلم مثل هذا يكون فص الخاتم الذى قلت لك عنه ، تشير إلى عين ذلك الأحول الذى تبعها ، وكانت قد كلفت ذلك الصائغ أن يعمل لها خاتما يكون فصه عين إبليس ، فقال لها الصائغ : جئينى بمثال[١] ، فإنى لم أر هذا ولا سمعت[٢] به قط [فجاءته به عن مثال][٣] ، وحكاها بعضهم على وجه آخر وأنها ذهبت إلى الصائغ وقالت له : صور لى صورة الشيطان ، فقال لها : ائتينى بمثال ، فلما تبعها ابن قزمان جاءته به ، وقالت له : مثل هـذا ، فسأل ابن قزمان الصائغ فأعلمه فخجل ولعنها

وكتب [أبو بكر][٣] بن قزمان على باب جنته[٤] :

وقائل يا حسنها جنة لا يدخل الحزن على بابها

فقلت والحق له صولة أحسن منها مجد أربابها

وله :

كثير المـال تمسكه فيفنى وقد يبقى مع الجود القليل

ومن غرست يداه ثمار جود ففى ظل الثنـاء له مقيل

رجع إلى أخبار نزهون [بنت القليعى][٣] حكى أنها كانت تقرأ على أبى بكر المخزومى الأعمى ، فدخل عليهما أبو بكر الـكتندى[٥] ، فقال يخاطب المخزومى :

* لو كنت تبصر من تجالسه *

فأفحم ، وأطال الفـكر فما وجد شيئاً ، فقالت نزهون :

* لَغَدَوْتَ أخرسَ من خلاخله *

البدر يطلع من أزِرَّتِهِ والغصن يمرح فى غلَائله[٦]

---

(١) فى ا « جئينى بالمثال » (٢) فى ا « ولا سمعته »
(٣) مابين المعقوفين فى ا وحدها (٤) فى ا «باب جنة»
(٥) فى نسخة عند ا « الـكندى » (٦) فى ا « من غلائله »

وكانت ناجبة[١] ، ومن شعرها قولها :

لله در الليـــــالى ما أحيسنها   وما أحيسن منها ليلة الأحـــد
لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت   عينُ الرقيب فلم تنظر إلى أحـد
أبصرت شمس الضحى فى ساعدَىْ قمرٍ   بل رِيمَ خازمة فى ساعدى أسد

من شعر ابن الزقاق

وهذا المعنى متفق مع قول ابن الزقاق :

ومُرْتجَّـةِ الأرداف أما قوامها   فَلَدْنٌ وأما رِدْفُهَا فرَدَاحُ[٢]
ألمت فبات الليل من قِصَرٍ بها   يطير، ولا غير السرور جناح[٣]
فبت وقد زارت بأنعم ليـلة   يعانقنى حتى الصباح صباح
على عاتقى من ساعدَيْهَا حمائل   وفى خصرها من ساعدىَّ وشاح

وابن الزقاق هذا له فى النظم والغَوْص على المعانى الباعُ المديد ، ومن نظمه قوله :

رئيس الشرق محمود السجايا   يُقَصِّر عن مـــدائحة البليغ
نسميه بيحيى وهـــو ميت   كما أن السليم هو اللديغ
يعاف الوِرد إن ظمئت حَشاَه   وفى مال اليتيم له ولوغ[٤]

وقوله :

كتبت ولو أننى أستطيـــع   لإجلال قدرك بين البشر[٥]
قددت الـــيراعة من أنملى   وكان المـــداد سواد البصر

وقوله :

غرير يُبَارِى الصبح إشراق خده   وفى مَفْرِق الظلماء منه نصيب
ترف بفيـــه ضاحكا أقحوانة   ويهتز فى برديه منــــه قضيب

---

(١) فى ا « وكانت ماجنة »   (٢) فى ا « ومرتجة الأطراف »
(٣) لا يوجد هذا البيت فى ا   (٤) فى ا « وفى دمع اليتيم له ولوغ »
(٥) فى ا « لإجلال قدرك دون البشر »

وقوله :

ومهفهفٍ نَبَتَ الشقيق بخده … واهتز أملود النقافى بُرْدِهِ
ماء الشبيبة والغرام أرقُّ من … صقل الحسام المنتقى وفرنده
يحيى الورى بتحية من وصله … من بعد ما وردوا الحمامَ بصَدّهِ[(١)]
إن كنت أهديت الفؤاد له فقل … أى الجوى بجوانح لم يهده

وقوله :

أرقَّ نسيمَ الصَّبا عَرْفُه … وراق قضيبَ النقا عِطْفُه
ومر بنا يتهادى وقد … نضى سَيْفَ أجفانه طرفُه
ومد لمبسمه راحة … فخلت الأقاح دنا قطفه
أشارت بتقبيلها للسلام … فقال فَمِى ليتنى كفه[(٢)]

وقوله :

بأبى من لم يدع لى لحظهُ … فى الهوى من رَمَقٍ حين رَمَق[(٣)]
جمعت نكهته فى ثغره … عبقاً فى نسق يسبى الحدق
وبدت خجلته فى خده … شفقا فى فلق تحت غسق

وقال :

وعشية لبست ملاة شقيق … تُزْهَى بلون للخدود أنيق
أبقت بها الشمس المنيرة مثل ما … أبقى الحياء بوجنتى معشوق
لو أستطيع شربتها كَفَفاً بها … وعدلت فيها عن كؤس رحيق[(٤)]

---

(١) فى نسخة عند ا « من بعد ماورد الحمام يصده »
(٢) فى أصل ا « أشار بتقبيلها للسلام »
(٣) الرمق ــ بالتحريك ــ بقية النفس ، ورمق : نظر
(٤) الرحيق ــ هنا ــ الخمر

وقال فى مسامرة كتاب زعماء :

لله ليلتنا التى استجدى بهـــا   فاق الصباح لسدفة الإظلام(١)
طرأت على مع النجوم بأنجم   من فتية بيض الوجوه كرام(٢)
إن حوربوا فزعوا إلى بيض الظبا   أو خوطبوا فزعوا إلى الأقلام
فترى البلاغة إن نظرت إليهم   والبأس بين يراعـــةٍ وحسام(٣)

وقال :

ومجدين فى السرى قد تعاطَوْا   غفوات الهوى بغـير كؤس
جنحوا وانحنَوْا على العيس حتى   خلتهم يعتبون أيدى العيس
نبذوا الغَمْضَ وهو حُلْو إلى أن   وجـــدوه سلافة فى الرءوس

وقال :

وحَبَّبَ يوم السبت عندىَ أننى   ينادمنى فيــه الذى أنا أحببته
ومن أعجب الأشـياء أنى مسلم   حنيف ولـكنْ خيرُ أيامىَ السبت

ولِنقتصر من نساء الأندلس على هذا المقدار ، ونَعُدْ إلى ما كنا فيه من جاب كلام بلغاء الأندلس ذوى الأقدار ، فنقول :

من شعر الخفاجى

قال الخفاجى رحمه الله تعالى :

وهاتفه فى البان تُمْـلى غرامها   علينا وتتلو من صبابتها صحفا
عجبت لها تشكو الفراق جهالة   وقد جاوبت من كل ناحية إلفا
ويُشْجِى قلوب العاشقين أنينهَا   وما فهموا مما تغنت به حرفا
ولو صدقت فيما تقول من الأسى   لما لبست طوقا ولا خضبت كفا

---

(١) فى ا « لله ليلتنا التى استحذى بها » ولعل أصلها « استخذى »
(٢) فى نسخة عند ا « طارت على من النجوم »
(٣) فى ا « والناس بين يراعة »

لابن صارة

وقال الأستاذ أبو محمد بن صارة :

متى تلتقى عينـاى بدر مكارم تودُّ الثريا أنهـا من مَوَاطئه
ولمـا أهلَّ المدجون بذكره وفاح تراب البيـد مسكا لواطئه
عرفنا بحسن الذكر حسنَ صنيعه كما عرف الوادى بخضرة شاطئه

وقال يتغزل :

يا من تعرض دونه شَحْطُ النوى فاستشرفت لحـديثه أسماعى
إنى لمن يَحْظَى بقربك حاسدٌ ونواظرى يحسدن فيك رقاعى
لم تطوك الأيام عنى إنمـا نَقَلَتْكَ من عينى إلى أضلاعى

للأديب أبى القاسم ابن العطار

وقال الأديب أبو القاسم بن العطار :

عبرنا سماء الجو والنهر مشرق وليس لنا إلا الحباب نجوم(١)
وقد ألبسته الأيك بُرْدَ ظلالها وللشمس فى تلك البرود رقوم

وله أيضاً :

لله بهجة نزهـة ضربت به فوق الغدير رِواقها الأنسامُ(٢)
فمع الأصيل النهر درع سابغ ومع الضحى يلتاحُ فيه حسامُ

وقال أيضاً :

هبت الريح بالعشىِّ فحاكت زَرَداً للغـدير ناهيك جُنَّهْ
وانجلى البدر بعدهَدْءٍ فحاكت كفه للقتال منـه أسِنَّهْ(٣)

وقال أيضاً :

لله حسن حديقة بسطت لنا منها النفوس سوالف ومعاطف

---

(١) فى ا « عبرنا سماء النهر والجو مشرق »
(٢) فى ا «لله بهجة منزه» وفى نسخة عندها «طربت به» وفيها «الأنشام» محرفا
(٣) فى ب ونسخة عند ا « وانجلى البدر بعد هذا »

تختال فى حلل الربيع وحَلْيِهِ ومن الربيع قلائد ومطارف

وله :

وسنان ما إن يزال عارضه يعطف قلبى بعطفة اللام

أسلمنى للهوى فواحَزَنِى أن بزنى عفتى و إسلامى (١)

لحاظه أسهم ، وحاجبه قوس ، و إنسان عينه رامى

لابن خاتمة وارتجل أبو جعفر بن خاتمة رحمه الله تعالى لما بات فى قرية بَيِّش :

لله منزلنا بقرية بيش كاد الهوى فيها أُدكار ابى بَشِى

رُحْنَا إليها والبطاح كأنها صحف مذهبة بإبريز الْعَشِى

لابن جزى فأجازه الوزير ابن جزى بقوله :

فى فتية هزت حُمَيَّا الأنس من أعطافهم فالكل منها منتشى (٢)

يأتى علاهم بالصحيح ، ولفظهم بالمنتقى ، وجمالهم بالمدهش

وقال السلطان أبو الحجاج النصرى مرتجلا أيام مقامه بظاهر جبل الفتح سنة ٨٢٥ (٣) :

لأبى الحجاج النصرى

ولم يتركوا أوطانهم بمرادهم ولكن لأحوال أشابت مفارقى

أقام بها ليلَ التهانى تقلبا وقد سكنت جهلا نفوس الخلائق (٤)

فعوضتها ليل الصبابة بالسُّرَى وأنس التلاقى بالحبيب المفارق

ولم يثننى طرف من النور ناعس ولا معطف للبان وسط الحدائق

ولا منهض الأشبال فى عقر غيرهم ولا ملعب الغزلان فوق النمارق

وعاطيتها صبح الدياجى مدامة تميل بها الركبان فوق الأيانق

---

(١) فى ب ونسخة عند ا « أن سرنى عفتى وإسلامى »

(٢) فى نسخة عند ا « فى فتية فغرت حميا الأنس — إلخ »

(٣) كذا فى أصل ب ، وفى ا ونسخة عند ب « سنة ٨١٥ »

(٤) فى نسخة عند ا « أقام بها ليل التصابى »

إذا ما قطعنا بالمطىِّ تَنُوفَةً دلجنا لأخرى بالجياد السوابق
بحيث الْتقى موسى مع الخضر آية عسى ترجع العقبى كموسى وطارق

وله :

مَنْ عاذرى من غزال زانه حَوَرٌ قد هام لما بدا فى حسنه البشر
ألحاظه كسيوف الهند ماضية لها بقلبى وإن سالمتها أثر

لأبى القاسم ابن حاتم

وقال القاضى أبو القاسم بن حاتم :

شكوت بما دهك وكان سِرًّا لمن ليست مودته صحيحة
فتلك مصيبة عادت ثلاثا لصحبتها الشماتة والفضيحة

لابن سعيد الاندلسى

وقال الفقيه محمد بن سعيد الأندلسى مخاطبا للفقيه الفخار :

خفف علينا قليلا أيها العَلَمُ فربما كان فينا مَنْ به ألم
لا يستطيع نهوضا من تألمه وإن تمادى قليلا خانتِ القدمُ
كفى وصية مولانا وسيدنا محمد فاسمعوا ما قل والتزموا

لابن جبير اليحصبى

وقال ابن جُبَير اليحصبى فيمن أهدى إليه تفاحا :

خليل لم يزل قلبى قديما يميل بفرط صاغية إليه
أتانى مقبلا والبشر يبدى وسائل برة كرمت لديه(١)
وجاء بِعَرْفِ تفاح ذكى فقلت أتى الخليل بسيبويه
فأهدى من جَنَاه بكل شكل يلوح جمال مهديها عليه

لقاضى مالقة

وقال قاضى مالقة سيدى إبراهيم البدوى :

قطعت يأسى فصنت وجهى عن الوقوف لذى وجاهه(٢)

---

(١) فى نسخة عند ا « وسائل بره » بضمير الغيبة .

(٢) فى ا « قطعت يأسى فصنت نفسى » وهى أرق مما هنا

قصدت ربى فكان حسبى ألبسنى فضـله وَجَاهه
فلا يرى ينثنى عنانى مدى حياتى إلا تجاهه

وقال ابن خليل السكونى فى فهرسته : شاهدت بجامع العديس[١] بإشبيلية ربعة مصحف فى أسفار يُنْحَى به لنحو خطوط الكوفة إلا أنه أحسن خطا وأبينه وأبرعه وأتقنه ، فقال لى الشيخ الأستاذ أبو الحسين[٢] بن الطفيل بن عظيمة : هذا خط ابن مقلة ، وأنشد :

خط ابن مقلة مَنْ أرعاه مُقْلَته وَدَّتْ جوارحُه لو أنها مُقَلُ

ثم قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعها تتماثل فى القدر والوضع ، فالألفات على قدر واحد ، واللامات كذلك ، والكافات والواوات وغيرها بهذه النسبة ، انتهى .

قلت : رأيت بالمدينة المنوّرة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مصحفا بخط ياقوت المستعصمى بهذه المثابة ، وهو من الأوقاف الرستمية ، ورأيت بالحجرة الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام مصحفا مكتوبا فى آخره ما صورته : كتبته بقلم واحد فقط ما قُطَّ قَط إلا مرة فقط ، انتهى .

لابن عبدون

رجع ـ وقال ابن عَبْدُون رحمه الله تعالى :

أذهبن من فَرق الفراق نفوسا ونثرن من در الدموع نَفِيسَا
فتبعتها نظر الشجىِّ فحدقت رقباؤها نحوى عيونا شوسا[٣]
وحللن عقد الصبر إذ ودعننى فحللن أفلاك الخدور شموسا[٤]
حَلَّته إذ حلته حتى خِلْتُه عرشا لهـا وحسبتها بلقيسا
فَازْوَرَّ جانبها وكان جوابها لو كنت تهوانا صحبت العيسا

(١) فى أصل ا « العدبس » بالباء الموحدة
(٢) فى نسخة عند ا « أبو الحسن »
(٣) فى ا « عيونا سوسا » (٤) فى ا « أفلاك الخدودشموسا »

وهى طويلة .

قلت : ماأظن لسان الدين نَسَجَ قصيدته من هذا البحر والروى إلا على منوال هذه ، وإن كان الحافظ التنسى قال : إنه نسجها على [منوال] قصيدة أبى تمام حسبما ذكرنا ذلك فى محله فليراجع .

لأبى عبد الله ابن المناصف

وقال أبو عبد الله بن المناصف قاضى بَلَنْسية ومُرْسِية رحمه الله تعالى :

أَلزمت نفسى خمولا عن رتبة الأعلام
لا يخسف البدر إلا ظهوره فى تمام

وتذكرت به قول غيره :

ليس الخمول بعار على امرئ ذى جلال
فليلة القدر تخفى وتلك خير الليالى

للوزير ابن عمار

وقال الوزير ابن عمار ، وقد كتب له أبو المطرف بن الدباغ شافعاً لغلام طَرَّ له(١) عِذار :

أتانى كتابك مستشفعا بوجه أبى الحسنُ من رده
ومن قبل فَضِّ ختمَ الكتاب قرأت الشفاعة فى خده

لأبى الوليد الوقشى

وقال القاضى الأديب ، والفيلسوف الأريب ، أبو الوليد الوقشى قاضى طُلَيْطلة :

برح بى أن علوم الورى قسمان ماإن فيهما من مزيد
حقيقة يعجز تحصيلها وباطل تحصيله لا يفيد

لأبى عبد الله ابن الصفار

وقال أبو عبد الله بن الصفار وهو من بيت القضاء والعلم بقرطبة :

لا تحسب الناس سواء متى ما اشتبهوا فالناس أطوار
وانظر إلى الأحجار، فى بعضها ماء، و بعض ضمنه نار(٢)

---

(١) طر : نبت ، والعذار : الشعر الوجه ، وفى ا « طرز له عذار » تحريف

(٢) أخذه من قوله تعالى : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار »

وهذا مثل قول غيره :

الناس كالأرض ومِنْها هُمُ من خشن الطبع ومن لين
مَرْوٌ تشكَّى الرجلُ منه الْوَجَى وإثمد يجعل فى الأعين (١)

ومن نظم ابن الصفار المذكور :

إذا نويت انقطاعا فاعمل حساب الرجوع

لأبى مروان الجزيرى

وقال أبو مروان الجزيرى :

ومن العجائب والعجائب جَمَّةٌ أن يلهج الأعمى بعيب الأعور

لابن المصيصى

وقال حسان بن المصيصى كاتب الظافر بن عباد ملك قرطبة :

لا تأمنن من العدو لبعده إن امرأ القيس اشتكى الطماحا

وقال الشيخ الأكبر سيدى محيي الدين بن عربى قدس سره [العزيز] فى كتابه « الإسفار ، عن نتائج الأسفار » : أنشدنى الكاتب الأديب أبو عمرو بن مهيب بإشبيلية أبياتا عملها فى حمود بن إبراهيم بن أبى بكر الهرغى (٢) ، وكان أجمل أهل زمانه ، رآه عندنا زائراً وقد خط عذاره ، فقلت : يا أباعمرو ، ما تنظر إلى حسن هذا الوجه ؟ فعمل الأبيات فى ذلك ، وهى :

لأبى عمرو ابن مهيب

وقالوا العذار جناح الهوى إذا ما استوى طار عن وكره
وليس كذاك فخبرهُمُ قياما بعذرىَ أو عذره
إذا كمل الحسن فى وجنة فخاتمه وَيْكَ من شعره

قال بعضهم : رأيت آخر الكتاب المذكور بعد فراغه شعراً نسبه إليه ، وهو :

يا حاضراً بجماله فى خاطرى ومُحَجَّباً بجلاله عن ناظرى

---

(١) المرو : الحجارة الصلبة ، وفى ا « مدر تشكى الرجل منه الوجى » وفى نسخة عند ب « فجلمد تدمى به أرجل »

(٢) فى ب ونسخة عند ا « الهرعى » بالعين مهملة

إن غبت عن عينى فإنك نورها وضمير سرك سائر فى سائرى
ومن العجائب أننى أبدا إلى رُؤياك ذو شوق مديد وافر
مع أننى ما كنت قط بمجلس إلا وكنت مُنادِمِى ومسامرى

لعبد الله الجذامى

وأنشد فى « الإحاطة » لعبد الله الجذامى :

أيا سيدى أشكو لمجـــدك أننى صددت مراراً عن مثولى بساحتك
شكاة اشتياق أنت حقًّا طبيبها وما راحتى إلا بتقبيل راحتك

قال : وهو عبد الله بن عبد الله بن أحمد بن محمد الجُذامى ، فاضل ملازم للقراءة ، عاكف على الخير ، مشارك فى العربية ، خاطب للرياسة الأدبية ، اختص بالأمير أبى على المنصور ابن السلطان أيام مقامه بالأندلس ، ومما خاطبه به معتذراً :

* أيا سيدى ـ البيتين * انتهى

لعبد الله بن أحمد المالقى

وقال فى ترجمة عبد الله بن أحمد المالقى قاضى غرْناطة ، وكان فقيها بارع الأدب : إنه كتب إلى أبى نصر صاحب «القلائد» و« المطمح » أثناء رسالة بقوله :

تفتحت الـكتابة عن نسيم نسيم المسك فى خلق كريم (١)
أبا نصر رَسَمْتَ لها رسوما تخال رسومها وضح النجوم
وقد كانت عَفَتْ فأنرت منها سراجا لاح فى الليل البهيم
فتحت من الصناعة كل باب فصارت فى طريق مستقيم
فـكُتّاب الزمان واست منهم إذا راموا مرامك فى هموم
فما قسٌّ بإبداع منك لفظا ولا سَحْبان مثلك فى العلوم (٢)

وقال الذهبى ، وقدجرى (٣) ذكر محمد بن المسن المذحجى الأندلسى بن الـكنانى (٤) :

---

(١) فى ا « نسيم المسك فى خلق الـكريم »

(٢) قس : هو قس بن ساعـدة الإيادى ، وسحبان : هو سحبان وائل ، وهما مضرب المثل فى الفصاحة

(٣) فى أصل ا « وقد أجرى ذكر ـ إلخ » (٤) فى ا « الـكتانى »

لمحمد بن المسن المذحجى

إنه أديب شاعر متفنن[١] ذو تصانيف ، حمل عنه ابن حزم ، ومن شعره :

ألا قد هجرنا الهجر واتصل الوصل ... وبانت ليالى البين واجتمع الشَّمْلُ

فسعدى نديمى ، والمدامة ريقها ، ... ووجنتها روضى ، وتقبيلها النَّقْلُ

لمحمد بن عبد الرحمن الغرناطى

وقال العلامة محمد بن عبد الرحمن الغرناطى :

الشعب ثم قبيلة وعمارة ... بطن وفَخْذٌ والفصيلة تابعه

فالشعب مجتمع القبيلة كلها ... ثم القبيلة للعمارة جامعه

والبطن تجمعه العمائر فاعلمَنْ ... والفخذ تجمعه البطون الواسعه

والفخذ يجمع للفصائل هاَ كهاَ ... جاءت على نسق لها متتابعه

فخزيمة شعب، وإن كنانة ... لقبيلة منها الفصائل شائعه[٢]

وقريْشُهاَ تسمى العمارة يا فتى ... وقصىٌّ بطن للأعادى قامعه

ذا هاشم فخذ وذا عباسها ... أثر الفصيلة لا تناط بسابعه

وكتبت هذه الأبيات و إن لم تشتمل على بلاغة[٣] لما فيها من الفائدة ، ولأن بعض الناس سألنى فيها لغرابتها[٤] ، والأعمال بالنيات .

لأبى محمد الكلاعى

ولما دخل أبو محمد الكلاعى[٥] الجيانى على القاضى ابن رشد قام له فأنشده أبو محمد بديهة :

قام لى السيد الهمام ... قاضى قضاة الورى الإمام

فقلت قم بى ، ولا تقم لى ... فقلما يؤكل القيام

لابن حجاف البلنسى

وقال أبو عبد الرحمن بن حجاف[٦] البَلَنْسى :

لئن كان الزمان أراد حطى ... وحاربنى بأنياب وظفر

(١) فى ا « مفتن » (٢) فى أصل ا « منها الفضائل شائعه »

(٣) فى أصل ا « وإن لم تشتمل على البلاغة »

(٤) فى نسخة عند ب « لعزتها » (٥) فى ب « الكلابى »

(٦) فى أصل ا « بن جحاف »

كفانى أن تصافينى المعالى وإن عاديتنى يا أمَّ دَفْرِ
فما اعتز اللئيم وإن تسامى ولا هان الكريم بغير وَفْرِ

لأبى محمد بن برطلة

وقال أبو محمد بن برطلة :

ألا إنما سيف الفتى صِنْوُ نفسه فنافِسْ بأوفى ذمة وإخاء
يزينك مَرْأى أو يعينك حاجة فيحسن حالَىْ شدةٍ ورخاء

وقال أيضا :

أنفسىَ ، صبرا لا يَرُوعُكِ حادث بإرتاجه ، واستشعرى عاجل الفتح
فرب اشتداد فى الخطوب لفرجة كما انشق ليل طال عن فاق الصبح

وقال أيضا :

متى يدنو لوَعْدِكم انتجازُ ويبعد عن حقيقته المجاز(١)
أيجمل أن يؤمكم رجائى فيوقف لا يرد ولا يجاز
وجدكم كفيل بالأمانى ومطلوبى قريب مستجاز
إذا ماأمكنَتْ فرصُ المساعى فعجز أن يطاولها انتهاز
وها أنا قد هززتكم حُساما ويحسن للمهندة اهتزاز
فما الإنصاف أن ينْضَى كهام ويودع غمده العضب الجُرَازُ
كما نعم العراق بعذب بحر ويَشْقَى بالظما البرحِ الحجازُ
فأعيى الناس فى المقدار حلم تجاذَبَه خمول واعتزاز(٢)

وأنشد الشيخ أبو بكر بن حبيش لابن وضاح البيت المشهور ، وهو :

أسْرَى وأسْيَرُ فى الآفاق من قمر ومن نسيم ومن طيف ومن مَثَلِ

---

(١) فى ا « ويبعد من حقيقته المجاز »
(٢) فى ا « فأعيي الناس فى المقدار حكم »

ترجمة ابن حبيش وبعض أخباره

وابن حبيش المذكور هو أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش — بفتح الحاء — وقد عرف به تلميذه ابن رشيد الفهرى فى رحلته ، فقال بعد كلام : أما النظم فبيده عِنانه ، وأما النثر فإن مال إليه توكّفَ له بنانه ، مع تواضع زائد ، على صلة مخبره عائد ، لقيته بمنزله ليوم أو يومين من مقدمى على تونس ، فتلقى بكل فنّ يونس ، وصادفته بحالة مرض ، من وثء[1] فى رجله عرض ، وعنده جملة من العُواد ، من الصدور الأمجاد ، فأدنى وقرب ، وسهّل ورحّب ، وتفاوض أولئك الصدور ، فى فنون من الأدب كأنها الشذور ، إلى أن خاضوا فى الأحاجى ، واستضاؤا بأنوار أفكارهم فى تلك الدّياجى ، فخضت معهم فى الحديث ، وأنشدتهم بيتين كنت صنعتهما وأنا حديث ، لقصة بلغتنى عن أبى الحسن سهل بن مالك ، وهى أنه كان يسائل أصحابه وهو فى المكتب ويقول لهم : أخرجوا اسمى ، فكل ينطق على تقديره ، فيقول لهم : إنكم لم تصيبوه مع أنه سهل ، فنظمت هذا المعنى فقلت :

وما اسم فَكُّهُ سهل يسير ... يكون مصغرا نجم يسير[2]
مصحفه له فى العين حسن ... وقلبى عند صاحبه أسير[3]

وكان الشيخ أبو بكر على فراشه ، فزحف مع مابه من ألم ، إلى محبرة وطِرْس وقلم ، وكتب البيتين بخطه ، وقال للحاضرين : أُرووا هذين البيتين عن قائلهما .

ومن شيوخ ابن حَبيش المذكور أبو عبد الله بن عسكر المالقىّ ، كتب له ولأخيه أبى الحسين بخطه إجازة جميع ما يجوزله ، وعنه ، وضمن آخرها هذه الأبيات :

أجبتكما لكن مُقرًّا بأننى ... أقصر فيما رمتما عن مَداكما

---

(١) فى أصل ا « من وثاء فى رحله عرض »
(٢) تصغيره « سهيل » وهو اسم لنجم معروف
(٣) تصحيفه « شهل » وهو الأزرق العين

فإنكما بدران فى العلم أشرقا فسلم إذعانا وقسرا عِداكما
فسيروا على حكم الوداد فإننى أجود بنفسى أن تكون فداكما

قال ابن رشيد : وقد جمع صاحبنا أبو العباس الأشعرى لابن حَبيش فهرسة جامعة(١) ، ولما وقف عليها ابن حبيش كتب فى أوّلها ما نصه : الحمد لله حق حمده ، أحسن هذا الفاضل فيما صنع أحسن الله إليه ، وبالغ فيما جمع بَلَغَ الله تعالى به أشرف المراتب لديه ، غير أنى أقول واحده ، ما سر يرتى لها بجاحده ، وأصرح بمقال ، لا يسعنى كَتْمُه بحال : والله ما أنا للإجازة بأهل(٢) ، ولا مَرَامُها لدىَّ بسهل ، إذ من شرط المجيز أن يعد فيمن كمل ، ويُعِد العلم والعمل ، اللهم غَفْرا ، كيف يُنِيل(٣) من عدم وَفْرا ، أو يجيز من أصبح صدره من المعارف قَفْرا ، وصحيفته من الصالحات صِفْرا ، وكيف يرتسم فى ديوان الجلّه ، من يَتَّسم بالأفعال المخله ، ومتى يقترن الشَّبَه بالإبريز ، أو يوصف السكيت بالتبريز ، ومن ضعف النُّهى ، مجانسة(٤) الأقمار بالسُّهَا ، ومن أعظم التوبيخ ، تشييخ من لا يصلح للتشييخ ، وإن هـذا المجموع لَيَرُوق ويعجب ، ولـكنه جمع لمن لا يستوجب ، وإن القراءة قد تحصلت ، ولـكن القواعد ما تأصلت ، وإن القارئ عَلَم ، ولـكن المقروء عليه عَدَم ، ولقد شكرت لهذا السَّرِىِّ ما جلب ، وكتبت مسعفا له بما طلب ، وقرنت إلى دُرِّه هذا المَخْشَلَب ، قلت وحلىِ عطل ونطقى عطل(٥) ، مكره أخاك لابطَل ، والله سبحانه وتعالى ينفع بما أخلص له عند الاعتقاد ، ويسمح للبَهْرَج عند الانتقاد ، كتبه العبد المذنب محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش اللخمى حامدا لله تعالى ومصليا على نبيه الـكريم المصطفى وعلى آله أعلام الطهارة والهدى وسلما تسليما .

---

(١) فى ا « فهرسة لها جامعة »
(٢) فى ب « ما أنا للاجادة بأهل » وأثبتنا ما فى ا وهو المتفق مع ماسبق وما يلى
(٣) ينيل : يعطى ، ووقع فى ا « ينيل من عدم وفرا »
(٤) لعله « محاسنة الأقمار بالسها » (٥) فى ا « ونطقى مطل »

وكتب أيضاً رحمه الله تعالى فى جواب استجازة : المسؤل ، مبذول ، إن شاء الله تعالى على التنجيز ، ولكن شروط الإجازة موجودة فى المُجَاز معدومة فى المُجِيز ، والله تعالى يصفح بكرمه ومَنِّه ، ويشكر كل فاضل على تحسين(١) ظنه ، وهو المسئول سبحانه أن يحفظ بعنايته مُهَجَاتهم ، ويرفع بالعلم والعمل درجاتهم ، ويمتعهم بالكمال الرائق المعجب ، ويقر بالنجيبين عين المنجب ، وكتبه ابن حبيش .

لأبى بكر ابن القبطرنة الوزير

وقال الوزير الكاتب أبو بكر بن القبطرنة يستجدى بازيا من المنصور ابن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْسَ :

يا أيهـــا الملك الذى آباؤه شم الأنوف من الطراز الأوّل
حليت بالنعم الجسام جسيمةً عنقى فحلِّ يَدِى كذاك بأجدل(٢)
وامنن به ضافى الجناح كأنما جُذِبت قوائمه بريح شمأل
متلفتا والطَّلُّ ينـــثر بُرْدَه منـه على مثل اليمانى المخمل(٣)
أغدو به عجبا أصرف فى يدى ريحا وآخـــذ مطلقا بمُكَبَّلِ

بين ابن عمار والمعتمد

وأدخلَتْ على المعتمد يوما باكورة نرجس ، فكتب إلى ابن عمار يستدعيه :

قد زارنا النرجس الذكى وآن من يومنا العشىُّ
وعنـــدنا مجلس أنيق وقد ظمئنا وفيه رِىُّ(٤)
ولى خليـــل غدا سَمِيِّى يا ليته ســاعَدَ السمىُّ(٥)

فأجابه ابن عمار :

لبيك لبيك من مُنادٍ له النَّدى الرحْبُ والندىُّ
ها أنا بالباب عبد قنّ قِبلَتُه وَجْهُــك السنىُّ

(١) فى ا ، ب « على تحصيل ظنه »
(٢) فى ب « حليت بالنعم الجسام قسيمة » والأجدل : الباز
(٣) فى ا « على مثل اليمانى المحمل »
(٤) فى نسخة عند ا « ونحن فى مجلس أنيق » والأنيق المعجب
(٥) فى نسخة « ولى نديم غدا سمىي »

شَرَّفَهُ والداه باسْمٍ شَرَّفْتَهُ أنت والنبى

بين ابن عمار والمعتمد

واصطبح[١] المعتمد يوم غَيْمٍ مع أم الربيع، واحتجب عن الندماء، فكتب إليه ابن عمار :

تجهم وجه الأفق واعتلت النفسُ لأن لم تَلُح للعين أنت ولا شمسُ
فإن كان هـذا منكما من توافقٍ وضمكما أنس فيهنيكما الأنس[٢]

فأجابه المعتمد بقوله :

خليليَّ قُولاَ هل عَلَيَّ مَـلامَةٌ إذا لم أغِبْ إلا لتحضرنى الشمس
وأهدى بأكواس الْمُدَام كواكبا إذا أبْصَرَتها العينُ هَشَّتْ لها النفسُ
سلام سـلام أنتما الأنس كله وإن غبتما أمُّ الربيع هى الأنسُ

بين ابن عمار وبعض إخوانه

واستدعى جماعة من إخوان ابن عمار منه شرابا فى موضع هو فيه مفقود، فبعث لهم به وبرمانتين وتفاحتين، وكتب لهم مع ذلك :

خذاها مثل ما استدعيتماها عروسا لا تُزَفُّ إلى اللئام
ودونكما بهـا ثديَىْ فتاة أضفت إليهما خَدَّىْ غلام

بين ابن لبون وابن اليسع

وشرب ذو الوزارتين القائد أبو عيسى بن لَبُّون مع الوزراء والكتاب ببَطْحاء لورَقَةَ عند أخيه، وابن اليسع غائب، فكتب إليه :

لو كنت تشهد يا هذا عَشِيَّتَنَا والْمُزْنُ يسكن أحيانا وينحدر[٣]
والأرض مُصْفرة بالْمُزْن طافية أبْصَرْتَ دُرًّا عليه التبر ينتثر[٤]

وقال الحجارى من القصيدة المشهورة :

* عليك أحالَنِى الذكرُ الجميلُ *

---

(١) اصطبح : جلس لشرب الصبوح، ووقع فى ا «واصطحب» محرفا

(٢) فى ا «فإن كان هذا منكما عن توافق»

(٣) فى أصل ا «والمزن يسكب أحيانا وينحدر»

(٤) فى أصل ا «والأرض مصفرة بالمزن كاسية» وفى نسخة عندها «كافية» وفيها «أبصرت تبرا عليه الدر ينتثر»

للحجارى

فى وصف زيه البدوى المستثقل وما فى طيه :

ومثلنى بِدَنٍّ فيه خمر   يَخِفُّ به ومَنْظَرُهُ ثقيلُ

ولما انصرف عن ابن سعيد إلى ابن هود[١] عذله ابن سعيد على تحوله عنه ، فقال : النفس تواقة ، ومالى بغير التغرب[٢] طاقه ، ثم قال :

يقولون لى ماذا الملال تقيم فى   محل فعند الأنس تذهب راحلا

فقلت لهم مثل الحمام إذا شدا   على غُصُنٍ أمسى بآخر نازلا

وقد رأيت أن أكفر ما تقدّم ذكره من الهزل الذى أتينا به على سبيل الإحماض بما لا بدّ منه من الحكم والمواعظ وما يناسبها . فنقول :

لأبى العباس ابن خليل

قال أبو العباس بن الخليل[٣] :

فهموا إشارات الحبيب فهاموا   وأقام أمْرَهُمُ الرشادُ فقاموا

وتوسموا بمدامع منهلة   تحت الدياجى والأنام نيام

وتلوا من الذكر الحكيم جوامعا   جُمعت لها الألباب والأفهام

يا صاح لو أبصرت ليلهمُ وقد   صَفَتِ القلوب وصُفَّتِ الأقدام

لرأيت نور هداية قد حَفَّهم   فسرى السرور وأشرق الإظلام

فهم العبيد الخادمون مليكهم   نعم العبيد وأفلح الخدام

سلموا من الآفات لما استسلموا   فعليهمُ حتى الممات سلام

لعبد الحق الإشبيلى

وقال العالم الكبير الشهير صاحب التآليف أبو محمد عبد الحق الإشبيلى رحمه الله تعالى

قالوا صِفِ الموتَ يا هذا وشدته   فقلت وامتدّ منى عندها الصوت

يكفيكم منه أن الناس إن وصفوا   أمرا يُرَوِّعهم قالوا هو الموت[٤]

---

(١) فى ب « ولما انصرف ابن سعيد عن ابن هود عذله - إلخ »

(٢) فى أصل ا « ومالى بغير التقرب طاقة »

(٣) فى ا « بن خليل »   (٤) فى ا « يكفيهم منه أن الناس - إلخ »

وقال الخطيب الأستاذ أبو عبد الله محمد بن صالح الكنانى الشاطبى نزيل بَجَاية :

لأبى عبد الله محمد بن صالح الكنانى

جعلت كتاب ربى لى بضاعه — فكيف أخاف فقرا أو إضاعه
وأعددت القناعة رأس مال — وهل شىء أعز من القناعه ؟

وقال القاضى الكبير الأستاذ الشهير أبو العباس أحمد بن الغماز البَلَنْسى نزيل إفريقية :

لأبى العباس ابن الغماز

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة — وأنت على سوء من الفعل عاكف
وإياكَ أن تمضى من الدهر ساعةٌ — ولا لحظة إلا وقَلْبُكَ واجف[1]
وبادر بأعمالٍ تسرك أن تُرَى — إذا نُشِرَتْ يوم الحساب الصحائف
ولا تيأسَنْ من رحمة الله إنه — لِرَبٍّ العباد بالعباد لطائف

وقال رحمه الله تعالى :

أما آن للنفس أن تخشعا — أما آن للقلب أن يقلعا
أليس الثمانون قد أقبلت — فلم تُبْقِ فى لذة مطمعا
تقضَّى الزمان ولا مطمع — لما قد مضى منه أن يرجعا
تقضى الزمان فواحسرتى — لما فات منه وماضيعا
ويا ويلتاه لذى شيبة — يطيع هوى النفس فيما دعا
وبُعْدًا وسحقاله إذ غدا — يسمع وعظا ولن يسمعا

وقال الأستاذ الزاهد أبو إسحاق الإلبيرى الغرْناطى رحمه الله تعالى :

لأبى إسحاق الإلبيرى

كل امرىء فيما يدين يُدَانُ — سبحان من لم يَخْلُ منه مكان
يا عامر الدنيا ليسكنها وما — هى بالتى يبقى بها سكان
تفنى وتبقى الأرض بعدك مثل ما — يبقى المناخ ويرحل الركبان[2]

---

(١) تمضى : مضارع منصوب بأن ، وهومضارع مضى ، وكان من حق العربية عليه أن ينصبه بالفتحة ، لخفة الفتحة على الياء ، ولكنه عامله معاملة المرفوع ، وساعة : فاعل تمضى ، وضبطه فى ا بالنصب ويخرج على أنه مفعول به لتمضى ، على أنه مضارع أمضى

(٢) فى ا « وترحل الركبان »

أأسر فى الدنيا بكل زيادة وزيادتى فيها هى النقصان[(١)]

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

وذى غنى أوهمتـه همتـُه أن الغنى عنه غير منفصل

يجرُّ أذيال عُجْبِهِ بطرا واختال للـكبرياء فى الحلل

بَزَّتْه أيدى الخطوب بِزَّتَهُ فاعتاض بعد الجديد بالسمل

فلا تثق بالغنى فآفتـه الـفقر وصرف الزمان ذو دُوَلِ

كفى بنيل الـكفاف عنه غنى فكن به فيه غير محتفل[(٣)]

وقال رحمه الله تعالى[(٢)] :

لا شىء أخسر صفقة من عالم لعبت به الدنيا مع الجهال

فَغَدَا يفرق دينه أيْدِى سَبَاً ويديله حرصاً لجمع المـال[(٤)]

لا خير فى كسب الحرام وقلما يرجى الخلاص لـكاسب لحلال

فخذ الـكفاف ولا تـكن ذا فضلة فالفضل تُسْأَلُ عنه أى سؤال

وقال رحمه الله تعالى :

الشيب نبه ذا النهى فتنبها ونهى الجهول فما استقام ولا انتهى[(٥)]

فإلى متى ألهو وأخدع بالمنى والشيخ أقبح ما يكون إذا لها

ما حسنه إلا التقى لا أن يرى صبا بألحاظ الجآذر والمها

أنى يقاتل وهو مفلول الشَّبَاَ كابى الجواد إذا استقل تأوَّها

محق الزمانُ هلالَه فكأنما أبقى له منـه على قدر السها

فغدا حسيرا يشتهى أن يشتهى ولكم جرى طلق الجموح كما اشتهى

---

(١) فى ا « السر فى الدنيا بكل زيادة » تحريف

(٢) وقعت هذه الأبيات فى ا قبل الأبيات السابقة

(٣) فى ا « فـكن به الدهر غير محتفل »

(٤) فى أصل ا « ويديله حرص بجمع المال »

(٥) فى ا « فما استفاق ولا انتهى »

إنْ أنَّ أوّاهٌ وأجهش بالبكا لذنو به ضحك الجهول وقهقها
ليست تنبهه العظات ومثله فى سنه قد آن أن يتنبها[١]
فقَدَ اللذاتِ وزاد غيًّا بعدهم هلا تيقظ بعدهم وتنبها
يا ويحه ما باله لا ينتهى عن غيه والعمر منه قد انتهى

لابن العريف

وقال الأستاذ ولى الله سيدى أبو عبد الله[٢] بن العريف :

من لم يشافه عالما بأصوله فيقينه فى المشكلات ظنون
من أنكر الأشياء دون تيقن وتثبت فمعاند مفتون
الكتب تذكرة لمن هو عالم وصوابها بمحالها معجون
والفكر غوّاص عليها مخرج والحق فيها لؤلؤ مكنون

لأبى القاسم ابن الأبرش

وقال أبو القاسم بن الأبرش :

أيأسونى لما تعاظم ذنبى أتراهم هم الغفور الرحيم
فذَرُونِى وما تعاظم منه إنما يغفر العظيمَ العظيمُ

لأبى العباس ابن صقر

وقال أبو العباس بن صقر الغرناطى أو المرى ، وأصله من سَرَقُسْطة :

أرض العدوّ بظاهر متصنع إن كنت مضطرا إلى استرضائه
كم من فتى ألقى بوجه باسم وجوانحى تنقدُّ من بغضائه

لابن الأبار

وقال الكاتب الشهير الشهيد أبو عبد الله محمد بن الأبار القُضَاعى البَلَنسى رحمه الله تعالى من أبيات :

يا شقيق النفس أوصيك و إن شق فى الإخلاص ما تنتهجه
لا تبت فى كمد من كيد رب ضيق عاد رحبا مخرجه[٣]

---

(١) فى ا « قد آن أن يتنهنها » أى يكف عما هو فيه، وهو كذلك فى نسخة عند ب

(٢) فى أصل ا ونسخة عند ب « سيدى أبو العباس بن العريف »

(٣) فى ا « لا تبت فى كمد من كبد »

و بلطف الله أصْبِحْ واثقا كل كرب فعليه فرجـــه

ولابن الأبار المذكور ترجمة طويلة استوفيت منها ما أمكننى فى « أزهار الرياض فى أخبار عياض ، وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح[1] وللعقل ارتياض » .

من ترجمة ابن الأبار

قال الغبرينى فى « عنوان الدراية » : لو لم يكن له من الشعر إلا قصيدته السينية التى رفعها للأمير أبى زكريا رحمه الله تعالى يستنجده و يستصرخه لنصرة الأندلس لـكان فيها كفاية ، و إن كان قد نقدها ناقد ، وطعن عليه فيها[2] طاعن ، ولـكن كما قال أبو العلاء المعرى :

تـكلم بالقول المضلل حاسدٌ وكل كلام الحاسدين هواء

ولو لم يكن له من التآليف إلا كتابه المسمى « بمعادن اللجين ، فى مراثى الحسين » لـكفاه فى ارتفاع درجته ، وعلوّ منصبه وسموّ رتبته .

ثم قال : توفى بتونس ضحوة يوم الثلاثاء الموفى عشرين لمحرم سنة ٦٥٨ ، ومولده آخر شهر ربيع سنة ٥٩٥ ببَلَنسية ، رحمه الله تعالى وسامحه ! ، انتهى .

وقال ابن علوان : إنه يتصل سنده به من طرق ، منها من طريق الراوية[3] أبى عبد الله محمد بن جابر القيسى الوادى آشى عن الشيخ المقرى المحدث المتبحر أبى عبدالله محمد بن حيان الأوسى الأندلسى نزيل تونس عنه ، ومن طريق والدى[4] صاحب « عنوان الدراية » عن الخطيب أبى عبد الله بن صالح عنه ، انتهى .

قلت : وسندى إليه عن العم عن التنسى عن أبيه عن ابن مرزوق عن جده الخطيب عن ابن جابر الوادى آشى به كما مر .

---

(١) فى ب « مما يحصل للنفس به »

(٢) فى ا « وطعن فيها طاعن » وفى نسخة عندها « وطعن عليه طاعن »

(٣) فى ا « منها من طريق الرواية أبى عبد الله - إلخ » لحن

(٤) فى ا « ومن طريق ولدى » تحريف

لابن عبد ربه

وقال ابن عبد ربه :

بادر إلى التوبة الخلصاء مجتهدا والموت ويحك لم يمدد إليك يداً
وارقب من الله وعدا ليس يخلفه لا بد لله من إنجاز ما وعدا

لأبى العلاء القيسى

وقال الصدر أبو العلاء[١] بن قاسم القيسى :

يا واقف الباب فى رزق يؤمله لا تقنطن فإن الله فاتحه
إن قدر الله رزقا أنت طالبه لا تيأسن فإن الله مانحه

للاعمى التطيلى

وقال الأعمى التُّطيلى :

تنافس الناس فى الدنيا وقد علموا أن سوف تقتلهم لذاتُها بددا
قل للمحدّث عن لقمان أو لبد لم يترك الدهر لقمانا ولا لبدا[٢]
وللذى همه البنيان يرفعه إن الردى لم يغادر فى الثرى أحدا[٣]
مالابن آدم لا تفنى مطامعه يرجو غدا وعسى أن لا يعيش غدا

لأبى العباس التطيلى

وقال أبو العباس التطيلى :

والناس كالناس إلا أن تجربهم وللبصيرة حكم ليس للبصر
كالأيك مشتبهات فى منابتها وإنما يقع التفضيل فى الثمر

وقال القاضى أبو العباس بن الغماز البَلَنسى :

من كان يعلم لا محالة أنه لا بد أن يُودِى وإن طال المَدَى
هلا استعدَّ لمشهد يجزى به مَنْ قد أعد من اهتدى ومن اعتدى

وقال أيضاً[٤] :

---

(١) فى ا « أبو العلى »

(٢) لقمان : هو صاحب النسور السبعة التى عمر بطول أعمارها ، ولبد : هو اسم لآخر هذه النسور

(٣) فى نسخة عند ا « إن الردى لم يغادر فى الشرى أسدا »

(٤) مضت هذه الأبيات قريبا (ص ٥١) وسقط ذكرها هنا من ا ونسخة عندب

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة ... وأنت على سوء من الفعل عا كف

و إياك أن تمضى من الدهر ساعة ... ولا لحظة إلا وقلبك واجف

فبادر بأعمال يسرك أن ترى ... إذا طويت يوم الحساب الصحائف

ولا تيأسن من رحمة الله إنه ... لرب العباد بالعباد لطائف

لأبى إسحاق الإلبيرى

ولما استوزر باديس صاحب غَرْنَاطة اليهودى الشهير بابن نَغْدِلَةَ[1] ، وأعضل داؤه المسلمين ، قال زاهد البيرة وغرناطة أبو إسحاق الإلبيرى قصيدته النونية المشهورة التى منها فى إغراء صنهاجة باليهود :

ألا قُلْ لصنهاجة أجمعين ... بدور الزمان وأسد العرين

مقالة ذى مِقَةٍ مُشْفق ... صحيح النصيحة دنيا ودين

لقد زل سيدكم زلة ... أقر بها أعين الشامتين

تخيَّرَ كاتبه كافرا ... ولو شاء كان من المؤمنين

فعز اليهودُ به وانْتَمَوْا ... وسادوا وتاهوا على المسلمين

وهى قصيدة طويلة ، فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وفيهم الوزير المذكور ، وعادة أهل الأندلس أن الوزير هو الكاتب ، فأراح الله العباد والبلاد[2] ، ببركة هذا الشيخ الذى نورُ الحق على كلامه باد .

لابن أبى ركب

وقال أبو الطاهر الجيانى المشهور بابن أبى ركب بفتح الراء وسكون الكاف :

يقول الناس فى مَثَلٍ ... تذكَّرْ غائبا تره

فمالى لا أرى سكنى ... ولا أنسى تذكره

وكان أبو الطاهر هذا فى جملة من الطلبة ، فمر بهم رجل معه محبرة آبنوس تأنَّقَ فى حليتها واحتفل فى عملها ، فأراهم إياها ، وقال : أريد أن أقصد بها بعض الأكابر ،

---

(١) كذا فى أصل ا وفى ب ونسخة عندا «بابن نقولة» وفى ثالثة عند ا «ابن نفولة»

(٢) فى ا « فأراح الله البلاد والعباد »

وأريد أن تتمموا احتفالى بأن تصنعوا لى بينكم أبيات شعر أقدمها معها ، فأطرق الجماعة ، وقال أبو الطاهر :

وَافَتْكَ من عُدَدِ العلا زنجية في حلة من حليـة تتبختر
صفراء سوداء الحلىِّ كأنها ليـل تطرزه نجوم تزهر

فلم يغب الرجل عنهم إلا يسيرا ، وإذا به قد عاد إليهم ، وفى يده قلم نحاس مذهب ، فقال لهم : وهذا [مما] أعددته للدفع مع هذه المحبرة ، فتفضلوا بإكمال الصنيعة عندى بذكره ، فبدر أبو الطاهر وقال :

حملت بأصْفَرَ من نجارحليها تخفيه أحيانا وحينا تظهر
خرسان إلاَّحين يرضع ثديها فتراه ينطق ما يشاء ويذكر[1]

بين ابن أبى ركب وابن زرقون

قال ابن الأبار فى « تحفة القادم » : وحضر يوما فى جماعة من أصحابه وفيهم أبو عبد الله بن زرقون فى شعبان فى مكان ، فلما تملَّوْا[2] من الطعام قال أبو الطاهر لابن زرقون : أجِزْيا أبا عبد الله ، وأنشد :

حمدت لشعبان المبارك شبعة تسهل عندى الجوع فى رمضان
كما حمد الصبُّ المتيمُ زورةً تحمل فيها الهجر طول زمان

فقال :

دَعَوْها بشعبانية ولَوَانهم دعوها بشبعانية لـكفانى

لأبي عبد الله بن خميس

وقال أبو عبد الله بن خميس الجزائرى[3] :

تحفظ من لسانك ، ليس شىء أحق بطول سجن من لسان
وكن للصمت ملتزما إذا ما أردت سلامة فى ذا الزمان

---

(١) فى نسخة عند ب « غرثان إلا حين يرضع ثديها » ولعلها أحسن
(٢) فى ا « فلما تملوا من الطعام » تحريف بارد
(٣) فى ا « الجزيرى » وفى نسخة عندها « عبد الله بن حميس » بالحاء المهملة

وقال أيضاً :

كن حِلْسَ بيتك مهما فتنة ظهرت تخلص بدينك وافعل دائماً حسنا(١)
و إن ظلمت فلا تحقد على أحد إن الضغائن فاعلم تنشىء الفتنا

وقال :

بدا لى أن خير الناس عيشاً مَنَ أمنه الإله من الأنام
فليس لخائف عيش لذيذ ولو ملك العراق مع الشآم

وله :

جانب جميع الناس تسلم منهمُ إن السلامة فى مجانبة الورى(٢)
و إذا رأيت من امرىء يوماً أذى لا تجزه أبداً بما منه ترى

وله :

من أدب ابناله صغيراً قرت به عينه كبيراً
وأرغم الأنف من عدو يحسد نعماه كثيرا

لأبى محمد بن هرون القرطبى

وقال أبو محمد بن هرون القرطبى :

بيد الإله مفاتح الرزق الذى أبوابه مفتوحة لم تغلق
عجباً لذى فقر يكلف مثله فى الوقت شيئاً عنده لم يخلق

وقال أيضاً :

لعمرك ما الإنسان يرزق نفسه ولكنما الرب الكريم يُسَخِّره
وما بيد المخلوق فى الرزق حيلة تقدمه عن وقته أو تؤخره

---

(١) « حلس بيتك » بكسر الحاء وسكون اللام — أى ملازما له ، ووقع فى ا « كن حبس بيتك »

(٢) فى ا « سالم جميع الناس »

لأبى محمد ابن صارة

وقال الأديب الأستاذ أبو محمد بن صارة رحمه الله تعالى :

يا مَنْ يُصيخُ إلى داعى السفاهِ وقد نادى به الناعيان الشيب والكبر(١)

إن كنت لاتسمع الذكرى ففيم ثوَى فى رأسك الواعيان السمع والبصر(٢)

ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل لم يهده الهاديان العين والأثر

لاالدهر يبقى ولاالدنيا ولاالفلك الأعلى ولا النَّيِّران الشمسُ والقمر

ليرحَلَنَّ عن الدنيا وإن كرها فراقها الثاويان البدو والحضر(٣)

وقال رحمه الله تعالى فى ابنة ماتت له :

ألا يا موت كنت بنا رءوفا فجددت الحياة لنا بزوره

حَمادِ لفعلك المشكور لما كفيت مؤنة وسترت عوره(٤)

فأنكحنا الضريح بلاصداق وجهزنا الفتاة بغير شَوْرَه

لأبى عبدالله بن الحاج البكرى

وأنشد أبو عبد الله بن الحاج البكرى الغرناطى فى بعض مجالسه قوله :

يا غاديا فى غفلة ورائحا إلى متى تستحسن القبائحا

وكم إلى كم لا تخاف موقفاً يستنطق الله به الجوارحا

يا عجبا منك وكنت مبصراً كيف تجنبت الطريق الواضحا

كيف تكون حين تقرا فى غد صحيفة قد ملئت فضائحا

أم كيف ترضى أن تكون خاسرا يوم يفوز من يكون رابحا

وممن روى عنه هذه الأبيات الكاتب الرئيس أبو الحسن بن الجياب ، وتوفى ابن الحاج المذكور سنة ٧١٥ رحمه الله تعالى !

---

(١) فى ب « داعي السقاة » تحريف ، وفى ا « نادى بك الناعيان »

(٢) فى نسخة عند ا « ففيم ترى » وهو تحريف ، وثوى : أقام

(٣) الألف فى « كرها » علامة التثنية مع أن الفعل مسند للاسم الظاهر ، ووقع فى ا « كرهت »

(٤) فى نسخة عند ا « حمدنا فعلك المشكور » وقد لحظ فى هذه الأبيات قوله عليه الصلاة والسلام « نعم الصهر القبر »

لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي

وقال حافظ الأندلس ومحدثها أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى رحمه الله تعالى :

إلهى مضت للعمر سبعون حجة ولى حركات بعدها وسكون[1]

فياليت شعرى أين أو كيف أومتى يكون الذى لابد أن سيكون

والصواب أنهما لغيره كما ذكرته فى غير هذا الموضع ، وبالجملة فهما من كلام الأندلسيين ، وإن لم يحقق ناظمهما بالتعيين .

لأبى بكر يحيى التطيلى

وقال أبو بكر يحيى التطيلى رحمه الله تعالى :

إليك بسطت الكف فى لجة الدجا نداء غريق فى الذنوب عريق

رجاك ضميرى كى تخلص جملتى وكم من فريق شافع لفريق

وحكى أن بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل بن العادل بن أيوب رقعة فى ورقة بيضاء ، إن قرئت فى ضوء السراج كانت فضية ، وإن قرئت فى الشمس كانت ذهبية ، وإن قرئت فى الظل كانت حبرا أسود ، وفيها هذه الأبيات :

لئن صدّنى البحر عن موطنى وعينى بأشواقها زاهره

فقد زخرف الله لى مكة بأنوار كعبته الزاهره

وزخرف لى بالنبى يثربا وبالملك الكامل القاهره

فقال الملك الكامل قل :

وطيب لى بالنبى طيبة وبالملك الكامل القاهره

وأظن أن المغربى أندلسى لقوله * لئن صدنى البحر عن موطنى * فلذلك أدخلته فى أخبار الأندلسيين على غير تحقيق فى ذلك[2] ، والله أعلم .

وأنشد أبو الوليد[3] المعروف بابن الخليع قال : أنشدنا أبو عمر بن عبد البر النمرى الحافظ :

---

(١) فى نسخة عند ا « مضت لى سبع بعد عشرين حجة »

(٢) فى ا « ولست على تحقيق فى ذلك »

(٣) فى ا « وأنشد ابن الوليد »

لابن عبد البر القرطبي

تذكرت من يبكى علىّ مداوما فلم أُلْفِ إلا العلم بالدين والخبر
علوم كتاب الله والسنن التى أتت عن رسول الله مع صحة الأثر
وعلم الألى من ناقديه وفهم ما له اختلفوا فى العلم بالرأى والنظر

وأنشد له أيضا :

مقالة ذى نصح وذات فوائد إذا مِنْ ذوى الألباب كان استماعُها
عليكم بآثار النبى فإنه مِنَ أُفضل أعمال الرشاد اتباعها

لأبي الحسن ابن عياش اليابرى

وقال أبو الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب الأزدى اليابُرِى ، وسكن أبوه قرْطُبَة :

عصيت هوى نفسى صغيرا وعندما رمتنى الليالى بالمشيب و بالكبر[1]
أطعت الهوى عكس القضية ليتنى خلقت كبيرا وانتقلت إلى الصغر

وقيل : إن ابنه أبا الحسن على بن عبد الملك قال بيتا مفردا فى معنى ذلك ، وهو :

هنيئا له إذ لم يكن كابنه الذى أطاع الهوى فى حالتيه وما اعتبر[2]

وقيل : إن هذا البيت رابع أربعة أبيات .

لأبى إسحاق ابن خفاجه

وقال أبو إسحاق بن خَفاجة لما اجتمع به أبو العرب وسأله عن حاله وقد بلغ فى عمره إحدى وثمانين سنة ، فأنشده لنفسه :

أى عيش أو غذاء أو سِنَهْ لابن إحدى وثمانين سَنَهْ
قلص الشيب به ظل امرىء طالما جر صباهُ رسنه[3]
تارة تسطـــو به سيئة تُسْخِنُ العينَ وأخرى حسنه

---

(١) فى ا « عصيت هوى نفسى صغيرا وبعدما »

(٢) فى ا « أطاع الهوى فى حالتيه وما اعتذر »

(٣) فى ب « طالما جر صباحا رسنه »

لأبى محمد القيسى المالقى

وقال أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القَيْسى المالقى :

الموت حصاد بلا منجل يسطو على القاطن والمنجلى
لا يقبل العـذر على حالة ما كان من مشكل أو من جَلِى

لعبد الحق الإشبيلى

وقال الشيخ عبد الحق الإشبيلى الأزدى صاحبُ كتاب العاقبة والإحكام وغيرهما:

إن فى الموت والمعاد لشُغْلاً وادكارا لِذِى النهى وبلاغا
فاغتنم خطتين قبل المنـايا صحةَ الجسم يا أخى والفراغا

لأبي الفضل الغسانى

وقال أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغسانى من أهل جليانة من عمل وادى آش :

ألا إنما الدنيا بحار تلاطمت فما أكثر الغرقى على الجَنَبَات
وأكثر من صاحبت يغرق إلفه وقَلَّ فَتًى يُنْجِى من الغمرات

وكان المذكور من أهل العلم والأدب ، رحل وحج وتجوّل فى البلاد ، ونزل القاهرة المعزية ، وكان أحد السياحين[1] فى الأرض ، وله تآليف منها «جامع أنماط الوسائل ، فى القريض والخطب والرسائل» وأكثره نظمه ونثره ، رحمه الله تعالى !.

لعبد العليم القضاعى

وقال عبد العليم بن عبد الملك ابن حبيب القُضَاعى الطُّرْطُوشى :

وما الناس إلا كالصحائف عبرة وألسنهم إلا كمثل التراجم[2]
إذا اشتجر الخصمان فى فطنة الفتى فمقوله فى ذاك أعـــدل حاكم[3]

لأبى الحكم البلنسى

وقال أبو الحكم عبد المحسن البَلَنْسى :

من كان للدهر خِدْناً فى تصرفه أبدت له صَفْحَةُ الدهر الأعاجيبا
من كان خلوا من الآداب سَرْبله مَرُّ الليالى على الأيام تأديبا[4]

---

(١) فى ا « وكان من أهل العلم والأدب السياحين فى الأرض »

(٢) فى ا « وما الناس إلا كالصحائف غيرت »

(٣) فى ا « في فتنة الفتى »

(٤) فى ب « من الليالى على الأيام »

لأبى حاتم فى القضاعى

وقال أبوحاتم عمر بن محمد بن فرج من أهل مِيرْتُلَةَ(١) : مدينةٍ بغرب الأندلس ، يمدح شهاب (٢) القضاعى :

شهب السماء ضياؤها مستور عنا إذا أفَلَتْ توارى النـــور
فانزع هديت إلى شهاب نوره متألق آماله تبصـــير
تشفى جواهره القلوب من العمى ولطالما انشرحت بهنَّ صـدور
فإذا أتى فيـه حـديث محمد خذ فى الصلاة عليـه يا مغرور
وترحَّمَنَّ على القضـاعى الذى وضع الشهاب فسعيه مشكور

لأبى محمد غانم ابن الوليد المخزومى

وقال الأستاذ أبو محمد غانم بن الوليد(٣) المخزومى المالقى :

ثلاثة يجهل مقـدارها الأمن والصحة والقوت
فلا تثق بالمال من غيرها لو أنه در وياقـــوت

وتذكرت بهذا قول الآخر :

إذا ما القوت يأتى لـــك والصحة والأمن(٤)
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

وكل ذلك أصله الحديث النبوى « من أصبح آمناً فى سربه ، مُعَافًى فى بدنه ، معه قوت يومه ، فكأنما سيقت له الدنيا بحذافيرها »

وأخبرنا شيخنا القصار أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسى مفتى مـدينة فاس وخطيبها سنة عشر وألف ، قال : حدثنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن أبى الفضل التونسى نزيل فاس الشهير بخروف ، حدثنا الإمام سـيدى فرج الشريف

---

(١) فى ب « مبرتلة مدينة بقرب الأندلس » وما أثبتناه عن ا يوافق ماذكره ياقوت
(٢) فى ب « يمدح شهاب الدين القضاعى » والشهاب : اسم كتاب للقضاعى
(٣) فى ا « بن وليد »
(٤) فى ا « إذا القوت تأتى لك »

الطحطحائى[1]، قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم يقول «من أصبح آمناً فى سربه — الحديث» .

رجع :

لأبى العباس أحمد بن العريف

وقال الأستاذ العارف بالله سيدى أبو العباس أحمد بن العريف الأندلسى دفين مراكش، وقد زرت قبره بها سنة ١٠١٠ :

إذا نَزَلَتْ بساحتك الرزايا … فلا تجزع لها جزع الصَّبِىِّ

فإن لكل نازلة عزاء … بما قد كان من فقد النبىِّ

وقال رحمه الله تعالى :

شدوا الرحال وقد نالوا المنى بِمِنًى … وكُلُّهم بأليم الشوق قد باحا

راحت ركائبهم تَنْدَى روائحها … طيباً بما طاب ذاك الوفد أشباحا[2]

نسيم قبر النبى المصطفى لهم … راح إذا سكروا من أجله فاحا

يا راحلين إلى المختار من مضر … زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على شوق وعن قدر … ومَنْ أقام على عذر كمن راحا

لأبى محمد المحاربى

وقال أبو محمد المحاربى :

داء الزمان وأهله … داء يَعِزُّ له العلاج

أطلعت فى ظلمائه … رأيا كما سطع السراج

لمعاشر أعيا ثِقَا … فِى من قناتهم اعوجاج

كالدر ما لم تختبر … فإذا اختبرت فهم زجاج

لأبى عبد الله غريب الثقفى القرطبى

وقال أبو عبد الله غريب الثقفى القرطبى :

تهددنى بمخلوق ضعيف … يهاب من المنية ما أهابُ

له أجل ولى أجل وكل … سيبلغ حيث يبلغه الكتاب

---

(١) فى أصل ا «الطحطاوى» وفى نسخة عندها «الطحطاى» وفي ثانية «الطحاوى»

(٢) فى نسخة عند ا « تبدى روائحها »

وما يدرى لعل الموت منه قريب أينا منه المصاب[١]

وله :

أيها الآمِلُ ما ليس له طالما غر جهولا أملُهْ

ربما بات يُمَنِّى نفسه خانه دون مُناه أجله

وفتى بكر فى حاجاته عاجلا أعقب رَيْثاً عجله[٢]

قل لمن مثل فى أشعاره يَذْهَبُ المرء ويبقى مثله

نافِسِ المحسن فى إحسانه فسيكفيك مسيئاً عمله[٣]

قال ابن الأبار : وهذا البيت الأخير فى برنامج الطبنى .

لابن الطراوة النحوى ، المالقى

وقال أبو الحسين سليمان بن الطراوة النحوى المالقى :

وقائلة أتصبو للغوانى وقد أضحى بمفرقك النهار

فقلت لها حثثت على التصابى (أحق الخيل بالركض المعار)

لأبى الربيع ابن سالم

وقال الحافظ أبو الربيع بن سالم :

إذا بَرِمَتْ نفسى بحال أحلتها على أمل ناء فقرت به النفس[٤]

وأنزل أرجاء الرجاء ركائبى إذا رام إلماما بساحتىَ اليأس

وإن أوحشتنى من أمانىَّ نبْوة فلى فى الرضا بالله والقَدَر الأنس

لأبى الحسن الباهلى ، الإشبيلى

وقال أبو الحسن سلام بن عبد الله بن سلام الباهلى الإشبيلى مما أنشده لنفسه فى كتابه الذى سماه « بالذخائر والأعلاق ، فى أدب النفوس ومكارم الأخلاق » :

إذا تم عقل المرء تمت فضائله وقامت على الإحسان منه دلائله

---

(١) فى ا « أينا هو المصاب »

(٢) فى نسخة « بكر فى حاجته »

(٣) فى ا « نافس المجلس فى إحسانه » تحريف

(٤) فى ا « علي آمل ناء » تحريف

فلا تنكر الأبصار ما هو فاعله ولا تنكر الأسماع ما هو قائله

وكان أبو المذكور من وزراء المعتمد بن عباد ، رحم الله تعالى الجميع !

لأبي بكر الزبيدى

وقال أبو بكر الزبيدى اللغوى :

اترك الهم إذا ما طَرَقَكْ وكِلِ الأمر إلى من خلقك

وإذا أمل قوم أحـــدا فإلى ربك فامدد عنقك

لأبي الوليد الشلبي

وقال القاضي أبو الوليد هشام بن محمد القيسى الشِّلْبي المعروف بابن الطلا :
فاوضت القاضى أبا محمد عبدالله[1] بن شبرين ما يحذر من فتنة النظر إلى الوجوه الحسان ، فقلت :

لا تنظرن إلى ذِى رَوْنَقٍ أبدا واحذر عقوبة ما يأتى به النظرُ

فكم صريع رأيناه صريع هوى من نظرة قادها يوما له القَـدَرُ

فأجابنى فى المعنى الذى انتحيته :

إذا نظرت فلا تُولَعْ بتقليب فربما نظرة عادت بتعذيب

و « رب » هنا للتكثير .

لابن حوط الله

وقال الأستاذ ابن حَوْط الله :

أتدرى أنك الخَطَّاء حقاً وأنك بالذى تأتى رهين

وتغتاب الألى فعلوا وقالوا وذاك الظن والإفك المبين

ترجمة ابن حوط الله عن الإحاطة

قال فى « الإحاطة » : أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حَوْط الله الأنصارى الحارثى ، كان فقيهاً جليلا أصولياً كاتباً أديباً شاعراً متفنناً فى العلوم ورعا ديناً حافظاً ثبتاً فاضلا ، درس كتاب سيبويه ومستصفى أبى حامد الغزالى ، وكان ـ رحمه الله تعالى ! ـ مشهوراً بالعقل والفضل ، معظما عند الملوك ، معلوم القدر

---

(١) فى ا « فاوضت القاضى أبا عبد الله بن شبرين »

لديهم ، يخطب فى مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية ، مقدما فى ذلك بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار ، ولى قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة ، فتظاهر بالعدل ، وعرف بما أبطن من الدين والفضل ، وكان من العلماء العاملين ، مجانباً لأهل البدع والأهواء ، بارع الخط ، حسن التقييد ، وسمع الحديث ، فحصل له سماع لم يشاركه فيه أحد من أهل الغرب ، وسمع على الجهابذة كابن بَشْكُوال وغيره ، وقرأ أكثر من ستين تأليفاً بين كبار وصغار ، وكمل له على أبى محمد ابن عبد الله بين قراءة وسماع نحو من ستة وثلاثين تأليفاً ، منها الصحيحان ، وأكثر عن ابن حبيش وابن الفخار والسهيلى وغيرهم ، ومولده فى محرم سنة ٥٤١ [1] ، ومات بغَرْناطة سحر يوم الخميس ثانى ربيع الأول سنة ٦١٢ ، ونقل منها فى تابوته الذى ألحد فيه يوم السبت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة إلى مالقة فدفن بها ، رحمه الله تعالى ! انتهى ، وبعضه بالمعنى مختصراً .

وللمذكور ترجمة واسعة جداً ، وألمعت بما ذكر على وجه التبرك بذكره ، رحمه الله تعالى ورضى عنه !

لأبى المتوكل الإشبيلى السكونى

وقال أبو المتوكل الهيثم بن أحمد السكونى الإشبيلى :

يُجْفَى الفقير ويغشى الناسُ قاطبة   باب الغنى ، كذا حكم المقادير [2]

وإنما الناس أمثال الفَرَاش فهم   يرون حيث مصابيح الدنانير

وقال تلميذه ابن الأبار : أنشدنى بعض أصحابنا عنه هذين البيتين ، ولم أسمعهما منه ، انتهى .

قلت : وبهذا تعرف [3] وَهْمَ من نسب البيتين إلى عبد المهيمن الحضرمى [فإن هذا كان قبل أن يُخلَق والد عبد المهيمن الحضرمى] [4] ، وقد أنشدهما أيضاً

---

(١) فى ا ونسخة عند ب « سنة ٥٤٨ »

(٢) فى ا « يخفى الفقير – إلخ » وما أثبتناه موافقا لما فى ب أتم مقابلة

(٣) فى نسخة عند ا « وبهذا تعلم »   (٤) لاتوجد هذه العبارة فى ب

ابن الجلاب الفهرى فى « روح الشعر ، وروح الشحر »[١] .

لأبى محمد ابن افريولة

وقال أبو محمد القاسم بن الفتح الحجارى المعروف بابن افريولة :

ركابى بأرجاء الرجاء مناخة ... ورائدها علمى بأنك لى رَبُّ
وأنك عــلام بما أنا قائل ... كما أنت علام بما أُضمر القلبُ
لئن آدها ذنبٌ تولت بعبئه ... لقد قرعت بابا به يغفر الذنب[٢]

وقال أيضاً :

عجباً لحـبر قـد تيقن أنه ... سيرى اقتراف يديه فى ميزانه
ثم امتطى ظهر المعاصى جهرةً ... لم يَثْنِهِ التأنيب عن عصيانه
أنى عصى ولكل جزء نعمة ... من نفسه وزمانه ومكانه

لأبى بكر ابن مجير

وقال الشاعر الكبير الشهير أبو بكر يحيى بن عبدالجليل بن مجير[٣] الفهرى :

إن الشدائد قد تغشى الكريم لأن ... تبين فضـل سجاياه وتوضحه
كمبرد القَيْنِ إذ يعلو الحـديد به ... وليس يأكلـه إلا ليصلحه

وقال :

لا تغبط المجـدب فى علمه ... وإن رأيت الخصب فى حاله
إن الذى ضيع من نفسه ... فوق الذى ثَمَّـر من ماله

لأبى الحجاج البلنسى المنصفى

وقال أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصارى المُنْصِفِى البَلَنسى :

قالت لى النفس أتاك الردى ... وأنت فى بحـر الخطايا مقيم
هل اتخذت الزاد قلت اقصرى ... هل يحمل الزاد لدار الكريم[٤]

---

(١) فى ا « روح الشعر ، ودوح الشحر » وفى نسخة « دوح الشعر ، وروح الشحر »
(٢) آدها : ثقل عليها وأضعفها ، وفى ا « آذها ذنب توالت »
(٣) فى أصل ا « بن مجبر » بالباء موحدة
(٤) فى ا « هلا اتخذت الزاد »

وكان المنصفى المذكور صالحا ، وله رحلة حج فيها ، ومال إلى علم التصوّف ، رحمه الله تعالى ، وله فيه أشعار حملت عنه .

لابن الصائغ القرشى

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ (١) القرشى الأموى الأندلسى مخمسا أبيات عز الدين بن جماعة قاضى القضاة رحمه الله تعالى :

هَمُّ الأبىّ على مقدار منصبه ... وبسط راحته فى طى منصبه
ما أنت والدهرَ تشكو من تقلبه ... يا مبتلًى بقضاء قد بليت به
عليك بالصبر واحذر يا أخى جزعك

صبرا فللصبر فى حرب العدا عدد ... ذَرِ العدوَّ يُمِتْهُ الغيظ والحسد
ولا يكن لك إلا الله معتمد ... واعلم بأن جميع الخلق لو قصدوا
أذاك لم يقدروا والله قد رفعك

أعلاك فى رتب غر معظمة ... بالعرف معروفة بالعلم معلمة (٢)
ومن يناويك فى بهماء مظلمة ... فاصرف هواك وجانب كل مظلمة (٣)
واُصحب فديتك من بالنصح قد نفعك

قد اجتلبت من الأيام تبصرة ... وقد كفاك الهدى والذكر تذكرة
فاشكر وقدم مع الإخلاص معذرة ... واُسأل إلهك فى الإسحار مغفرة
منه وكن معه حتى يكون معك

وتوفى المذكور بالقاهرة فى الطاعون العام سنة ٧٤٩ .

لأبى عبد الله الحميدى

وقال أبو عبد الله الحُمَيْدى :

الناس نبت وأرباب القلوب لهم ... روض وأهل الحديث الماء والزهر

---

(١) فى نسخة عند ا زيادة « بن عبد الله »
(٢) فى ا « أعلاك فى رتب عز معظمة » تحريف
(٣) فى ا « ومن يناديك فى دهماء »

من كان قول رسول الله حاكمه فلا شهود له إلا الألى ذكروا

وقال أيضا :

من لم يكن للعلم عنـد فنائه أرج فإن بقاءه كفنائه

بالعلم يحيا المرء طول حيـاته فإذا انقضى أحياه حسن ثنائه

وقال أيضا :

دين الفقيه حديث يستضىء به عند الحِجَاجِ وإلا كان فى الظلمِ

إن تاه ذو مذهب فى قفر مشكلة لاح الحديث له فى الوقت كالعَـلَمِ

بين الحميدى ومن ذم أهل الحديث

ولما تعرض بعض مَنْ لا يبالى بما ارتكب إلى أصحاب الحديث بقوله :

أرى الخير فى الدنيا يقل كثيره وينقص نقصا والحديث يزيد

فلو كان خيرا كان كالخير كله ولـكنَّ شيطان الحديث مَرِيدُ

ولابن معين فى الرجال مقالة سَيُسْأَل عنها والمليك شهيـد

فإن يك حقا قوله فهى غِيبة وإن يك زورا فالقِصَاص شديد

أجابه الإمام أبو عبد الله الحميدى بقصيدة طويلة ، منها :

وإنى إلى إبطال قولك قاصد ولى من شهادات النصوص جنود[1]

إذا لم يكن خيرا كلام نبينا لديك فإن الخير منك بعيـد

وأقبح شىء أن جعلت لما أتى عن الله شيطانا وذاك شديد[2]

وما زلت فى ذكر الزيادة معجبا بها تبدئ التلبيس ثم تعيد[3]

كلام رسول الله وَحْىٌ ومن يَرُمْ زيادة شىء فهو فيه عنيـد

ومنها فى ابن مَعِين :

---

(١) فى نسخة عند ا « وإنى إلى إبطال قولك صادق »

(٢) فى ا « وأقبح شىء إذ جعلت - إلخ »

(٣) فى ا « يبدىء التلبيس ثم يعيد »

«وما هو إلا واحـد من جماعة وكلهمُ فيما حكوه شهـود
فإن صدعن حكم الشهادة جاهل فإن كتاب الله فيـه عتيد
ولولا رُوَاةُ الدين ضاع وأصبحت معالمه فى الآخرين تبيـد
هم حفظوا الآثار من كل شبهة وغـيرهمُ عما اقتنوه رقود
وهم هاجروا فى جمعها وتبادروا إلى كل أفق والمَـرَامُ كئود
وقاموا بتعديل الرواة وجَرْحهم فدام صحيح النقل وهو جديد
بتَبْليغهم صحت شرائع ديننـا حـدود تحرَّوْا حفظها وعهود
وصح لأهل النقل منها احتجاجُهم فلم يبق إلا عاند وحقـود
وحسبهمُ أن الصحابة بلغوا وعنهم رَوَوْا لايستطاع جحود
فن حاد عن هذا اليقين فمارق مَريد لإظهار الشكوك مُريد
ولـكن إذا جاءا الهدى ودليله فليس لموجود الضلال وجـود
وإن رام أعداء الديانة كيدها فكيدهم بالمخزيات مكيد[1]

لابن محرز الزهرى، البلنسى

وقال أبو بكر محمد بن محرز الزهرى البَلَنسى ، والتزم الراء فى كل كلمة :

اشكر لربك وانتظر فى إثر عسر الأمر يسرا
واصـبر لربك وادَّخِرْ فى سترضر الفقر أجـرا
فالدهر يعـثر بالورى والصبر بالأحرار أحْرَى
والوفر أظهـر معشرا والفقر بالأخيـار يُغْرَى[2]

وقال أيضا :

اقنع بما أوتيتـه تنل الغنى وإذا دَهتْكَ ملمة فتصـبر

---

(١) فى ا « وإن دام أعداء الديانة » وفى نسخه عندها « أعداء الدراية » وفيها «فـكيدهم بالمجزيات»

(٢) فى ا « والوفر أظهر معشرا »

واعلم بأن الرزق مقسوم فلو رُمنا زيادة ذَرَّةٍ لم نقـــــدر
والله أرحم بالعبـــاد فلا تَسَلْ بشرًا تعش عيش الكرام وتؤجر
وإذا سخطت لضر حالك مرة ورأيت نفسك قد عَدَتْ فاستبصر
وانظر إلى من كان دونك تدكر لعظيم نعمته عليك فتشكر[١]

لأحمد بن سعيد ابن حزم

وقال الحافظ أبو محمد بن حَزْم : أنشدنى والدى أحمد بن سعيد بن حزم :

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونهـــا

لابن الغماز البلنسى

وقال القاضى أبو العباس أحمد بن الغماز البَلَنسى نزيل تونس :

وقالوا أما تخشى ذنوبا أتيتهـــا ولم تك ذا جهل فتُعْذَرَ بالجهل
فقلت لهم هبنى كما قد ذكرتمُ تجاوزت فى قولى وأسرفت فى فعلى[٢]
أما فى رضا مولى الموالى وصفحه رجاء ومسلاة لمقترف مثـلى[٣]

وأنشد رحمه الله تعالى لنفسه فى اليوم الذى مات فيه ، وهو آخر ما سمع مـنه ليلة عاشوراء سنة ٦٩٣ :

أدعوك يا رب مضطرا على ثقـة بما وَعَدْتَ كما المضطر يدعوكا
دارك بعفوك عبدا لم يزل أبدا فى كل حال من الأحوال يرجوكا
طالت حياتى ولما أتخـــذ عملا إلا محبـــة أقوام أحبوكا

لابن الزقاق

وقال ابن الزقاق : ويقال : إنها مكتوبة على قبره :

أإخواننا والموتُ قد حال دوننا وللموت حكم نافذ فى الخلائق
سبقتكـمُ للموت والعمر طية وأعلم أن الكل لابد لا حقى
بعيشكم أو باضطجاعى فى الثرى ألم نك فى صفو من العيش رائق

---

(١) فى نسخة عند ا « وانظر إلى من كان دونك تذكر » وكلاهما صحيح عربية
(٢) فى ا « تجاوزت فى قول وأسرفت فى فعل »
(٣) فى ا « أنا فى رضا مولى الموالى — إلخ »

فمن مر بى فليمض لى مترحما ولايك مَنْسِيًّا وفاء الأصادق

وقال الخطيب أبوعبدالله محمد بن صالح(١) الكنانى(٢) الشاطبى ، ومولده سنة ٦١٤ :

لأبى عبد الله الكنانى، الشاطبى

أرى العمر يَفْنَى والرجاء طويل وليس إلى قرب الحبيب سبيل

حباه إله الخلق أحسن سيرة فما الصبر عن ذاك الجمال جميل

متى يَشْتفى قلبى بلَثْم ترابه ويسمح دهر بالمزار بخيـل

دللت عليه فى أوائل أسطرى فذاك نبى مُصْطَفًى ورسول

وقال أيمن بن محمد الغرناطى نزيل طيبة على ساكنها الصلاة والسلام :

لأيمن بن محمد الغرناطى

أرى حُجُرَات قد أحاطت عِرَاصُها ببحر محيط حصره غير ممكن

بحار المعانى والمعالى وإن طَمَتْ لدى لجة تفنى وعن هوله تنى(٣)

محمدٌ المحمود فى كل موطن أبو القاسم المختار من خير معدن

نبىٌّ إذا أبصرت غـــرة وجهه تيقنت أن العز عز المهيمن

لك الله من بدر إذا الشمس قابلت مُحَيَّاه قالت إن ذا طالعٌ سَنِى

وله :

كل القلوب مطيعة لك فى الهوى جانب فديتك من تشاء وَوَالِ(٤)

الحسنُ والٍ ، والقلوب رعيـــة وعلى الرعية أن تطيع الوالى

وقال أيضاً :

ألا أيها الباكى على ما يفوته من الحظ فى الدنيا جهلت وما تدرى

على فوت حظ من جوار محمد حقيقٌ بأن تبكى إلى آخر العمر(٥)

ستدرى إذا قمنا وقد رفع اللوا وأحمدها دينا إلى موقف الحشر(٦)

---

(١) فى نسخة عند ب « بن صادق » (٢) فى ا « الكتانى »

(٣) فى نسخة عند ا « بحار المعالى »

(٤) فى ا « من تشا أو وال » (٥) فى نسخة « بأن يبكى إلى آخر العمر »

(٦) فى ا « وأجهدها دنيا إلى موقف الحشر »

من الفائز المغبوط فى يوم حشره أجار النبى المصطفى أم أخو الوفر(١)

وله :

فررت من الدنيا إلى ساكن الحمى فرار محبٍّ لائذ بحبيب
لجأت إلى هذا الجناب ، وإنما لجأت إلى سامى العِماد رَحيب
وناديت مولاى الذى عنده الغنى نداءَ عليلٍ فى الزمان غريب
أمولاى إنى قد أتيتك لائذا وأنت طبيبى يا أجلَّ طبيب
فقال لك البشرى ظفرت من الرضا بأوفر حظ مُجْزَلٍ ونصيب
تناومت فى أطلال ليل شبيبتى فأدركنى بالفَجْر صبحُ مشيبى

لأبى بكر الزبيدي

وقال أبو بكر الزبيدى اللغوى :

لو لم تكن نار ولا جنة للمرء إلا أنه يُقْبَرُ
لكان فيه واعظ زاجر ناهٍ لمن يسْمع أو يبصر

ولقد صدق رحمه الله تعالى ورضى عنه ! .

لبعض فقهاء طلبيرة

ولبعض فقهاء طلبيرة :

رأيت الانقباض أجَلَّ شىء وادعى فى الأمور إلى السلامه
فهذا الخلق سالِمْهُمْ ودعهم فرؤيتهم تؤول إلى الندامه
ولا تُعْنَى بشىء غير شىء يقود إلى خلاصك فى القيامه

لأبى بكر بن مفاوز

وأمر الكاتب أبو بكر بن مفاوز(٢) بكتب هذه الأبيات على قبره ، وهى له :

أيها الواقِفُ اعتبارا بقبرى استمع فيه قول عظمى الرَّميم
أو دَعُونِى بطنَ الضريح وخافوا من ذنوب كلومُها بأديمى(٣)

---

(١) فى ا « فى يوم عرضه »
(٢) فى ا « بن مغاور » وفى نسخة عندها « بن مغادر » وفى أخرى « بن معاور »
(٣) فى ا « من ذنوبى »

قلت لا تجزعوا على فإنى حَسَنُ الظنِّ بالرؤف الرحيم
ودَعُونِي بما اكتسبت رهينا غَلِقَ الرهْنُ عند مولًى كريم

لابن صفوان الخطيب

وقال الخطيب بن صفوان :

رأيتك يُدْنيني إليك تبَاعُدِي فأبعدت نفسى لابتغائِىَ فى القرب
هربت له منى إليـــه فلم يكن بِىَ البعد فى قربى فصَحَّ به قربى
فيارب هل نعمى على العبد بالرضا ينال بها فوزا من القرب بالقرب[١]

وقال الوادى آشى :

وهـذا النظم معناه جليل ، وتكرار القرب وإن قبح عند العروضى فهو عند المحب جميل ، وهُمُ القوم يُسَلَّم لهم فى الأفعال والأقوال ، وترتجى بركتهم فى كل الأحوال ، انتهى .

لبعض قدماء الأندلس

وقال بعض قدماء الأندلس :

سئمت الحياة على حبها وحُقَّ لذى السقم أن يسأما
فلا عيش إلا لذى صحة تكون له للتقى سلما

وذيله آخر منهم فقال :

ولا داء إلا لمن لم يزل يقارب فى دينـه مأثما
فلست تعالج جرح الهوى هُدِيتَ بمثل التقى مرْهَمَا

لأبى جعفر السياسى

وقال أبو جعفر أحمد السياسى القَيْسى المرى[٢] :

إذا ما جنى يوما عليك جنايةً ظلومٌ يدق السُّمْرَ بأسا ويقصف
فلا تنتقم يوما عليــه بما جنى وكِلْ أمره للدهر فالدهر منصف[٣]

وقال أيضاً :

---

(١) فى نسخة عندنا « ينال به فوزا » فيعود الضمير إلى الرضا
(٢) فى نسخة عندنا « المزنى » وفى أخرى « المربى »
(٣) كل أمره للدهر : يريد اتركه للدهر ينصفك منه

ليس حلم الضعيف حلما ، ولكن حلم من لو يشاء صال اقتدارا(١)

مَنْ تغاضى عن السفيه بحلم أصبح الناس دونه أنصارا

من يُزَوِّجْ كريمة الهمة العليا علوّا فقد أجاد الخيارا

ستريه عند الولاد بنيها العلم والحلم والأناة كبارا

لأبي إسحاق ابن أبي العاصي

وقال الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبي العاصي :

اعمل بعلمك تُؤْتَ علما إنما جَدْوَى علوم المرء نهج الأقوم(٢)

وإذا الفتى قد نال علما ثم لم يعمل به فكأنه لم يعلم

وقال موطئاً على البيت الأخير :

أمولاى أنت العفو الكريم لبذل النوال وللمعذره

على ذنوب وتصحيفها ومِنْ عندِكَ الجودُ والمغفره

لأبي جعفر أحمد بن الزيات

وقال الخطيب المتصوف الشهير أبو جعفر أحمد بن الزيات من بلش مالقة :

يقال خصال أهل العلم ألف ومَنْ جمع الخصال الألفَ سادا

ويجمعها الصلاح فمن تعدّى مذاهبه فقد جمع الفسادا

وقال أيضا :

إن شئت فوزا بمطلوب الكرام غدا فاسلك من العمل المرضيِّ منهاجا

واغلب هوى النفس لا يغررك خادعه فكل شى يحط القدر منهاجا(٣)

وقال الأديب الكبير الشهير أبو محمد عبدالله بن محمد بن صارة(٤) البكرى الشنتريني رحمه الله تعالى :

---

(١) فى نسخة عند ا « ليس حكم الضعيف حكما » تحريف

(٢) فى نسخة عند ا « اعمل بعلمك فوق علم »

(٣) قوله « منها جا » في هذا البيت مؤلف من ثلاث كلمات : الأولى « من » الجارة ، والثانية « ها » ضمير المؤنثة الغائبة العائد إلى النفس ، والثالثة «جا» وهى فعل ماض أصله جاء فحذف الهمزة

(٤) اتفقت الأصول هنا على «سارة » بالسين

لابن صارة

بنو الدنيا بجهل عَظموها فجلّتْ عندهم وهى الحقيره
يُهارِش بعضهم بعضا عليها مُهارَشَةَ الكلاب على العقيره

وقال :

أى عــذر يكون لا أى عذر لابن سبعين مُولَع بالصَّبابه
وهو ماء لم تبق منه الليــالى فى إناء الحيــاة إلا صُبابَه[١]

وقال أيضا :

ولقد طلبت رضا البرية جاهدا فإذا رضــاهم غاية لا تُدْرَكُ[٢]
وأرى القناعــة للفتى كنزًا له والبر أفضل ما به يتمسك

لابن صاحب الصلاة (عبدون)

وقال أبو محمد بن صاحبِ الصلاة الدانى ، ويعرف بعبدون :

وعَجَّلَ شيبى أنَّ ذا الفضل مُبْتَلًى بدهر غدا ذو النقص فيه مؤملا
ومن نكد الدنيا على المرء أن يَرَى بها الحــرَّ يشقى واللئيم مموَّلا
متى ينعم المعتر عَيْناً إذا اعتفى جوادا مقلا أو غنيا مبخلا[٣]

لأبى الحكم الأموى

وقال أبو الحكم عبيد الله الأموى مولاهم الأندلسى :

إذا كان إصلاحى لجسمىَ واجبا فاصلاح نفسى لا محالة أوجب
وإن كان مايفنى إلى النفس معجبا فإن الذى يبقى إلى العقل أعجب[٤]

لأبى إسحاق ابن مسعود الإلبيرى

وقال الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيرى رحمه الله تعالى :

لله أكياس جَفَوْا أوطانهم فالأرض أجمعها لهم أوطان
جالت عقولُهُم مجالَ تفكر وجلالة فبدا لها الكتمان
ركبت بحار الفهم فى فلك النهى وجرى بها الإخلاص والإيمان

---

(١) الصبابة — بضم الصاد — بقية الماء فى الإناء.

(٢) فى نسخة عند ا « ولقد أطلت رضا البرية — إلخ » واشتهر قول الناس : رضا الناس غاية لا تدرك ، ومعنى البيت منه

(٣) فى نسخة عند ا « أوغنيا مبجلا » تحريف والمعنى يأباه

(٤) فى نسخة عند ا « يغنى » بالغين المعجمة وما أثبتناه موافقا لما فى ب أحسن

فرست بهم لما انتهوا بجفونهم مرسى لهم فيه غنى وأمان

لأبى جعفر ابن خاتمة

وقال(١) أبو جعفر بن خاتمة رحمه الله تعالى :

يا من يغيث الورى من بعدما قنطوا ارحم عبادا أكُفُّ الفقر قد بسطوا
عوّدتهم بسط أرزاق بلا سبب سوى جميل رجاء نحوه انبسطوا
وعدت بالفضل فى وِرْدٍ وفى صَدَر بالجود إن أقسطوا والحلم إن قسطوا(٢)
عوارف ارتبطت شم الأنوف لها وكل صعب بقيد الجود يرتبط(٣)
يا من تعرّف بالمعروف فاعترفت بجم إنعامه الأطراف والوسط
وعالما بخفيّات الأمور فلا وهم يجوز عليه لا ولا غلط
عبد فقير بباب الجود منكسر من شأنه أن يوافى حين ينضغط
مهما أتى ليمدّ الكف أخجله قبائح وخطايا أمرها فُرُط
يا واسعا ضاق خطو الخلق عن نعم منه إذا خطبوا فى شكرها خبطوا
وناشرا بيد الإجمال رحمته فليس يلحق منه مُسْرفا قَنَطُ
ارحم عبادا بضَنْك العيش قد قنعوا فاينما سقطوا بين الورى لقطوا(٤)
إذا توزعت الدنيا فما لهم غير الدجُنَّة لُحفٌ والثَّرى بُسُطُ
لكنهم من ذرا علياك فى نمط سامٍ رفيع الذرا ما فوقه نمط
ومن يكن بالذى يهواه مجتمعا فما يبالى أقام الحى أم شَحَطوا(٥)
نحن العبيد وأنت الملك ليس سوى وكل شىء يُرَجَّى بعد ذا شَطَطُ

وقال رحمه الله تعالى :

ملاك الأمر تقوى الله فاجعل تقاه عُدَّة لصلاح أمرك

---

(١) فى ا زيادة هنا نصها « قال الشيخ أبو بكر بن مغاور مما أمر أن يكتب على قبره * أيها الواقف اعتبارا بقبرى * إلخ » وقد تقدمت هذه الأبيات قريبا جدا فى (ص ٧٤)

(٢) أقسطوا — بالهمز — عدلوا ، وقسطوا — ثلاثيا — جاروا وظلموا

(٣) فى ا « بقيد الجهل » وفى نسخة « لقيد الجود » (٤) فى نسخة « فأينما بسطوا بين الورى »

(٥) شحطوا : بعدوا ، ووقع فى نسخة عند ا « أم سخطوا »

وبادر نحو طاعته بعزم   فما تدرى متى يمضى بعمرك

وقال أيضا :

إذا كنت تعلم أن الأمور   بحكم الإله كما قد قضى
فَفِيمَ التفكر والحكم ماضٍ   ولا رد للحكم مهما مضى
فخَلِّ الوجود كما شاءه   مُدَبِّره وابغ منه الرضا

وقال :

إذا ما الدهر نابك منه خطب   وشَدَّ عليك من حنق عقاله
فكِلْ لله أمرك لا تفكر   ففكرك فيه خبط فى حباله(١)

وقال :

عدوّك داره ما اسْطَعْتَ حتى   يعود لديك كالخل الشفيق(٢)
فما فى الأرض أردى من عدوّ   وما فى الأرض أجْدَى من صديق

وقال :

إن أعرضت دنياك عنك بوجهها   وغدت ومنها فى رضاك نزاع
فاحذر بنيها واحتفظ من شرهم   إن البنين لأمهم أتباع

وقال :

يا مجيب المُضْطَر عند الدعاء   منك دائى وفى يديك دوائى
جذَبتنى الدنيا إليها بضَبْعى   ودعتنى لمحنتى وشقائى(٣)
يا إلهى وأنت تعلم حالى   لا تذرْنى شماتة الأعداء

---

(١) فى ا « لا تفكر * ففكرك فيه خيط فى حباله »
(٢) فى ا « يعود لديك كالخل الشقيق »
(٣) فى نسخة عند ا « جذبتنى الدنيا إليها بطبعى »

لأبي عبد الله الحميدي

وقال الحافظ الكبير الشهير أبو عبد الله الحميدي صاحب « الجمع بين الصحيحين » رحمه الله تعالى :

كتاب الله عز وَجَلَّ قَوْلِي وما صحت به الآثار ديني(١)

وما اتفق الجميع عليه بَدْأً وعَوْدًا فهو عن حق مبين

فدع ما صَدَّ عن هذى وخذها تكن منها على عين اليقين(٢)

وقال :

طريق الزهد أفضلُ ما طريق وتقوى الله بادية الحقوق(٣)

فَثِقْ بالله يكْفِكَ ، واسْتَعِنْهُ يُعِنْكَ ، وذَرْ بُنَيَّاتِ الطَّريقِ(٤)

لابن جبير

وقال أبو بكر مالك بن جبير رحمه الله تعالى :

رحلت وإنني من غير زاد وما قدمت شيئا للمعاد

ولكني وثقت بجود ربي وهل يشقى المقل مع الجواد

وتوفي المذكور بأريولة ـ أعادها الله تعالى إلى الإسلام ! ـ سنة ٥٦١ .

وقال ابن جبير اليحصبي وهو الكاتب أبو عبد الله محمد :

كلما رمت أن أقدم خيراً لمعادي ورمت أني أتوب

صرفتني بواعث النفس قسرا فتقاعست والذنوب ذنوب

رَبِّ قَلِّبْ قلبي لعزمة خير لمتاب ففي يديك القلوب

---

(١) في نسخة عند ا « وماجاءت به الآثار ديني » وما أثبتناه موافقا لما في ب وأصل ا أسلم معنى

(٢) في نسخة عند ا « فدع ما صدر عن هذى » وهو فاسد المعنى فوق أنه لا يتم به الوزن إلا بارتكاب التخفيف بإسكان الثاني ، وليس مرضيا في مثل هذا

(٣) « ما » في قوله « أفضل ماطريق » زائدة بين المضاف والمضاف إليه

(٤) في نسخة عند ا « ودع بنيات الطريق » وأصل بنيات الطريق الطرق الصغار التي تتشعب من الجادة ، وأطلقت مجازا على الترهات وما اشتبه أمره والتبس وفي مثل من أمثالهم « دع بنيات الطريق » يريدون به دع الروغات وعليك بمعظم الأمر

ولتعلم أن كلام أهل الأندلس بحر لا ساحل له ، ويرحم الله تعالى لسان الدين ابن الخطيب حيث قال فى صدر الإحاطة : وهذا الغرَضُ الذى وضعنا له هذا التأليف يطلبنا فيه ما قصدنا به من المباهاة والافتخار بالإكثار ، واستيعاب النِّظام والنِّثار ، ويحملنا فيه خوفُ السآمة على الاختصار والاقتصار ، وكفى(١) بهذا جلاء فى الأعذار ، والله تعالى مُقيل العِثار ، وساتر العَيْب المُثار ، بفضله ، انتهى .

ليحيي بن سعد القلنى

ولنختم هذا الباب بقول أبى زكريا يحيي بن سعد(٢) بن مسعود القلنى(٣) :

عَفْوُكَ اللهم عنا خير شىء نتمنَّى
رب إنا قد جهلنا فى الذى قد كان منا
وخطينا وخطلنا ولهونا ومَجَنَّا(٤)
إن نكن رب أسأنا ما أسأنا بك ظنا

وذيلته بقولى :

فأنلنا الختم بالحسنى وإنعاما ومَنَّا

آمين

(١) فى أصل ا « ويكفى بهذا جلاء »

(٢) فى نسخة عند ب « بن سعيد »

(٣) فى أصل ب « القلتى » بالتاء المثناة

(٤) فى نسخه عند ا « وخطينا وخلطنا » بتقديم اللام

الباب الثامن

فى ذكر تغلب العدو الكافر ، على الجزيرة بعد صَرْفه وُجُوهَ الكيدِ إليها ، وتَضْريبه[١] بين ملوكها ورؤسائها بمكره ، واستعماله فى أمرها حِيَلَ فكره ، حتى استولى — دمَّره الله تعالى! — عليها ، ومحاملها التوحيد واسمه ، وكتب على مشاهدها ومعاهدها وَسْمَه[٢] ، وقرر مذهب التثليث ، والرأى الخبيث ، لديها ، واستغاث أهلُها استغاثَةَ ملهوف[٣] بالنظم والنثر ، أهل ذلك العصر ، من سائر الأقطار ، حتى تعذرت[٤] بحصارها ، مع قلة حماتها وأنصارها ، المآرب والأوطار ، وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها ، أعاد الله تعالى إليها كلمة الإسلام ، وأقام فيها شريعة سيد الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ! ورفع يد الكفر عنها وعما حَوَاليها ! آمين ، يامعين .

أول من جمع فلول النصارى

قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فَلَّ النصارى بالأندلس — بعد غلبة العرب لهم — عِلْجٌ يقال له بلاى ، من أهل اشتوريش من [أهل][٥] جليقية ، كان رهينةً عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى الثانى من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها ، وهى سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن ، فطردوه ، وملكوا البلاد ، و بقى الملك فيهم إلى الآن ، وكان عِدَّةَ مَنْ ملك منهم إلى آخر أيام الناصر لدين الله اثنين وعشرين ملكا ، انتهى .

---

(١) تقول «ضرب فلان بين القوم» بتشديد الراء — أى أغرى بينهم وحرضهم على الشر

(٢) الوسم — بالفتح — العلامة

(٣) فى ا «واستغاث أهلها استغاثة أضرابها»

(٤) فى ا « حين تعذرت »

(٥) كلمة « أهل » هذه ساقطة من ا

رواية الرازى فى الموضوع

وقال عيسى بن أحمد الرازى : فى أيام عَنْبَسة بن سُحَيم الكلبى قام بأرض جليقية عِلْج خبيث يقال له بلاى من وقعة أخذ النصارى بالأندلس ، وجَدَّ الفرنج فى مُدَافعة المسلمين عما بقى بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون فى ذلك ، ولقد استولى المسلمون بالأندلس على النصرانية ، وأجْلَوْهم ، وافتتحوا بلادهم ، حتى بلغوا أريولة من أرض الفرنجة ، وافتتحوا بلبلونة[١] من جليقية ، ولم يبق إلا الصخرة فإنه لاذ بها[٢] ملك يقال له بلاى ، فدخلها فى ثلثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعا ، و بقى فى ثلاثين رجلا وعشر نسوة ، ولا طعام لهم إلا العسل يَشْتَارونه[٣] من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعيا المسلمين أمرُهم ، واحتقروا بهم ، وقالوا : ثلاثون علجا ما عسى أن يجىء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة مالا خفاء به .

وفى سنة ١٣٣[٤] أهلك الله تعالى بلاى المذكور ، وملك ابنه فافله[٥] بعده ، وكان ملك بلاى تسع عشرة سنة ، وابنه سنتين .

فملك بعدهما أذفونش[٦] بن بيطر جد بنى أذفونش هؤلاء الذين اتصل ملكهم إلى اليوم ، فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم ، انتهى باختصار .

رواية المسعودى

وقال المسعودى بعد ذكره غزوة سمورة أيام الناصر ، ما صورته : وأخذ ما كان بأيدى المسلمين من ثغور الأندلس مما يلى الفرنجة ، ومدينة أربونة[٧] خرجت عن أيدى المسلمين سنة ٣٣٠[٨] مع غيرها مما كان بأيديهم من المدن والحصون ، وبقى ثغر المسلمين فى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة ، وعلى سائر بحر الروم مما يلى طرطوشة آخذا فى الشمال إفراغه على نهر عظيم ثم لاردة . انتهى

---

(١) فى أصل ا ونسخة عند ب « بلبونة » وفى نسخة عند ا « بليلونة » وفى أخرى « بلميونة »

(٢) لاذ بها : لجأ إليها وعاذ بها (٣) اشتار فلان العسل : أخذه من الكوارة

(٤) فى ب « سنة ٣٣ » (٥) فى ب « فافلة » وفى نسخة عند ا « فافلد »

(٦) فى نسخة « أذفونس » (٧) فى ا « أريونة »

(٨) فى نسخة عند ب « ٢٣٠ »

أول ما استرد الفرنج من بلادهم

ومن أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طُلَيْلة من يد ابن ذي النون سنة ٤٧٥ ، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليَحْصُبي المشهور بابن الغسال[١] .

يا أهل أندلس حُثُّوا مَطِيكم فما المُقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عَــدُوٍّ لا يفارقنا كيف الحياةُ مع الحَيَّاتِ في سَفَطِ

ويروى صدر البيت الثالث هكذا :

من جاور الشَّرَّ لا يأمن بوَائقه كيف الحياة مع الحيات في سفط

وتروى الأبيات هكذا :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه ، وأرى سلك الجزيرة منثورا من الوسط
مَنْ جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيَّاتِ في سفط

وقال آخر :

يا أهل أندلس رُدُّوا المُعَار فما في العرف عارية إلا مُردات
ألم تَرَوْا بَيْدَقَ الكفار فرزنه وشاهُنَا آخر الأبيات شَهْمَاتُ[٢]

وقال بعض المؤرخين : أخذ الأذفونس طُلَيْطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيي بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أَخْذُه لها في منتصف محرم سنة ٤٧٨ ، انتهى .

وفيه بعض مخالفة لما قبله في وقت أخذها ، وسيأتي قريبا بعض مايؤيده[٣] .

---

(١) في ب « المشهور بابل العسال »

(٢) البيدق ، والفرز ، والشاه : قطع من قطع الشطرنج ، و « شهمات » كلمة في مصطلح اللاعبين يعبرون بها عن انتهاء الدور ، وأصله « شاهمات » أي: مات الشاه يقولها الغالب للمغلوب (٣) في ب « بعد مايؤيده » محرفا

وصف طليطلة

قال : وهى مدينة حصينة ، قديمة أزلية ، من بناء العمالقة ، على ضفة النهر الكبير، ولها قَصَبة حصينة فى غاية المَنَعَة ، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد ، والماء يدخل تحته بعنف وشدةِ جَرْى ، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعُها فى الجو تسعون ذراعا ، وهى تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة ، وطُلَيْطلة هذه دار مملكة الروم ، وبها كان البيت المغلق الذى كانوا يتحامَوْنَ فتحه حتى فتحه لَذَرِيق فوجد فيه صورة العربِ . انتهى

وقد تقدم شىء من هذا فيما مر من هذا الكتاب .

وصف قصر بناه يحيي ابن ذى النون فى طليطلة

وقد حكى ابن بدرون[1] فى شرح العبدونية أن المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طُلَيْطلة بنى بها قصرا تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سَكْب[2] لا يفتر ، والمأمون بن ذى النون قاعدة فيها لا يمسه من الماء شىء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها إذ سمع منشدا ينشد :

أتبنى بناء الخالدين ، وإنما بقاؤك فيها ، لو علمت ، قليل

لقد كان فى ظل الأراك كفاية لمن كلَّ يوم يعتريه رحيلُ

فلم يلبث بعد هذا إلا يسيرا حتى قضى نَحْبه ، انتهى .

تاريخ أخذ طليطلة

وقال ابن خلكان : إن طليطلة أخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد ، انتهى .

وقال ابن علقمة : إن طليطلة أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم

---

(١) فى ا « ابن بذرون »

(٢) سكب : يريد ساكب ، فهو وصف بالمصدر ، كقولهم : هذا رجل عدل

سنة ٤٧٨ ، وكانت وقعة الزلاّقة فى السنة بعدها[(١)] ، انتهى .

وقد رأيت أن أذكر هنا وقعة الزلاقة التى نشأت عن أخذ طُلَيْطلة وما يتبع ذلك من كلام صاحب « الروض المعطار » وغيره فنقول : إنه لما ملك يوسف بن تاشفين اللمتونى المغربَ ، وبنى مدينتى مراكش وتلمسان الجديدة ، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة ، وتمهدت له الأقطار الطويلة المَدِيدة ، تاقت نفسُه إلى العبور لجزيرة الأندلس ، فهمَّ بذلك ، وأخذ فى إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها ، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلمامه[(٢)] بجزيرتهم ، وأعدوا له العُدَّة والعَدَد ، وصعبت عليهم مدافعته ، وكرهوا أن يكونوا بين عدوّين الفرنج عن شمالهم[(٣)] والمسلمين عن جنوبهم ، وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم ، وتغير وتنهب ، وربما يقع بينهم صلح على شىء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين ، والفرنجُ ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين ، إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم ، لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب ، وانتقال الأمر إليه فى أسرع وقت ، مع ما ظهر لأبطال الملثَّمين ومشايخ صِنْهَاجَة فى المعارك من ضربات السيوف التى تقدُّ الفارس ، والطعنات التى تنظم الكلى ، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب فى قلوب المنتدبين لقتاله ، وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظله ، ويحذرونه خوفا على ملكهم ، مهما عبر إليهم وعاين بلادهم ، فلما رأوا ما دلهم على عبوره إليهم وعلموا ذلك ، راسل بعضُهم بعضا يستنجدون آراءهم فى أمره ، وكان مَفْزَعهم[(٤)] فى ذلك إلى المعتمد ابن عباد ، لأنه أشجع القوم ، وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ، فكتب عنهم

---

(١) فى ب « وكانت وقعة الزلاقة التى نشأت فى السنة بعدها »

(٢) في نسخة عند ا « كرهوا إلمامهم بجزيرتهم » ويراد به يوسف وأصحابه

(٣) فى ا « من شمالهم ، ومن جنوبهم » (٤) فى نسخة « وكان منزعهم »

كتب تدور بين ملوك الأندلس وابن تاشفين

كاتب من أهل الأندلس كتابا ، وهو : أما بعد فانك إن أعرضتَ عنا نُسبت إلى كرم ، ولم تنسب إلى عجز ، و إن أجبنا داعيَك نسبنا إلى عقل ، ولم ننسب إلى وَهْن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجملَ نسبتينا ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فإنك بالمحل الذى لا يجب أن تُسْبَق فيه إلى مكرمة ، و إن فى استبقائك ذوى البيوت ماشئتَ من دوامٍ لأمرك وثبوت ، والسلام ، فلما وصله الكتاب مع تُحَف وهدايا ، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربى ، لكنه ذكى الطبع ، يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ، فقال له : أيها الملك ، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، و يعرفونك أنهم أهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، و يلتمسون منك أن لا تجعلهم فى منزلة الأعادى ، فإنهم مسلمون وذوو بيوتات ، فلا تغير بهم ، وكفى بهم مَنْ وراءهم من الأعادى الكفار ، وبلدهم ضيق لايحتمل العساكر ، فأعْرِضْ عنهم إعراضَكَ عمن أطاعك من أهل المغرب [١] ، فقال يوسف ابن تاشفين لكاتبه : فما ترى أنت ؟ فقال : أيها الملك اعلم أن تاجَ الملك و بَهْجَته شاهده الذى لا يرد ، فإنه خليق بما حصل فى يده من الملك والمال [٢] أن يعفو إذا استعفى ، وأن يهب إذا اسْتُوهب ، وكلما وهب جليلا جزيلا كان لقدره أعظم ، فإذا عظم قدره تأصل ملكه ، و إذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ، و إذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس ، ولم يتجشم المشقة إليهم ، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته ، واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البُصَراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد ، فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف بِلُغته فهمه وعلم صحته ، فقال للكاتب : أجِبِ

---

(١) فى ا « من أهل الغرب »

(٢) فى نسخة « من الملك والملك »

القوم ، واكتب بما يجب فى ذلك ، واقرأ على كتابك ، فكتب الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، تحية من سالمكم وسَلَّم عليكم ، وإنكم مما فى أيديكم من الملك فى أوسع إباحة، مخصوصين منا بأكرم إيثار وسَماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ، والله ولى التوفيق لنا ولكم ، والسلام ، فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه ، فاستحسنه[1] ، وقَرَن به ما يصلح لهم من التحف ودَرَق اللمط التى لا توجد إلا ببلاده ، وأنفذ ذلك إليهم ، فلما وصلهم ذلك وقرءوا كتابه فرحوا به ، وعظموه ، وسُرُّوا بولايته ، وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم ، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج مايَريبهم أنهم يرسلون إلى يوسف ابن تاشفين ليعبر إليهم[2] ، أو يمدَّهم بإعانة منه .

وكان ملك الإفرنج الأذفونش لما وقعت الفتنة بالأندلس وثار الخلاف ، وكان كل من حاز بلدا وتقوّى فيه مَلَكه وادعى الملك وصاروا[3] مثل ملوك الطوائف ، فطمع فيهم الأذفونش بسبب ذلك ، وأخذ كثيرا من ثغورهم ، فقوى شأنه ، وعظم سلطانه ، وكثرت عساكره ، وأخذ طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذى النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها فى منتصف محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فزاد لعنه الله تعالى بملكه طليطلة قوّة إلى قوّته ، وأخذ يجوسُ خِلالَ الديار ، ويستفتح المعاقل والحصون .

رواية ابن الأثير

قال ابن الأثير فى « الكامل » : وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس ، ومتملك[4] أكثر بلادها ، مثل قرطبة وإشبيلية ، وكان — مع ذلك — يؤدى

---

(١) فى ا « فاستحسن »

(٢) فى ب « يعبر إليهم »

(٣) فى ا « وصار مثل ملوك الطوائف »

(٤) فى نسخة « ويملك أكثر بلادها »

الضريبة إلى الأذفونش كل سنة ، فلما تملك[١] الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة المعتادة ، فلم يقبلها منه ، وأرسل إليه يهدّده و يتوعده بالمسير إلى قرطبة ليفتحها ، إلا أن يسلم إليه جميع الحصون المنيعة ، و يبقى السهل للمسلمين ، وكان الرسول فى جَمْع كثير نحو خمسمائة فارس ، فأنزله المعتمد[٢] ، وفرق أصحابه على قواد عسكره ، ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم مَنْ عنده من الكفرة ، وأحضر الرسول وصَفَعَه[٣] حتى خرجت عيناه ، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر ، فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر ، وكان متوجها إلى قرطبة ليحاصرها ، فرجع إلى طُلَيْطلة ليجمع آلات الحصار ، ويكثر العدد والعدّة ، انتهى .

رواية صاحب « الروض المعطار »

وقال الفقيه أبو عبد الله عبد الله[٤] بن عبد المنعم الحميرى فى كتابه « الروض المعطار ، فى ذكر المدن والأقطار » ما ملخصه : إنه لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صُمَادح صاحب المَرِيَّة حين تأخر[٥] الوقتُ الذى كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش وأرسلها إليه بعد ذلك استشاط الطاغية غضباً ، وتشطط ، وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة ، وأمعن فى التَّجَنِّى ، وسأل فى دخول اُمرأته القمجيطة[٦] إلى جامع قرطبة لتلد فيه ، إذ كانت حاملا ، لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت فى الجانب الغربى منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربى مدينة قرطبة ، وهى التى أنشأ بناءها الناصرُ لدين الله ، وأمعن فى بنائها ، وأغرب فى حسنها ، وجَلَب إليها الرخام الملون والمرمر الصافى والحوض المشهور من البلاد والأقطار ، وكان يثيب على السارية بكذا وكذا غير الثمن وأجرة الحمل ، وأنفق

---

(١) فى نسخة عند ا « فلما ملك » (٢) فى نسخة « فأنزله محمد بن عباد »
(٣) فى نسخة « وضغطه » (٤) فى ا « أبو عبد الله بن عبد الله »
(٥) فى ا « حتى تأخر الوقت »
(٦) فى نسخة « القجطية » وفى أخرى « القمجميطة »

فيها الأموال العظيمة ، واشتغل بها ، وكان يباشر الصناع بنفسه ، حتى تخلف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات ، وحضر فى الرابعة ، وكان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد مُنْذر بن سعيد البَلُّوطى ، فعرض به فى الخطبة ، ووبخه على رؤس الملأ ، وقصته فى ذلك مشهورة ، و بناء الزاهر أيضاً من أعظم [١] مبانى الإسلام ، فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان .

ولنرجع إلى الأذفونش فإن الأطباء والقسُوس لما أشاروا أن تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء ، وتتردد إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور ، وكان السفير فى ذلك يهوديا كان وزير الأذفونش ، فامتنع ابن عَبَّاد من ذلك ، فراجعه ، فأباه وأيأسه من ذلك ، فراجعه اليهودى فى ذلك ، وأغلظ له فى القول ، وواجهه بما لم يحتمله ابنُ عباد ، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودى ، فأنزل دماغه فى حلقه ، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة ، واستفتى لما سكن غضبُه الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودى ، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع [٢] بالرخصة فى ذلك لتعدى الرسول حدودَ الرسالة إلى ما استوجب به القتل ، إذ ليس له ذلك ، وقال للفقهاء : إنما بادرتُ بالفتوى خوفا أن يكسل الرجل عما عزم عليه من مُنابذة العدوِّ ، وعسى الله أن يجعل فى عزيمته للمسلمين فرجا ، وبلغ الأذفونشَ ما صنعه ابن عباد ، فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية ، وليحاصرنه [٣] فى قصره ، فجرد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مَسَاعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس ويُغير على تلك التخوم والجهات ، ثم يمر على لَبْلَة إلى إشبيلية ،

---

(١) فى ا « وبناء الزهراء من أغرب ما بنى فى الإسلام » وكذلك هو فى نسخة عند ب

(٢) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « بن الطلاح »

(٣) فى ا « ويحاصره »

وجعل موعده أمام[1] طريانة للاجتماع معه ، ثم زحف الأذفونش بنفسه فى جيش آخر عَرَمْرَم ، فسلك طريقاً غير الطريق التى سلكها الآخر ، وكلاهما عاثَ فى البلاد وخَرَّبَ ودمر ، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قُبَالة قصر ابن عباد ، وفى أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زاريا عليه[2] : كثر بطول مقامى فى مجلسى الذباب[3] ، واشتد على الحر ، فأتحفنى من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسى ، وأطرد بها الذباب[3] عن وجهى ، فوقع له ابن عباد بخط يده فى ظهر الرقعة : قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك و إعجابك ، وسأنظر لك فى مراوح من الجلود اللمطية تروّح منك لا تروح عليك ، إن شاء الله تعالى ، فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد ، وقرئت عليه ، وعلم مقتضاها ، أطرق إطراق مَنْ لم يخطر له ذلك ببال ، وفشا فى الأندلس توقيعُ ابن عباد ، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف ابن تاشفين ، والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناسُ ، وفرحوا بذلك ، وفتحت لهم أبواب الآمال ، وأما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزْمَ ابن عباد وانفراده برأيه فى ذلك ، اهتموا منه ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من كلمه مواجهة ، وحَذّروه عاقبة ذلك ، وقالوا له : الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان فى غِمْدٍ واحد ، فأجابهم ابنُ عباد بكلمته السائرة مثلا : رَعْىُ الجمال خير من رَعْيِ الخنازير ، ومعناه أن كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله فى الصحراء خير من كونه ممزقا للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره فى قَشْتَالَة ، وقال لعذاله ولُوَّامه : ياقوم إنى من أمرى[4] على حالين : حالة يقين ، وحالة شك ، ولا بد لى من إحداهما ، أما حالة الشك فإنى إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففى الممكن أن

(١) فى ا « وجعل موعده إياه طريانة »

(٢) زاريا عليه : ساخطا عائبا له

(٣) فى أصل ا « الذبان » بالنون ، وكلاهما صحيح

(٤) فى نسخة « إنى فى أمرى على حالين »

يفى لى ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل ، فهذه حالة الشك[(١)] ، وأما حالة اليقين فإنى إن استندت إلى ابن تاشفين فإنى أرْضِى الله[(٢)] ، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة ، فلأى شىء أدع ما يرضى الله وآتى ما يسخطه ؟ فحينئذ قَصَّر أصحابه عن لومه .

ولما عزم أمر صاحب بَطَلْيَوْسَ المتوكل عمر بن محمد وعبد الله بن حُبُّوس[(٣)] الصنهاجى صاحب غَرْنَاطة أن يبعث إليه كل منهما قاضى حضرته ، ففعلا ، واستحضر قاضى الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم ، وكان أعقل أهل زمانه ، فلما اجتمع عنده القُضَاة بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون ، وعرفهم أن بعثهم رسُله إلى يوسف بن تاشفين ، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه فى الجهاد ، وأسند إلى وزيره ما لابد منه فى تلك السِّفارة من إبرام العقود السلطانية ، وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين بالله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته ، فيسمع إليهم ، ويُصْغِى لقولهم[(٤)] ، وترقُّ نفسه لهم .

فما عبرت رسُل ابن عباد البحر إلا ورسُل يوسف بالمرصاد ، ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم ، وأكرم مَثْوَاهم[(٥)] ، واتصل ذلك بابن عباد ، فوجه من إشبيلية أسطولا نحو صاحب سبتة ، فانتظمت فى سلك يوسف ، ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات ، ثم انصرفت إلى مُرْسِلها ، ثم عبر يوسف البحر عبوراً سهلا ، حتى أتى الجزيرة الخضراء ، ففتحوا له ، وخرج إليه أهلها

---

(١) فى ب « فهذه حالة شك » (٢) فى ا « فأنا أرضى الله »

(٣) فى نسخة « بن حبوش »

(٤) فى نسخة « ويصغى لهم » وفى أخرى « ويصغى إلى قولهم »

(٥) مثواهم : إقامتهم

بما عندهم من الأقوات والضيافات ، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ماعندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغُزَاة فى دخول البلد والتصرف فيها ، فامتلأت المساجد والرحبات بالمطَّوِّعين[1] ، وتواصوا بهم خيراً ، هذا مَسَاق صاحب « الروض المعطار » .

وأما ابن الأثير فإنه لما ذكر وقعة الزلاَّقة ذكر ما تقدم من فعل المعتمد بالأرسال وقتلهم ، وتخوف أكابر الأندلس من الأذفونش ، وأنه اجتمع منهم رؤساء ، وساروا إلى القاضى عبد الله بن محمد ، وقالوا له : ألا تنظر [إلى] ما فيه المسلمون من الصَّغَار والذلة و إعطائهم الجزية ، بعد أن كانوا يأخذونها ، وقالوا : قد غلب على البلاد الفرنج ، ولم يبق إلا القليل ، و إن دام[2] هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولا ، وقد رأينا رأيا نعرضه عليك ، قال : وما هو ؟ قالوا : نكتب إلى عَرَب إفريقية ، ونبذل لهم إذا وصلوا إلينا شطر أموالنا ، ونخرج معهم مجاهدين فى سبيل الله ، فقال لهم : إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية ، و يتركوا الإفرنج و يبدؤا بنا ، والمرابطون أصلح منهم ، وأقرب إلينا ، فقالوا له : فكاتب أمير المسلمين ، وأسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند ، فبينما هم فى ذلك يتراوضون إذ قدم عليهم المعتمد بن عباد قرطبة ، فعرض عليه القاضى بن أدهم ما كانوا فيه ، فقال له المعتمد ابن عباد : أنت رسولى إليه فى ذلك ، فامتنع ، و إنما أراد أن يبرىء نفسه من ذلك ، فألح عليه المعتمد ، فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فوجده بسبتة ، وأبلغه الرسالة ، وأعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ، ففى الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس ، وأرسل إلى مراكش فى طلب مَنْ بقى من العساكر ، فأقبلت إليه

---

(١) المطوعين : بتشديد الطاء ، وأصله « المتطوعين » فقلبت التاء طاء أدغمت فى الطاء

(٢) فى ا « وإن طال هذا الأمر »

يتلو بعضها[١] بعضاً ، فلما تكاملت عنده عبر البحر ، واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية ، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً ، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير ، وقصده المطَّوِّعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره ، وحشد جنوده ، وسار من طُلَيطلة ، وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعضُ غواة أدباء المسلمين يُغلظ له فى القول ، ويصف مامعه من القوة والعدد والعدد ، و بالغ فى ذلك ، فلماوصله[٢] وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه ، وكان كاتباً مفلقا ، فكتب وأجاد ، فلماقرأه على أمير المسلمين قال : هذا كتاب طويل ، وأحضر كتاب الأذفونش[٣] وكتب فى ظهره : الذى يكون ستراه ، وأرسله إليه ، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له ، وعلم أنه بلى برجل لا طاقة له به .

وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ماأغصَّ الجزيرة ، وارتفع رُغاؤها إلى عنان السماء ، ولم يكن أهلُ الجزيرة رَأَوْا جملا قط ولا خيلُهم ، فصارت الخيل تجمحُ من رؤية الجمال ومن رُغائها ، وكان ليوسف فى عبور الجمال رأىٌ مصيب ، فكان يحدق بها عسكره ، ويحضرها للحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمح منها ، وقدم يوسف بين يديه كتابا للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول فى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، كما هى السنة ، ومن جملة مافى الكتاب : بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبرفيها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله تعالى فى هذه الساحة[٤] بيننا و بينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ، انتهى

---

(١) فى ا « تتلو بعضها بعضا » (٢) فى ب « فلما وصل وقرأه »

(٣) فى « أحضر كتاب الأذفونش واكتب فى ظهره » بصيغة الأمر فى الفعلين

(٤) فى ا « فى هذه الساعة »

بمعناه ، وأكثره بلفظه .

ولنرجع إلى كلام صاحب « الروض المعطار » فإنه أقعد بتاريخ الأندلس ، إذ هو منهم ، وصاحب البيت أدرى [بالذى فيه][١] ، قال رحمه الله تعالى : فلما عبر يوسف وجميع جيوشه إلى الجزيرة الخضراء انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات ، جيشا بعد جيش ، وأميرا بعد أمير ، وقبيلا بعد قبيل ، وبعث المعتمد ابنَه إلى لقاء يوسف ، وأمر عمال البلاد بجَلْب الأقوات والضيافات ، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه ، وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية ، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية فى مائة فارس ووجوه أصحابه ، فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم ، وركضوا نحوه ، فبرز إليه يوسف وحده ، والتقيا منفردين ، وتصافحا ، وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص ، وشكرا نِعَمَ الله تعالى ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، و بشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرعا إلى الله تعالى فى أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه ، مقرباً إليه ، وافترقا ، فعاد يوسف لمحلته ، وابن عباد إلى جهته ، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتُحَف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين ، و باتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا وصلَّوا الصبح ركب الجميع ، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ، ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانهم[٢] ما سرهم ، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا مَنْ بادر أو أعان وخرج أو أخرج ، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا[٣] ، وكان الأذفونش لما تحقق الحركة والحرب اُستنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صُلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع له من

(١) كلمة « بالذى فيه » لاتوجد فى أصل ا

(٢) فى ا « من عزة سلطانه ماسرهم »

(٣) فى ا « رابطوا وكابروا »

الجلالقة والإفرنجة مالا يُحْصَى عدده ، وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع ، وبعث الأذفونش إلى ابن عباد أن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده ، وخاض البحار[١] ، وأنا أكفيه العناء فيما بقى ، ولا أكلفكم تعبا ، أمضى إليكم وألقاكم فى بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم ، وقال لخاصته وأهل مشورته : إنى رأيت أنى إن[٢] مكنتهم من الدخول إلى بلادى ، فناجزونى فيها[٣] و بين جُدُرها ، وربما كانت الدائرة على ، يستحكمون البلاد ، و يحصدون[٤] من فيها غَدَاةً واحدة ، ولكنى أجعل يومهم معى فى حَوْز بلادهم ، فإن كانت على اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون فى ذلك صون لبلادى ، وجبر لمكاسرى ، وإن كانت الدائرة عليهم كان منى فيهم وفى بلادهم ما خفتُ أنا أن يكون فىَّ وفى بلادى إذا ناجزونى فى وسطها ، ثم برز بالمختار من جنوده ، وأنجاد جموعه على باب دربه ، وترك بقية جموعه خلفه ، وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم : بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : المختارون أربعون ألف دارع ، ولكل واحد أتباع .

أما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ، ويرون أنهم أكثر من ذلك كله ، واتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من الكفرة ، ورأى الأذفونش فى نومه كأنه راكب فيلٍ يضرب نقيرة طبل ، فهالته الرؤيا ، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد ، فدسَّ يهوديا عمن يعلم تأويلها من المسلمين ، فدل[٥] على مُعَبِّر ، فقصَّها عليه ، ونسبها لنفسه ، فقال له المعبر : كذبت ، ماهذه الرؤيا لك ، ولا أعبرها لك إلا إن صدقتنى بصاحب الرؤيا ، فقال له : اكتم على ، الرؤيا للأذفونش ، فقال

---

(١) فى ا « البحور »
(٢) فى ا « إنى رأيت إن مكنتهم »
(٣) فى نسخة « يناجزونى فيها »
(٤) فى نسخة « يحصدون ما فيها »
(٥) فى نسخة « فدخل على معبر »

المعبِّرُ : صدقت ولا يراها غيره ، والرؤيا تدل على بلاء عظيم ، ومصيبة فادحة[١] فيه وفى عسكره ، وتفسيرُها قوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) وأما ضربه النقيرة فتأويلها (فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير) الآية ، فانصرف اليهودى وذكر للأذفونش ماوافق خاطره ، ثم خرج [الأذفونش ووقف على الدروب ، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية][٢] من بلاد الأندلس ، وتقدم السلطان يوسف فقصده ، وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ، ثم انزعج يَقْفُو أثره بجيش[٣] فيه حماة الثغور ، ورؤساء الأندلس ، وجعل ابنَه عبدَ الله على مقدمته ، وسار وهو ينشد لنفسه متفائلا مكملا البيت المشهور :

لا بد من فرج قَرِيبْ ... يأتيك بالعجب العجيب
غَزْو عليك مبارك ... سيعود بالفتح القريب[٤]
لله سعدك إنه ... نكس على دين الصليب
لا بُدَّ من يوم يكو ... ن له أخاً يومُ القليب[٥]

ووافت الجيوش كلها بَطَلْيوس ، فأناخُوا بظاهرها ، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فلقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود ، وجاءهم الخبر بشخوص الأذفونش ، ولما ازدلف بعضُهم إلى بعض أذكى المعتمدُ عيونه فى محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكايد الأذفونش ، إذهم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل : إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجدُ ابنَ عباد بنفسه مُطيفا بالمحلة ، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات ، وقد تقدم كتابُ السلطان يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى إحدى الثلاث المأمور بها شرعا ، فامتلأ الكافر

(١) فى أصل ا « ومصيبة قادحة فيه » (٢) مابين هذين المعقوفين ساقط من ب
(٣) فى نسخة عند ا « بجيوش فيها » (٤) فى أصل ا « فى طيه الفتح القريب »
(٥) القليب : أراد به قليب بدر ، وعنده وقعت الغزوة المشهورة ، بين رسول الله ومشركى مكة

غيظا ، وعتا ، وطَغـا (١) ، وراجعه بما يدل على شقائه ، وقامت الأساقفة والرهبان ورفعوا(٢) صُلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، وتبايعوا على الموت ، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما ، وقام الفقهاء(٣) والصالحون مقام الوعظ ، وحَضوهم على الصبر والثبات ، وحذروهم من الفَشَل والفرار ، وجاءت الطلائع تخبر أن العـدوّ مُشْرِف عليهم صبيحةَ يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مَصَافَّهم ، فـكَعَّ الأذفونش (٤) ، ورجع إلى إعمال المكر والخديعة ، فعاد الناسُ إلى محلاتهم ، وباتوا ليلتهم ، ثم أصبح يوم الخميس ، فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول : غدًا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، والأحد عيدنا ، فليكن لقاؤنا بينهما ، وهو يوم السبت ، فعرَّفَ المعتمدُ بذلك السلطان يوسفَ ، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة ، وإنما قَصْدُه الفتكُ بنا يوم الجمعة ، فليكن الناسُ على استعداد له يوم الجمعة كلَّ النهار ، وبات الناسُ ليلتهم على أُهْبَة واحتراس ، وبعد مضيٍّ جزء من الليل انتبه الفقيهُ الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة (٥) القرطبي ـ وكان فى محلة ابن عباد ـ فَرِحاً مسرورا يقول : إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى النوم فبشره بالفتح والموتِ على الشهادة فى صبيحة تلك الليلة ، فتأهب [ودعا] وتضرع ودهن رأسه وتطيب ، وانتهى ذلك إلى ابن عباد ، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقا لما توقعه من غَدْر الـكافر بالله تعالى ، ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محـلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ، ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين بتحرك الأذفونش ، ثم جاءت الجواسيسُ من داخل محلتهم تقول : استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه : ابن عباد مِسْعَر هذه الحروب ،

---

(١) فى نسخة عندنا « فامتلأ الـكافر غيظا وطغيانا »

(٢) فى نسخة « ونصبوا صلبانهم » (٣) فى ا « وأقام الفقهاء »

(٤) كع : جبن وخار عزمه

(٥) فى نسخة « بن رسيلة »

وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حِفاظ وذوى بصائر فى الحروب فهم غيرُ عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادهم ابنُ عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا ، فإنِ انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابنَ عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة ، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش ، ويستحث نصرته ، فمضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين ، فعرفه بجلِيةِ الأمر ، فقال له : قل له : إنى سأقرب منه إن شاء الله تعالى ، وأمر يوسفُ بعضَ قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيُضْرِمها نارا ما دام الأذفونش مشتغلا مع ابن عباد ، وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد ، فلم يصله إلا وقد غشيته جنود الطاغية ، فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ، ومال الأذفونش عليه بجموعه ، وأحاطوا به من كل جهة ، فهاجَتِ الحربُ ، وحَمِىَ الوطيسُ ، واستحرَّ(1) القتل فى أصحاب ابن عباد ، وصبر ابن عباد صبرا لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه ، وعضته الحروب (2) ، واشتد عليه وعلى مَنْ معه البلاء ، وأبطأ عليه الصحراويون وساءت الظنون ، وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم ابنه عبد الله ، وأثخن ابن عباد جراحات ، وضُرِبَ على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه وجرحت يُمْنَى يديه ، وطعن فى أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قُدِّمَ له آخر ، وهو يقاسى حياض الموت (3) ، ويضرب يمينا وشمالا ، وتذكر فى تلك الحالة ابناً له صغيرا كان مُغْرَماً به تركه فى إشبيلية عليلا ، وكنيته أبو هاشم فقال :

(1) فى نسخة « واستجر القتل » بالجيم — تحريف

(2) فى أصل ا « وعضته الحرب »

(3) فى نسخة عند « وهو يقاسى حيات الموت »

أبا هاشم هشمتني الشِّفَارُ فلله صبري لذاك الأُوار(١)

ذكرت شُخَيْصَكَ تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار(٢)

ثم كان أوّل مَنْ وافى ابن عباد من قوّاد ابن تاشفين داود بن عائشة ، وكان بطلا شجاعا [شهما] ، فنُفِّسَ بمجيئه عن ابن عباد ، ثم أقبل يوسف بعد ذلك ، وطبوله تصعد أصواتها إلى الجوّ ، فلما أبصره الأذفونش وجه حملته(٣) إليه ، وقصده بمعظم جنوده ، فبادر إليهم السلطان يوسف ، وصدمهم بجمعه ، فردهم إلى مركزهم ، وانتظم به شملُ ابن عباد ، واستنشق ريح الظفر ، وتباشر بالنصر ، ثم صدقوا جميعا الحملة ، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم ، وأظلم النهار بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل فى الدماء ، وصبر الفريقان صبرا عظيما ، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف ، وحمل معه حملة جاء معها النصر ، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام(٤) الفئتين ، وصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ، ومرّ هاربا منهزما وقد طعن فى إحدى ركبتيه طعنة بقى يخنع(٥) بها بقية عمره .

وعلى سياق ابن خلكان أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو فى يوم الأربعاء ، وكان الموعد فى المناجزة فى يوم السبت ، فغدر الأذفونش ومكر ، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد ، والروم على أثرها(٦) ، والناس على طمأنينة ، فبادر ابن عباد للركوب ، وبث الخبر فى العساكر فماجت بأهلها ، ووقع البهت ، ورجفت الأرض ، وصار الناس فوضى على غير تعبية ولا أهبة ، ودهمتهم خَيْلُ العدو ، فأحاطت بابن عباد ، وحَطَّمت ما تعرض لها ، وتركت الأرض حصيدا خلفها ، وجرح ابن عباد جرحا أساءه ، وفر رؤساء الأندلس

(١) الشفار : جمع شفرة ، وأراد السيوف ، الأوار ـ بضم الهمزة ـ أصله حرقة الجوف

(٢) فى نسخة عند ا « ذكرت شخيصك ما بينها » وفى أصل ا « فلم يثننى حبه »

(٣) فى نسخة « وجه جملته إليه » (٤) فى ب « بالتحاق الفئتين » .

(٥) فى أصل ا يخنف بها » وفى نسخة « يخمع بها » (٦) فى ا « فى أثرها »

وتركوا محلاتهم وأسلموها ، وظنوا أنه وَهْى لا يُرْقَع ، ونازلة لا تدفع ، وظن الأذفونش أن السلطان يوسف فى المنهزمين ، ولم يعلم أن العاقبة للمتقين ، فركب أمير المسلمين ، وأحدق به جياد خيله ورَجْله من صنهاجة رؤساء القبائل ، وقصدوا محلة الأذفونش فاقتحموها ودخلوها ، وفتكوا فيها ، وقتلوا ، وضربت الطبول ، وزعقت البوقات ، فاهتزت الأرض ، وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجع الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها ، فصدموا أمير المسلمين ، فخرج لهم عنها ، ثم كر عليهم فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حَشَمَه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف[1]، ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان[2]، فطعنوا الخيل فرَمَحت بفرسانها ، وأحجمت[3] عن أقرانها ، وتلاحق الأذفونش بأسْوَد نفذت مزاريقه ، فأهوى ليضربه بالسيف ، فلصق به الأسود ، وقبض على عنانه ، وانتضى خنجرا كان متمنطقا به ، فأثبته فى فخذه ، فهتك حلق درعه ، ونفذ من[4] فخذه مع بداد سرجه ، وكان وقت الزوال ، وهبت ريح النصر ، فأنزل الله سكينته على المسلمين ، ونَصَر دينه القويم ، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه ، فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم ، وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم، والرماح تطعنهم ، إلى أن لحقوا ربوة لجؤا إليها واعتصموا بها ، وأحدقت بهم الخيل ، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة ، وأفلتوا بعد ما تشبثت[5] بهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان فى محلتهم من الآلات والسلاح والمضارب

---

(١) زهاء أربعة آلاف : قريب من هذه العدة

(٢) فى ابن خلكان « ومزاريق الران » بالمهملة

(٣) فى أصل ا « وأجمحت عن أقرانها » وفى نسخة عند ب « وجمحت »

(٤) فى ا « ونفذ فخذه مع بداد سرجه »

(٥) فى نسخة « نشبت فيهم »

والأواني وغير ذلك ، وأمر ابن عباد بضم رؤس قتلى المشركين ، فاجتمع من ذلك تل عظيم ، انتهى ، و بعضه بالمعنى .

رَجْعٌ إلى كلام صاحب « الروض المعطار » قال : ولجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلوم ، وأباد القتلُ والأسر مَنْ عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون من رؤسهم مآذن يؤذنون عليها ، والمخذول ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نـكالا محيطا به وبأصحابه ، وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه ، وهنأه ، وشكره ، وأثنى عليه ، وشكر يوسف صبر ابن عباد ، ومقامه ، وحسن بلائه ، وجميل صبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه ، فقال له : هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك .

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية كتابا مضمونه : كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفى عشرين من رجب ، وقد أعز الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ، وهزم الـكفرة المشركين (١) ، وأذاقهم العذاب الأليم ، والخطب الجسيم ، فالحمدُ لله على مايسره وسَنّاه من هذه المسرة العظيمة ، والنعمة الجسيمة ، في تشتيت شمل الأذفونش ، والاحتواء على جميع عساكره ، أصْلاهُ الله نكال الجحيم ! ولا أعدمه الوبالَ العظيم المليم ! بعد إتيان النَّهْبِ على محلاته ، واستئصال القتل في جميع أبطاله وحُماته ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صَوَامع يؤذنون عليها ، فلله الحمد على جميع صنعه (٢) ، ولم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة آلمت لـكنها فرجت بعد ذلك ، فلله الحمد والمنة ، والسلام .

---

(١) في ا « وهزم الـكفرة والمشركين »
(٢) كذا في ب ، وفي ا « جميل صنعه »

واستشهد فى ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة ، وقاضى مراكش أبى مروان عبدالملك المصمودى ، وغيرهما ، رحمهم الله تعالى !

وحكى أن موضع المعترك كان على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم ، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ، حتى جُمِعت الغنائم ، واستؤذن فى ذلك السلطان يوسف ، فعفَّ عنها ، وآثر بها ملوك الأندلس ، وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم ، وما عند الله فى ذلك من الثواب المقيم ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه ، [وأحبوه][1] وشكروا له ذلك .

ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم[2] ولم يسمع إلا نواح الثَّكْلَى عليهم ، اهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غما وهما ، وراح إلى أمه الهاوية ، ولم يخلف إلا بنتا واحدة جعل الأمر إليها ، فتحصنت بِطُلَيْطلة .

ورحل المعتمد إلى إشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين ، فأقام السلطان يوسف ابن تاشفين بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام ، ووردت عليه من المغرب أخبار تقتضى العزم ، فسافر ، وذهب معه ابن عباد يوما وليلة ، فخلف ابنُ تاشفين وعزم عليه فى الرجوع ، وكانت جراحاته تورَّمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله إلى أن وصل البحر ، وعبر إلى المغرب .

ولما رجع ابن عباد إلى اشبيلية جلس للناس ، وهُنِّئ بالفتح ، وقرأت القراء ، وقامت[3] على رأسه الشعراء ، فأنشدوه ، قال عبدالجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليوم ، وأعْدَدْت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ القارئ (إلا تنصروه فقد نصره

---

(١) كلمة « وأحبوه » لا توجد فى أصل ا

(٢) فى نسخة عندنا « فوجدهم كلهم قتلوا »

(٣) في ا « وقام على رأسه الشعراء »

الله) فقلت : بُعْدًا لى ولشعرى ! والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره وأقوم به .

مبدأ غدر ابن تاشفين بابن عباد وغيره

ولما عزم السلطان يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأمير سير[1] بن أبى بكر أحد قوّاده المشاهير ، وترك معه جيشا برَسْم غزو الفرنج ، فاستراح الأمير المذكور أياما قلائل ، ودخل بلاد الأذفونش ، وأطلق الغارة ، ونهب وسبى، وفتح الحصون المنيعة ، والمعاقلَ الصعبة العويصة ، وتوغل فى البلاد ، وحصل أموالا وذخائر عظيمة ، ورتب رجالا وفرسانا فى جميع ما أخذه ، وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصله ، وكتب له يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدوّ وملازمة الحرب والقتال فى أضيق العيش وأنكده[2] ، وملوك الأندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه[3] ، وسأله مرسومه ، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العُدْوة[4] ، فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصره وقاتله ، ولا تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور ، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد ، إلا بعد استيلائك على البلاد ، وكل بلد أخذته فولِّ فيه أميرا من عساكرك ، فأوّل من ابتدأ به من ملوك الأندلس بنوهُودٍ ، وكانوا بروطة — بضم الراء المهملة ، وبعدها واو ساكنة ، وطاء مهملة مفتوحة ، وبعدها هاء ساكنة — وهى قلعة منيعة من عاصمات الذرى ، وماؤها ينبع من أعلاها ، وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات مالا تفنيه الأزمان ، فحاصرها فلم يقدر عليها ، ورَحَلَ عنها ، وجَنَّد أجنادا على هيئة الفرنج وزيهم ، وأمرهم أن يقصدوها و يغيروا عليها ، وكمن[5] هو وأصحابه بقرب منها ، فلما رآهم أهلُ القلعة استضعفوهم ، فنزلوا إليهم ، ومعهم صاحبُ القلعة ، فخرج عليه سير[1]

---

(١) فى ب « سيرى بن أبى بكر » وكذلك هو فى نسخة عند ا

(٢) فى نسخة عند ا « وأنكره »

(٣) فى أصل ا « فى أرغد العيش وأطيبه »

(٤) فى أصل ا « أرض العدو » فاسد المعنى

(٥) كمنوا : اختفوا واستتروا

المذكور ، وقبضه باليد ، وتسلم الحصن ، ثم نازل بنى طاهر بشرق الأندلس ، فأسلموا له البلاد ، ولحقوا ببر العُدْوة ، ثم نازل بنى صُمَادح بالمرِيَّة ، ولها قلعة حصينة ، فحاصرهم ، وضيق بهم ، ولما علم ابن صُمَادح الغَلَبَ أسف ومات غبنا ، فأخذ القلعة ، واستولى على المرية وجميع أعمالها ، ثم قصد بَطَلْيوس ، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس المتقدّم ذكره ، فحاصره ، وأخذه ، واستولى على جميع أعماله وماله ، ولم يبق له إلا المعتمد ابن عباد ، فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل ، ويسأله مرسومه فى ابن عباد ، فكتب إليه يأمره أنه يعرض عليه النقلة لبر العُدْوة بجميع الأهل والعشيرة ، فإن رضى ، وإلا فحاصره وخذه وأرسل به كسائر أصحابه ، فواجَهَه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف ، وسأله الجواب ، فلم يجب بنفى ولا إثبات ، ثم إنه نازل إشبيلية ، وحاصره بها ، وألح عليه ، فأقام الحصار شهرا ، ودخل البلد قهرا ، واستخرجه من قصره ، فحمل وجميع أهله وولده إلى العُدْوة فأنزل بأغمات ، وأقام بها إلى أن مات ، رحمه الله تعالى وعفا عنه !

وأما ابن الأثير ففى كلامه تقديم وتأخير وبعض خلاف لما مر .

وأخبار المعتمد بن عباد ، وما رآه من الملك والعز فى كل حاضر وباد[1] ، وما قاساه فى الأسر ، من الضيق والعسر ، وسوء العيش أمر عجيب ، يتعظ به العاقل الأريب ، وأما ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم فى حالى يُسْره وعُسْره ، وملكه وأسره ، وطيه ونشره ، وتجهُّمه وبشره ، فهو كثير ، وفى كتب التواريخ منه نظيم ونثير ، وقد قدمنا منه فى هذا الكتاب ما يبعث الاعتبار ويثير ، وخصوصا فى الباب السابع من هذا التأليف الذى هو عند المنصف أثير ، وفى المعتمد وأبيه المعتضد[2] يقول بعض الشعراء :

---

(١) فى أصل ا « على كل حاضر بالأندلس وباد » والحاضر : المقيم بالحاضرة ضد البادية ، والباد : المقيم بالبادية ، وهى المفازة والصحراء

(٢) فى أصل ا « وفي المعتمد وابنه المعتضد » تحريف

مِنْ بنى مُنْذِرٍ وذاك انتسابٌ زاد فى فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعــالى والمعالى قليـــلة الأولاد

وقال ابن القطاع فى كتابه «لمح الملح» فى حق المعتمد : إنه أنْدَى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحه ، وأعظمهم ثِمَادا ، وأرفعهم عمادا ، ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال[1] ، وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء ، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء ، وأفاضل الأدباء ، ما كان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشيتا جَنَابه .

بعض أخبار المعتمد ابن عباد

وقال ابن بسام فى «الذخيرة» : للمعتمد شعر ، كما انشق الـكِمامُ عن الزَّهْر ، لو صار مثله ممن جعل الشعر صناعة ، واتخذه بضاعة ، لـكان رائقا معجبا ، ونادرا مستغربا ، [فمنه قوله] :

أ كثرت هجرك غير أنك ربما عطفتك أحيانا علىّ أمور
فكأنما زمن التهاجر بيننا ليل ، وساعات الوصال بدور

قال : وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم[2] من أبيات :

أسْفَرَ ضوء الصبح عن وجهه فقام ذاك الخال فيه بِلَالْ
كأنما الخال على خــده ساعات هجر فى زمان الوصال

وعزم على إرسال حَظَاياه من قرطبة إلى إشبيلية فخرج معهن يشيعن فسايرهنّ من أول الليل إلى الصبح ، فودعهن ورجع ، وأنشد أبياتا منها :

سايرتهم والليل عَقَّدَ ثوبه حتى تَبَدَّى للنواظر معلما
فوقفت ثَمَّ مودعا وتسلمت منى يد الإصباح تلك الأنجما

---

(١) فى أصلها «ملقى الرجال» ولهاوجه بأن يكون «ملقى» مصدر اميميا بمعنى اللقاء

(٢) فى نسخة « ينظر إلى قول الأسعد بن بليطة »
تنفس الصهباء فى لهواته كتنفس الريحان فى الآصال

وهذا المعنى فى نهاية الحسن ، ثم ذكر من كلامه جملة .

من غدر ابن تاشفين

عَوْد وانعطاف ـ ولما جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ناحية غَرْنَاطة ، ـ بعد ما حصر بعض حصون الفرنج ، فلم يقدر عليه ـ خرج إلى لقائه[١] صاحبُ غَرْنَاطة عبد الله بن بلكين[٢] ، فسلم عليه ، ثم عاد إلى بلده ليخرج له التقادم ، فغدر به ، ودخل البلد ، وأخرج عبد الله ، ودخل قصره فوجد فيه من الذخائر والأموال مالا يحد ولا يحصى ، ثم رجع إلى مراكش وقد أعجبه حسنُ بلاد الأندلس وبهجتها ، وما بها من المبانى والبساتين والمطاعم وسائر الأصناف التى لاتوجد فى [سائر] بلاد العُدْوة ، إذ هى بلاد بربر وأجلاف عربان ، فجعل خواصُّ يوسف يعظمون عنده بلاد الأندلس ، ويحسنون له أخذها ، ويُوغِرُونَ قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه ، فتغير على المعتمد ، وقصد مُشَارَفة الأندلس[٣] .

وحكى ابن خلدون أن علماء الأندلسَ أفْتَوا ابنَ تاشفين بجواز خلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ، وبقتالهم إن امتنعوا ، فجهز يوسفُ العساكر إلى الأندلس ، وحاصر سير بنُ أبى بكر أحدُ عظماء دولة يوسف إشبيليةَ وبها المعتمد ، فكان من دفاعه وشدة ثباته ما هو معلوم ، ثم أخذ أسيرا ، وصار طَرْفُ الملك بعده حسيرا .

وفى وصف ذلك يقول صاحب القلائد بعد كلام : ثم جُمع هو وأهله وحَمَلَتهم الجَوَارى المنشآت[٤] ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعد ما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم المِصْر ، والناسُ قد حشروا[٥] بضفتى الوادى ، يبكون بدموع كالغَوَادى[٦] ، فساروا والنوح يَحْدوهم ، والبَوْحُ باللوعة لا يعدوهم ، انتهى .

---

(١) فى ا « خرج إلى لقاء صاحب غرناطة » (٢) فى نسخة عند ب « بلقين »
(٣) فى ا « وقصد مشارقة الأندلس » (٤) الجوارى المنشآت : السفن
(٥) فى نسخة عند ا « حشدوا » (٦) الغوادى : السحائب

ابن تاشفين فى ضيافة ابن عباد

ولما فرغ أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين من أمر غزوة الزلاَّقة المتقدم ذكرها ورجع تكرّم له ابن عباد ، وسأله أن ينزل عنده ، فعرج إلى بلاده إذ أجابه إلى ماطلب ، فلما انتهى ابن تاشفين إلى إشبيلية مدينة المعتمد — وهى من أجل[1] المدن وأحسنها منظرا — وأمعن يوسف النظر فيها وفى محلها ، وهى على نهر عظيم متبحر[2] تجرى فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه ، وفى غربيها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخا يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون ، وهذا هو المسمى بشَرَف إشبيلية ، وتمتار[3] بلاد المغرب كلها بهذه الأصناف منه ، وفى جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد فى غاية الحسن والبهاء ، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك ، فأنزل المعتمدُ يوسفَ بن تاشفين فى أحدها ، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له ، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على حسن تلك الحال وتأملها ، وما هى عليه من النعمة والإتراف ، ويُغْرُونه باتخاذ مثلها ، ويقولون له : إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة ، كما هو المعتمد وأصحابه ، وكان ابن تاشفين [داهية] عاقلا مقتصدا فى أموره ، غير متطاول ولا مبذر ، غير سالك نهج الترف والتأنق فى اللذة والنعيم ، إذ ذهب صَدْرُ عمره فى بلاده بالصحراء فى شَظَف العيش[4] ، فأنكر على مَنْ أغراه بذلك الإسراف ، وقال له : الذى يلوح لى من أمر هذا الرجل — يعنى المعتمد — أنه مُضَيِّع لما فى يده من الملك ، لأن هذه الأموال الكثيرة التى تصرف فى هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدا ، فأخْذُه بالظلم وإخراجه فى هذه التُّرَّهَات من

---

(١) فى ا « من أحسن المدن وأجلها منظرا » (٢) فى ا « مستبحر »
(٣) تمتار — بالراء المهمله — تجلب الميرة ، وفى نسخة « تمتاز » محرفا
(٤) شظف العيش : خشونته

أخش الاستهتار ، ومَنْ كانت همته فى هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين متى يستجدُّ همة فى ضبط بلاده وحفظها؟ وصون رعيته والتوفير لمصالحها[١]، ولعمرى لقد صدق فى كل ذلك .

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد فى لذاته : هل تختلف فتنقص عما عليه فى بعض الأوقات ؟ فقيل له : بل كل زمانه على هذا ، فقال : أفكلّ أصحابه وأنصاره على عدوّه ومُنْجِديه على الملك ينال حظا من ذلك ؟ فقالوا : لا ، قال : فكيف ترون رضاهم عنه ؟ فقالوا : لا رضا لهم عنه ، فأطرق وسكت ، وأقام عند المعتمد على تلك الحال أياما .

وفى أثنائها استأذن رجلٌ على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رَثَّة ، وكان من أهل البصائر ، فلما مَثَلَ بين يديه قال : أصلحك الله أيها السلطان ! وإن من أوجب الواجبات شكر النعمة ، وإن مِنْ شكر النعمة إهداء النصائح ، وإنى رجل من رعيتك حالى فى دولتك إلى الاختلال ، أقربُ منها إلى الاعتدال ، ولكننى مع ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيته ، فمن ذلك خبرٌ وقع فى أذنى من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدلُّ على أنهم يرون أنفسهم ومَلِكهم أحقَّ بهذه النعمة منك ، وقد رأيت رأيا ، فإن آثرت[٢] الإصغاء إليه قلته ، فقال المعتمد له : قله ، فقال له : رأيتُ أن هذا الرجل الذى أطلعته على ملكك مستأسد على الملوك ، قد حكم على رفقائه[٣] ببر العُدْوة ، وأخذ الملك من أيديهم ، ولم يُبْقِ على واحد منهم ، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع[٤] فى ملكك ، بل فى

---

(١) فى أصل ا « والتوقير لمصالحها » تحريف

(٢) فى نسخة عند ا « فإن رأيت الإصفاء ــ إلخ

(٣) فى ا « قد حطم على زناته ببر العدوة »

(٤) فى ب « إلى المطمع »

ملك جزيرة الأندلس كلها ، لماقد عاينه من هَنَاءة عيشك ، و إنى لمتخيل[١] مثل ذلك لسائر ملوك الأندلس ، و إن له من [الولد و] الأقارب وغيرهم من يودّ له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب ، وقد أَرْدَى الأذفونش وجيشه ، واستأصل شأفتهم ، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لواحتجت إليه ، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مِجَنّ [٢] ، و بعد فإنه إن فات الأمر فى الأذفونش فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم ، فقال له المعتمد : وما هو الحزم اليوم ؟ فقال : أن تجمع أمرك على قَبْض ضيفك هذا ، واعتقاله فى قصرك ، وتجزم أنك لا تُطْلِقه حتى يأمر كل مَنْ بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء ، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه ، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجرى فيه له ، ثم بعد ذلك تَسْتَحلفه بأغلظ الأيمان ألاّ يضمر فى نفسه عَوْدًا إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه ، وتأخذ منه على ذلك رهائن فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء ، فنَفْسُه أعز عليه من جميع مايُلْتَمسُ منه ، فعند ذلك يقتنع[٣] هذا الرجل ببلاده التى لاتصلح إلا له ، وتكون قد استرحت منه بعد ما استرحت من الأذفونش ، وتقيم فى موضعك على خير حال ، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة ، ويتسع ملكك ، ويُنْسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة وحَزْم ، وتهابك الملوك ، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك فى مجاورة مَنْ عاملته هذه المعاملة ، واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سَماوى تتفانى الأمم وتجرى بحار الدم دون حصول مثله ، فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه ، وجعل يفكر فى انتهاز الفُرْصَة .

وكان للمعتمد نُدَماء قد انهمكوا معه فى اللذات ، فقال أحدهم لهذا الرجل

---

(١) فى ا « لمتخيل فى مثل ذلك »

(٢) فى نسخة « وأوفى مجن »

(٣) فى نسخة « يقنع »

الناصح : ما كان المعتمد على الله ـ وهو إمام أهل المكرمات ـ ممن يعامل بالحَيْف ، ويغدر بالضّيْف ، فقال الرجل : إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه ، لا دَفْع الرجل عن نفسه المحذورَ إذا ضاق به ، فقال ذلك النديم : ضَيْم مع وفاء ، خيرٌ من حَزْم مع جفاء .

ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر ، وتلافاه ، فشكر له المعتمد ، ووصله بصلة

واتصل هذا الخبر بيوسف فأصبح غاديا ، فقدّم له المعتمد الهدايا السنية والتُّحَفَ الفاخرة ، فقبلها ثم رحل ، انتهى خبر وقعة الزلاقة وما يتبعه ملخصا من كتب التاريخ .

ولما انقرض بالأندلس مُلْك ملوك[1] الطوائف بنى عَبّاد و بنى ذى النون و بنى الأفطس و بنى صُمَادح وغيرهم انتظمت فى سلك اللّمْتُونيين[2] ، وكانت لهم فيها وقعات بالأعداء مشهورة فى كتب التواريخ .

ملك على بن يوسف بن تاشفين والثورة عليه .

ولما مات يوسف بن تاشفين سنة خمسمائة قام بالملك بعده ابنُه أمير المسلمين على بن يوسف ، وسلك سنن أبيه و إن قَصَّر عنه فى بعض الأمور ، ودفع العدو عن الأندلس مدة ، إلى أن قيض الله تعالى للثورة [عليه] محمد بن تُومَرْت الملقب بالمَهْدِى الذى أسّسَ دولة الموحدين ، فلم يزل يسعى فى هَدْم بنيان لمتونة إلى أن مات ولم يملك حضرة سلطنتهم مراكش ، ولكنه ملك كثيراً من البلاد ، فاستخلف عبد المؤمن بن على ، فكان من استيلائه على مملكة اللمتونين ما هو معروف ، ثم جاز إلى الأندلس وملك كثيراً منها ، ثم أخرج الإفرنج من مهدية إفريقية ، وملك بلاد إفريقية وضخم ملكه ، وتَسَمَّى بأمير المؤمنين[3] .

---

(١) فى ا « ملك الطوائف » بدون كلمة « ملوك » وما بعده يستدعيها

(٢) فى أصل ا « فى ملك اللمتونيين »

(٣) فى أصل ا « بأمير المسلمين »

ملك عبد المؤمن بن على بالأندلس

ولما كانت سنة ٥٤٥ سار الأذفونش صاحب طُلَيْطَلة و بلادُ الجلالقة إلى قُرْطُبة ومعه أر بعون ألف فارس ، فحاصرها ، وكان أهلها فى غلاء شديد ، فبلغ الخبر عبدالمؤمن ، فجهز إليهم جيشاً يحتوى على اثنى عشر ألف فارس ، فلما أشرفوا على الأذفونش رحل عنها ، وكان فيها القائد أبوالغمر (١) السائب، فسلمها إلى صاحب جيش عبدالمؤمن بن يحيى بن ميمون ، فبات فيها ، فلما أصبح رأى الفرنج عادوا إلى مكانهم ، ونزلوا فى المكان الذى كانوا فيه ، فلما عاين ذلك رتب هنالك ناساً ، وعاد إلى عبد المؤمن ، ثم رحل الفرنج إلى ديارهم .

وفى السنة بعدها دخل جيش عبد المؤمن إلى الأندلس فى عشرين ألفاً عليهم الهنتاتى (٢)، فصار إليه صاحب غرْناطة ميمون وابنُ هَمُشْك وغيرهما ، فدخلوا تحت طاعة الموحِّدِين ، وحرصوا (٣) على قصد ابن مَرْدَنيش ملك شرق الأندلس ، و بلغ ذلك ابن مردنيش ، فخاف وأرسل إلى صاحب بَرْشلونة من الإفرنج يستنجده ، فتجهز إليه فى عشرة آلاف من الإفرنج عليهم فارس ، وسار صاحب جيش عبد المؤمن إلى أن قارب ابن مردنيش ، فبلغه أمر البرشلونى الإفرنجى ، فرجع ، ونازل مدينة المرِيَّة وهى بأيدى الروم ، فحاصرها ، فاشتد الغلاء فى عسكره ،فرجع إلى إشبيلية ، فأقام فيها ، وسار عبد المؤمن إلى سبتة فجهز الأساطيل وجمع العساكر

ثم سار عبد المؤمن سنة ٥٤٧ إلى المهدية فملكها ، وملك إفريقية ، وضخم ملكه كما قدمناه .

يوسف ابن عبدالمؤمن

ولما مات بويع بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن ، ولما تمهدت له الأمور ، واستقرت قواعد ملكه ، رحل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته ،

---

(١) فى نسخة عند ا « أبو العمر » بالعين المهملة

(٢) فى نسخة عند ا « الهتناتى » وفى أخرى « الهتانى »

(٣) فى أصل ا « وحرضوا »

وتفقد أحوالها ، وكان ذلك سنة ست وستين وخمسمائة ، وفى صحبته مائة ألف فارس من الموحِّدِين والعرب ، فنزل بحضرة إشبيلية ، وخافه ملكُ شرق الأندلس مُرْسِيَةَ وما انضاف إليها الأميرُ الشهير أبو عبد (١) الله محمد بن سعد المعروف بابن مَرْدَنيش (٢) ، وحمل على قلب ابن مردنيش ، فمرض مرضاً شديداً ومات ، وقيل : إنه سم ، ولما مات جاء أولاده وأهله إلى أمير المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن وهو بإشبيلية ، فدخلوا تحت حكمه ، وسلَّموا لأحكامه البلاد ، فصاهرهم ، وأحسن إليهم ، وأصبحوا عنده فى أعز مكان ، ثم شرع فى استرجاع البلاد التى استولى عليها الإفرنج ، فاتسعت مملكته بالأندلس ، وصارت سَرَاياه تعبر (٣) إلى باب طُلَيْطلة ، وقيل : إنه حاصرها، فاجتمع الفرنج كافة عليه ، واشتد الغلاء فى عسكره ، فرجع عنها إلى مراكش حضرة ملكه ، ثم ذهب إلى إفريقية، فمهَّدها ، ثم رجع إلى حضرته مراكش ، ثم جاز البحر إلى الأندلس سنة ثمانين خمسمائة ومعه جمع كثيف ، وقصد غربى بلادها ، فحاصر مدينة شَنْتَرِين ، وهى من أعظم بلاد العدو، و بقى محاصراً لها شهراً، فأصابه المرض، فمات فى السنة المذكورة، وحمل فى تابوت إلى اشبيلية ، وقيل : أصابه سهم من قبل الإفرنج ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الحال .

وفى ابنه السيد [أبى] إسحاق يقول مطرف التجيبى (٤) رحمه الله تعالى :

سعد كما شاء العلا والفَخَارْ	تصرف الليل به والنهار (٥)
ما دانت الأرض لكم عَنْوَة	وإنما دانت لأمر كُبَارْ
مهدتموها فصفا عيشها	واتصل الأمْنُ ، فنعم القرار (٦)

(١) فى نسخة عندنا « أبو عبيد الله » (٢) فى نسخة « ابن مرذنيش »

(٣) فى أصل ا « تغير إلى باب طليطلة » (٤) فى نسخة « النجيبى »

(٥) فى نسخة « ساد كما شاء العلا والفخار »

(٦) فى ا ، ب « واتصل الابن فنعم القرار »

ومنها :

فالشـــاة لا يَختِلُهَا ذئبها وإن أقامت معـــه فى وِجَارْ

ولمـا مات يوسفُ قام بالأمر بعده ابنُه الشهير أميرُ المؤمنين يعقوبُ المنصورُ بن يوسف بن عبد المؤمن ، فقام بالأمر أحسن قيام ، ولمـا مات يوسف المذكور رثاه أديب الأندلس أبو بكر يحيى بن مجير(١) بقصيدة طويلة أجاد فيها ، وأولها :

ملك يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن

جلَّ الأسى فأسِلْ دَمَ الأجفان ماء الشؤن لغير هذا الشان

ويعقوب المنصور هو الذى أظهر أبهة ملك الموحدين ، ورفع راية الجهاد ، ونَصَب ميزان العدل ، و بسط الأحكام الشرعية ، وأظهر الدين ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وأقام الحدود على القريب والبعيد ، وله فى ذلك أخبار ، وفيه يقول الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمى(٢) الأسود الشاعر المشهور :

أزال حجابه عنى وعيـنى تراه من المهابة فى حجاب

وقربنى تفضُّله ولـكن بَعُدْتُ مهابة عنـد اقترابى

وكثرت الفتوحات فى أيامه ، وأولُ ما نظر فيـــه عند صيرورة الأمر إليه بلاد الأندلس ، فنظر فى شأنها ، ورتب مصالحها ، وقرر المُقَاتلين فى مراكزهم ، ورجع إلى كرسى مملـكته مراكش المحروسة ، وفى سنة ٥٨٦ بلغه أن الإفرنج ملـكوا مدينة شِلْبَ وهى من غرب الأندلس ، فتوجه إليها بنفسه ، وحاصرها ، وأخذها ، وأنفذ فى الوقت جيشاً من الموحِّدين والعرب ، ففتح أربع مُدُن مما بأيدى الإفرنج من البلاد التى كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة ، وخافه صاحبُ طلَيْطلة ، وسأله الهدنة والصلح ، فهادنه خمسَ سنين ، وعاد إلى مراكش ، وأنشد

---

(١) فى أصل ا « ابن مجبر »

(٢) فى أصل ا « الـكانمى »

القائد أبو عبد الله بن وزير الشِّلْبى وهو من أمراء كتاب[١] إشبيلية قصيدةً يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى فى وقعة مع الفرنج كان الشِّلْبى المذكور مقدما فيها :

ولما تلاقينا جرى الطعن بيننا فمنا ومنهم طائحون عديد
وجال غرار الهند فينا وفيهمُ فمِنَّا ومنهم قائم وحَصيد
فلا صَدْرَ إلا فيه صدر مثقف وحول الوريد للحسام ورود
صبرنا ولا كهف سوى البيضِ والقنَا كلانا على حر الجِلاد جَليد
ولكن شددنا شَدَّةً فتبلدوا ومن يتبلد لا يزال يَحِيد
فولوا وللسُّمْرِ الطوال بهامهم ركوع وللبيض الرقاق سجود

رَجْع إلى أخبار المنصور بعد هُدْنة الإفرنج ـ ولما انقضت مدة الهدنة ، ولم يبق[٢] منها إلا القليل ، خرج طائفة من الإفرنج فى جيش كثيف إلى بلاد المسلمين، فنهبوا وسَعَوْا وعاثوا عَيْثاً فظيعاً ، فانتهى الخبر إليه ، فتجهز لقصدهم فى جيوش مُوَفرة وعساكر مُكَتَّبة[٣] ، واحتفل فى ذلك ، وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١ ، فعلم به الإفرنج ، فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصى بلادهم وأدانيها ، وأقبلوا نحوه ، وقيل : إنه لما أراد الجَوَاز من مدينة سَلا مرض مرضاً شديداً ، ويئس[٤] منه أطباؤه ، فعاث الأذفونش فى بلاد المسلمين بالأندلس ، وانتهز الفُرْصة ، وتفرقت جيوش المسلمين بسبب مرض السلطان ، فأرسل الأذفونش يتهدد ويتوعد ، ويُرْعِد ويُبْرِق ، ويطلب بعضَ الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس ، وخلاصة الأمر أن المنصور توجه بعد ذلك إلى لقاء النصارى ، وتزاحف الفريقان ، فكان المصافُّ شمالى قُرْطُبة على قرب قلعة رَبَاح[٥] فى يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١،

---

(١) فى أصل ا « من أمراء كتائب إشبيلية »
(٢) فى ا « أولم يبق منها إلا القليل » (٣) فى ا « مكتتبة »
(٤) فى أصل ا « أيس منه أطباؤه » (٥) » نسخة « قلعة رياح »

فكانت بينهم وقعة عظيمة استشهد فيها جمع كبير من المسلمين .

وحكى أن يعقوب المنصور جعل مكانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبايحيى ابن أبى حفص عم السلطان أبى زكريا الحَفْصى الذى ملك بعد ذلك إفريقية ، وخطب له ببعض الأندلس ، فقصد الإفرنج الأعلام ظنا أن السلطان تحتها ، فأثروا فى المسلمين أثراً قبيحاً ، فلم يَرُعْهم إلا والسلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كَسْرشوكتهم ، فهزمهم شر[١] هزيمة ، وهرب الأذفونش فى طائفة يسيرة ، وهذه وقعة الأرك الشهيرة الذكر .

وحكى أن الذى حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفاً ، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد ، ولم يسمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه ، وربما[٢] صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة .

وقيل : إن فل[٣] الإفرنج هربوا إلى قلعة رباح ، فتحصنوا بها ، فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها ، وكانت قبلُ للمسلمين ، فأخذها العدو ، فردت فى هذه المرة ، ثم حاصر طُلَيْطلة ، وقاتلها أشد قتال ، وقطع أشجارها ، وشَنَّ الغارات على أرجائها ، وأخذ من أعمالها حصونا ، وقتل رجالها ، وسَبَى حريمها ، وخرب منازلها ، وهدم أسوارها ، وترك الإفرنج فى أسوأ حال ، ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة ، ثم رجع إلى إشبيلية ، وأقام إلى سنة ٥٩٣ ، فعاد إلى بلاد الفرنج ، وفعل فيها الأفاعيل ، فلم يقدر العدو على لقائه ، وضاقت على الإفرنج الأرض بما رَحُبَت ، فطلبوا الصلح ، فأجابهم إليه ، لما بلغه من ثورة الميرقى عليه بإفريقية مع قَراقُوش مملوك بنى أيوب سلاطين مصر والشام .

---

(١) فى أصل ا « أشر هزيمة »

(٢) فى ا « وإنما صرح بعض المؤرخين »

(٣) فل القوم : بقاياهم من الهزيمة ، وفى نسخة « جل الإفرنج »

ثم توفى السلطان يعقوب سنة ٥٩٥ .

ومايقال « إنه ساح فى الأرض [1] ، وتخلى عن الملك ، ووصل إلى الشام ، ودفن بالبِقَاع » لا أصل له ، و إن حَكَى ابن خلكان بعضه .

وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغَرْناطى فى شرح مقصورة حازم ، وقال : إن ذلك من هَذَيان العامة ، لوَلُوعهم بالسلطان المذكور .

محمد الناصر بن يعقوب

وولى بعده ولده محمد الناصر المشؤم على المسلمين ، وعلى جزيرة الأندلس بالخصوص ، فإنه جمع جموعا اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب « الذخيرة السنية ، فى تاريخ الدولة المَرِينية » ودخله الإعجاب بكثرة مَنْ معه من الجيوش ، فصافَّ الإفرنج ، فكانت عليه وعلى المسلمين وقعة العقاب المشهورة التى خلا بسببها أكثر المغرب ، واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها ، ولم يَنْجُ من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً لم يبلغ الألف فيما قيل ، وهذه الوقعة هى الطامة على الأندلس ، بل والمغرب جميعاً ، وما ذاك إلا لسوء التدبير ، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخفّ بهم الناصر ووزيره ، فشنق [2] بعضهم ، ففسدت النيات ، فكان ذلك من بخت الإفرنج ، والله غالب على أمره ، وكانت وقعة العقاب هذه المشؤمة سنة ٦٠٩ ، ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد .

المستنصر بن الناصر

ولما مات الناصر سنة عشرين وستمائة ولى بعده ابنُه يوسف المستنصر ، وكان مُولَعا بالراحة ، فضعفت الدولة فى أيامه ، وتوفى سنة ٦٢٠ .

عبد الواحد بن يوسف

فتولى عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، فلم يحسن التدبير ،

---

(١) فى نسخة عند ا «ساح فى البلاد»

(٢) فى ا « وشنق بعضهم »

العـادل بن المنصور، ومن بعده

وكان إذ ذاك بالأندلس العادل بن المنصور ، فرأى أنه أحق بالأمر ، فاستولى على ما بقى فى أيدى المسلمين من الأندلس بغير كُلْفة ، ولما خلع عبد الواحد وخنق بمراكش ثارت الإفرنج على العادل بالأندلس ، وتصافَّ معهم ، فانهزم ومَنْ معه من المسلمين هزيمة شنعاء ، فكانت الأندلس قرحا على قرح ، فهرب العادل ، وركب البحر يروم مراكش ، وترك بإشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس ، ودخل العادل مراكش بعد خطوب ، ثم قبض عليه الموحِّدون ، وقدموا يحيى بن الناصر صغير السن غير مجرب للأمور ، فادعى حينئذ الخلافة أبو العلاء إدريس بإشبيلية ، وبايعه أهلُ الأندلس ، ثم بايعه أهل مراكش وهو مقيم بالأندلس ، فثار على أبى العلاء بالأندلس الأمير المتوكل محمد بن يوسف الجُذَامى ، ودعا إلى بنى العباس ، فمال الناس إليه ، ورجعوا عن أبى العلاء ، فخرج عن الأندلس ــ أعنى أبا العلاء ــ وترك ما وراء البحر لابن هود ، ولم يزل أبو العلاء يتحارب مع يحيى ابن الناصر إلى أن قتل يحيى ، وصفا الأمر لأبى العلاء بالمغرب، دون الأندلس ، ثم مات سنة ٦٣٠ .(١)

وبويع ابنه الرشيد ، وبايعه بعض أهل الأندلس ، ثم توفى سنة ٦٤٠ .

وولى بعده أخوه السعيد ، وقتل على حصن بينه وبين تِلِمْسَان سنة ٦٤٦

وولى بعده المرتضى عمر بن إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ، وفى سنة ٦٦٥ دخل عليه الواثق المعروف بأبى دبوس (٢) ، ففر ، ثم قبض ، وسيق إلى الواثق ، فقتله ، ثم قتل الواثقَ بنو مَرِين سنة ٦٦٨ ، وبه انقرضت دولة بنى عبد المؤمن ، وكانت من أعظم الدول الإسلامية ، فاستولى بنو مَرِين على المغرب ، وأما المتوكل ابن هود فملك معظم الأندلس ، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته ، وقتَلَه

(١) فى نسخة عند ا « سنة ٦٩٠ » وليس بشىء

(٢) في نسخة « بأبى دبوش »

غدرا وزيرُه ابن الرميمى بالمرية ، واغتنم الإفرنج الفرصة بافتراق الكلمة، فاستولوا على كثير مما بقى بأيدى المسلمين من البلاد والحصون .

بنو الأحمر

ثم آل الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر، وخطب ببعض[1] الأندلس لأبى زكريا الحَفْصى صاحب إفريقية ، وقد سبق الكلام على أكثر المذكور هنا ، وأعدناه لتناسق الحديث ، ولما فى بعضه من زيادة الفائدة على البعض الآخر ، وذلك لا يخفى على المتأمل ، وقد بسطنا فى الباب الثالث أحوال ابن هود وابن الأحمر وغيرهما ، رحم الله تعالى الجميع !

بنو مرين

ثم استفحل[2] ملك يعقوب بن عبدالحق صاحب المغرب وحضرة ملك فاس ، فانتصر به أهل الأندلس على الإفرنج الذين تكالَبُوا عليهم ، فاجتاز إلى الأندلس وهزم الإفرنج أشد هزيمة ، حتى قال بعضهم : ما نصر المسلمون من العقاب حتى دخل يعقوب المرينى وفتك فى بعض غزواته بملك من النصارى يقال له ذوننه[3] ، ويقال : إنه قتل من جيشه أربعين ألفا ، وهزمهم أشد هزيمة ، ثم تتابعت غزواته بالأندلس وجَوَازه للجهاد ، وكان له من بلاد الأندلس رندة والجزيرة الخضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك ، وأعز الله تعالى به الدين، بعد تمرد الفرنج المعتدين.

ولما مات ولى بعده ابنُه يوسف بن يعقوب ، ففر إليه الأذفونش ملك النصارى لائذا به ، وقبَّل يده ، ورَهَنَ عنده تاجه ، فأعانه على استرجاع ملكه .

ولم يزل ملوك بنى مَرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة ، فكانت لهم وقائع فى العدو[4]

---

(١) فى أصل ا « وخطب بعض أهل الأندلس لأبى زكريا الحفصى »

(٢) فى نسخة عند ا « ثم استقل »

(٣) كذا فى ا ، وفى نسخة عندها « دويقة » وفى ب « ذونند »

(٤) فى ب « وقائع فى العدوة »

مذكورة ، ومواقف مشكورة ، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغَرْناطة، وعليهم رئيس من بيت ملك بنى مَرِين يسمونه شيخ الغزاة .

ولما أفضى الملك إلى السلطان الكبير الشهير أبى الحسن المرينى ، وخلص له المغرب و بعضُ بلاد الأندلس أمر بإنشاء الأساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالأندلس ، واهتم بذلك غاية الاهتمام ، فقضى الله تعالى أن استولى الإفرنج على كثير من تلك المراكب بعد أخذهم الجزيرة الخضراء ، وكان الإفرنج جمعوا جموعا كثيرة برسم الاستيلاء على ما بقى للمسلمين بالأندلس ، فاستنفر أهلُ الأندلس السلطانَ أبا الحسن المذكور ، فجاء بنفسه إلى سبتة فُرْضَة المجاز(١) ومحل أساطيل المسلمين ، فإذا بالإفرنج جاؤا بالسفن التى لا تُحصَى ، ومنعوه العُبور ، وأغاثه أهل الأندلس حتى استولوا على الجزيرة الخضراء ، وأنكوه فى مراكبه أعظم نكاية ، ولله الأمر،

وقد أفصح عن ذلك كتابٌ صدَر من السلطان أبى الحسن المذكور إلى سلطان مصر والشام والحجاز الملك الصالح بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى الألفى ، رحم الله تعالى الجميع !.

كتاب من أبى الحسن المرينى إلى الملك الصالح سلطان مصر

وهذه نسخة الكتاب المذكور الذى خاطب به أمير المسلمين السلطان أبو الحسن المرينى المذكور ملكُ المغرب رحمه الله تعالى السلطانَ الملك الصالح ابن السلطان الملك الشهير الكبير الناصر محمد بن قلاوون ، ووصل إلى مصر فى النصف — وقيل : فى العشر الأواخر — من شعبان المكرم سنة ٧٤٥ بعد البَسْمَلة والصلاة : من عند أمير المسلمين(٢) ، المُجَاهد فى سبيل الله رب العالمين ، المنصور بفضل الله المتوكل عليه ، المعتمد فى جميع أمورهِ لديه ، سلطان البرين ، حامى

---

(١) فى نسخة «فرصة المجتاز» تحريف

(٢) فى ا «من عبدالله على أمير المسلمين»

العُدْوتين [١]، مؤثر المرابَطَة والمُثاغرة، مُوَازر حزب الإسلام حَقَّ الموازره ، ناصر الإسلام ، مُظَاهر دين الملك العَلَّام ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، فخر السلاطين ، حامى حَوْزة الدين ، ملك البرين ، إمام العُدْوَتين، ممهد البلاد ، مبدِّد شمل الأعاد ، مجند الجنود ، المنصور الرايات والبنود [٢] ، محط الرحال ، مبلغ الآمال ، أبى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، حَسَنة الأيام ، حُسَام الإسلام ، أبى الأملاك ، مُشْجى أهل [٣] العناد والإشراك ، مانع البلاد ، رافع علم الجهاد ، مُدَوّخ أقطار الكفار، مُصْرِخ [٤] من ناداه للانتصار ، القائم لله باعلاء دين الحق ، أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أخلص الله لوجهه جهاده ! ويسر فى قهر عداة الدين مُرَاده !.

إلى محل ولدنا الذى طلع فى أفق العلاء بدراً تماً ، وصَدَع بأنواع الفخار فجلا ظلاما وظُلْماً ، وجَمَع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علما وأحيالها رَسْما ، حائط الحرمين ، القائم بحفظ القبلتين ، باسط الأمان ، قابض كف العُدْوان ، الجزيل النوال ، الكفيل تأمينه بحياطة النفوس والأموال ، قطب المجد وسِمَاكه ، حِبِّ الحمد ومِلاكه [٥] ، السلطان الجليل ، الرفيع الأصيل ، الحافل العادل ، الفاضل الكامل ، الشهير الخطير ، الأضخم الأفخم ، المُعَان المؤزر ، المؤيد المظفر ، الملك الصالح أبو الوليد إسماعيل ، ابن محل أخينا الشهير علاؤه ، المستطير فى الآفاق ثناؤه ، زين الأيام والليالى ، كمال عين إنسان المجد وإنسان عين الكمال ، وارث الدول ، النافث بصحيح رأيه فى عُقود أهل المِلَل والنحل ، حامى القبلتين بعدله وحُسَامه ، النامى فى حفظ الحرمين أجْرُ اضطلاعه بذلك وقيامه ، هازم أحزاب المعاندين

(١) فى نسخة « إمام العدوتين »

(٢) البنود : جمع بند ، وهو العلم هنا

(٣) فى أصل ا « شجى أهل العناد »

(٤) مصرخ : مجيب أو مغيث (٥) فى ب « حسب الحمد وملاكه »

وجيوشها ، هادم الكنائس والبِيَع فهى خاوية على عروشها ، السلطان الأجل ، الهمام الأحفل ، الأفخم الأضخم ، الفاضل العادل ، الشهير الكبير ، الرفيع الخطير ، المجاهد المرابط ، المُقْسِط عدله فى الجائر والقاسط ، المؤيد المظفر ، المنعم المقدس المطهر ، زين السلاطين ، ناصر الدنيا والدين ، أبى المعالى محمد ، ابن الملك الأرضى ، الهمام الأمضى ، والد السلاطين الأخيار ، عاقد لواء النصر فى قهر الأرمن والفرنج والتتار[١] ، ومُحْيِي رسوم الجهاد ، مُعْلى كلمة الإسلام فى البلاد ، جمال الأيام ، ثِمَال الأعلام ، فاتح الأقاليم ، صالح ملوك عصره المتقادم ، الإمام المؤيد ، المنصور المسدد ، قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد ، الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون ، مكن الله له تمكين أوليائه ، ونَمَّى دولته التى أطلعها [له] السعد شمسا فى سمائه ، وأحسن إيزاعَه للشكر أن جعله وارث آبائه ! .

سلام كريم يفاوحُ زهرُ الربا مَسْراه ، وينافح نسيم الصبا مجراه ، يصحبه رضوان يدوم مادامت تقل الفَلَكَ حركاتُه ، ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله مالك الملك ، جاعل العاقبة للتقوى صَدْعاً باليقين ودفعا للشك ، وخاذل مَنْ أسرَّ فى النفاق النجوى فأصر على الدخن والإفك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذى محا بأنوار الهُدَى ظُلَمَ الشرك ، ونبيه الذى ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السِّلك ، ودَحَا بِهِ حجة الحق فمادت بالكفرة[٢] محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك ، والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هداه فسلك فى قلوبهم أجمل السَّلْك ، وملكوا أعنَّة هواهم فلزموا من

---

(١) فى ا « والنظار » بدل « والتتار » تحريف

(٢) فى أصل ا « فمادت بالفكرة » محرفا

مَحَجَّة الصواب أنجح السلك ، وصابروا فى جهادِ الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهبُ يزيد خلوصا على السَّبْك ، والدعاء لأولياء الإسلام ، وحُماته الأعلام ، بنصرٍ لمضائه فى العدا أعظم الفَتْك ، ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأخْفِلْ بذلك الدرك ، فكتبناه إليكم ، كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم ! مِنْ حضرتنا بمدينة فاس المحروسة ، وصُنْعُ الله سبحانه يعرّف مذاهب الألطاف ، ويكيف مواهب تلهج الألسنة(١) فى القصور عن شكرها بالاعتراف ، ويصرف من أمره العظيم ، وقضائه المتَلَقَّى بالتسليم ، ما يتكوّن بين النون والكاف ، ومكانكم العتيد سلطانه ، وسلطانكم المجيد مَكانُه ، وولاؤكم الصحيح برهانه ، وعلاؤكم الفسيح فى مجال الجلال مَيْدَانُه ، وإلى هذا زاد الله سلطانكم تمكينا ، وأفاد مقامكم تحصينا وتحسينا ، وسلك بكم من سَنَن من خَلَفتموه سبيلا مبينا .

فلا خفاء بما كانت عقدته أيدى التقوى ، ومهدته الرسائل التى على الصفاء تُطْوَى ، بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقَدَّسَه ، وبقر به مع الأبرار فى عليين آنسهُ ، من مواخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة ، وحفظ عليها محكم الإخلاص معوّذتاها المحبة والنية الصالحة ، فانعقدت على التقوى والرضوان ، واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازح الأبدان(٢) ، حتى استحكمت وُصْلة الولاء ، والتأمت كلحمة النسب لحمة الإخاء ، فما كان إلا وشيكا من الزمان ، ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ، ورد وارد أورد رنق المشارب ، وحقق قول ومَنْ « يسأل الركبان عن كل غائب » أنبأ باستئثار الله تعالى بنفسه الزكية ، وإكنان درته السنيه ، وانقلابه إلى ما أعدّ له من المنازل الرضوانية ، بجليل

(١) فى أصل ا « تلهج الأسنة » تحريف
(٢) تنازح الأبدان : تباعدها وتنائيها

ما وقر لفقده فى الصدور ، وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور ، حنانا للإسلام بتلك الأقطار ، وإشفاقا من أن يعتور قاصدى بيت الله الحرام من جراء الفتن عارضُ الإضرار ، ومساهمة فى مصاب الملك الكريم ، والولى الحميم ، ثم عميت الأخبار ، وطُوِيت طى السجل الآثار ، فلم نر مخبراً صدقا ، ولا معلما بمن استقر له ذلكم الملك حقا ، وفى أثناء ذلك حفزنا[1] للحركة عن حضرتنا استصراخُ أهل الأندلس وسلطانها ، وتواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطانها ، ونحن أثناء ذلكم الشأن ، نستخبر[2] الوراد من تلكم البلدان ، عما أجلى عنه ليل الفتن بتلكم الأوطان ، فبعد [لأْى] وقعنا منها على الخبير ، وجاءنا بوقاية حَرَم الله بكم البشير ، وتعرفنا أن الملك استقر منكم فى نِصَابه ، وتداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه ، فأطفأ بكم نار الفتنة وأخمدها ، وأبرأ من أدواء النفاق ما أعل البلاد وأفسدها ، فقام سبيلُ الحج سابلا ، وتعبَّدَ[3] طريقه لمن جاء قاصدا وقافلا ، ولما احتفَّتْ بهذا الخبر القرائن ، وتواتر بنقل الحاضر [له و] المعاين ، أثار حفظ الاعتقاد البواعث ، والود الصحيح تجره حقا الموارث ، فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الأطوار ، الجامعة بين الخبر والاستخبار ، الملبسة من العزاء والهناء ثوبى الشعار والدثار ، ومثل ذلكم الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقدانه ، وتحل عرا الاصطبار بموته وَلَاتَ حِين أوانه ، لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين ، والأجر أولى ما اقتناه ذو دِينٍ متين ، ومثلكم من لا يخفُّ وَقاره ، ولا يشف عن ظهور الجزع الحادث اصطباره ، ومَنْ خلفكم فما مات ذِكْرُه ، ومن قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره ، وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية بالحقب ،

---

(١) فى أصل ا « أحفزنا للحركة » وفى نسخة عندها « أحفزنا »

(٢) فى أصل ا « نستنجز الوراد » وفى نسخة عندها « نستجيز »

(٣) تعبد : تمهد وتسهل ، ووقع فى ب « وتعبر »

وطاب بين مَبْدَاه ومُخْتَضره هنيأ بما من الأجر اكتسب ، وصار حميدًا إلى خير المُنْقَاب ، ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقنا ووهب ، فقد ارتضاكم الله بعده لحِياطة أرضه المقدّسة ، وحماية زُوّار بيته مقيلة أو معرسة .

ونحن بعد بَسْط هـذه التعزية ، نهنيكم بما خولـكم الله أجمل التهنية ، وفى ذات الله الإيراد والإصدار ، وفى مَرْضاته سبحانه الإضمار والإظهار ، فاستقبلوا دولة ألْقَى العزعليها رِوَاقه ، وعقد الظهورُ عليها نِطَاقه ، وأعطاها أمانُ الزمان عَقْده وميثاقَه ، ونحن على ماعاهدنا[1] عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود مُوَثَّقه ، وموالاة مُحَقَّقه ، وثناء كمائمه عن أذكى من الزهر غبَّ القطر مُفَتَّقه ، ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الأكرمين اللذين خطتهما منا اليمين ، وأوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قَرَار مَكين ، وإنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه ، وأورده موارد إحسانه ، فى ذلـكم من الفعل الجميل ، والصنع الجليل ، ما ناسب مكانه الرفيع ، وشاكله فضله من البر الذى لا يضيع ، حتى طَبَّقَ فعلُه الآفاقَ ذكرا ، وطوّق أعناق الوُرّاد والقُصّادبرا ، وكان من أجمل مابه تَحَفَّى وأتحف ، وأعظم ما بعَرْفه إلى رضا الملك العلام فى ذلك تعرف ، إذنه للمتوجهين إذ ذاك فى شراء رِباع تُوَقَّفُ على المصحفين ، ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجدِيدَيْن[2] ، فجرت أحوالُ القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد ، رَيْثما يصلحهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد ، على ما رَسَمه رحمة الله عليـه من عناية بهم متصلة ، واحترام فى تلك الأوقاف فوائدُهَا به متوفرة متحصّلة ، وقد أمرنا مؤدِّىَ هـذا لـكما لـكم ، وموفده على

---

(١) فى نسخة عند ا « على ماعهدنا »

(٢) الجديدان : الليل والنهار

جلالكم ، كاتبنا الأسنى الفقيه الأجل ، الأحظى الأكمل ، أبا المجد ، ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى ، الأرضى الأفضل ، الأحظى الأكمل ، المرحوم أبى عبد الله بن أبى مدين حفظ الله عليه رتبته ، ويسر فى قصد البيت الحرام بغيته ، بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف ، ويتعرف[1] تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف ، وأن يتخير لها مَنْ يرتضى لذلك ، ويحمد تصرفه فيما هنالك ، وخاطَبْنَا سلطانكُم فى هذا الشان ، جريا على الود الثابت الأركان ، وإعلاما بما والدكم رحمه الله تعالى فى ذلك من الأفعال الحِسان ، وكمالُكم يقتضى تخليدَ ذلكم البرالجميل ، وتجديدَ عمل ذلكم الملك الجليل ، وتشييد ما اشتمل عليه من الشكر[2] الأصيل ، والأجر الجزيل ، والتقدم بالإذن السلطانى فى إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب ، على ما يتوخاه فى ذلك الشان من طرُق الصواب ، وثناؤنا عليكم الثناء الذى يفاوحُ زهر الرُّبا ، ويطارح نغم حمام الأيك مطربا ، وبحسب المصافاه ، ومقتضى الموالاه ، نشرح لكم المتزايدات ، بهذه الجهات ، وننبئكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجناب ، وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصَّريخ ، ونادى منادٍ للجهاد عزما لمثل ندائه يُصِيخ ، أنبانا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صَوْب ، وحتم عليهم باباهُم اللعينُ التناصرَ من كل أوْب ، وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها ، وتَنْقُص بالمنازلة أرضَهَا من أطرافها ، ليمحوا كلمة الإسلام منها ، ويُقَلِّصوا ظِلَّ الإيمان عنها ، فقدمنا من يشتغل بالأساطيل من القُوَّاد ، وسرنا على إثرهم إلى سبتة مُنْتهَى المغرب الأقصى وباب الجهاد ، فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذه العدو الكفور ، وسدت أجفان

---

(١) فى أصل ا « ويتصرف تصرف الناظر عليها وما نقله-إلخ » ظاهر التحريف

(٢) فى ب « من الشراء الأصيل »

الطواغيت على التعاون مَجَازَ العُبُور ، وأتوا من أجفانهم بمـا لا يُحْصَى عدداً ، وأرصدوها بمجمع البحر حيث المجاز إلى دفع العدا ، وتقلصوا عن الانبساط فى البلاد ، واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل مَنْ جمعوه من الأعاد ، لـكننا مع انسداد تلك السبيل ، وعدم أمورٍ نستعين بها فى ذلـكم العمل الجليل ، [حاولنا][1] إمداد تلكم البلاد بحسب الجهد ، وأَصْرَخْنَاهم بمن أمكن من الجند ، وجهزنا أجفانا مختلسين فرصة الإجازة ، تتردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه ، وأمرنا لصاحب الأندلس من المـال ، بما يجهز به حركته لمداناة محلة حزب الضلال ، وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة ، وأرضخنا لهم فى النوال ما نرجو به ثواب الآخرة ، وجعلت أجفاننا تتردد فى ميناء السواحل ، وتَلِجُ أبواب الخوف العاجل ، لإحراز الأَمْن الآجل ، مشحونة بالعدد الموفورة ، والأبطال المشهورة ، والخيل المسَوَّمة ، والأقوات المقوَّمة ، فمن ناج حارب دونه الأجل ، وشهيد مضى لمـا عند الله عز وجل ، ومازالت الأجفان تتردد على ذلك الخطر ، حتى تلف منها سبع وستون[2] قطعة غزوية أجرها عند الله يُدَّخَر ، ثم لم نقنع بهذا العمل فى الأمداد ، فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله تعالى مساهمةً به لأهل تلك البلاد ، فلقى من هَوْل البحر وارتجاجه ، وإلحاح العدو ولَجَاجه ، مابه الأمثال تُضْرَب ، وبمثله يتحدث ويستغرب ، ولمـا خلص لتلك العُدْوَة بمن أبقته الشدائد ، نزل بإزاء الـكافر الجاحد ، حتى كان منه بفرسخين أو أدنى ، وقد ضرب بطعْن[3] يُصَابح العدو ويماسيه بحرب بها يُمْنَى .

وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرَارته ، وقويت فى الحرب

---

(١) كلمة « حاولنا » ساقطة من أصل ا وحده

(٢) فى نسخة « ست وسبعون »

(٣) فى أصل ا « وقد ضرب بعطن » والعطن فى الأصل : مبرك الإبل

إدارته ، يَبْلُون البلاء الأصدق ، ولا يبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء فى البعير الأورق ، إلا أن المطاولة بحصرها فى البحر مـدة ثلاثة أعوام ونصف ، ومنازلتها فى البر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف ، أدّى إلى فناء الأقوات فى البلد[١] ، حتى لم يبق لأهله قُوت نصف شهر[٢] مع انقطاع المَدَد ، و به من الخلق ما يُرْبى على[٣] عشرة آلاف دون الحُرَم والولد ، فكتب إلينا سلطانُ الأندلس يرغب فى الإذن له فى عقد الصلح ، ووقع الاتفاقُ على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح ، فأذنَّا له فيه الإذنَ العام ، إذ فى إصراخه و إصراخ مَنْ بقُطْره من المسلمين توخَّيْنَا ذلك المرام ، هنالك دُعِى النصارى إلى السلم فاستجابوا ، وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا ، فتم الصلح إلى عشر سنين ، وخرج مَنْ بها من فرسان ورجال وأهل و بنين ، ولم يرزؤا مالا[٤] ولا عُدَّة ، ولا لقوا فى خروجهم غير النزوح[٥] عن أول أرض مس الجلد ترابها شده ، ووصلوا إلينا فأجزلنا هُمُ[٦] العطاء ، وأسليناهم عماجرى بالحِباء ، فمِنْ خَيْلٍ تزيد على الألف عِتَاقُها ، وخِلَع تربى على عشرة آلاف أطواقها ، وأموال عمت الغنىَّ والفقير ، ورعاية شملت الجميع بالعيش النَّضير ، وكف الله ضر الطواغيت عما عداها ، وما انقلبوا بغير مَدَرة عفا رَسْمُها وصم صداها .

وقدكان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثغر ، أن قَدَّر[٧] لنا فتح جبل طارق من أيدى الـكفر ، وهو المُطِلُّ على هذه المَدَرَة ، والفرصة[٨] منها إن شاء الله متيَسِّرَة ، حتى[٩] يفرق عَقْد الـكفار ، و يفرج بهذه الجهة منهم مجاورو هذه الأقطار ، فلولا إجْلاَبُهم من كل جانب ، وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجميعهم من

---

(١) فى أصل ا « بالبلد » (٢) فى ب « قوت شهر »

(٣) يربى : يزيد (٤) فى أصل ا « ولم يذروا مالا ولا عدة »

(٥) في أصل ا « النزوع » (٦) فى ا « فأجزلنا لهم العطاء »

(٧) فى ا « أن قد ولينا » وفى نسخة «أن قدم لنا» وفى أخرى «أن فتح لنا »

(٨) فى ا « والفرضة » (٩) فى ا « حين يغرق»

الأجفان والمراكب ، لما بالَيْنَا بإصعاقهم ، وحللنا بعون الله عَقْدَ اتفاقهم ، ولكن للموانع أحكام ، ولا راد لما جرت به الأقلام ، وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المَدَد، وتخيرناله ولسائر تلك البلاد العُدَد والعَدَد ، وعدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وَعْثَاء السفر ، وترتبط الجياد وتنتخب العدد لوقت الظهور المنتظر ، وتكون على أُهْبَة الجهاد ، وعلى مَرْقَبَة الفرصة عند تمكنها فى الأعاد ، وعند عَوْدنا من تلك المحاوله ، تيسر الركب الحجازى مُوَجِّها إلى هنالكم رَوَاحِله ، فأصدرنا إليكم هذا الخطاب ، إصدار الود الخالص والحب اللُّبَاب ، وعندنا لكم ماعند أحْنَى الآباء(١) ، واعتقادُنَا فيكم فى ذات الله لا يخشى جديدُه من البلاء ، ومالكم من غَرَض بهذه الأنحاء ، فهو فى قصدهُ على أكمل الأهواء ، موالى تتميمهُ على أجمل الآراء ، والبلاد باتحاد الود متحدة ، والقلوبُ والأيدى على ما فيه مرضاة الله عزوجل مُنْعَقِده(٢) ، جعل الله ذلكم خالصا لرب العباد ، مدخورا ليوم التَّنَاد ، مسطورا فى الأعمال الصالحة يوم المعاد ، بمنه وفضله ، وهو سبحانه وتعالى يصل إليكم سعداً تتفاخر به سعود الكواكب ، وتتضافر(٣) على الانقياد له صدورُ المواكب ، وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب ، والسلام الأتم يخصكم كثيرا أثيراورحمة الله وبركاته ، وكتب فى يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة ، وصورة العلامة ، وكتب فى التاريخ المؤرخ .

جواب من إنشاء الصفدى

ونسخة الجواب عن ذلك من إنشاء خليل الصفدى شارح « لامية العجم » فى سادس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة، بعد البسملة ، فى قطع النصف بقلم الثلث(٤) : عبدُالله ووَلِيه ، صورة العلامة ، ولده إسماعيل بن محمد السلطان :

---

(١) أحنى الآباء: أشدهم حنوا وعطفا، وفى نسخة «ماعندأخى الآباء» وأحسبه محرفا

(٢) في أصل ا « معتضدة »

(٣) فى ا « وتتضفر » وفى نسخة « وتتظفر » وفى أخرى « وتتظافر »

(٤) فى نسخة عند ا « بعلم النسخ » ولعله محرفا عن « بقلم النسخ »

الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط [المُثَاغر](١) المظفر المنصور عماد الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل فى العالمين ، مُنْصِف المظلومين من الظالمين ، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، واهب الممالك والأمصار ، إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المنابر والأسِرَّة والتخوت والتيجان ، ظلُّ الله فى أرضه ، القائم بسنته وفَرْضِه ، مالك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، سيد الملوك والسلاطين ، جامع كلمة الموحِّدين ، ولى أمير المؤمنين ، أبو الفداء(٢) إسماعيل ابن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر [الدنيا و] الدين أبى الفتح محمد بن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون ، خلد الله تعالى سلطانه ! وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه ! يخصُّ المقامَ العالى الملك الأجلَّ الكبير المجاهدَ المؤيد المرابط المثاغر(١) المعظم المكرم المظفر المعمر الأسعد الأصعد الأوحد الأمجد الأنجد ، السنى السرى المنصور أبا الحسن على ابن أمير المسلمين أبى سعيد ابن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أمدَّه الله بالظفر ، وقَرَن عزمه بالتأييد فى الآصال والبُكَر !.

سلام وَشَّتِ البروقُ وشائعَه ، وادَّخرت الكواكبُ ودائِعَه ، واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه ، وثناء اتخذ النفحاتِ المسكيةَ طلائعه ، ونبه للتغريد فى الروض سَوَاجعه ، وجَلَّى فى كاسه من الشفق المحمر مُدَامَه ومن النجوم فَوَاقعه .

[أما] بعدَ حمدِ الله على نعم أدت لنا الأمانة فى عَوْد سلطنة والدنا الموروثة ، وأجلستنا على سرير مملكة زَرَابيُّها بين النجوم مبثوثة ، وأحسنت بنا الخلف عن سلف عهودُه فى الأعناق غيرُ منكورة(٣) ولا منكوثة ، وصلاتِه على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم فى الكفرة غاية أمله وسُوله ، صلاةً

(١) المثاغر: المقيم بالثغر ، وهو موضع المخافة ، وفى نسخة « المشاغر » تحريف
(٢) كذا فى ا ، ب ، وفى نسخة « الوليد إسماعيل »
(٣) فى نسخة عند ا « غير منكودة ولا منكوثة »

تحطُّ بالرضوان سيولها ، وتجر بالغفران ذيولها ، ما تراسَلَ أصحاب ، وتواصَلَ أحباب ، ويوضح للعلم الكريم ، ورودَ كتابكم العظيم ، وخطابكم الفائق على الدر النظيم ، تفاخر الخمائلَ سطورُه ، ويَصْبغ خدّ الورد بالخجل منثورُه ، ويحكى الرياض اليانعة فالألفاتُ غصونه والهمزات عليها طيورُه ، ويَخْلع على الآفاق حُلَل الأيام والليالى فالطِّرس صباحه والنِّقْس دَيْجُوره(١) ، لفظه يطرب ، ومعناه يعرب فيغرب ، وبلاغته تدلّ على أنه آية لأن شمس بيانها طلعت من المَغْرِب ، فاتخذنا سطوره رَيْحانا ، ورَجَّعْنا ألفاظه ألحانا ، ورَجَعنا إلى الجدّ فشبهنا ألفاته بظلال الرماح ، ووَرَقه بصِقال الصُّفَّاح ، وحروفه المفرقة بأفواه الجِراح ، وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة فى يوم الكفاح ، وانتهينا إلى ماأودعتموه من اللفظ المسجوع ، والمعنى الذى يطرب طائرُه المسموع ، والبلاغة التى فضح المتطبعَ بيانُها المطبوع .

فأما العزاء بأخيكم الوالد قدَّس الله رُوحَه وسقى عهده ، وأحسن لسَلفه خَلَفنا بعده ، فلَنا برسول الله أُسوة حسنة ، ولولا الوثوق بأنه فى عِدَّة الشهداء ما رأى القلبُ قرارَه ولا الطرفُ وَسَنَه(٢) ، عاش سعيدا يملك الأرض ، ومات شهيدا يَفُوزُ بالجنة يوم العَرْض ، قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس(٣) فى الآفاق ، ويوقف على نَضَارة حدائقه نظراتِ الأحداق ، وورثنا منه حسن الإخاء لكم ، والوفاء بعهود مودة تشبه فى اللطف شمائلكم ، وأما الهناء بوراثة ملكه ، والانخراط مع الملوك فى سِلْكه ، فقد شكرنا لكم مَنْحَى هذه المنحَه ، وقابلناها بثناء يُعَطِّر النسيمَ فى كل نَفْحَه ، ووقفنا عليها حمداً جعل الود علينا إيراده(٤) وعلى أنفاس سَرْحَة الروض

(١) النقس - بالكسر - المداد الذى يكتب به ، والديجور : الظلام الشديد ، وفى نسخة عند ا « والنقش ديجوره »

(٢) الوسن - بفتح الواو والسين جميعا - النوم

(٣) في ا « يسير سير الشمس » وفى نسخة عندها « سير السمر »

(٤) فى نسخة عند ا « أبراده »

شَرْحه ، وتحققنا به حسن ودكم الجميل ، وكريم إخائكم الذى لا يَميدُ طودُ رسوخه ولا يميل .

وأما ما ذكرتموه من أمر المصحفين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرَمَيْن المنيفين ، وأنكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجلَّ الأسنى الأسمى أبا المجد ابنَ كاتبكم أبى عبد الله بن أبى مَدْين أعزه الله تعالى لتفقد أحوالهما ، والنظر فى أمر أوقافهما ، فقد وَصَل المذكور بمن معه فى حِرْزِ (١) السلامة وأكرَمْنَا نُزُلَهُمْ ، وسهلنا بالترحيب سبلهم ، وجمعنا على بذل الإحسان إليهم شَمْلَهم ، وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه ، وسمعنا كلامه وخاطبناه ، وأمرنا فى أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم ، ورسمنا لنوابنا فى نواحى أوقافهما بما ذكرتم ، وهذا الوقف المبرورُ جارٍ على أحسن عادة ألفها ، وأثبت قاعدة عرفها ، مَرْعِىَّ الجوانب ، محمى المنازل والمضارب ، آمن من إزالة رَسْمِه ، أو إزالة حكمه ، بَدْرُه أبداً فى مطالع تمه ، وزهره دائما يرقص على (٢) كمه ، لا يزداد إلا تخليدا ، ولا إطلاق ثبوته إلا تقييدا ، ولا عُنُقُ اجتهاده إلا تقليدا ، جَرْياً على قاعدة (٣) أوقاف ممالكنا ، وعادة (٤) تصرفاتنا فى مسالكنا ، وله مزيد الرعاية ، وإفادة الحماية ، ووفادة العناية (٥) .

وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء ومالاقاه أهلُها ، ومُنى به من الكفار حَزْنُها وسَهْلُها ، فإنه شقَّ علينا سماعه الذى أنكى (٦) أهل الإيمان ، وعدَّد به نُوَبَ الزمان (٧) ، كل قلب بأنامل الخفقان ، وطالما فزتم بالظفر ، ورزقتم النصر على عدوّكم فجر ذيل الهزيمة وفرّ ، ولكن الحروب سِجال ، وكل زمان لدوائه دولة ولرجائه رجال ، ولو أمكنت المساعدةُ لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسوّمه ،

---

(١) فى نسخة عند ا « فى حزب السلامة »

(٢) فى أصل ا « يرقص فى كمه » (٣) فى ا « جريا على عادة »

(٤) فى ا « وقاعدة تصرفاتنا » (٥) فى نسخة « وقاية العناية »

(٦) فى نسخة عند ا « أبكى أهل الإيمان » (٧) فى ا « ذنوب الزمان »

وسالت على عدوّكم أباطحهُم بقسينا المعوّجة وسهامنا المقوّمه ، وكحلنا عيونَ النجوم بمرَاود الرماح ، وجعلنا ليلَ العجاج[١] ممزقا ببروق الصفاح ، واتخذنا رؤسهم لصوالج القوائم كُرَات ، وفرَجْنا مضايق الحرب بتوالى الكرّات ، وعطفنا عليهم[٢] الأعِنَّة ، وخُضْنا جداول السيوف ودُسْنا شوك الأسِنَّة ، وفلقنا الصخرات بالصرخات ، وأسَلْنَا العبرات بالرعبات ، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول ؟ وأين الثريا من يد المتناول ؟ ومالنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذى نرفعه نحن ورعايانا ، والتوجُّه الصادق الذى تعرفه[٣] ملائكة القبول من سجايانا .

وأما ما فقدتموه من الأجفان التى طرقها طيف التلاف ، وأمَّ حرَمَ فنائها الفناء وطاف به بعد الإلطاف ، فقد روّع هذا الخبر قلبَ الإسلام ، ونوّع له الحزن على اختلاف الإصباح والإظلام ، وهذه الدار ما يخلو صَفْوُها من كدر القدر ، وطالما أنامت بالأمن[٤] أوّل الليل وخاطبت بالخَطْب فى السَّحَر ، ولكن فى بقائكم ما يُسْلِى من خَطْب العطَب ، ومع سلامة نفسكم الكريمة فالأمر هين لأن الدر يفدى بالذهب .

وأما ما رأيتموه من الصلح فرأى عَقْده مبارك ، وأمر ما فيه فارط عزم وإن كان فيتدارك ، والأمر يجىء كما يحب لا كما نحب ، والحروبُ يزورها نصرها تارة ويغب ، ومع اليوم غداً ، وقد يردُّ الله الردى ، ويعيد الظفر بالعدا .

وأما عودكم إلى فاس المحروسة طلباً لإراحة مَنْ عندكم من الجنود ، وتجهيزا لمن يَصِل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود ، فهذا أمر ضرورى التدبير ، ضرورى التشمير ، لأن النفوس تمل وَثِيرَ المهاد ، فكيف ملازمة صَهَوَات الجياد ،

---

(١) فى ا « الليل العجاج » (٢) فى ا « وعطفنا إليهم الأعنة »

(٣) فى أصل ا « ترفعه ملائكة القبول »

(٤) فى نسخة « أقامت بالأمن »

وتسأم من مجالسة الشَّرْب ، فكيف بممارسة الحرب ، وتعرض عن دوام اللذة ، فكيف بمباشرة المنايا الفَذَّة ، وهذا جبَل طارق الذى فتح الله [به][1] عليكم ، وساق هدى هديته إليكم ، لعله يكون سبباً إلى ارتجاع ما شَرَد ، وحَسْما لهذا الطاغية الذى مَرَد ، ورداًّ لهذا النازل الذى قدم ورد الصبر لما ورد ، فعادة الألطاف الإلٰهية بكم معروفة ، وعَزَماتكم إلى جهات الجهاد مَصْرُوفة ، وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يَطْرُق ، وجبل يَعْصِم من سهم يمر من قِسِيِّ الكفار ويمرق .

وأما ما منحتموه من الخيل العتاق ، والملابس التى تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق ، والأموال التى زكَتْ عند الله تعالى ونمت على الإنفاق ، فعلى الله عز وجل خَلَفُها ، ولكم فى منازل الدنيا والآخرة [سَرَفُها][1] وشَرَفها ، وإليكم تُسَاق هدايا أثنيتها[2] وتحفكم تحفها ، وإذا وصل وفدكم الحاج ، وأنار له بوجه إقبالنا عليهم لياِلُهم الداج ، كانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا ، وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا يتخوَّلون تحفا أنتم سببها ، ويتناولون طرفا فى كؤس الاعتناء بهم تنضد حبَبُها[3] ، وإذا كان أوانُ الرحيل إلى الحج فَسَحْنا لهم الطريق ، وسهلنا لهم الرفيق ، وبلغناهم بحول الله تعالى مُناهم من مِنَى ، وسؤلهم ممن إذا زاروا حجرته الشريفة حازوا الراحة من العنا ، وفازوا بالغنى ، وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدَّرْب ، ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب ، وغمرناهم بالإحسان فى العَوْد إليكم ، وأمرناهم بما يُنْهُونه[4] شفاها لديكم ، وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم ، وتوفر لأخذ الثار حُماتكم ، وتخصكم بتأييد تنزلون رَوْضَه الأنضر ، وتَجْنُون به ثمر

(١) مابين المعقوفين ساقط من ا (٢) أثنية : جمع ثناء

(٣) فى ب « تنضد حبها »

(٤) ينهونه : ويبلغونه ويوصلونه

النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر ، وتتحفكم بسعد لا يَبْلَى قَشِيبُه ، وعز لا يمحو شبابَهُ مَشِيبه، وتحيته المباركة تغاديكم وتُرَاوحكم، وتفاوحكم[1] أنفاسها المعنبرة وتنافحكم ، بمنه وكرمه ، انتهى .

صورة إجازة من الصفدى

ورأيت بخط منشىء هذا الجواب الصلاح الصَّفَدى رحمه الله تعالى أثر ذكره ما نصه : أما بعد حمد الله تعالى على نعمائه ، وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه ، فقد قرأ الشيخُ الإمام العالم العامل العلامة المفيد القدوة عز[2] الدين أبو يعلى حمزة ابن الرئيس الكبير الفاضل القاضى قطب الدين موسى بن أحمد ابن شيخ السلامية الأحمدى[3] - أمتع الله بفوائده! - الكتابَ الوارد من سلطان المغرب الملك المجاهد المرابط أبى الحسن المَرِينى صاحب مراكش تغمده الله تعالى برحمته والجوابَ عنه عن السلطان الشهيد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد قدس الله تعالى رُوحَهما من إنشائى ، وأنا أسمع ذلك جميعاً من أولهما إلى آخرهما، قراءةً أطربت السمع لفصاحتها[4]، وأمالت العطف لرجاحتها .

وأخجلَتْ ورق الحمى باللوى إن صدحت فى ذروة الغصن
تكاد من لطف ومن رقة تدخل فى الأذن بلا إذن

وذلك فى مجلس واحد فى[5] ذى القعدة سنة ٧٥٦، بالجامع الأموى بدمشق المحروسة فإن رأى رواية ذلك عنى فله علو الرأى فى تشريفى بذلك ، وكتبه خليل بن أيبك الصفدى الشافعى عفا الله عنه ! انتهى .

السلطان المرينى يكتب ثلاثة مصاحف يهديها للمساجد الثلاثة

وكان السلطان أبو الحسن المرينى المذكور كتب ثلاثة مصاحف شريفة

---

(١) فى ا « وتناوحكم أنفاسها المعتبرة »

(٢) فى نسخة « فخر الدين » (٣) فى أصل ا « الحنبلى »

(٤) فى ا « لفصاحتها .. لرجاحتها »

(٥) فى ا « فى مجلس فى واحد من ذى القعدة »

بخطه ، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التى تُشَدُّ إليها الرحال(١) ، ووقف(٢) عليها أوقافا جليلة كتب توقيعه سلطان مصر والشام بمسامحتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين ابن نُبَاتة المصرى ، ونص ما يتعلق به الغرض منه هنا قوله : وهو الذى مَدَّ يمينه بالسيف والقلم فكُتِبَ فى أصحابها ، وسطر الختمات الشريفة فأيَّدَ الله حزبَه بما سطر من أحزابها ، واتصلت(٣) ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح ، وكثرت فتوحه لأملياء الغرب(٤) فقالت أوقاف الشرق لابد للفقراء من فتوح ، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدى ، وخَطَّ سطورها بالعربى وطالما خط فى صفوف الأعداء بالْهِنْدِى(٥) ، ورتب عليها أوقافاً تجرى أقلام الحساب(٦) فى إطلاقها وطَلَقها ، وحبس أملاكا شامية تحدث بنعم الأملاك التى سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها ، والله تعالى يمتع مَنْ وقف هذه الختمات بما سطر له فى أكرم الصحائف ، وينفع الجالس من ولاة الأمور فى تقريرها ويتقبل من الواقف ، انتهى .

قلت : وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة ، وهو الذى ببيت المقدس ، وربعته فى غاية الصنعة .

وصف أبى الحسن المرينى لبعض المشارقة

وقال بعض المشارقة فى حق السلطان أبى الحسن ، ما صورته : ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله ، وجرت إلى المشرق أنواء نواله ، وطابت نَسَمَاتُه ، واشتهرت عَزَمَاتُه ، كان حسن الكتابة ، كثير الإنابة ، ذا بلاغة و براعة ، وشهامة وشجاعة ، كتب بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على المساجد الثلاثة(١) ، أقام فى الملك عشر سنين وسبعة أيام ، ثم صُرف بولده أبى عنان بعد حروب يطول شرحها ، انتهى من كتاب نزهة الأنام(٧) .

---

(١) هى المسجد الحرام ، ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الأقصى

(٢) فى أصل ا « وأوقف عليها » وفى نسخة عندها « وقفا جليلا »

(٣) فى ا « واتصلت أخبار ملائكة النصر » (٤) أملياء : جمع ملى

(٥) الهندى : السيف لأنه يصنع بالهند

(٦) فى ا « أقلام الحسنات » (٧) فى نسخة « نزهة الأيام »

هدية من السلطان أبى الحسن إلى الملك الناصر

ولما ذكر الإمام الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق فى كتابه « المسند الصحيح الحسن ، من أخبار السلطان أبى الحسن » أمرَ الربعة التى أرسلها السلطانُ أبو الحسن بخطه قال ما ملخصه : وأرسل معها للسلطان الملك الناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ، ومن الزمرذ مائة وثمانية وعشرين ، ومن الزبرجد [مائة و][1] ثمانية وعشرين ، ومن الجوهر النفيس الملوكى ثلثمائة وأربعة وستين ، وأرسل حُلَلاً كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر ، ومن الإناق عشرين مذهبة ، ومن الخلادى ستة وأربعين ، ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة ، ومن المحررات المختمة ثمانمائة ، ومن الرصان عشرين شقة ، والأكسية المحررة أربعة وعشرين ، والبرانس المحررة ثمانية عشر ، والمشففات[2] مائة وخمسين ، وأحارم الصوف المحررة عشرين ، ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ، ومن الفضالى المنوعة والفرش والمخاد المنبوق[3] والحلل ثمانمائة ، وأوجه اللحف المذهبة عشرين ، وحائطان حلة وحنابل مائة واثنى عشر كلها حرير ، وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجوهر عشرة ، والسروج عشرة بركب ذهب ومهاميز ذهب كذلك[4] ، وثلاث ركب فضة ، وستة مزججة ومذهبة ، ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك ، وشاشية حرير مطوقة[5] بذهب مكلل بالجوهر ، ومن لزمات الفضة عشرة ، وسرج مخروزة بالفضة عشرة ، وعشر علامات[6] معششة مذهبة ، وعشر رايات مذهبة ، وعشر براقع مذهبة ، وعشر أمثلة مرقومة ، وثلاثين جلداً شرك ، وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة ، وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة

(١) كلمة « مائة » ساقطة من أصل ا

(٢) فى ب ونسخة عند ا « المشقفات »

(٣) فى نسخة عند ب « المنبوت » (٤) فى ب « والمهاميز الذهب كذلك »

(٥) فى ب ونسخة عند ا « وشاشية حديد بذهب » (٦) لعله « ملاءات »

لها أربعة أبواب ، وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة، وهى حرير أبيض ومرابطها حرير ملوّن وعمودها عاج وآبنوس ، وأكبارها من فضة مذهبة ، ومن البزاة الأحرار المنتقاة أربعة وثلاثين ، ومن عِتاق الخيل العِراب ثلثمائة وخمساً وثلاثين (١)، ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين ، ومن الجمال سبعمائة ، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الرَّبْعة المكرمة ، وأعطى الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ، ولقاضى الركب ثلثمائة وكسوة ، ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة و بغلات ، وللرسول المعين للهدية ألفاً ، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبى محمد صالح خمسمائة ، ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة ، و برسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة، ولشراء رَيْعٍ (٢) ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً ، انتهى .

وذكر فى الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن الموصوف أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك ، ومنها لصاحب الأندلس صلة وصدقة [وهدية] فى مرات ، ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم ، ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالى ، ومنها لصاحب إفريقية ، ومنها لصاحب تلمسان ، انتهى .

وقال مؤرخ مصر المقريزى فى كتاب « السلوك » فى سنة ٧٣٨ ما نصه : وفى ثانى عشرين من رمضان قدمت الحرة من عند السلطان أبى الحسن على ابن عثمان بن يعقوب المرينى صاحب فاس تريد الحج ، ومعها هدية جليلة إلى الغاية ، نزل لحملها من الإصطبل السلطانى ثلاثون قطارا من بغال النقل سوى الجمال ، وكان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حِجْرَةٍ (٣) ومائة فحل ومائتا بغل ،

---

(١) فى ا « وخمسة وثلاثين »

(٢) فى ا « ولشراء ربع »

(٣) الحجرة : الأنثى من الخيل ، والفصيح بغير هاء

وجميعها بسُرُج ولجم مسقطة بالذهب والفضة ، و بعضها سرجُها وركبها كلها ذهب ، وكذلك لجمها ، وعدتها اثنان وأربعون رأسا منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر ، وفيها اثنان وثلاثون بازا ، وفيها سيفٌ قُرابه [ذهب] مرصع، وحياصة(١) ذهب مرصع، وفيها مائة كساء ، وغير ذلك من القماش العال ، وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم ، وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح ، وهم جمع كثير(٢) جداً ، وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة ، ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسْرِهم على قدر مراتبهم ، حتى نفدت كلها سوى الجواهر واللؤلؤ فإنه اختص به ، فقدرت قيمة هـذه الهدية ما يزيد على مائة ألف دينار ، ثم نُقِلَت الحرة إلى الميدان بمن معها ، ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة فى كل يوم بكرةً وعشيةً ماعمهم وفضل عنهم(٣)، فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأسا من الغنم ، ونصف أردب أرز ، وقنطار حب رمان ، وربع قنطار سكر ، وثمان فانوسيات شمع ، وتوابل الطعام ، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم ، وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ، ثم خلع على جميع مَنْ قدم مع الحرة ، فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم ، حتى خلع على الرجال الذين قادوا(٤) الخيول ، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجل قدره ، وقيل لها أن تُمْلِي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء ، وإنما تريد عناية السلطان بإكرامها وإكرام مَنْ معها حيث كانوا ، فتقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد أقبغا(٥) بتجهيزها اللائق بها ، فقاما بذلك ، واستخدما لها السقائين والضوية(٦) ، وهَيَّآ كل ما تحتاج إليه فى سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبقسماط ، وطلبا الجمالة لحمل جهازها

---

(١) فى ا « وحياصته ذهب مرصع » (٢) فى أصل ا « جمع كبير »

(٣) فى ا « وفضل منهم » (٤) فى ا « قادوا الخيل »

(٥) فى أصل ا « الأمير أقتغا » (٦) فى ا « والضوئية »

وأزودتها ، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولى الجيزة ، وأمره أن يرحل[١] بها فى مركب لها بمفردها قدام المحمل ، و يمتثل كل ما تأمر به ، وكتب لأميرَىْ مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة .

وقال فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ما نصه : وفى نصف شعبان قدمت الحرة أخت صاحب المغرب فى جماعة كثيرة ، وعلى يدها كتاب السلطان أبى الحسن يتضمن السلام ، وأن يدعو له الخطباء فى يوم الجمعة ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم ، و يكتب إلى أهل الحرمين بذلك ، وذلك أن فى السنة الخالية كانت بينه و بين الفرنج وقعة عظيمة قتل فيها ولده ، ونصره الله تعالى بمنه على العدو، وقتل كثيراً منهم، وملكوا منهم الجزيرة الخضراء ، فعمر الفرنج مائتى شينى[٢]، وجمعوا طوائفهم ، وقصدوا المسلمين ،وأوقعوا بهم على حين غفلة ، فاستشهد عالم كثير ، ونجا أبو الحسن فى طائفة من ألزامه بعد شدائد ، وملك الفرنج الجزيرة ، وأسروا وسَبَوْا وغنموا شيئا يجل وصفه ، ثم مضوا إلى جهة غَرْنَاطَة ، ونصبوا عليها مائة منجنيق حتى صالحهم أهلها على قطيعة يقومون بها ، وتهادنوا مدة عشر سنين ، اه كلامه .

وقد تقدم نص هذا الكتاب الموجه من السلطان أبى الحسن فليراجع قريبا .

وقال ابن مرزوق فى « المسند الصحيح [الحسن] » بعد كلام ما ملخصه : وكان — يعنى السلطان أبا الحسن — مجتهدا فى الجهاد بنفسه وحرمه ، وجاز للأندلس برسم ذلك بنفسه ، وأظهر آثاره الجميلة ، ومنها ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد أن أنفق[٣] عليه الأموال ، وصرف[٣] إليه الجنود والحشود ، إذ كان من عمالته هو

---

(١) فى أصل ا « يدخل بها » تحريف

(٢) فى ا « شيتى »

(٣) فى نسخة « أنفقوا ... وصرفوا »

والجزيرة ورندة ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين ، وأنفق على (١) بنائه أحمال مال ، واعتنى بتحصينه ، وبنى حصنه وأبراجه وسوره وجامعه ودوره ومخازنه ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا ، فصبر المسلمون صبر الكرام ، فخيب الله تعالى أمل العدو ، وعاد خاسرا (٢) ، والمنة لله ، فرأى أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو فى منازلته ، ولا يجد سبيلا للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال ، وأما بناؤه للمحاسن والطوالع فأمر غير مجهول ، اه .

من إنشاء لسان الدين ابن الخطيب

وقد رأيت أن أذكر هنا بعض إنشاء لسان الدين بن الخطيب فى شأن ما يتعلق بجبل الفتح وغيره من بلاد الأندلس ، وحال العدو الكافر ، وما ينخرط فى هذا السلك : فمن ذلك على لسان سلطانه يخاطب به أحد السلاطين من أولاد السلطان أبى الحسن المرينى ، ونصه :

إلى أحد أبناء أبي الحسن المرينى

المقامُ الذى يُصْرِخ ويُنْجِد (٣) ، ويُتهِم فى الفضل ويُنجد (٤) ، ويُسْعف ويسعد ، ويبرق فى سبيل الله ويرعد ، فيأخذ الكفر من عزماته المقيمُ المُقْعِد ، حتى ينجز من نصر الله تعالى المَوْعِد ، مقامُ محل أخينا الذى حسنُ الظن بمجده جميل ، وحَدُّ الكفر بسَعْده كَليل ، وللإسلام فيه رجاء وتأميل ، ليس للقلوب عنه مَميل ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى وعزمه الماضى لصَوْلة الكفر قامعا ، وتدبيره الناجح لشَمْل الإسلام جامعا ، ومُلْكه الموفَّق لنداء (٥) الله مطيعا سامعا ، معظم مقداره ، وملتزم إجلاله وإكباره ، المعتدُّ (٦) فى الله بكرم شيمته وطيب

---

(١) فى نسخة «وأنفقوا فى ذلك» (٢) فى ا «وحار خاسراً» وفى نسخة «وحاد»
(٣) يصرخ : يغيث ، وينجد هنا بمعناه (٤) ينجد ، هنا : يدخل نجدا
(٥) فى ا «لدين الله» (٦) فى نسخة «المعتمد»

نجاره ، المستظهر على عدوّ الله بإسراعه إلى تدمير الكافر وبداره .

سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله مجيب دعوة السائل ، ومُتَقَبِّل الوسائل ، ومُتيح[1] النعم الجلائل ، مُربح[2] مَنْ عامله فى هذا الوجود الزائف الزائل ، والأيام القلائل ، بالمتاع الدائم الطائل ، والنعيم غير الحائل ، ومقيم أَوَدِ الإسلام المائل ، بأولى المكارم من أوليائه والفضائل ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المنقذ من الغوائل ، المُنْجى من الرَّوْع الهائل ، الصادع بدَعْوة الحق الصائل ، بين العشائر والفَصَائل ، الذى ختم به وبرسالته ديوان الرسل والرسائل ، وجَعَله فى الأواخر شرف الأوائل ، فحبه كنز العائل ، والصلاة عليه زكاة القائل ، والرضا عن آله وصحبه وعترته وحزبه تيجان الأحياء والقبائل ، المتميزين بكرم السجايا وطيب الشمائل ، والدعاء لمقام أخوّتكم فى البُكَر والأصائل ، بالسعد الصادق المخايل ، والصنع الذى تتبرج مواهبه تبرج العقائل ، والنصر الذى تهز له الصِّعاد المُلْد عطف المترانح المتخايل ، فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم عزاً يانع الخمائل ، ونصرًا يكفل للكتائب المدونة فى الجهاد ومرضاة رب العباد بسَرْد المسائل وإقناع السائل ، من حَمْرَاء غَرْنَاطة حرسها الله تعالى ! ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استبصار فى التوكل على من بيده الأمور ، وتسبب مشروع تتعلق به بإذن الله تعالى أحكام القدر المقدور ، ورجاء فيما وعد به من الظهور ، يتضاعف على توالى الأيام وترادف الشهور ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلا فَضْله ، ومقامكم المعروف محله ، الكفيلُ بالإرواء نَهَلُه وعَلُّه ، وإلى هذا وَصَل الله تعالى سعدكم ، وحرس مجدكم ، ووالى النعم عندنا [وعندكم] ، فإننا فى

---

(١) فى أصل ا « ومنيح النعم » بالنون مكان التاء ، تحريف

(٢) فى أصل ا « مريح »

هذه الأيام، أهمنا من أمر الإسلام، ما رنّق الشراب[١] ونغص الطعام، وذاد المنام[٢]، لما تحققنا من عمل الكفر على مكايدته، وسعى الضُّلَّال، والله الواقى، فى استئصال بقيته، وعقد النوادى للاستشارة فى شانه، وشروع الحيل فى هدّ أركانه، ومَنْ يؤمَّل من المسلمين لدفع الردى وكشف البلوى وبث الشكوى، وأهله حاطهم الله تعالى وتولاهم، وتمم عوائد لطفه الذى أولاهم، فهو مولاهم، فى غفلة ساهون، وعن المغبة[٣] فيه لاهون، قد شغلتهم دنياهم عن دينهم، وعاجلُهم عن آجلهم، وطولُ الأمل، عن نافع العمل، إلا مَنْ نوَّرَ الله تعالى قلبَه بنور الإيمان وتململ بمناصحة الله تعالى والإسلام تململ السليم، واستدل بالمشاهد على الغائب، وصرف الكفر إلى مطالب الأمم النوائب، فلما رأينا أن الدولة المرينية التى على ممر[٤] الأيام شَجَا العِدَا، ومتوعد من يكيد الهدى، وفِئة الإسلام التى إليها يتحيز، وكَهْفُه الذى إليه يلجأ، قد أذن الله تعالى فى صلاح أمورها، ولَمِّ شعثها، وإقامة صفاها[٥]، بأن صَرَف الله تعالى عنها هَنَات الغدر، وأراحها من مس الضر، ورد قوسها إلى يد باريها، وصير حقها إلى وارثها، وأقام لرَعْى مصالحها مَنْ حَسُنَ الظنُّ بحَسَبه ودينه، ورُجِى الخير من ثمرات نصحه، ومَنْ لم يعلم إلا الخيرُ [من سَعْيِه] والسداد من سيرته، ومَنْ لا يستريب المسلمون بصحة عقده، واستقامة قصده، أردنا أن نخرج لكم عن العهدة فى هذا الدين الحنيف الذى وَسَمَتْ دعوته وجوه أحبابكم شملهم الله تعالى بالعافية، وتشبثت به أنفسُ مَنْ صار إلى الله تعالى من السلف تغمدهم الله بالرحمة والمغفرة، وفى هذا القطر الذى بلاده ما بين مكفول يجب رَعْيُه طبعا وشرعا، وجار يلزم حقه دينا ودنيا وحمية وفضلا، وعلى الحالين

---

(١) رنق الشراب : كدره (٢) ذاد المنام : منعه وطرده

(٣) المغبة : العقبى (٤) فى ا « على مر الأيام »

(٥) فى أصل ا « وإقامة صغاها » والصغا : الميل

فعليكم بعد الله المُعَوَّل ، وفيكم المؤمل ، فأرْعُونا أسماعَكم المباركة نَقُصَّ عليكم ما فيه رضا الله ، والمَنْجَاة من نكيره ، والفخر والأجر وحفظ النعم ، والخلف فى الذرية ، بهذا وعدت الكتب المنزلة ، والرسل المرسلة ، وهو أن هذا القطر الذى تعددت فيه المحاريب[1] والمنابر ، والراكع والساجد والذاكر ، والعابد[2] والعالم واللفيف ، والأرملة والضعيف ، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام ، وشحت الأيدى به منذ أعوام ، وسلم إلى عبدة الأصنام ، وقوبلت ضرائره بالأعذار ، والمواعيد المستغرقة للأعمار ، وإن عَرَضت شواغل وفتن ، وشَوَاغب وإحن ، فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بجملته ، ولا يذهب المعروف بكليته :

ولا بد من شَكْوَى إلى ذى مروءة يُوَاسيك أو يُسْليك أو يَتَوَجَّعُ[3]

ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدَّسُ والدُّكم جبلَ الفتح وهو منازل أخاه بسجلماسة[4] ، ولا أمدَّه ولده السلطان أبو عنان وهو بمراكش ، وبالأمس بعثنا إلى الجبل وسماته فى جملة ما أهمنا مبلغ جهد وسدَاد من عَوَز ، وقد فضلت عن ضرائرنا أموال فرضت من أجل الله على عباده ، وطعام سَمَحْنا به على الاحتياج إليه فى سبيل جهاده ، فلم يسهم المتغلب منها لجانب الله بحبة ، ولا أقطعه منها ذرة مستخفا به جل وعلا ، متهاونا بنكيره الذى هو أحق أن يخشى ، فضاعت الأمور ، واختلت الثغور ، وتشذبت الحامية ، وتبدَّدت العدد ، وخَلَت المخازن ، وهلكت بها الجراذن ، وعظمت بها حسرة الإسلام ، أضعاف ما عظمت حبرته أيام ما كانت تكفلها همم الملوك الكرام والخلفاء العظام ، والوزراء والنصحاء ، والأشياخ الأمجاد ، قدَّس الله تعالى أرواحهم ! وضاعف أنوارهم !

---

(١) فى ا « المحارب » والمفرد محراب

(٢) فى ا « والراكع والساجد والعابد والذاكر »

(٣) فى ا « أو يتفجع » (٤) فى ا « بسلجماسة »

ولا كالحسرة فى الجبل باب الأندلس وركاب الجهاد وحسنة بنى مَرين ومآثر آل يعقوب وكرامة الله للسطان المقدّس أبى الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذى تَرِدُ على قبره مع الساعات والأنفاس وُفُودُ الرحمة ، وهدايا الزلْفَة ، وريحان الجنة ، فلولا أنكم على علم من أحواله لشَرَحْنا المجمل ، وشكلنا المهمل ، إنما هو اليوم شيخ مائد[1] ، وطلل بائد ، لولا أن الله تعالى شغل العدا عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلا إليه ، ولا حوّم طيره إلا عليه ، ولكان بصَدَد أن يتخذهُ الصليب دارا ، وأن يقرب به عينا ، والعدوة فضلا عن الأندلس ، قد أوسعها شرا ، وأرهق ما يُجاوره[2] عُسْرا ، نسأل الله تعالى بنوره وجهه أن لا يسوّد الوجوه بالفَجْع فيه ، ولا يسمع المسلمين الثكلة ، وما دونه فهو ــ وإن أنعش بالتعليل[3] عليه ، ووقع بالجهد خلقه ــ لحم على وَضَم ، إلا أن يصل الله تعالى وقايته ، ويوالى دفاعه وعصمته ، لا إله إلا هو الولى النصير ، وما زلنا نشكو إلى غير المصمت ، ونمدّ اليد إلى المُدْبر عن الله المعرض ، ونخطب له زكاة الأموال من المبانى الضخمة ، والخزائن الثرّة ، والأهْرَاء الطامية ، والحظ التافه من المفترض برسمه ، فتمضى الأيام لا تزيد الضرائر فيها إلا ضيقا ، ولا الأحوال إلا شدَّة ، ولا الثغر إلا ضعة ، ولا نعلم أن نظرا وقع له ولا فكرا أعمل فيه إلا ما كان من تسخير رعيته الضعيفة ، و بلالة محباه[4] السخيفة ، فى بناء قصر بمنت ميور من جباله :

شاده مَرْمَرًا وجَلَّله كلساً فللطَّيْر فى ذَرَاهُ وُكور[5]

جلب إليه الزليج ، واختلفت فيه الأوضاع فى رأس نِيقٍ ، لأمل نَزْوَة ، وسوء فكرة ، فلما تم أقطع الهجران ، فهو اليوم ممتنع البوم وحظ الخراب ، فلا حول

---

(١) كذا فى ب ، وفى ا « شيخ مائل » وفى نسخة عندها « شبح مائل » ولعل الأصل فى هذه الكلمة « شبح مائل »

(٢) فى نسخة « وأرهق ما يجاوزه »

(٣) فى نسخة « أنعش بالتعليل عليه »

(٤) فى أصل ا « وبلالة محياه السخيفة »

(٥) البيت لعدى بن زيد العبادى

ولا قوة إلا بالله ، حتى جاء أمر الله خالى الصحيفة من البر ، صفر اليد من العمل الصالح ، نعوذ بالله من ذلك[١] ، ونسأله الإلهام والسَّدَاد ، والتوفيق والرشاد ، وقد بذلنا جَهْدَنَا قولا وفعلا ، ومَوْعظة ونصحا ، واستدعينا لتلك الجهة صدقة المسلمين محمولة على أكتاد[٢] العباد الضعفاء الذين كانت صدقات فاتحيه رضى الله تعالى عنهم ترفدهم ، ونوافلهم[٣] تتعهدهم ، فما حرك ذلك الجُؤار[٤] حلوبا ، ولا استدعى مطلوبا ، ولا رفداً مجلوبا ، فإلى متى تُنْضَى ركاب الصبر وقد بلغ الغاية ، واستنفد البلالة بعد أن أعاد الله تعالى العهد ، وجبر المال ، وأصلح السعى ، وأجرى ينابيع الخير ، وأنشق رياح الإقالة ، وجُمْلَة ما نريد أن نقرره فهو الباب الجامع ، والقصد الشامل ، والداعى والباعث أن صاحب قَشْتالة لما عاد إلى ملـكه ، ورجع إلى قطره ، جرت بيننا و بينه المراسلة التى أسفرت بعدم رضاه عن كَدْحنا لنصره ، ومظاهرتنا إياه على أمره ، و إن كنا قد بلغنا جهدا ، وأبعدنا وُسْعا ، وأجلت عن شروط ثقيلة لم نقبلها ، وأغراض صعبة لم نكملها ، ونحن نتحقق أنه إما أن تهيج حفيظته ، وتثور إحْنَته ، فيكشف وجه المطالبة مستكثرا بالأمة التى داس بها أهل قشتالة ، فراجع أمره غلابا ، وحقه ابتزازا واستلابا ، أو يصرفها ويهادن المسلمين بخلال مالايدع جهة من جهات دينه الغريب إلا عقد معها صلحا ، وأخذ عليها بإعانتها إياه عهدا ، ثم تفرغ إلى شفاء غليله ، و بلوغ جهده ، ولا شك أنها تجيبه صَرْفًا لبأسه عن نحورها ، ومُقَارضة[٥] كما وقع باطريرة[٦] من مضيق صدورها ، ومؤسف جمهورها ، وكل من له دين مافهو يحرص[٧] على التقرب إلى مَنْ دانه به وكلفه

---

(١) فى أصل ا « نعوذ بالله بالله من نكيره »

(٢) فى نسخة « أكباد العباد » وفى أخرى « أكتاف »

(٣) فى أصل ا « ونوافله تتعهدهم »

(٤) فى أصل ا « ذلك الجواز » وفى نسخة « الجوار »

(٥) فى أصل ا «ومقارضته» وفى نسخة « ومعارضته »

(٦) فى نسخة عند ا « باطرني » (٧) فى نسخة « يحرض »

وظائفَ تكليفٍ ، رجاء لوعده وخوفا من وعيده ، وبالله ندفع مالا نطيق من جموع تداعت من الجزر ووراء البحور والبر المتصل الذى لا تقطعه الرفاق[1] ، ولا تحصى ذرعه الحذاق ، وقد أصبحنا بدار غُرَبة ، ومحل روعة ، ومفترس نبوة ، ومظنة فتنة ، والإسلام عدده قليل ، ومنتجعه فى هـذه البقعة جديب ، وعهده بالإرفاد والإمداد من المسلمين بعيد ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ـ إلى آخر السورة .

وإذا تداعت أمم الـكفر نصرة لدينها المـكذوب ، وحمية لصليبها المنصوب ، فمن يستدعى لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن ؟ حيث المآذن بذكر الله تعالى تملأ الآفاق ، وكلمة الإسلام قد عمت الربا والوِهاد ، إنما الإسلام غريق قد تشبَّثَ بأهدابكم ، يناشدكم الله فى بقية الرمَق ، وقبل الرمى تُرَاش السهام[2] ، وهذا أوان الاعتناء ، واختيار الحماة ، وإعداد الأقوات ، قبل أن يضيق المجال ، وتمنع الموانع ، وقد وجهنا هـذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم مُقَرِّرا الضرورة ، منهيا الرغبة ، مذكرا بما يقرب عند الله ، مذكِّرا لذمام الإسلام ، جالبا[3] على مَنْ وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التى تشرح الصدور ، وتسنى الآمال ، وتستدعى الدعاء والثناء ، فالمؤمن كثير بأخيه ، ويد الله مع الجماعة ، والمسلمون يدٌ على مَنْ سواهم ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، والتعاون على البر والتقوى مشروع ، وفى الذكر الحـكيم مذكور ، وحق الجار مشهور ، وما كان جبريل يوصى به فى الصحيح مكتوب ، وكما راع المسلمين اجتماع كلمة الـكفر ، فنرجو أن يروِّع الـكفر من العز بالله ، وشَدِّ الحيازيم فى سبيل الله ، ونفير النفرة لدين الله ، والشعور لحماية[4] الثغور وعمرانها ، وإزاحة عللها ،

---

(١) فى نسخة عند ا « الرقاق »

(٢) هذا مثل معناه يجب الاستعداد للأمر والتهيؤ له وأخذ عدته

(٣) فى نسخة عند ا « جاليا على من وراءهم »　　(٤) فى ا « فى حماية الثغور »

وجلب الأفوات إليها ، و إنشاء الأساطيل ، وجبر ما تلف من عدة البحر أمور تدل على ما وراءها ، وتخبر بمشيئة الله تعالى عما بعدها ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى . ومن خطب على رضى الله تعالى عنه : أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رهبة ألبسه الله تعالى سِيمَا الخسفِ ، ووَسَمه بالصَّغار ، وما بعد الدنيا إلا الآخرة ، وما بعد الآخرة إلا إحدى دارى البقاء ، أفى الله شك ؟ ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ، والاعتناء بالجبل عنوان هذا الكتاب ، ومقدمة هذا الباب ، والغفلة عنه منذ أعوام قد صيرتنا لا نقنع باليسير ، وقد أبرمته المواعيد ، وغَيَّر رسومه الانتظار ، ومن المنقول « ارحموا السائل ولو جاء على فرس » والإسراف فى الخير أرجح فى هذا المحل من عكسه ، وكان بعض الأجواد يقول وقد أقتر : اللهم هَبْ لى الكثير ، فإن حالى لا تقوم على القليل ، وعسى أن يكون النظر له بنسبة الغفلة عنه ، والامتعاض له مكافئا للازراء به ، وخلو[1] البحر يغتنم لإمداده و إرفاده[2] ، قبل أن يثوب نظر الكفر إلى قطع المدد وسد البحر ، ومن ضيع الحزم ندم ، ولا عذر لمن علم ، والله عز وجل يطلع من قبلكم على ما فيه شفاء الصدور ، وجَبْر القلوب ، وشَعْب الصدوع ، وما نقص مال من صدقة ، وطعام الواحد كافى الاثنين[3] ، والدين دينكم ، والبلاد بلادكم ، ومحل رباطكم وجهادكم ، وسُوق حسناتكم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وقد قلدنا العهد الحفيظ علينا ، المصروف العناية بفضل الله تعالى إلينا ، والله المستعان ، وعليه التكلان ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

---

(١) فى نسخة عند ا « وجلو البحر » تحريف

(٢) فى نسخة عند ا « وإرقاده » تحريف

(٣) فى أصل ا « كاف لاثنين »

وفى اعتقادى أن هذا المكتوب للسلطان أبى فارس عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن المَرِينى ؛ وأن المراد بالمتغلب الوزير عمر بن عبد الله الذى ظفر به أبو فارس المذكور واستقل بالملك بعد محاوأته ؛ حسبما ذكرناه فى غير هذا المحل ؛ والله سبحانه أعلم .

من إنشاء لسان الدين لاستنهاض صاحب فاس

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه فى استنهاض عزم صاحب فاس السلطان المرينى لنصرة[1] الأندلس ، مانصه : المقام الذى يؤثر حظ الله إذا اختلفت الحظوظ وتعدّدت المقاصد ، ويشرع الأدنى منه إذا تفاضلت المشارع وتمايزت الموارد ، وتشمل عادةُ حلمِهِ[2] وفضله الشارد ، ويَسَع وارفُ ظله الصادرَ والوارد ، والغائب والشاهد ، ويعيد من نصر الله للإسلام العوَائد ، ويسدُّ الذرائع ويدرُّ الفوائد ، مقامُ محل أخينا الذى حسنت فى الملك سِيَرُه ، وتعاضد فى الفضل خُبْره وخَبَرُه ، ودلت شواهد مداركه للحقوق ، وتغمده للعقوق[3] ، على أن الله تعالى لا يهمله ولا يَذَره ، فسِلْكُ فخره متسقة درره ، ووجه ملكه شادخة غُرَرُه ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله رفيعاً علاؤه ! هامية لديه مِنَنُ الله تعالى وآلاؤه ! مزدانة بكواكب السعد سماؤه ! محروسةً بعز النصر أرجاؤه ! مكملا من فضل الله تعالى فى نصر الإسلام ، وكَبْت عبدة الأصنام ، أملُه ورجاؤه ! معظم قدره الذى يحق له التعظيم ، وموقر سلطانه الذى له الحسب الأصيل والمجد الصَّميم ، الداعى إلى الله تعالى باتِّصال سعادته حتى ينتصف من عدوّ الإسلام الغريم[4] ، ويُتاح على يد[5] سلطانه الفتح الجسيم ، فلان .

سلام كريم ، طيب عميم ، ورحمة الله و بركاته .

---

(١) فى نسخه عند ا « لسلطان الأندلس » تحريف

(٢) في نسخة « عادة حكمه »

(٣) فى نسخة « وتعمده » تحريف يفسد المعنى

(٤) فى نسخة عند ا « العزيم » (٥) فى ا « على يدى سلطانه »

أما بعدَ حمدِ الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يخيب لمن أخلص الرغبةَ إليه أملا ، ومُوفِى مَنْ ترك له حقه أجره المكتوب متمما مكملا ، وجاعل الجنة لمن اتقاه حق تقاته نُزُلَا ، ملك الملوك الذى جل وعلا ، وجبار الجبابرة الذى لا يَجِدُون عن قدره مَحيصاً ولا من دونه مَوْئلا ، والصلاةِ والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى أنزل الله تعالى عليه(١) الكتاب مُفصَّلا ، وأوضح طريق الرشد وكان مُغفَلا ، وفتح باب السعادة ولولاه كان مُقْفَلا ، والرضا عن آله وأصحابه ، وعِتْرَتِهِ وأحزابه ، الذين ساهموه فيما مرَّ وما حَلا ، وخَلَفُوه من بعد بالسِّيَر التى راقت مجتلى ، ورفعوا عمادَ دينهِ فاستقام لا يعرف مَيلاَ ، وكانوا فى الحلم والعفو مثلا ، والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذى يلفى نصه صريحاً لا متأوّلا ، والصنع الذى يبهر حالا ومستقبلا(٢) ، والعز الذى يَرْسُو جبلا ، والسعد الذى لا يبلغ أمداً ولا أجلا ، فإنا كتبناه إليكم أصْحبَ الله تعالى ركابكم حلف التوفيق(٣) حِلاًّ ومُرْتحَلا ، وعرفكم عَوارف اليمن الذى يثير جَذَلاَ ، ويدعو وافد(٤) الفتح المبين فيرد(٥) مستعجلا ، من حمراء غَرْنَاطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من التشيع لمقامكم حرس الله تعالى سلطانه ، ومَهَّد أوطانه ، إلا الخير الذى نسأل(٦) بعده تحسين العُقْبَى ، وتوالى عادة الرحمى ، والحمد لله على التى هى أزكى ، وسدل جناح الستر الأضفى(٧) ، وصلة اللطائف التى هى أنفل وأكفى ، وأبر وأوفى ، ومقامكم عندنا العُدَّة التى بها نصول ونُرْهِب ، والعمدة التى نُطِيل فى ذكرها ونُسْهِب ، وقد أوفدنا عليكم كل ما زاد لدينا ، أو فتح الله تعالى به علينا ، ونحن مهما شد المخنق بكم نستنصر ، أو تراخى ففى ودكم نستبصر ، أو فتح الله تعالى فأبوابكم

---

(١) فى ا « الذى أنزل عليه الكتاب مفصلا »

(٢) فى نسخة عند ا « الذى يبهر لما ومتقبلا » تحريف فى الكلمتين

(٣) فى أصل ا « حليف التوفيق » (٤) فى نسخة « وفد الفتح »

(٥) فى أصل ا « ويرد مستعجلا » (٦) فى نسخة « تسأل » بالبناء للمجهول

(٧) فى ا « الأصفى » وفى نسخة « الأطفى » وفى أخرى « الأضغي »

نهنى ونبشر ، وقررنا عندكم أن العدوّ فى هذه الأيام توقف عن بلاد المسلمين فلم تصل منه إليها سَرِيَّة ، ولا بطشت له يد جَرِيَّة[1] ، ولا افترعت من تلقائه ثَنِيَّة ، ولا ندرى ألمكيدة تدبر ، أم آراء تنقض بحول الله وتُتَبَّر ، أو لشاغل فى الباطن لا يظهر ، و بعد ذلك وردت على بابنا مِنْ بعض كبارهم ، وزعماء أقطارهم ، مخاطبات يندبون فيها إلى جنوحها للسلم فى سبيل النصح ، لأيادٍ سلفت مِنّاً لهم قررها ، ورسائل ذكرها ، فلم يَخْفَ عنا أنه أمر دُبِّر بلَيْل ، وخبيئة تحت ذيل ، فظهر لنا أن نَسْبُرَ الغَوْر ، ونستفسر الأمر ، فوجهنا إليه ، على عادتنا مع سلفه لنعتبر ما لديه ، وننظر إلى بواطن أمره ، ونبحث عن زَيْد قومه وعَمْره ، فتأتى ذلك وجر مفاوضة فى الصلح أعدنا[2] لأجلها الرسالة ، واستشعرنا البَسَالة ، ووازنا الأحوال واختبرنا ، واعتززنا[3] فى الشروط مما قَدَرْنَا ، ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل بها الأقوات المهيأة للانتساف ، وتسكن ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف ، ونفرغ الوقت[4] لمطاردة هذه الآمال العِجَاف ، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته ، حتى يظهر الله تعالى فى نصر الفئة القليلة آيته ، ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أردناه ، وشموخ الأنف فيما أصدرناه ، إلا ما أَشْعَنَا من عزمكم على نصرة الإسلام ، وارتقاب خفوق الأعلام ، والنهوض إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن الأرض حميةً لله تعالى قد اهتزت ، والنفرة[5] قد غلبت النفوس واستفزت ، واستظهرنا بكتبكم التى تضمنت ضرب المواعد ، وشمرت عن السواعد ، وأن الخيل قد أطلقَتْ إلى الجهاد فى سبيل الله الأعِنَّة ، والثنايا سدتها بروق الأسِنَّة ، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون ، والأموال قد سمح بها المسلمون ، وهذه الأمور التى

(١) جرية : أصلها جريئة ، فقلب الهمزة ياء ثم أدغمها فى الياء كما قالوا : خطية ورزية

(٢) فى أصل ا « أعددنا لأجلها الرسالة »

(٣) فى نسخة عند ا « وأعززنا فى الشروط » وفى أخرى « واعتذرنا »

(٤) فى أصل ا « ونقرع الوقت » وفى نسخة « ونفزع الوقت »

(٥) فى ا « والنعرة »

تمشت بقريبها أو بعيدها أحوال الإسلام ، والأمانى المعدة لتزجية[1] الأيام ، ثم اتصل بنا الخبر الكارث[2] بما كان من حَوْر العزائم المؤمنة بعد كَوْرها ، وتسويف مواعد النصرة بعد استشعار فوْرِها ، وأن الحركة مُعْمَلة إلى مراكش الجهة التى فى يديكم زمامُها ، و إليكم وإن تراخى الطول ترجع أحكامُها ، والقطر الذى لا يفوتكم[3] مع الغفلة ، ولا يعجزكم عن الصولة ، ولا يطلبكم إن تركتموه ، ولا يمنعكم إن طرقتموه وعَركتموه ، فسُقِط فى الأيدى الممدودة ، واختلفت المواعد المحدودة ، وخسئت الأبصار المرتقبة ، ورجفت[4] المعاقلُ الأشِبَة ، وساءت الظنون ، وذَرَفَت العيون ، وأكذب الفضلاء الخبر ، ونفوا أن يعتبر ، وقالوا : هذا لا يمكنَ حيث الدين الحنيف ، والملك المنيف ، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم ، وحَمَّل النصيحة أعناقهم ، هذا المفترض الذى يبعد ، والقائم الذى يقعد ، يأباه الله تعالى والإسلام ، وتأباه العلماء الأعلام[5] ، وتأباه المآذن والمنابر ، وتأباه الهمم والأكابر ، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبأ الذى إذا كان باطلا فهو الظن ، ولله المن ، وإن كان خلافه لرأى ترجَّحَ ، وتنفقَ بقرب الملك وتبجح[6] ، فنحن نوفد كل من يقدم إلى الله تعالى بهذا القطر فى شفاعه ، و يمد إليه كف ضَراعه ، ومن يُوسَمُ بصَلاَحِ وعباده ، و يقْصِد فى الدين بَثَّ إفاده ، يتطارحون عليكم فى نقض ما أبرم ، ونسخ ما أحكم ، فإنكم تجنون به على من استنصركم عكسَ ما قَصَد ، وتحلون عليه ما عَقَد ، وهب العذر يقبل فى عدم الإعانة ، وضرورة الاستعانة والاستكانة ، أى عذر يقبل فى الاطراح ، والإعراض الصُّراح ؟ كأن الدين غير واحد ، كأن هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد ، كأن ذمام الإسلام غير جامع ، كأن الله غير راء

---

(١) فى نسخة عند ا « لترجية الايام » وفى أخرى « لترخية »

(٢) فى نسخة « الخبر الكاذب » (٣) فى نسخة « لايفوتكم »

(٤) فى أصل ا « ورجعت المعاقل » تحريف (٥) فى ا « العلماء والأعلام »

(٦) فى أصل ا « وتنجح »

ولا سامع ، فنحن نسألكم بالله الذى تَسَاءلُونَ به والأرحام ، ونأنف(١) لكم من هذا الإحجام ، ونتطارح عليكم أن تتركوا حظكم فى أهل تلك الجهة حتى يحكم الله بيننا و بين العدو الذى يتكالَبُ علينا بإدباركم ، بعد ما تضاءل لاستنفاركم ، ولا نكلفكم غير اقتراب داركم ، وما سامكم المسلمون بها شَطَطاً ، ولا(٢) حملوكم إلا قَصْدًا وسطا ، وما ذهبتم إليه لا يفوت ، ولا يبعد وقد تجاورت البيوت ، إنما الفائت(٣) ما وراءكم ، من حديث تأنف من سماعه أوِدَّاؤكم ، ودين يشمت به أعداؤكم ، فأسعفوا بالشفاعة فيمن بتلك الجهة المراكشية قصدنا ، وحاشا إحسانكم أن يرى فيه رَدَّنا ، وأنتم بعدُ بالخيار فيما يجريه الله على يديكم من قَدَرِه ، أو يلهمكم إليه من نَصْره ، وجوابكم مرتقب بما يليق بكم ، ويجمل بحسبكم ، والله سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس(٤) مجدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

ومن إنشاء لسان الدين أيضا فى مخاطبة سلطان فاس والمغرب على لسان سلطان غرناطة فيما يقرب من الأنحاء السابقة ، ما نصه :

من إنشاء لسان الدين فى المعنى عينه

المقامُ الذى أقمارُ سعدِهِ فى انتظام واتِّساق ، وجيادُ عزه إلى الغاية القصوى ذاتُ استباق ، والقلوب على حبه ذات اتفاق ، وعِناية الله تعالى عليه مديدة الرِّوَاق ، وأياديه الجمة فى الأعناق ، ألزم من الأطواق ، وأحاديث مجده سَمَرُ النوادى وحديث الرفاق ، مقامُ محل أبينا الذى شأنُ قلوبنا الاهتمامُ بشانه ، وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى والصنائع الإلٰهية تحطُّ ببابه ، والألطاف الخفية تُعرِّسُ فى جنابه ، والنصر العزيز يحفُّ بركابه ، وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه ، والقلوب الشجية لفراقه

(١) في أصل ا « وتأنف من هذا الإحجام »

(٢) فى ا « وما حملوكم »

(٣) فى نسخة عند ا « إنما الغائب »

(٤) فى ا « ويجرى مجدكم »

مسرورة باقترابه(١) ، معظم سلطانه الذى له الحقوق المحتومة ، والفواضل المشهورة المعلومة ، والمكارم المسطورة المرسومة ، والمفاخر المنسوقة المنظومة ، الداعى إلى الله تعالى فى وقاية ذاته المعصومة ، وحفظها على هذه الأمة المرحومة ، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر .

سلام كريم ، طيب برّ عميم ، كما سَطَعَتْ فى غَيْهَب الشدة أنوار الفرج ، وهبت نواسم ألطاف الله عاطرة الأرَج ، يخص مقامَكم الأعلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله جالى الظلم بعد اعتكارها، ومُقِيل الأيام من عِثارها ، ومُزَيِّن سماء الملك بشموسها المحتجبة وأقمارها ، ومريح القلوب من وَحْشة أفكارها ، ومنشىء سحاب الرحمة على هذه الأمة بعد افتقارها ، وشدة اضطرابها واضطرارها، ومُتَدَارِكها باللطف الكفيل بتمهيد أوطانها وتيسير أوطارها ، والصلاة والسلامِ على سيدنا ومولانا محمد رسوله صفوة النبوّة ومُخْتَارها، ولُبَاب مجدها السامى ونِجَارها(٢)، نبى الملاحم وخائض تيَّارها ، ومُذْهِب رسوم الفتن ومطفىء نارها ، الذى لم تَرُعْهُ الشدائد باضطراب بحارها ، حتى بلغت كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها ، ووضوح آثارها ، والرضا عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على إجلاء الحوادث وإمرارها، وباعُوا نفوسَهم فى إعلاء دَعْوته الحنيفية وإظهارها، والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال السعادة واستمرارها ، وانسحاب العناية الإلهية وإسدال أستارها ، حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها ، وتعرض على مَثَابتكم ذنوبَها راغبة فى اغتفارها، فإنا كتبناه إليكم(٣) كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتَبَ لصالحى الملوك من مواهب إسعاده ، وعَرَّفكم عوارف الآلاء فى إصدار أمركم الرفيع وإيراده ، وأجرى الفلك

---

(١) فى ا « مسرورة بإيابه »

(٢) فى أصل ا « وبحارها » تحريف

(٣) فى نسخة عند « كتبناه إليه »

الدوّار بحكم مراده ، وجعل العاقبة[١] الحسنى كما وعد به فى محكم كتابه المبين للصالحين من عباده ، من حمراء غَرْناطة حرسها الله تعالى ، وليس بفضل الله الذى عليه فى الشدائد الاعتماد ، وإلى كَنَف فضله الاستناد ، ثم ببركة جاه[٢] نبينا الذى وضح بهدايته الرشاد ، إلا الصنائعُ التى تُشَام بَوارقُ اللطف من خلالها ، وتخبرُ سيماها بطلوع السعود واستقبالها ، وتَدُلّ مخايل يمنها على حسن مآلها ، لله الحمد على نعمه التى نرغب فى كمالها ، ونستدرُّ عذب زُلاَلها ، وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه ، والسرور بسعادة أيامه ، والدعاء إلى الله تعالى فى إظهاره وإتمامه ، مالا تَفِى العبارةُ بأحكامه ، ولا تتعاطى حَصْرَ أحكامه ، وإلى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه[٣] ، وصان سلطانكم وتولاه ، فقد علم الحاضر والغائب ، وخلص الخلوص الذى لا تغيره الشوائب ، ما عندنا من الحب الذى وضحت منه المذاهب ، وأننا لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التى صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعِصْمَة ، وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة ، لا يستقر بقلوبنا القَرَار ، ولا تتأتى بأوطاننا الأوطار ، تشوّقا لما تُتِيحُه[٤] لكم الأقدار ، ويبرزه من سعادتكم الليلُ والنهار ، ورجاؤنا فى استئناف سعادتكم يشتد على الأوقات ويَقْوَى ، علما بأن العاقبة للتقوى ، وفى هذه الأيام عُمِّيت الأنباء ، وتكالبت فى البر والبحر الأعداء ، واختلفت الفصولُ والأهواء ، وعاقت الوارد[٥] الأنواء ، وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ، ولو كنا نجد للاتصال بكم سببا ، أو نلفى لإعانتكم مذهبا ، لما شغلنا البعد الذى بيننا اعترض ، والعدو بساحتنا فى هذه الأيام رَبَضَ ، وكان خديمكم الذى رفع من الوفاء رايةً خافقة ، واقتنى منه فى سوق الكساد بضاعة نافقة ، الشيخ الأجل الأوفى ، الأودُّ الأخلص الأصفى ، أبو محمد بن أحبانا سنى الله مأموله ، وبلغه

---

(١) فى ب « وجعل لكم العاقبة الحسنى ـ إلخ »

(٢) فى أصل ا « ثم ببركته جاء » تحريف

(٣) فى أصل ا « أمركم وعلاكم »

(٤) فى أصل ا « تشوقا لما تنتجه لكم الأقدار » (٥) فى ا « وعاقت الوراد »

من سعادة أمركم سُولَه ، وقد ورد على بابنا ، وتحيز إلى اللحاق بجنابنا ، ليتيسر له من جهتنا القدوم ، ويتأتى له بإعانتنا الغرضُ المَرُوم ، فبينما نحن ننظر فى تتميم غرضه ، وإعانته على الوفاء الذى قام بمفترضه ، إذ اتصل بنا خبرُ قرقورتين من الأجفان التى استعنتم بها على الحركة ، والعزيمة المقترنة بالبركة ، حطت إحداهما بمرسى المُنَكَّبِ والأخرى بمرسى المَرِيَّة ، فى كنف العناية الإلهٰية ، فتلقينا من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها ، والأخبار التى يُغْنى نصُّها عن قياسها ، وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر ، وحركتكم المعروفة باليمن والظفر ، وأنكم استخرتم الله تعالى فى اللحاق بالأوطان التى يؤمِّنُ قدومُكم خائفَها، ويؤلف طوائفها ويسكن راجفها ، ويصلح أحوالها ، ويسكن أهوالها ، وأنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور ، والسعد الموفور ، واليمن الرائق السفور ، والأسطول المنصور ، فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها ، ونهوض طيور الرجاء من وُكُونها[١] ، واستبشار الأمة المحمدية ممكم بقرة عيونها ، وتحقق ظنونها ، وارتياح البلاد إلى دعوتكم التى ألبستها ملابسَ العدل والإحسان ، وقلدتها قلائد السير الحسان ، وما منها إلا من باح بما يخفيه من وَجْدِه ، وجهر بشكر الله تعالى وحمده، وابتهل إليه فى تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قَصْده ، واستئناس[٢] نور سعده ، وكم مطل الانتظار بديون آمالها[٣] ، والمطاولة من اعتلالها ، وأما نحن فلا تسألوا عمن استشعر دنوّ حبيبه ، بعد طول مغيبه ، إنما هو صدر راجَعَه فؤاده ، وطَرْفٌ ألفه رقاده ، وفكر ساعده مراده ، فلما بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى إنجاز ما بذلنا لخديمكم المذكور من الوعد ، واغتنمنا ميقات هذا السعد ، ليصل سَبَبُه بأسبابكم ، ويسرع

---

(١) الوكون : أعشاش الطير ، واحدها وكن ، بفتح الواو وسكون الكاف

(٢) فى أصل ا « واستأنس نور سعده »

(٣) فى ب « بديوان آملها » تحريف

لحاقه بجنابكم ، فعنده خِدَمٌ نرجو أن ييسر الله تعالى أسبابها ، و يفتح بنيتكم الصالحة أبوابها، وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذى ندين له بالتشيع الكريم الوداد ، ونصل له على بعد المزار ونزوح(١) الأقطار سَبَبَ الاعتداد ، ما يغنى عن القلم والمداد ، وقد ألقينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد ، وكتبنا إلى من بالسواحل من ولاتنا نحدُّ لهم ما يكون عليه عملهم فى بِرِّ من يرد عليهم(٢) من جهة أبوّتكم الكريمة ، ذات الحقوق العظيمة والأيادى الحديثة والقديمة ، وهم يعملون فى ذلك بحسب المراد ، وعلى شاكلة جميل الاعتقاد ، و يعلم الله تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة ، والموانع الكثيرة ، والأعداء الذين دُهِيَتْ(٣) بهم فى الوقت هذه الجزيرة ، ما قدمنا عملا على اللحاق بكم ، والاتصال بسببكم، حتى نوفى لأبوّتكم الكريمة حقها ، ونوضح من المسرة طرقها ، لكن الأعذار واضحة وضوحَ المثل السائر،والله العالم بالسرائر ، و إلى الله تعالى نبتهل فى أن يوضح لكم من التيسير طريقا ، ويجعل السعد لكم مصاحبا ورفيقا ، ولا يعدمكم عناية منه وتوفيقا ، ويتم سرورنا عن قريب بتعرف(٤) أنبائكم السارة ، وسعودكم الدارّة ، فذلك منه سبحانه غايةُ آمامنا ، وفيه إعمال ضراعتنا وابتهالنا(٥) ، هذا ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرعَ البِدَار ، والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار ، بسعادة ملككم السامى المقدار ، و ييسر ماله من الأوطار ، و يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته ، انتهى .

وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس وسلاطين فاس كثيراً ما يدسُّ لأقارب الملوك القيامَ على صاحب الأمر ، ويزين

---

(١) فى أصل ا « وتروح الأقطار بسبب الاعتداد »

(٢) فى ا « من يرد عليه »

(٣) فى ب ونسخة عند ا « الذين ذهبت بهم »

(٤) فى ب « بتعريف »

(٥) فى ا « ضراعتنا وسؤالنا »

له الثورة ، ويعدِه بالإمداد بالمال والعدّة[١] ، وقَصْدُه بذلك كله توهين المسلمين ، وإفساد تدبيرهم ، ونسخ الدول بعضها ببعض ، لماله فى ذلك من المصلحة ، حتى بلغ أبعده الله تعالى من أمله الغاية .

كتاب آخر من إنشاء لسان الدين

ومن إنشاء لسان الدين بن الخطيب ـ رحمه الله تعالى ! ـ عن سلطان الأندلس إلى سلطان فاس المرينى ، يعتذر عن فرار الأمير أبى الفضل المرينى الذى كان مُعْتَقَلا بغرناطة ، فتحيل الطاغية فى أمره حتى خرج طالبا للملك ، مانصه :

المقام الذى شهد الليلُ والنهارُ بأصالة سعادته ، وجرى الفلكُ الدوّار بحكم إرادته ، وتعود الظفرَ بمن يناويه فاطرد والحمد لله جريان عادته ، فوليُّه متحقق لإفادته، وعدوه مرتقب لإبادته ،وحُلَل الصنائع الإلٰهية تَضْفُو[٢] على أعطاف مَجَادته، مقامُ محل أخينا الذى سَهْمُ سعده صائب ، وأملُ مَنْ كاده خاسر خائب ، وسير الفلك المدار فى مرضاته دائب ، وصنائعُ الله تعالى له تصحبها الألطاف العجائب ، فسيان شاهد منه فى عصمة وغائب ، السلطانُ الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى مُسَدَّد السهم ! ماضى العزم ! تجل سعوده عن تصور الوَهْم ! ولا زال مرهوبَ الحد ممتثل الرسم ! موفور الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القَسْم ! فائزاً بفلج الخصام عند لد الخصم ! معظم قدره ، وملتزم بره ، المبتهج بما يسببه الله تعالى له من إعزاز نصره ، وإظهار أمره ، فلان .

سلام كريم ، طيب برعميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ومَثَابتكم[٣] الفُضْلَى، التى حازت فى الفخر الأمدَ البعيد ، وفازت من التأييد والنصر بالحظ السعيد ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

---

(١) فى نسخة عند ا « بالمال والقوة»

(٢) فى نسخة « تصفو على إعطاء »

(٣) المثابة فى الأصل: المكان الذى يرجع الإنسان إليه ، وأراد موطنه

أما بعد حمد الله الذى فَسَحَ لملككم الرفيع فى العزمَدَى ، وعرفه عوارف آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوما وغدَا ، وحرس سماء علائه بشُهُب من قَدَره وقضائه فمن يستمع الآن يجدله شهابا رَصَدا ، وجعل نجح (١) آماله وحُسن مآله قياساً مطردا ، فربَّ مريدٍ ضره ضر نفسه وهادٍ إليه أهْدَى وما هَدَى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله الذى ملأ الكون نوراً وهُدَى ، وأحيا مَرَاسم الحق وقد صارت طرائق قِدَداً ، أعلى الأنام يداً ، وأشرفهم مَحْتِدا ، الذى بجاهه نلبس أثواب السعادة جُدُدَا ، ونظفر بالنعيم الذى لا ينقطع أبدا ، والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنته عمدا ، وأوضحوا من سبيل اتباعه مقصداً ، وتقبلوا شيمه الطاهرة رُكعاً وسُجَّدا ، سيوفاً على من اعتدى ، ونجوما لمن اهتدى ، حتى علت فروعُ ملته صُعُدَا (٢) ، وأصبح بناؤها مديداً مخلداً ، والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذى يتوالى مثنى ومَوْحَدا ، كما جمع لملككم ما تفرق من الألقاب ، على توالى الأحقاب ، فجعل سيفكم سَفَّاحا (٣) وعلمكم منصوراً ورأيكم رشيداً وعزمكم مؤيداً ، فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم صنعاً يشرح للاسلام خَلَداً ، ونصراً يقيم للدين الحنيفِ أوَدَا ، وعزما يملأ أفئدة الكفر كَمَدا، وجعلكم ممن هيأله من أمره رَشَداً ، ويسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد به فى كتابه العزيز والله أصدق مَوْعِدا ، من حَمْراء غَرْناطة حرسها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استطلاع سعودكم فى آفاق العناية ، واعتقاد جميل صنع الله فى البداية والنهاية ، والعلم بأن ملككم تحدّى من الظهور على أعدائه بآية ، وأجرى جياد السعد فى ميدان لا يحد بغاية ، وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر إلا لأصحاب

---

(١) فى أصل ا « نجح أعماله »

(٢) فى ا « علت فروع ملته مصعدا »

(٣) فى أصل ا « سيفكم سفاعا » تحريف

الكرامة والولاية ، ونحن على ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنصور عِطْفا ، ويُسْدِل عليه من العصمة سجفاً ، فقاسمه الارتياح(١) لمواقع نعم الله تعالى نصفاً ونصفاً ، ونعقد بين أنباء مسرته و بين الشكر لله حِلْفاً ، ونَعُدُّ التشيع له مما يقربنا إلى الله زُلْفى ، ونؤمل من إمداده ونرتقب من جهاده وقتاً يكفل به الدين ويُكْفَى ، وتروى غلل النفوس(٢) وتشفى ، و إلى هذا وصل الله سعدكم ، ووالى نصركم وعضدكم ، فإنا من لَدُنْ صَدَرَ عن أخيكم أبى الفضل ما صدر من الانقياد لخُدَع الآمال ، والاغترار بموارد الآل ، وفال رأيه(٣) فى اقتحام الأهوال ، وتورط فى هفوة حار فيها حيرةَ أهل الكلام فى الأحوال ، وناصب من أمركم السعيد جبلا قضى الله له بالاستقرار والاستقبال ، ومن ذا يزاحم الأطواد و يزحزح الجبال ؟ وأخلف الظن منّا فى وفائه ، وأضمر عملا استأثر عنا بإخفائه ، واستعان من عدو الدين بمُعِين قلما يورى(٤) لمن استنصر به زَنْد ، ولا خَفَق لمن تولاه بالنصر بَنْد ، و إن الطاغية أعانه وأنجده ر ورأى أنه سهم على المسلمين سدده وعَضْب للفتنة جَرَّده ، فسخر له الفلك ، وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك ، فأورده الهلك والظلمَ الحلك ، علمنا أن طَرْفَ سعادته كاب ، وسحاب آماله غير ذات انسكاب ، وقدم عزته لم يستقر من السداد فى غَرْز ركاب ، فإن نجاح أعمال النفوس مرتبط بنيَّاتها ، وغايات الأمور تظهر فى بداياتها ، وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته لا تجهل ، ومَنْ غالب أمر الله خاب منه المُعَوَّل ، فبينما نحن نرتقب خسار تلك الصفقة المعقودة ، وخمود تلك الشعلة الموقودة ، وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الأخبار ، ويُهْدِى طرف المسرات على أكف الاستبشار ، و يعرب بلسان حال المسارعة والابتدار ،

---

(١) كذا فى ا و ب ، ولعل أصل العبارة « نقاسمه الارتياح »

(٢) فى نسخة عند ا « علل النفوس »

(٣) فال رأيه - بالفاء - ضعف ورك ، وفى ا « ونال رائه » محرفا

(٤) فى ا « فلما يرى » تحريف ، وأورى الزند يورى : قدح بالنار

عن الود الواضح وُضُوحَ النهار ، والتحقق بخلوصنا الذى يعلمه عالم الأسرار ، فأعاد فى الإفادة وأبدى ، وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسْدَى ، فعلم منه[(١)] مآل مَنْ رام أن يقدح زند الشتات من بعد الالتئام ، ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركود[(٢)] القتَام ، هيهات تلك قلادة الله تعالى التى ما كان يتركها بغير نظام ، ولم يدر أنكم نصبتم له من الحزم حِبَالة لا يُفْلِتها قَنيص ، وسَدَّدتم له من السعد سهما ماله عنه من مَحيص ، بما كان من إرسال جوارح الأسطول السعيد فى مَطَاره ، حائلا[(٣)] بينه و بين أوطاره ، فما كان إلا التسمية والإرسال ، ثم الإمساك والقتال ، ثم الاقتيات والاستعمال ، فياله من زجر استنطق لسان الوجود[(٤)] فجدله ، واستنصر البحر فخذله ، وصارع القدر فجدله[(٥)] لما جد له ، و إن خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل غاية بعيدة ، ومنتسب إلى نسبة[(٦)] غير سعيدة ، وشانىء غمرته من الكفار ، خدام الماء وأولياء النار ، تحكمت فيهم أطراف العوالى وصدور الشِّفار ، وتحصل[(٧)] منهم من تخطاه الحمام فى قبضة الإسار ، فعجبنا من تيسير هذا المرام ، و إحماد الله لهذا الضِّرام ، وقلنا : تكييف لا يحصل فى الأوهام ، وتسديد لا تستطيع إصابتَه السهام ، كلما قدح الخلاف زندا أطفأ سعدُكم شُعْلته ، أو أظهر الشتات ألما أبرأ يمنُ طائركم علته ، ما ذاك إلا لنية صدقت معاملتها فى جنب الله تعالى وصحت ، واسترسلت بركتها وسَحَّت ، وجهاد نذرتموه إذا فرغت شواغلكم وتمت ، واهتمام بالإسلام يكفيه الخطوب التى أهَمَّتْ ، فنحن نهنيكم بمنح الله ومننه ونسأله أن يلبسكم من إعانته[(٨)] أوقى جُنَنِه ، فأملنا أن تطرد آمالكم ، وتنجح فى

(١) فى نسخة « مثال من رام »

(٢) القتام ـ بالفتح، بزنة السحاب ـ الغبار ، ووقع فى نسخة « القيام » تحريف

(٣) فى أصل ا « جائلا بينه وبين أوطاره »

(٤) فى نسخة « لسان الجواب فخدله »

(٥) فى أصل ا « فجدله » وفى نسخة « فخذله » (٦) فى ا « إلى نصبة »

(٧) فى أصل ا « وتحصن » (٨) فى أصل ا « اعتنائه أو فى جننه »

مرضاة الله أعمالكم ، فمقامكم هو العمدة التى يُدْفَعُ العدوُّ بسلاحها ، وتنبلج[١] ظلمات صفاحها ، وكيف لا نُهَنيكم بصنع على جهتنا يعود ، وبآفاقنا تطلع منه السعود ، فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذى رسومه قد استقلت واكتفت ، ودِيَمَهُ بساحة الود قد وَكَفَتْ[٢] ، والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ، ولا يعدمكم عناية وسعادة ، وهو سبحانه يعلى مقامكم ، وينصر أعلامكم ، ويهنى الإسلام أيامكم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله وبركاته . انتهى

وكان سلطان الأندلس فى الأزمان المتأخرة كثيراً ما يشم أرَجَ[٣] الفرَج فى سِلْمِ الكفار ومهادنتهم ، حيث لم يقدر فى الغالب على مقاومتهم ، ولذلك لما قتل السلطان أبو الحجاج الذى كان لسان الدين كاتبه ووزيره ، وقام بالأمر بعده ابنه محمد الغنى بالله الذى ألقى مقاليده للسان الدين – أكَّدَ أمر السلم ، وانتظم ما يبرمه القضاء الجزم ، والقدر الحتم .

ومن إنشاء لسان الدين فى ذلك على لسان الغنى مخاطباً لسلطان فاس والمغرب أبى عنان ما صورته :

من إنشاء لسان الدين في المعنى

المقام الذى يغنى عن كل مفقود بوجوده ، ويهز إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده ، ونستضىء[٤] عند إظلام الخطوب بنور سعوده ، ونرث من الاعتماد عليه أسنى ذُخْر يرثه الولد عن آبائه وجدوده ، مقام محل أبينا الذى رَعْىُ الأذمة شانه ، وصلة الرعى سجية انفرد بها سلطانه ، ومواعد النصر[٥] ينجزها زمانه ، والقول والفعل فى ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانُه ، وتطابق فيهما إسراره وإعلانه ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ،

(١) انبلج : اشتد ظهوره ، ووضح

(٢) الديم : جمع ديمة ، وهى المطر الدائم ، ووكفت : تتابع نزولها

(٣) الأرج : الريح الطيبة

(٤) فى نسخة عندا « ونستضىء عن إظلام الخطوب »

(٥) فى نسخة « ومواعيد النصر »

أبقاه الله تعالى محروسا من غِيَر الأيام جَنابُه ، موصولةً بالوقاية الإلهية أسبابه ، مسدولا على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحِجابه ، مصروفا عنه من صروف[١] القدر ما يعجز عن رده بوّابُه ، ولازال ملجأ تنفق[٢] لديه الوسائل التى تدخرها لأولادها أولياؤه وأحبابه ، ويسطر فى صحف الفخر ثوابه ، وتشتمل على مكارم الدين والدنيا أثوابه ، وتتكفل بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام كتائبه وكُتّابه[٣] ، معظِّمُ ماعَظُم من حقه السائر من إجلاله وشكر خلاله على لاحب[٤] طرقه ، المستضىء فى ظلمة الخطب بنور أفقه ، الأميرُ عبدُالله محمد بن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نصر .

سلام كريم ، طيب برعميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته

أما بعدَ حمدِ الله الذى لا راد لأمره ولا معارض لفعله ، مصرف الأمر بقدرته وحكمته[٥] وعدله ، الملك الحق الذى بيده مِلاَك الأمر كله ، مقدر الآجال والأعمار فلايتأخر شىء عن ميقاته ولا يَبْرَحُ عن محله ، جاعل الدنيا مناخ قُلْعَة لايغتبط العاقل بمائه ولا بظله ، وسبيل رحلة فما أكثب[٦] ظعنه من حله ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صَفْوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رُسْله ، الذى نعتصم بسببه الأقوى ونتمسك بحَبْله ، ونمد يد الافتقار إلى فضله ، ونجاهد فى سبيله مَنْ كذب به أو حاد عن سُبُله ، ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله ، والرضا عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله ، المستولين من ميدان الكمال على خصله ، والدعاء لمقامكم الأعلى بعز نصره ومضاء فصله ، فإنا كتبناه إليكم — كتب الله تعالى لكم

---

(١) فى اصل « صرف القدر » والصروف : جمعه

(٢) تنفق : تروج

(٣) فى أصل ا « كتائبه أو كتابه » والكتائب : جمع كتيبة ، وهى الفرقة من الجيش ، والكتاب : جمع كاتب

(٤) طريق لاحب : واضح ، ووقع فى ا « على حب طرقه » وفى نسخة « أحب طرقه »

(٥) فى ا « بحكمته وقدرته وعدله »

(٦) أكثب : أقرب ، وظعنه : الارتحال عنه

وقاية لا تطرق الخطوبُ حماها ، وعصمة ترجع عنها سهام النوائب كلما فوّقها الدهر ورماها ، وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مُسَمَّاها ، وعزا يزاحم أجرام الكواكب منتماها ! — من حمراء غَرْنَاطة حرسها الله تعالى ونعمُ الله سبحانه تتواتر لدينا دفعا ونفعا ، وألطافه نتعرفها وترا وشَفْعا ، ومقامكم الأبوى هو المستند الأقوى ، والمورد الذى تَرِدُ آمال الإسلام فتَرْوَى ، وتَهْوِى إليه أفئدتهم فتجد ما تَهْوَى (١) ، ومَثَابتكم العُدَّة التى تأسست مبانيها على البر والتقوى ، و إلى هذا وصل الله تعالى سعدكم ، وأبقى مجدكم ، فإننا لما نعلم من مساهمة مجدكم التى تقتضيها كرام الطباع وطباع الكرم ، وتدعو إليها ذمم الرعى ورَعْى الذمم ، نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه ، و إمتاع المسلمين ببقائه ، بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله تعالى بالشهاده (٢) التى ألبسه حلتها ، والشهادة التى فى أعماله الزكية كتبها ، والدرجة العالية التى حتمها (٣) له وأوجبها ، و بما تصير إلينا من أمره ، وضم بنا من نَشْره ، وسَدَل على مَنْ خلفه من ستره ، و إنها لعبرة لمن ألقى السمع ، وموعظة تهز الجمع وترسل الدمع ، وحادثة أجمل الله سبحانه فيها الدفع ، وشرح مجملها و إن أخرس اللسانَ هولُها ، وأسلم العبارة قوتها (٤) وحَوْلُها ، أنه رضى الله تعالى عنه لما برز لإقامة سنة هذا العيد ، مستشعراً شعارَ كلمة التوحيد ، مظهراً سِمَةَ الخضوع (٥) للمولى الذى تَضْرَع بين يديه رقابُ العبيد ، آمنا بين قومه وأهله ، متسربلاً فى حُلَل نعم الله تعالى وفضله ، قرير العين باكتمال عزه واجتماع شمله ، قد احترس بأقصى استطاعته ، واستظهر بخُلْصان طاعته ، والأجَلُ المكتوبُ قد

---

(١) تهوى أفئدتهم : تسير نحوهم ، وتجد ماتهوى : أى ماتحب

(٢) كذا في ا ، وفى ب « نفعه الله بالسعادة التى — إلخ »

(٣) حتمها — بالحاء المهملة — أوجبها ، وفى أصل ا « ختمها »

(٤) فى نسخة عند ا « فوتها وحولها » بالفاء مكان القاف

(٥) سمة الخضوع : علامته

حضر ، والإرادة الإلهية قد أنفذت القضاء والقدر ، وسجد بعد الركعة الثانية من صلاته ، أتاه أمرُ الله لميقاته ، على حين الشبابُ غضٌّ جلبابُه[١] ، والسلاح زاخر عُبابُه ، والدين بهذا القطر قد أينع بالأمن جنابه ، وأمْرُ من يقول للشيء كن فيكون قد بلغ كتابه ، ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب ، وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب ، إلاَّ شقى قيضه الله لسعادته غير معروف ولا منسوب ، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب ، تخلَّلَ الصفوف المعقودة ، وتجاوز الأبواب المسدودة ، وخاض الجموع المشهودة ، والأمم المحشورة[٢] إلى طاعة الله المحشودة ، لا تدل العينَ عليه شارةٌ ولا بِزَّة ، ولا تحمل على الحذر من مثله أَنَفَه ولا عزة ، وإنما هو خبيث ممرور ، وكلب عقور ، وحية سمها وَحِيٌّ[٣] محذور ، وآلة مُصرَّفة لينْفُذَبها قدر مقدور ، فلما طعنه وأثبته ، وأعلق به شَرَكَ الحَيْن[٤] فما أفلته ، قبض عليه من الخلصان الأولياء مَنْ خَبَرَ ضميره ، وأحكم تقريره ، فلم يُجب عند الاستفهام جوابا يعقل ، ولا عثر منه على شيء عنه ينقل ، لطفا من الله أفاد براءة الذمم ، وتعاورته للحِينِ أيدى التمزيق ، وأتبع شِلْوه بالتحريق ، واحتمل مولانا الوالد رحمه الله تعالى إلى القصر وبه ذَمَاء[٥] لم يلبث بعد الفتكة العُمَرية إلا أيسر من اليسير ، وتخلف الملك ينظر من الطَّرْف الحسير ، وينهض بالجناح الكسير ، وقد عاد جمع السلامة إلى التكسير ، إلا أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب بأن أقامنا مقامه لوقته وحِينِه ، ورفع بناء عماد ملكه ولم شَعَثَ دينه ، وكان جميع من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم ، وأعلامهم ولفيفهم ، قد جمعه ذلك الميقات ، وحضر

---

(١) فى ا « على غض الشباب عض جلبابه » تحريف

(٢) فى نسخة عند ا « والجموع المحشورة »

(٣) سم وحى : سريع الفتك

(٤) الحين ــ بالفتح ــ الموت والهلاك

(٥) الذماء ــ بالفتح ــ بقية الروح فى الجسد ، وفى نسخة « وبه دماء »

الأولياء الثقات ، فلم تختلف علينا كلمة ، ولا شذت منهم عن بيعتنا نفس مسلمة ، ولاأخيف برى ، ولاحُذر جرى ، ولا فرى فَرِىّ ، ولا وقع لبس ، ولا استوحشت نفس ، ولا نبَضَ للفتنة عرق ، ولا أغفل للدين حق ، فاستند[1] النقل إلى نصه ، ولم يعدم من فقيدنا غـيرُ شخصه ، وبادرنا إلى مخاطبة البلاد نمهدها ونسكنها ، ونقرر الطاعة فى النفوس ونمـكنها ، وأمرنا الناسَ بهـا بكف الأيدى ، ورَفْع التعدِّى ، والعمل من حفظ شروط المسالمه المعقودة بما يُجْدِى ، ومن شَرِهَ منهم للفرار[2] ، عاجلناه بالإنكار ، وصرفنا على النصارى ما أوصاه مصحبا بالاعتذار ، وخاطبنا صاحبَ قَشْتَالة نرى ماعنده فى صلة السلم إلى أمدها من الأخبار ، واتصلت بنا البيعات من جميع الأقطار ، وعَفَّى على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار ، واستَبَقُوا تطير بهم أجنحةُ الابتدار ، جعلنا الله تعالى ممن قابل الحوادث بالاعتبار ، وكان على حَذَر من تصاريف الأقدار ، واختلاف الليل والنهار ، وأعاننا على إقامة دينه فى هـذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاغى والبحر الزخَّار ، وألهمنامن شكره مايتكفل[3] بالمزيد من نعمه ، ولاقطع عنا عوائدَ كرمه ، وإن فقدنا والدنا فأنتم لنـا من بعدِهِ الوالد ، والذخر الذى تكرم منه العوائد ، والحبُّ يتوارث كماورد فى الأخبار التى صحت[4] منهـا الشواهد ، ومَنْ أعَدّ مثلـكم لبنيه ، فقد تيسرت [من] بعد الممات أمانيه ، وتأسست قواعد ملـكه وتشيدت مبانيه ، والاعتقاد الجميل مَوْصُول ، والفروع لها فى التشيع إليكم أصول ، وفى تقرير فخركم محصول ، وأنتم رِدْء المسلمين[5] بهذه البلاد المسلمة الذى يعينهم

---

(١) فى ب « فاستنفد النقل إلى نصه » تحريف

(٢) فى نسخة « ومن شره منهم للغوار » والغوار : الغارة والانتقاض

(٣) في أصل ا « لمايتكفل »

(٤) فى ا « وضحت منها الشواهد »

(٥) فى أصل ا « وأنتم ردد المسلمين » تحريف

بإرفاده ، وينصرهم بإنجاده ، ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده .

وعند ما استقر هذا الأمر الذى تبعت المحنة فيه المنحة ، وراقت من فضل الله تعالى ولطفه فيه الصفحة ، وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصّهم وأعيانهم ، وتزاحمت على رَقّها المنشور (١) خطوطُ أيمانهم ، وتأصلت قواعدُ ألفاظها ومعانيها فى قلوبهم وآذانهم ، وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خَبَر سَلَفُنا والحمدلله وفاء ضمانهم ، بادرنا تعريفَ مقامكم الذى نعلم مساهمته فيما ساء وسر وأحلى وأمر ، عملا بمقتضى الخلوص الذى ثبت واستقر ، والحب الذى ما مال يوما ولا أزوَرّ (٢) وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور ، وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادى السُّفور ، وإن كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر إعلامكم بالأمور ، إلا أنه أمرٌ له ما بعده ، وحادث يأخذ حدّه ، ونبعث إلى بابكم مَنْ شاهد الحال ما بين وقوعها إلى استقرارها رأى العِيان (٣) ، وتولى تسديد الأمور بأعماله الكريمة ومقاصده الحِسان ، ليكون أبلغ فى البر وأشرح للصدر وأوْعَبَ للبيان ، فوجهنا إليكم وزير أمرنا ، وكاتب سرنا ، الكذا أبا فلان ، وألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى ، واستنادنا من التشيع إليه إلى الركن الوثيق المبنى ، ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأعنى (٤) ، والثمرة العذبة المَجْنَى ، فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد الذى هو أساس بنائنا ، وقامع أعدائنا ، آثرنا توجيهه على توفر الاحتياج إليه ، ومَدَار الحال عليه ، والمرغوبُ من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولُها بما يليق بالملك العالى ، والخلافة السامية المعالى ، والله عزوجل يديم أيامكم لصلة الفضل (٥) المتوالى ، ويحفظ

(١) الرق – بفتح الراء – ما يكتب فيه

(٢) ازور : انحرف ومال وأخذ جانبا

(٣) العيان – بكسر العين – المعاينة ورؤية العين

(٤) كذا فى ا ، ب ، ولعله « المقام الأغنى »

(٥) فى أصل ا « لصلة فضله المتوالى »

مجدكم من غِيَر الأيام والليالى ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويوالى نصركم وعضدكم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله وبركاته . انتهى

وقوله فى هذه الرسالة «فوجهنا اليكم وزير أمرنا - إلى آخره» هو لسان الدين رحمه الله تعالى ! إذ هو كان الوزير إذ ذاك والسفير فى هذه القضية ، ومن صفحات هذا الكلام يتضح لك ما نال لسانُ الدين رحمه الله تعالى من الرياسة والجاه ونفوذ الكلمة بالأندلس وبالمغرب[١] رحمه الله تعالى ! وقد أكرمه السلطان أبو عنان فى هذه الوفادة وغيرها غاية الإكرام ، وكان المقصود الأعظم من هذه الوفادة استعانة سلطان الأندلس الغنى بالله بالسلطان أبى عنان على طاغية النصارى ، كما ألمعنا بذلك فى الباب الثانى من القسم الثانى الذى يتعلق بلسان الدين

وكان السلطان أبو عنان ابن السلطان أبى الحسن معتنيا بالأندلس غاية الاعتناء ، وخصوصا بجبل الفتح ، حتى إنه بلغ من اعتنائه[٢] به أن أمَّرَ عليه ولده أبا بكر السعيد ، وهو الذى تولى الملك بعده

ومن إنشاء لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى على لسان سلطانه ما خاطب به الأميرَ السعيد المذكور إذْ قَلَّده والده جبل الفتح ، وهو :

تهنئة من إنشاء لسان الدين للأمير السعيد

الإمارةُ التى أشرق فى سماء الملك شِهابُها ، واتصلت بأسباب العز أسبابها ، واشتملت على الفضل والطهارة أثوابها ، وأُجِيلت قِدَاحُ المفاخر فكان إلى جهة الله تعالى انتدابها ، إمارةُ محلِّ أخينا الذى تأسس على مرضاة الله تعالى أصيلُ فخره ، واتَّسم بالمُرَابط المجاهد على اقتبال سنه وجِدّة عمره[٣] ، وبَدَأ بفضل الجهاد

(١) فى أصل ا « وبالغرب »

(٢) فى أصل ا « اهتمامه به »

(٣) يريد أنه شجاع باسل مع حداثة سنه وميعة شبابه ، وأن شجاعته مصروفة إلى الغزو فى سبيل الله تعالى

صحيفةَ أَجره ، وافتتح بالرباط والصلاح ديوانَ نهيه وأمره ، لما يَسَّره من سعادة نَصَبَته وحباه من عز نصره ، الأمير الأجل الأعز الأرفع الأسنى الأطهر الأظهر الأمنع الأصعد الأسمى الموفق الأرضى ، محل أخينا العزيز علينا ، المُهْدَاة أنباء مأمول جواره (١) إلينا ، أبى بكر السعيد ابن محل والدنا الذى مقاصدُه للإسلام وأهله على مرضاة الله تعالى جارية ، وعزائمه على نَصْر الملة الحنيفية متبارية ، السلطان الـكذا أبو عنان ابن السلطان الـكذا أبى الحسن ابن السلطان الـكذا أبى سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق ، أبقاه الله تعالى سديدة آراؤه ناجحة أعماله ، مُيَسَّرة أغراضُه من فضل الله تعالى متممة آماله ، رَحيباً (٢) فى العدل مَجاله ، يَكْنُفهُ من الله تعالى ومحل أبينا غمامٌ وارفةٌ ظلالُه ، هامرٌ (٣) نوالُه ، حتى يرضى الله تعالى مِصاعه بين يديه ومِصاله ، وتمضى فى الأعداء أمام رايته المنصورة نِصاله ، أخوه المسرور بقربه ، المنطوى على مضمر حبه ، أمير المسلمين محمد ابن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نَصْر .

سلام كريم ، طيب برعميم ، يخص أخوّتكم الفضلى ، وإمارتكم التى آثارُ فضلها بحول الله تُتْلَى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله على ما كيف من ألطافه المشرقة الأنوار ، ويَسَّره لهـذه الأوطان بنصرته من الأوطار ، فكلما دَجَتْ بها (٤) شدة طلع الفرج عليها طلوع النهار ، وكلما اضطرب منها جانب أعاده بفضل الله تعالى مَنْ أقامه لذلك واختاره إلى حال السكون والقرار ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار ،

---

(١) فى أصل ا « مأمول جوازه » وفى نسخة « جواده » تحريف فيهما

(١) رحيبا : فسيحا واسعا ، ومجاله : مكان الذى يجول فيه ، وفى ا « رحيبا فى السعد »

(٣) فى ا « هام نواله » وهامر وهام بمعنى منسكب

(٤) دجت : أظلمت

الذى أكد عليه جبريل صلوات الله عليه حقَّ الجوار، حتى كاد يُلحقه بالوسائل والقُرَب الكبار، الذى وصانا بالالتئام، واتصال اليد فى نُصْرة الإسلام، فنحن نقابل وصاته[١] بالبِدَار، ونجرى على نهجه الواضح الآثار، ونرتجى باتباعه الجمعَ بين سعادة هذه الدار وتلك الدار[٢]، والرضا عن آله وأصحابه، وأنصاره وأحزابه، أكرم الآل والأصحاب والأحزاب والأنصار، الذين كانوا كما أخبر الله تعالى عنهم على لسان الصادق الأخبار (رُحَماء بينهم أشدَّاء على الكفار) والدعاء لإمارتكم السعيدة بالتوفيق الذى تجرى به الأمورُ على حسب الاختيار، والعز[٣] المنيع الذِّمار، والسعد القويم المَدَار، والوقاية التى يأمن بها أهلُها من الشرار، فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم أسنى ما كتب للأمراء الأرضياء الأخيار، ومتعكم من بقاء والدكم بالعدة العظمى والسيرة الرحمى والجلال الرفيع المقدار، من حَمْراء غَرْناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله صلى الله عليه وسلم الذى أوضح برهانه إلا ألطاف باهرة، وعناية من الله تعالى باطنة وظاهرة، و بشارة بالقبول واردة و بالشكر صادرة، والله تعالى يصل لدينا نعمه، و يوالى فضله وكرمه، و إلى هذا فإننا اتصل بنا فى هذه الأيام ما كان من عناية والدكم محلِّ أبينا أبقاه الله تعالى بهذه البلاد المستندة إلى تأميل مجده، و إقطاعها الغاية التى لا فوقها من حسن نظره وجميل قصده، وتعيينكم إلى المقام بجبل الفتح إبلاغا فى اجتهاده الدينى وجدّه، فقلنا : هذا خبر إن صدق مُخْبِره، وتحصل منتظره، فهو فخر تجددت أثوابه، واعتناء تفتحت أبوابه، وعمل عند

(١) فى أصل ا « نقابل وصايته »
(٢) « هذه الدار » أى الدنيا، و « تلك الدار » أى الآخرة
(٣) المنيع : الحصين، وصف من المناعة، والذمار - بكسر الذال - كل مايلزم الإنسان حفظه وحياطته والدفاع عنه، سموه بذلك لتذمير الناس له أى اجتماعهم

الله تعالى ثوابه ، فإن الأندلس عصمها الله تعالى و إن أنجدته عُدَدُه وأمواله ، ونجحت فى نصرها مقاصده الكريمة وأعماله ، لا تدرى موقع النظر لها من نفسه ، وزيادة يومه فى العناية على أمسه ، حتى يسمح لها بولده ، ويخصها بقرة عينه وفلْذَة كبده ، فلما ورد [منه] الخبر، الذى راقت منه الحِبر ، ووضحت من سعادته الغُرَر ، بإجازتكم البحر ، واختياركم فى حال الشبيبة الفخر ، وصدق مَخِيلة الدين فيكم ، واستقراركم فى الثغر الشهير الذى افتتحه سيفُ جدّكم واستنقذه سعدُ أبيكم ، سررنا بقرب المزار ، ودنوّ الدار(١) ، وقابلنا صنع الله تعالى بالاستبشار ، ووثقنا و إن لم نَزَلْ على ثقة من عناية الله تعالى وعناية محل والدنا بهذه الأقطار ، وحمدنا الله تعالى على هذه الآلاء المشرقة(٢) ، والنعم المُغْدِقة ، والصنائع المتألقة(٣) ، بادرنا نهنّى أخوّتكم أولا بما يسره الله تعالى لكم من سلامة المجاز ، ثم بما منحكم الله تعالى من فضل الاختصاص بهذا الغرض والامتياز ، فإمارتكم الإمارة التى أخذت بأسباب السماء ، وركبت إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى جياد الخَيْل والماء ، وأصبحت على حال الشبيبة شَجًا فى حلوق الأعداء ، ونحن أحق بهذا الهناء ، ولكنها عادة الود وسُنَّة الإخاء ، فالله عزوجل يجعله مَقْدَماميمون(٤) الطائر ، متهلل البشائر ، تتهلَّلُ(٥) بصنع الله بعده وجوه القبائل والعشائر ، ويجرى خبر سعادتكم مجرى المثل السائر ، ويشكر محل والدنا فيما كان من اختياره ، ومزيد إيثاره ، ويجازيه جزاء من سمح فى ذاته بمظنة اُدِّخاره ، ومذ رأينا أن هذا الغرض لا يجتزى(٦) فيه بالكتابة ، دون الاستنابة ، وجهنا لكم من يقوم بحقه ، ويجرى من تقرير

---

(١) دنو الدار : قربها (٢) الآلاء : النعم ، وإشراقها : ظهورها

(٣) الصنائع : جمع صنيعة ، وتألقها كاشراق النعم

(٤) ميمون الطائر : أراد أنه مبارك

(٥) تتهلل : تشرق

(٦) فى نسخة «لا يجترى» بالراء المهملة ، وأصله لا يجترأ بالهمزة من الجراءة والجرأة

ما لدينا على أوضح طُرْقِة ، وهو القائد الكذا ، ومَجْدُكم يُصْغِي[١] لما يلقيه ، ويقابل بالقبول ما من ذلك يؤديه ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام

وكان الطاغية الملعون أيام السلطان أبي عنان رحمه الله تعالى نازَلَ جبل الفتح ثم كفى الله تعالى شره فى ذلك التاريخ .

من إنشاء لسان الدين أيضاً

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب أباعنان سلطان فاس والمغرب [وذلك] بما نصه :

المقامُ الذى رمى له الملكُ الأصيل بأفلاذه ، وأدّى منه الإسلام إلى ملجئه الأحمى ومَلاَذه ، وكفلت السعودُ بإمضاء أمره المطاع وإنفاذه ، وشأى[٢] حَلْبة الكرم فكان وحيد آحاده وفَذَّ أفذاذِه ، وابتدع غرائب الجود فقال لسان الوجود: نعمت البدعة هذه ، مقامُ محل أخينا الذى أركانُ مجدِه راسية راسخة ، وغُرَر عزه بادية باذخة ، وأعلام فخره سامية شامخة ، وآيات سعده محكمة ناسخة ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاهُ الله تعالى يجرى بسَعْده الفَلَك ، ويجلى بنورهديه الحلك[٣] ، ويسطرحسنات ملكه المَلَك ، ويشهد بفضل بأسه ونداه النادى[٤] والمعترك ، مُعَظِّمُ حقوقه التى تأكد فرضها ، المُثْنِي على مكارمه التى أعيا الأوصافَ البليغة بعضُها ، أميرُ المسلمين [عبد الله] يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر .

سلام كريم ، طيب برعميم ، يخص أخوّتكم الفُضْلَى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى هيأ لملة الإسلام ، بمظاهرة ملككم المنصور الأعلام ،

---

(١) يصغى : يميل أذنه ليسمع مايقول ، وفى نسخة « يصفى » تحريف

(٢) شأى : سبق ، والحلبة : الموضع الذى تتسابق فيه الخيل

(٣) الحلك : الظلمة الشديدة

(٤) النادى : المكان يجتمع فيه للتشاور والسمر وهو الذى يشهد بفضل نداه أى جوده ، والمعترك : المكان الذى تعترك فيه الأبطال وهو الذى يشهد بفضل بأسه

إظهارا و إعزازا ، وجعل لها العاقبة الحسنى بيمن مقامكم الأسنى تصديقا لدعوة الحق و إنجازا ، وسهل لها بسعدكم كل صَعْب المرام وقد سامتها صرفُ الأيام ليًّا (١) و إعوازا ، وأتاحَ (٢) لها منكم وَلِيًّا يسومُ أعداءَها استلابا (٣) وابتزازا ، ويسكن آمالها وقد استشعرت انحفازا ، حمدا يكون على حُلَل النعم العميمة والآلاء الكريمة طرازا ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى بهرت آياته وضوحا و إعجازا ، واستحقت الكمالَ صفاتُه حقيقة لا مجازا ، ونبيه الذى بين للخلق أحكام دينه الحق امتناعا وجوَازا ، ويَسَّر لهم وقد ضلوا فى مفاوز (٤) الشك مفازا ، والرضا عن آله وأصحابه المستولين على ميادين فضائل الدنيا والدين اختصاصا بها وامتيازا ، فكانوا غيوثا إن وجدوا مَحْلا (٥) وليوثا إن شهدوا برازا ، والدعاء لمقام أخوّتكم الأسمى بنصر عملى أعدائه تُبْدِى له الجياد الجرد ارتياحا والرماح الْمُلْد اهتزازا ، وعز يطأ من أكناف البسيطة وأرجائها المحيطة سهلا وعَزَازا ، ويُمْن يشمل من بلاد الإيمان أقطارا نازحة ويعم أحْوَازا ، وسَعْد تجول فى مَيْدَان ذكره المذاع أطراف ألسنة اليراع إسهابا و إيجازا ، وفخر يجوب جيوب الأقطار جَوْبَ المثل السيار عراقا وحجازا ، ولا زالت كتائبُ سَعْدِه (٦) تنتهز فرص الدهر انتهازا ، وتوسع مَمْلَكاتِ (٧) الكفر انتهابا واحتيازا ، فإنا كتبناه إلى مقامكم كتب الله تعالى لكم سعدا ثابت المراكز ، وعزا لا تلينُ قنَاته فى يد الغامز ، وثناء لا يثنى عِنان سُراه عرض المفاوز ، وصنعا رحيب الجوانب رغيب الجوائز ، من حمراء غَرْنَاطة حرسها الله تعالى وفضله عز وجل قد أدال العسر يسرا وأحال القبض بسطا ، وقرَّبَ نوازحَ الآمال

(١) اللى : مطل المدين دائنه وتسويفه فى أدائه

(٢) أتاح : هيأ ، وفى نسخة « وأقام لها »

(٣) فى نسخة عند ا « استلاما » وليست بذاك

(٤) فى نسخة « مغاوز » ولعلها « مغاور » بالراء ، على أنها ليست بذاك

(٥) المحل : القحط والجهد والشدة ، والبراز : القتال ، وفى ا « إبرازا »

(٦) فى نسخة « ركائب سعده » (٧) فى أصل ا « ملكات الكفر »

بعد أن تناءت ديارها شَحْطَا ، ورَاضَ مركبَ الدهر الذى كان لا يلين لمن استمطى ، وقرب غريم الرجاء فى هذه الأرجاء وكان مشتطا،والتوكل عليه سبحانه وتعالى قد أحكم منه اليقين والاستبصار المبين رَبْطَا ، ومشروط المزيد من نعمه قد لزم من الشكر شرطا ، ومقامكم هو عُدَّة الإسلام إذا جدّ حِفاظُه ، وظله الظليل إذا لفح للكفر شُوَاظه ، وملجؤه الذى تنام فى كَنَف[١] أمنه أيقاظُه ، ووَزَرُه الذى إلى نصره تمدّ أيديه وتشير ألحاظه ، ففى أرجاء ثنائه تَسْرَحُ معانيه وألفاظه ، ولُخطَب تمجيده وتحميده يقول قُسُّه وتحتفل[٢] عُكَاظه ، وتَشَيُّعنا إلى ذلك الجناب الكريم طويل عريض ، ومقدمات ودنا إياه لا يعترضها نقيض ، وأفلاك تعظيمنا له ليس لأَوْجِهَا الرفيع حضيض ، وأنوار اعتقادنا الجميل فيه يشف سواد الحبر عن أوجهها البيض ، وإلى هذا ألبسكم الله تعالى ثوب[٣] السعادة المعادة فضفاضا ، كما صرف ببركة إيالتكم الكريمة على ربوع الإسلام وجوهَ الليالى والأيام وقد ازورت إعراضا ، وبسطت آمالها وقد استشعرت انقباضا ، فإننا ورد علينا كتابكم الذى كرم أنحاء وأغراضا ، وجالت البلاغة من طِرْسِه الفصيح المقال رياضا ، ووردت الأفكار من معانيه الغرائب وألفاظه المُزْرِية بِدُرَر النحور والتَّرَائب بحواراً صافيةً وحِياضا ، فاجتلينا منه حلة من حلل الود سابغة ، وحجة من حُجَج المجد بالغة ، وشمساً فى فَلَكِ السعد بازغة ، الذى بَيَّنَ المقاصد الكريمة وشَرَحَها ، وجلا الفضائل العميمة وأَوْضَحَها ، فما أكرم شيم[٤] ذلك الجلال وأسمحها ، وأفضل خلال ذلك الكمال[٥] وأرجحها ، حثثتم فيه على إحكام السلم التى تحوط الأنفس والحريم بسياج ، ويُدَاوى القطر

---

(١) فى نسخة « تنام فى كنفه آمنة أيقاظه »

(٢) قس : هو ابن ساعدة الإيادى ، من مشهورى خطباء العرب فى الجاهلية ، وعكاظ : اسم سوق كان العرب يتناشدون فيه ويتفاخرون

(٣) في نسخة « ثواب السعادة » تحريف

(٤) فى نسخة « قسيم ذلك الجلال » (٥) فى نسخة « ذلك الجمال »

العليل منها بأنجع علاج ، والحال ذات احتياج ، وساحةُ الجبل عَصَمه الله تعالى ميدان هياج ، ومُتَبَوَّأ أعْلاَج (١) ، ومظنة اختلاف للظنون (٢) الموحشة واختلاج ، فحضر لدينا محتملهُ (٣) وزيرُكم الشيخ الأجل الأعظم الموقر الأسمى الخاصة الأحظى أبو على ابن الشيخ الوزير الأجل الحافل الفاضل المجاهد (٤) الكامل أبى عبد الله بن محلى والشيخ الفقيه الأستاذ الأعرف الفاضل الكامل أبو عبد الله ابن الشيخ الفقيه الأجل العارف الفاضل الصالح المبارك المبرور المرحوم أبى عبد الله القَشْتَالى ، وصل الله سبحانه سعادتهما ، وحرس مَجادتهما ، حالين من مراتب ترفيعنا أعلى محل الإعزاز ، وواردين على أحلى القبول الذى لا تُشَاب (٥) حقيقَتُه بالمجاز ، عملا بما يجب علينا لمن يصل إلينا من تلك الأنحاء الكريمة والأحواز ، فتلقينا ما اشتملت عليه الإحالة السلطانية من الود الذى كَرُمَ مفهوما ونصا ، والبر الذى ذهب من مذاهب الفضل والكمال الأمَدَ الأقصى ، وقد كان سبقهما صنع الله جلّ جلاله بما أخلف الظنون ، وشرح الصدور وأقر العيون (٦) ، فلم يصلا إلينا إلا وقد أهلك الله تعالى الطاغية ، ومزق أحزابه الباغية ، نعمة منه سبحانه وتعالى ومنة ملأت الصدور انشراحا ، وعمت الأرجاء أفراحا ، وعنوانا على سعد مقامكم الذى راق غُرَرًا فى المكرمات وأوْضَاحَا ، ومديده إلى سهام المواهب الإلهية فحاز أعلاها قِدَاحَا ، فتشوّفت (٧) نفوس المسلمين إلى ما كانت تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ، وبدت فى القضية التى أشرتم بأعمالها الوُجوه ، وانبعثت الآمال إلى (٨) ما آلت إليه هذه الحال انبعاثا ، والتاثت أمور العدو قَصَمه الله تعالى التياثا ، وانتقض غزله من بعد

---

(١) في أصل ا « ومتبو أعلاج » والأعلاج : جمع علج . وهو الرجل الضخم من الكفار

(٢) فى ا « اختلاف الظنون »

(٣) فى ا « متحمله »

(٤) فى ا « الماجد »

(٥) تشاب : تخلط

(٦) فى أصل ا « وقر العيون »

(٧) فى أصل ا « فتشوقت »

(٨) فى ا « بما آلت »

قوّته بفضل الله تعالى أنكائا ، واحتملت المسألة التى تفضلتم بعرضها وأشرتم إلى فرضها مآخذا(١) وأبحاثا ، فألقينا فى هذه الحال إلى رسوليكم أعزهما الله تعالى ما يُلْقيانه إلى مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفُضْلَى ، وما يتزيد عندنا من الأمور فركائبُ التعريف بها إليكم محثوثة ، وجزئياتها بين يدى مقامكم الرفيع مبثوثة ، وقد اضطربت أحوال الكفر وفالت آراؤه(٢) ، واستحكم بالشتات(٣) داؤه ، وارتجّتْ بزلزال الفتن أرجاؤه ، وتيسرت آمالُ الإسلام بفضل الله تعالى ورجاؤه ، وما هو إلا السعد يذلل لكم صعب العدو ويَرُوضُه ، والله سبحانه يهيئ لكم فضل الجهاد حتى تُقْضَى بكم فروضُه ، وأما الذى لكم عندنا من الخلوص الصافية شرائعُه ، والثناء الذى هو الروض تأرَّجَ ذائعه ، فأوضحُ من فَلَق الصبح إذا أشرقت طلائعه ، جعله الله تعالى فى ذاته ، ووَسِيلةً إلى مرضاته ! ورسولا كم يشرحان لكم الحال بجزئياته ، ويقرران ما عندنا من الود الذى سطع نور آياته ، وهو سبحانه وتعالى يصل لكم سعدا سامىَ المراتب والمراقى ، ويجمع لكم بَعْدَ بُعْدِ المدى وتمهيد دين الهدى بين نعيم الدنيا والنعيم الباقى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . انتهى

وأبين من هذا فى القضية كتابٌ آخر من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى صورته :

من إنشاء لسان الدين أيضاً

من أمير المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج ابن نصر ، إلى محل أخينا الذى نُثْنِى على مَجادته أكرمَ الثناء ، ونجدد له ما سلف

---

(١) فى ا « مآخذا » بالجمع والتنوين ، وليس بشىء

(٢) فالت : ضعفت وركت ، وفى أصل ا « ونالت آراؤه » وفى نسخة عندها « وقلت آراؤه »

(٣) الشتات — بفتح الشين — التفرق

بين الأسلاف الكرام من الولاء ، ونُتْحِفُه من سعادة الإسلام وأهله بالأخبار السارة والأنباء ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى رفيعَ المقدار ، كريمَ المآثر والآثار ، وعرَّفه من عَوارفِ فضلِه كلَّ مُشْرِق الأنوار ، كفيلٍ بالحسنى وعُقْبَى الدار .

سلام كريم ، برّ عميم ، يخص جلالكم الأرفع ، ورحمة الله و بركاته .

أما بعدَ حمدِ الله على عميم آلائه ، وجزيل نَعْمائه ، مُيَسِّر الصعب بعد إبائه ، والكفيل بتقريب الفرج و إدْنائه ، له الحمد والشكر ملء أرضه وسمائه ، والصلاة والسلام على سيدنا [ومولانا] محمد خاتم رسله الكرام وأنبيائه ، الهادى إلى سبيل الرشد وسَوَائه[1] ، مُطْلِع نور الحق يجلو ظُلَمَ الشك بضيائه ، والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه وخُلَفَائه ، السائرين فى الدنيا والآخرة تحت لوائه ، الباذلين نفوسَهم فى إظهار دينه القويم وإعلائه ، والدعاء لمقامكم بتيسير أمله من فضل الله سبحانه ورجائه ، واختصاصه بأوفر الحظوظ من اعتنائه ، فإنا كتبناه إليكم كتبكم الله تعالى فيمن ارتضى قولَه وعمله من أوليائه ، وعرفكم عوارف السعادة المعادة فى نهاية كل أمر وابتدائه ، من حمراء غَرْنَاطة ــ حرسها الله تعالى ! ــ ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم الذى أوضح برهانه ، وعظم أمره ورفع شانه ، ثم بما عندنا من الود الكريم وتجديد العهد القديم لمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه ، إلا الخير الهامى[2] السحاب ، والتيسير[3] المتين الأسباب ، واليمن المفتح الأبواب ، والسعد الجديد الأثواب ، ومقامكم معتمد بترفيع الجناب[4] ، متعهد[5] بالود

(١) يقال « استوى الشىء » بمعنى اعتدل واستقام ، ويقال « صراط سوى » بمعنى معتدل مستقيم ، وسواء الرشد ــ بفتح السين ــ استقامته أو وسطه

(٢) الهامى : المنهمر المنسكب

(٣) فى أصل ا « واليسر المتين الأسباب »

(٤) فى نسخة عند ا « بترفيع الجواب »

(٥) فى ب « متعمد » وفى نسخة « معتهد »

الخالص والاعتقاد اللُّبَاب ، معلوم له[١] فضل الدين وأصالة الأحساب ، وإلى هذا وَصَل الله تعالى سعدكم[٢] مديد الأطناب ، ثاقب الشِّهاب ، وأطلع عليكم وجوه البشائر سافرةَ النقاب ، فإنه قد كان بلغكم ما آلت الحالُ إليه بطاغية قَشْتالة الذى كَلِبَ على هذه الأقطار الغربية من وراء البحار ، وما سامها من الأوصاب[٣] والأضرار ، وأنه جرى فى ميدان الإملاء والاغترار ، ومُحِّصَ المسلمون على يده بالوقائع العظيمة الكبار ، وأنه نكث العهد الذى عَقَده ، وحل الميثاق الذى أكَّدَه ، وحمله الطمعُ الفاضح على أن أجْلَبَ على بلاد المسلمين بخيله ورَجْلِه ، ودَهَمَها بتيار سَيْله وقِطَع ليله ، وأمل أن يستولى على جبل الفتح الذى يدعى منه فتحها ، وطلع للملة المحمدية صُبْحُها ، فضيقه حصارا ، واتخذه دارا ، وعندما عظم الإشفاق ، وأظلمت الآفاق ، ظهر فينا لقدرة الله تعالى الصنعُ العجيب ، ونزل الفرجُ القريب[٤] وقَبِلَ الدعاء السميعُ المجيب ، وطرق الطاغية ، جندٌ من جنود الله تعالى أخذه أخذةً رابية ، ولم يبق له من باقية ، فهلك على الجبل حَتْفَ أنفه ، وغالته غوائلُ حَتْفِه ، فتفرقت جموعه وأحزابه ، وانقطعت أسبابه ، وتعجل لنار الله تعالى مآبه ، وأصبحت البلاد مستبشرة ، ورحمة الله منتشرة ، ورأينا أن هذه البشارة التى يأخذ منها كل مسلم بالنصيب الموفور ، ويشارك فيما جلبته من السرور ، أنتم أولى مَنْ نُتْحِفُه بطيب ريَّاها ، ونطلع عليه جميلَ مُحَيَّاها ، لما تقرر عندنا من دينكم المتين ، وفضلكم المبين ، وعملكم فى المساهمة[٥] على شاكلة صالحى السلاطين ، فما ذلك إلا فضل نيتكم للمسلمين فى هذه البلاد ، وأثر ما عندكم من جميل الاعتقاد ، وقد ورد علينا رسولكم[٦] القائد

---

(١) فى ا « معلوم له من فضل الدين وأصالة الأحساب »

(٢) فى ا « أوصل الله لكم سعدا مديد الأطناب »

(٣) فى ا « وماسامها من الإرهاق والإضرار »

(٤) فى ا « الفرج الغريب » (٥) فى ا « من المساهمة »

(٦) فى ا « ورد علينا رسولنا إليكم »

أبو عبد الله محمد بن أبى الفتح ، أعزه الله تعالى ! مقرِّراً ما لديكم من الود الراسخ القواعد ، والخلوص الصافى الموارد ، الواضح الشواهد ، وأثنى على مكارمكم الأصيلة[١] ، وألقى ماعندكم من المذاهب الجميلة ، فقابلنا ذلك بالشكر الذى يتصل سببه ، و يتضح مذهبه ، وسألنا الله أن يجعله ودًّا فى ذاته ، ووسيلة إلى مرضاته ، وتعرفنا ما كان من تفضلكم بالطريدة المفتوحة المؤخر ، وما صدَرَ عن الرئيس المعروف بالناظر من خدام دار الصنعة بالمرية من قبح محاولته ، وسوء معاملته ، فأمرنا بقطع جرايته ، وثقافهِ بمطمورة القصبة جزاء لجنايته ، ولولا أننا توقفنا[٢] أن يكون عظيم عقابه مما لا يقع من مقامكم[٣] بوفقه ، لمشهور عفافه ورفقه ، لجعلناه نكالاً لأمثاله ، وعبرة لأشكاله ، وقد وجهنا جفننا سفريا لإيساق الخيل التى ذكرتم ، و إيصال ما إليه من ذلك أشرتم ، ويكمل القصد إن شاء الله تعالى تحت لحظ اعتنائكم ، وفضل وَلائكم ، هذا ما تزيد عندنا عرفناكم به ، عملا على شاكلة الود الجميل ، والولاءِ الكريم الجملة والتفصيل ، فعرفونا بمايتزيد[٤] عندكم يكن من جملة أعمالكم الفاضلة ، ومكارمكم الحافلة ، والله تعالى يَصِلُ سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته . انتهى

من إنشاء لسان الدين أيضا

ومن إنشاء لسان الدين فيما يتعلق بالأندلس وانقطاعها ، وأنها لاغِنى لها عن العُدْوة وغير ذلك ، ما صورته :

المقامُ الذى بنور سعادته تنجلى الغَمَّاء وتتصل النعماء ، مَنْ نيتهُ قد حصل منها لجانب الله تعالى الانتماء ، واتفقت منها المسمَّيَاتُ والأسماء ، مقامُ محل أبينا الذى تتفيأ هذه الجزيرة الغربية أفياء[٥] نيته الصالحة وعمله ، وتثق بحسن العاقبة اعتمادا على

---

(١) فى ا « مكارمكم الأميلة » (٢) لعله « توقعنا »

(٣) فى نسخة عند ا « لايقع من مقامك بوقعه »

(٤) فى أصل ا « بما يتزيد من عندكم يكون » وفى نسخة عندها « بما يزيد »

(٥) الأفياء : جمع فىء ، وهو الظل ، وتتفيؤه : تستظل به

وعد الله(١) تعالى المنزل على خيرة رُسُلِه ، وتجتنى ثمار النجح من أفنان آرائه المتألقة تألق الصبح حالَىْ رَيْشِه وعَجَله ، وتتعرف حالى المودود والمكروه عارفة الخير والخيرة من قبله ، أبقاه الله تعالى يحسم الأدواء كلما اسْتَشْرَتْ(٢) ، ويحلى موارد العاقبة(٣) كلما أمَرَّتْ ، ويعفِّى على آثار الأطماع الكاذبة مهما خدعت بخُلَّبها وغرت(٤) ، ويضمن سعدُه عودةَ الأمور إلى أفضل ما عليه استقرت ، معظم مقامه الذى هو بالتعظيم حقيق ، وموقر(٥) ملكه الذى لا يلتبس منه فى الفخر والعز طريق ، ولا يختلف فى فضله العميم ومجده الكريم فريق .

أما بعدَ حمدِ الله المثيب المعاقب ، الكفيل لأهل التقوى بحسن العواقب ، المشيد بالعمل الصالح إلى أرفع المَرَاقى والمَرَاقب(٦) ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء فبقضائه وقدره اختلاف المسالك والمذاهب ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الحاشر العاقب ، ونبيه الكريم الرؤوف الرحيم ذى المفاخر السامية والمناقب ، والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه الذين ظاهروه فى حياته بإعمال السُّمْر العَوَالى والبيض القَوَاضب ، وخلفوه فى أمته بخلوص الضمائر عن شَوْب الشوائب(٧) ، فكانوا فى سماء ملته كالنجوم الثواقب ، والدعاء لمقامكم الأسمى بالسعادة المعادة فى الشاهد من الزمن والغائب ، والنصر الذى يقضى بعز الكتائب ، والصنع الذى تطلع من ثناياهُ غرر الصنائع العجائب ، من حمراء غَرْناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من الاعتداد بمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه ، وشمل(٨) بالتمهيد أوطانه ، إلا تشيُّع ثابت ويزيد ،

---

(١) فى ا « وتثق بحسن العاقبة اعتمادا على وعد الله - إلخ »

(٢) استشرت : عظم خطبها وصعب دفعها ، وفى نسخة « استسرت »

(٣) فى أصل ا « موارد العافية »   (٤) فى نسخة « وعرت »

(٥) فى نسخة « وموفر ملكه » تحريف   (٦) فى نسخة « والمراتب »

(٧) فى ا « عند شوب الشوائب »   (٨) فى نسخة « وسهل بالتمهيد »

وإخلاص ماعليه فى ميدان الاستطاعة مزيد ، وتعظيم أشرق[١] منه جيد ، وثناء راق فوق رياضه تحميد وتمجيد ، وإلى هـذا وَصَلَ اللهُ تعالى سعدكم ، وحرس الطاهر الكريم مجدكم ، فقد وصلنا كتابكم الذى هو على الخلوص والاعتقاد عُنْوَان ، وفى الاحتجاج على الرضا والقبول برهان ، تنطق بالفصل[٢] فصوله ، وتشير[٣] إلى كرم العقد فروعه الزكية وأصوله ، ويحق أن ينسب إلى ذلك الفخر الأصيل مَحْصُوله ، عرفتمونا بما ذهب إليـه عيسى بن الحسين من الخلاف الذى ارتكبه ، وسبيل الصواب الذى انتكبه[٤] ، وتنبهون[٥] على ماحده الحق فى مثل ذلك وأوجبه ، حتى لا يصل أحد من جهتنا سببه ، ولا يظاهره مهما ندبه ، ولا يسعف فى الإيواء طلبه ، فاستوفينا ما استدعاه ذلك البيان الصريح وجَلَبه ، وخطه القلم الفصيح وكتبه ، وليعلم مقامكم وهو من أصالة النظر غنىٌّ عن الإعلام ، ولكن لابد من الاستراحة بالكلام ، والتنفث بنَفَثَات الأقلام ، أننا إنما نجرى أمورنا مع هذا العدو الكافر الذى رُمينا بجواره ، وبلينا والحمد لله بمصادمة تَيَّاره ، على تعداد أقطاره ، واتساع بَرَارِيه وبحاره ، بأن تكون الأمة المحمدية بالعُدْوَتين تحت وفاق ، وأسْوَاقُ النِّفاق غير ذات نَفَاق[٦] ، والجماهير تحت عهد من الله تعالى وميثاق ، فمهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عَقْد ، ووقع بينهما فى قبول الطاعة رد ، ساءنا واقعه ، وعَظُمت لدينا مَوَاقعه ، وسألنا أن يتدارك الخرْقَ راقعُه ، لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا ، وتفرغ العدو إلى ضرنا ، فكيف إذا وقعت الفتنة فى صقعنا وقُطْرنا ، إنما هى شعلة فى بعض بيوتنا وقعت ، وحادثة إلى جهتنا أشرعت[٧] ، وإن

---

(١) فى ا « أشرف منه جيد »

(٢) فى أصل ا « تنطق بالفضل »

(٣) فى نسخة عند ا « وتثير » وفى أخرى « وتنثر »

(٤) انتكبه : عدل عنه ، نظير تنكبه (٥) فى ا « وتنبهونا »

(٦) نفاق — بفتح النون — رواج (٧) فى نسخة « أسرعت »

كان لسوانا لفظهما فلنا معناهاَ ، وعلى وطننا يعود جناها ، فنحن أحرص الناس على إطفائها و إخمادها ، وأسعى فى إصلاح فسادهاَ ، والمثابرة على كفها واستئسادها(١) ، وما الظن بدار فسد بابُهاَ ، وآمال رَثَّتْ أسبابها(٢) ، وجزيرة لا تستقيم أحوالُ من بها إلا بالسكون ، وسِلْمِ العدو المغرور المفتون ، حتى تُقْضَى منه بإعانتكم الديون ، و إن اضطرابها إنما هو داء نستبصر(٣) من رأيكم فيه بطبيب ، وهَدَف خطب نرميه من عزمكم بسهم مصيب ، وأمر نضرع فى تداركه إلى سميع للدعاء مجيب ، ونحن فيه يد أمام يدكم ، ومقصدنا فيه تبَع لقصدكم ، وتصرفنا على حد إشارتكم(٤) جارٍ ، وعزمنا إلى منتهى مرضاتكم مُتَبَار ، وعَقْدُنا فى مشايعة أمركم غير متوار ، وقد كنا لأول اتصال هذا الخبر، القبيح العين والأثر ، بادَرْنا تعريفكم بجميع ما اتصل بنا فى شانه ، ولم نطو عنكم شيئا من إسراره ولا إعلانه ، و بعثنا رسولنا إلى بابكم العلى نعتدُّ بسلطانه ، ونرتجى تمهيد هذا الوطن بتمهيد أوطانه ، و بادرنا بالمخاطبة مَن وجبت مخاطبته من أهل مربلة وأسطبونة نثبت بصائرهم فى الطاعة ونقويها ، ونعدهم بتوجيه من يحفظ جهاتهم و يحميها ، وعجلنا إلى بعضها مدداً من الرماة والسلاح ليكون [ذلك] عُدَّة فيها ، وعملنا(٥) ما أوجب الله تعالى من الأعمال التى يُزْلِفُ بها و يرتضيها ، وكيف لا نظاهر أمركم الذى هو العدة المذخورة ، والفئة الناصرة المنصورة ، والباطل سَرَاب يَخْدَع ، والحق إليه يُرْجَع ، والبغى يُرْدِى و يَصْرَع ، وكم تقدم فى الدهر منتزٍ شذ عن الطاعة ، وخرج عن الجماعة ، ومخالف على الدول ، فى العصور الأول ، بهرج الحقُّ زائفه ، ورجمت شهب الأسنة طائفه ، وأخذت عليه الضيقة

---

(١) استئسادها : الزيادة في شرها واندلاع لهبها

(٢) رثت : بليت وتقطعت ، والأسباب : جمع سبب ، وأصله الحبل ، وفى نسخة « رست »

(٣) فى أصل ا « نستنصر »

(٤) فى نسخة عند ا « على حد تصرفكم » وفى أخرى « حد نصركم »

(٥) فى أصل ا « وعلمنا ما أوجب الله »

وهادهُ و تَنَائفه[١] ، فتقلص ظله ، ونَبَا به [عن الحق] محله ، وكما قال يذهب الباطل وأهله ، لاسيما وسعادة ملككم قد وطأت المسالك ومَهّدَتها ، وقهرت الأعداء وتعبدتها ، وأطفأت جداول سيوفكم النار التى أوقدتها ، وكأن بالأمور إذا أعملتم فيها رأيكم السديد وقد عادت إلى خير أحوالها ، والبلاد بيمن تدبيركم قد شفى ماظهر من اعتلالها ، وعلى كل حال فإنما نحن إلى تكميل[٢] مرضاتكم مبادرون ، وفى أغراضكم الدينية واردون وصادون ، ولإشاراتكم التى تتضمن الخير والخيرة منتظرون ، عندنا من ذلك عقائد لايحتمل نَصُّها التأويل ، ولا يقبل صحيحها التعليل ، فلتكن أبوّتكم من ذلك على أوضح سبيل ، فشمس النهار لا تحتاج إلى دليل ، والله تعالى يُسَنِّى لكم عوائد الصنع الجميل ، حتى لا يَدعَ عَزْمُكم مغصوبا إلارده ، ولا ثَلْماً فى ثغر الدين[٣] إلا سَدَّه ، ولا هدفا متعاصياً إلا هَدَّه ، ولا عرقا من الخلاف إلا حده[٤] ، وهوسبحانه يبقى ملككم و يصل سعده ، ويُعْلى أمره و يحرس مجده ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله و بركاته . انتهى

من إنشاء لسان الدين أيضا

ومن إنشائه رحمه الله تعالى من جملة رسالة على لسان سلطانه أبى الحجاج يخاطب الرعايا ، ما نص محل الحاجة منه :

و إلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذى جرى فى ميدان الأمل جَرْىَ الجَمُوح ، ودارت عليه خمرة النخوة والخُيَلَاء مع الغَبُوق والصَّبُوح ، حتى طمح بسكر اغتراره ، ومُحِّصَ المسلمون على يده بالوقائع التى تجاوز منتهى مقداره ، وتوجهت إلى استئصال الكلمة مطامح[٥]

---

(١) الوهاد : جمع وهد - بالفتح - وهو المكان الممهد المطمئن ، والتنائف : جمع تنوفة - بفتح التاء وضم النون - وهى الصحراء والمفازة

(٢) فى ا « على تكميل مرضاتكم »

(٣) فى نسخة « ولا ثلما فى الثغر إلا سده »

(٤) فى أصل ا « إلا جده » وجده : أى قطعه بجذه

(٥) فى ا « مطامع » وفى نسخة « مطالع »

أفكاره ، ووثق بأنه يطفئ نور الله بناره ، ونازل جبلَ الفتح فشد مُخَنَّق حصاره ، وأدار أشياعه فى البر والبحر دَوْرَ السوار على أسواره ، وانتهز الفرصة بانقطاع الأسباب وانبهام الأبواب ، والأمور التى لم تجر للمسلمين بالعُدْوتين على مألوف الحساب ، وتَكالَبَ التثليثُ على التوحيد ، وساءت الظنون فى هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة والبحور الزاخرة والمرام البعيد ، وإننا صابرنا بالله تعالى تيَّار سَيْله[1] ، واستضأنا بنور التوكل عليه فى جنح هذا الخطب ودُجُنَّةِ لَيْله ، ولجأنا إلى من بيده نواصى الخلائق ، واعتلقنا[2] من حبله المتين بأوثق العلائق ، وفسحنا[3] مجالَ الأمل فى ذلك الميدان المتضايق ، وأخلصنا لله مُقيلِ العثار ومؤوى أولى الاضطرار قلوبَنَا ، ورفعنا إليه أمرنا ووقفنا عليه مطلوبنا ، ولم نقصر مع ذلك فى إبرام العزم ، واستشعار الحزم ، وإمداد الثغور بأقصى الإمكان ، وبعث الجيوش إلى ما يلينا من بلاد على الأحيان ، فرحم الله تعالى انقطاعنا إلى كرمه ، والتجاءنا إلى حَرَمِهِ ، فجلّى بفضله سبحانه ظُلَم الشدة ، ومد على الحريم والأطفال ظلال رحمته الممتدة ، وعرفنا عوارف الصنع الذى قدم به العهد على طول المُدَّة ، ورماه بجيش من جيوش قدرته أغنى عن إيجاف[4] الركاب ، واحتشاد الأحزاب ، وأظهر فينا قدرة ملكه عند انقطاع الأسباب ، واستخلاص العباد والبلاد من بين الظُّفُر والناب ، فقد كان جَعْجَعَ على الحق بأباطيله ، وسد المَجَازَ بأساطيله ، ورمى الجزيرة الأندلسية بشُؤْبُوب شرِّه ، وصيرها فريسة بين غربان بحره وعقبان بَرِّهِ ، فلم يخلص إلى المسلمين من إخوانهم مرقبة إلا على الخطر

---

(١) فى نسخة « صابرنا بالله تعالى بنار سيله » وفى أخرى « بتارسيله » تحريف

(٢) اعتلقنا : تمسكنا ، وفى أصل ا « اعتقلنا »

(٣) فى نسخة « وفسحنا محال الأمل »

(٤) إيجاف الركاب : إعمال الخيل وإجراؤها

الشديد[١]، والإفلات من يد العدوّ العنيد ، مع توفر العزائم والحمد لله على العمل الحميد ، والسعى فيما يعود على الدين بالتأييد ، و بينما شفقتنا على جبل الفتح تقيم وتقعد ، وكَذَبُ الأعداء عليه يُبْرق و يرعد ، واليأس والرجاء خصمان هـذا يقرب وهذا يبعد ، إذ طَلَع علينا البشيرُ بانفراج الأزْمَة ، وحَلّ تلك العَزْمَه ، وموت شاه تلك الرقعة ، و إبقاء الله تعالى على تلك البقعة ، و أنه سبحانه أخذ الطاغية أكْمَلَ ما كان اغترارا ، وأعظم أنصارا ، وزلزلت[٢] أرض عزه وقد أصابت قَرَارا ، وأن شهاب سعده قد أصبح آفلا ، وعَلَم كبره انقلب سافلا ، وأن مَنْ بيده ملكوت السموات والأرض طرَقه بحتفه ، وأهلكه برغم أنفِهِ ، وأن محلته عاجلها التَّبابُ والتَّبار ، وعاثت فى مَنَازلها النار ، وتمخض[٣] عن سوء عاقبتها الليلُ والنهار ، وأن حُماتها يخربون بيوتهم بأيديهم ، و ينادى بشتات الشمل لسانُ مناديهم ، وتلاحق الفرسان[٤] من جبل الفتح المعقل الذى عليه من عناية الله تعالى رِوَاق مضروب ، والرباط الذى مَنْ حارَبه فهو المحروب ، فأخبرت بانفراج الضيق ، وارتفاع العائق [لها] عن الطريق ، و برء الداء الذى أشرق بالريق ، و أن النصارى دمرها الله تعالى جدت فى ارتحالها ، وأسرعت بجيفة طاغيتها إلى سوء مآلها وحالها ، وسمحت للنار والنهب بأسلابها وأموالها ، فبهرَنا هـذا الصنعُ الإلهى الذى مهد الأقطار بعد رجفانها ، وأنام العيون بعد سُهَاد أجفانها ، وسألنا الله تعالى أن يُعِيننا على شكر هذه النعمة التى إن سلطت عليها قُوَى البشر فضحتها ، ورجحتها ، ورأينا سر الطائف الخفية كيف سريانُه فى الوجود ، وشاهدنا بالعيان أنوار اللطائف الإلهية

(١) فى نسخة « إلا على الخطب الشديد »
(٢) فى أصل ا « وزلزل أرض عزه »
(٣) فى أصل ا « وتمحض عن سوء عاقبتها»
(٤) فى نسخة « ولا حق الفرسان »

والجود ، وقلنا : إنما هو الفتح الأوّل شفِـع بثان ، وقواعد الدين الحنيف أيدت من صنع الله تعالى ببُنْيان ، اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة ، ومننك الوافرة ، إنك ولينا فى الدنيا والآخرة . انتهى

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى من أخرى مما يتعلق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته :

من إنشاء لسان الدين أيضا

وإن تشوّفتم [١] إلى أحوال هذا القطر ومَنْ به من المسلمين ، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين ، فاعلموا أننا فى هذه الأيام ندافع من العدوّ تيارا ، ونكابر بحرا زَخَّارا ، ونتوقع إلا إن وقى الله تعالى خطوبا كِبارا ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصارا ، ونلجأ إليه اضطرارا ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعدادا به واستظهارا [٢] ، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطارا ، وينشىء ريحَ رَوْحِ الله طيبةً مِعْطَارا ، فإذا القومس [٣] الأعظم قيوم دين النصرانية الذى يأمرها فتطيع ، ومخالفتهُ لاتستطيع ، رمى هذه الأمة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لايسد طريقها ، ولا يحصى فريقها ، التفت على أخى صاحب قَشْتَالة وعزمها أن تملكه بدله ، وتبلغه أمله ، ويكون الكل يدا واحدة على المسلمين ، ومناصبةِ هذا الدين ، واستئصال شأفة المؤمنين ، وهى شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عَهْد ، ولا عرَفَها نجد ولا وَهْد [٤] ، وقد اقتحموا الحدود القريبة ، والله تعالى ولى هذه الأمة الغريبة ، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يُقوّى الضعيف ، ويدرأ الخطب المخيف ، ورجَوْنا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم

---

(١) فى أصل ا « تشوقتم »

(٢) استعدادا به : أى نجعله عدة لنا على العدو ، واستظهارا : نستظهر به ، أى نتقوى

(٣) فى ا « فإن القومس الأعظم »

(٤) النجد : ماارتفع وحزن من الأرض ، والوهد ضده ، والغرض التعميم

فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) ، وهو سبحانه المرجو فى حسن العقبى والمآل ، ونَصْر فئة الهُدَى على فئة الضلال ، وما قل من كان الحقُّ كَنْزَهُ ، ولا ذَلَّ من استمد من الله عِزَّه (قل هل تربَّصُونَ بنا إلا إحدى الحسنيين — الآية) ودعاء مَنْ قِبَلَكُم من المسلمين مَدَد موفور ، والله سبحانه على كل حال محمود مشكور . انتهى

من إنشاء لسان الدين أيضا

ومن أخرى طويلة من جملتها ما صورته :

وقد اتصل بنا الخبر الذى يوجب نصح الإسلام ، ورَعْى الجوار والذِّمام ، وماجعل[1] الله تعالى للمأموم على الإمام ، إيقاظكم من مَرَاقدكم المستغرقة[2] ، وجمع أهوائكم المتفرقة ، وتهيئكم إلى مُصَادمة[3] الشدائد المُرْعِدة المبرقه ، وهو أن كبير دين النصرانية الذى إليه ينقادون ، وفى مرضاته يُصَادقون ويُعَادون ، وعند رؤية صليبه يكبرون ويسجدون ، لما رأى الفتن قد أكلتهم خَضْماً وقَضْماً ، وأوسعتهم هضما ، فلم تبق عَصَبا ولا عظما ، ونثرت ما كان نَظْما ، أعمل نظره فيما يجمع منهم[4] ما افترق ، ويرفع ما طرق ، ويرفو ما مَزَّقَ الشتات وخرق ، فرمى الإسلام بأمة عددها القَطْر المنثال ، وأمرهم وشأنهم الامتثال ، أن يدمنوا[5] لمن ارتضاه من أمته الطاعة ، ويجمعوا فى ملته الجماعة ، ويَطْلُع الكل على هذه الفئة القليلة الغريبة[6] بَغْتَةً كقيام الساعة ، وأقطعهم قطع الله تعالى بهم العباد والبلاد ، والطارف والتِّلاد ، وسوّغهم الحريم والأولاد ، وبالله تعالى نستدفع ما لا نُطِيقه ، ومنه نسأل عادة الفرج فما سُدَّتْ طريقه ، إلا أنا رأينا غَفْلَة الناس مُؤْذنة البَوَار ، وأشفقنا للدين المنقطع من وراء البحار ، وقد أصبح مُضْغَة فى لَهَوَات الكفار ، وأردنا أن

---

(١) فى نسخة « وما فعل الله »
(٢) فى نسخة « المستفرقة »
(٣) فى نسخة « مصادقة »
(٤) فى نسخة « يجمع بينهم »
(٥) فى أصل ا « أن يدمثوا » بالثاء المثلثة ، ومعناه يسهلوا
(٦) فى نسخة « الغربية »

نهزكم (١) بالموعظة التى تكحل البصائر بميلِ الاستبصار ، فإن جبر الله تعالى الخواطر بالضراعة إليه والانكسار ، ونسخ الإعسار بالإيسار ، وأنجد اليمين بأختها اليَسَار ، وإلا فقد تعين فى الدنيا والآخرة حظ الخَسَار ، فإن مَنْ ظهر عليه عدودين الله تعالى وهو من الله مَصْروف ، وبالباطل مشغوف ، وبغير العرف معروف ، وعلى الحُطَام المسلوب عنه ملهوف ، فقد تَلَّه (٢) الشيطان للجَبين ، وقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وَمَنْ نفذ فيه أوله قدر الله عن أداء الواجب وَبذْل المجهود ، وأفرد بالعبودية وَجْهَ الواحد الأحد المعبود ، ووطّن النفسَ على الشهادة المبوّأة دار الخلود ، العائدة بالحياة الدائمة والوجود ، أو الظهور على عدوِّه المحشور إليه المحشود ، صبرا على المقام المحمود ، وَبَيْعًا من الله تعالى تكون الملائكة فيه الشهود ، حتى تعين (٣) يد الله فى ذلك البناء [المهدوم بقوة الله و] المهدود ، والسواد الأعظم الممدود ، كان على أمر يه بالخيار الودود (٤) (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ـ الآية) . انتهى

وقال صاحب « مناهج الفكر » بعد وصفه لجزيرة الأندلس وأقطارها ، ما صورته :

ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها فى سلك الانقياد والوفاق ، إلى أن طما بمُتْرَفِيهَا (٥) سيلُ العناد والنفاق ، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مَسْقطَ رأسه ، وجعله مَعْقلا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه ، فصار كل منهم يشنّ الغارة على جاره ، ويحاربه فى عُقْر داره ، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدوّ فى الدين يعادى ،

---

(١) فى نسخة « نعدكم » وفى أخرى « نميزكم » وفى ثالثة « نهزمكم »

(٢) تله للجبين أكفأه على وجهه ، وألقاه على الأرض ، كما تقول « كبه لوجهه »

(٣) فى أصل ا « تعيث » وسقط منها ما بين الحاصرتين

(٤) فى أصل ا « المردود » (٥) في أصل ا « بمترقها » وفى نسخة « بمنزفيها »

ويراوح مَعَاقلهم بالعَيْث[١] ويُغادى ، حتى لم يبق فى أيديهم منها إلا ما هو فى ضمان هدنة مقدّرة ، وإتاوة فى كل عام على الكبير والصغير مُقررة ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وقدَرًا فى سابق علم الله مقدورا ، انتهى .

وهذا قاله قبل أن يستولى العدو على جميعها ، والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

أخذ الكفار قواعد بلاد الأندلس

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من أخذ النصارى قواعدَ الأندلس فنقول : قد قدمنا أوائل هذا الباب أن طُلَيْطلة أعادها الله تعالى من أول ما أخذ الكفار من المدن العظام بالأندلس .

أخذ طليطلة

قال ابن بسام : لما توالت على أهل طُلَيْطلة الفتن المظلمة ، والحودات المُصْطَلمة[٢] وترادَفَ عليهم البلاء والجلاء ، واستباح الفرنج لعنهم الله تعالى أموالهم وأرواحهم ، كان من أعجب ما جرى من النوادر الدالة على الخِذلان أن الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير ، ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها ، فلما كانت السنة التى استولى عليها العدوّ فيها لم ترفع الغلة من الأنْدَر[٣] حتى أسرع فيها الفساد ، فعلم الناسُ أن ذلك بمشيئة الله تعالى لأمر أراده ، من شمول البلوى ، وعموم الضراء ، فاستولى العدوّ على طليطلة ، وأنزل مَنْ بها على حكمه ، وخرج ابن ذى النون منها على أقبح صورة ، وأفظع سيرة[٤] ، ورآه الناس و بيده اصطرلاب يأخذ به وقتا يَرْحَلُ فيه ، فتعجب منه المسلمون ، وضحك عليه الكافرون ، و بسط الكافر العدلَ على أهل المدينة ، وحبب التنصر إلى عامة طَغَامها[٥] ، فوجد

---

(١) العيث : الإفساد ، عاث يعيث عيثا

(٢) اصطلمه : استأصله

(٣) الأندر — بوزن الأحمر — البيدر (الجرن بلغة ريف مصر)

(٤) فى نسخة « وأقطع سيرة » (٥) فى نسخة « طغاتها »

المسلمون من ذلك ما[١] لا يُطَاق حَمْلُه ، وشرع[٢] فى تغيير الجامع كنيسةً فى ربيع الأول سنة ست وتسعين وأربعمائة .

ومما جرى فى ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامى[٣] رحمه الله تعالى صار إلى الجامع ، وصلى فيه ، وأمر مُريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج لعنهم الله تعالى وتكاثروا لتغيير القبلة ، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته ، وعصمه الله تعالى منهم ، إلى أن أكمل القراءة ، وسجد سجدة ، ورفع رأسه ، وبكى على الجامع بكاء شديدا ، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه .

وقيل لملك النصارى : ينبغى أن تلبس التاج كمن كان قبلك فى هذا الملك ، فقال : حتى نأخذ قرطبتهم ، وأعد لذلك ناقوسا تأنق فيه وفيما رَصَّعَ به من الجواهر ، فأكذبه الله وأزعجه .

وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، فما قصر فيما أثر من إذلال المشركين ، وإرغام الكافرين ، واستدراك أمور المسلمين ، انتهى ملخصا ، وقد مر مطولا .

أخذ بلنسية

وكانت قبلها وقعة بطرنة سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن الفرنج - خذلهم الله تعالى ! - انتدبت منهم قطعة كثيفة ، ونزلت على بَلَنْسِية فى السنة المذكورة ، وأهلها جاهلون بالحرب ، مُعْرِضون[٤] عن أمر الطعن والضرّب ، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب ، وأظهر الفرنج الندم على منازلتها ، والضعف عن مقاومة مَنْ فيها ، وخَدَعوهم بذلك فانخدعوا ، وأطمعوهم فطمعوا ،

---

(١) فى نسخة « مما لا يطيق حمله » .

(٢) فى ا هنا زيادة كلمة « وتنصر » ولا محل لها في هذا المكان .

(٣) هكذا فى ا ، وفى ب « المقامى » وفي نسخة « الغامى »

(٤) فى أصل ا « مغترون بأمر » وفى نسخة « مفترون »

وكمن [١] فى عدة أماكن جماعة من الفرسان ، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم ، وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبى عامر ، فاستدرجهم العدو لعنهم الله تعالى ، ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر ، وما نجا منهم إلا من حَصَّنه أجَلُه ، وخلص الأمير نفسه ، ومما حفظ عنه أنه أنشد لما أعياه الأمر :

خليلى ليس الرأى فى صدر واحد أشيرا على اليوم ما تريان

وفى أهل بَلَنْسِية يقول بعض الشعراء حين خرجوا فى ثياب الزينة والترفه :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لولم يكن ببطرنة ما كانا

قال ابن بسام : وهكذا جرى لأهل طُليطلة ، فإن العدو - خذله الله تعالى ! - استظهر عليهم [٢] ، وقتل جماهيرهم ، وكان من جملة ماغنمه الفرنج من أهلها لماخرجوا إليهم فى ثياب الترفه ألف غفارة خارجا عما سواها

أخذ بشتر

وقال ابن حيان : وكان تغلب العدو - خذله الله تعالى ! - على بر بشتر قصبة بلد برطانية ، وهى تقرب من سرقسطة ، سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن جيش الأردمليس [٣] نازلها وحاصرها ، وقَصَّرَ يوسف بن سليمان بن هُود فى حمايتها ، ووكَلَ أهلَها إلى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أربعين يوما ، ووقع فيما بين أهلها تنازع فى القوت لقلته ، واتصل ذلك بالعدو ، فشدَّد القتالَ عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الأولى فى خمسة آلاف مُدَرَّع ، فدهش الناس ، وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة إفرنجى، ثم اتفق أن القَنَاة

---

(١) فى أصل ا «وكمنوا فى عدة أماكن جماعة من الفرسان» على لغة ضعيفة

(٢) استظهر عليهم : قوى ، وتمكن منهم

(٣) فى أصل ا «الأردمليش» وفى نسخة «الأردمنيين» وفى أخرى «الأردمانيين»

التى كان الماء يجرى فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض فى سِرْب موزون انهارت وفسدت ، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدت السِّرْب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة ، و يئس من بها من الحياة ، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال[١] وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضى بن عيسى فى نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة مالا يحصى ، حتى إن الذى خص بعض مُقَدِّمى العدو لحصنه[٢] وهو قائد خيل رومة نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة جمل[٣] ، وقُدِّر من قتل وأسر مائة ألف نفس ، وقيل : خمسون ألف نفس ، ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة[٤] لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتُنَادى من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدها[٥] فيقول لها : اعطينى ما معك ، فتعطيه ما معها من كسوة وحلى وغيره

قال : وكان السبب فى قتلهم أنه خَاف مَنْ يصل[٦] لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله ، فشرع فى القتل لعنه الله تعالى ، حتى قتل منهم نيفاً على ستة آلاف قتيل ، ثم نادى الملك بتأمين مَنْ بقى وأمر أن يخرجوا فازدحموا فى الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم ، ونزلوا من الأسوار فى الحبال[٧] للخشية من الازدحام فى الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء ، وكان قد تحيز فى وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا فى نفوسهم ، وانتظروا ما ينزل بهم ، فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار ، وهلك فى الزحمة نودى فى تلك البقيه بأن يبادر

---

(١) فى أصل ا « دون ماله وعيال » وليس بشىء أصلا

(٢) فى نسخة عند ا « لحصته »

(٣) فى أصل ا « خمسمائة حمل »

(٤) فى نسخة « هذه البلدة »

(٥) فى ا « أو لولدها »

(٦) فى أصل ا « خاف ممن يصل لنجدتهم »

(٧) فى نسخة « فى الجبال »

كل منهم إلى داره بأهله ، وله الأمان ، وأرهقوا وأزعجوا ، فلما حصل كل واحد [منهم] (١) بمن معه من أهله فى منزله اقتسمهم الإفرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك ، وأخذ كل واحد [منهم] (١) داراً بمن فيها من أهلها ، نعوذ بالله تعالى .

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا (٢) برؤس الجبال ، وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم ، و برزوا فى صور الهلكى من العطش ، فأطلق سبيلهم ، فبينماهم فى الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة ، فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله .

بعض فظائع الفرنج

قال : وكان الفرنج لعنهم الله تعالى ، لما استولوا على أهل المدينة يفتضُّونَ البكر بحضرة أبيها (٣) ، والثيب بعين زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأحوال مالم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ، ومَنْ لم يرض منهم أن يفعل ذلك فى خادم أوذات مهنة أو وخش (٤) أعطاهن خَوَله وغلمانه يعيثون (٥) فيهن عيثة ، و بلغ الكفرَة منهم يومئذ مالا تلحقه الصفة على الحقيقة ، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيبات ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى مَنْ فوقه ، وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة ، ومن الرجالة ألفين . انتهى

قال ابن حيان : وأختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أولى الألباب بنادرة منها يكتفى باعتبارها عما سواها ، وهى أن بعض تجار اليهود جاء برَّ بشتر بعد الحادثة ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا من أهلها حصلن فى سَهْم قومس من

(١) كلمة « منهم » لا توجد فى ا فى الموضعين

(٢) عاذوا بها : التجؤا إليها وتحصنوا فيها ، ووقع فى نسخة « عادوا » بالدال مهملة — تحريف

(٣) فى أصل ا « بحضرة أمها »

(٤) الوخش — بالخاء والشين المعجمتين — الواحد من رذال الناس وصغارهم

(٥) فى نسخة « يعبثون »

الرابطة فيها[١] كان يعرفه ، قال : فهديت إلى منزله فيها ، واستأذنت عليه ، فوجدته جالسا مكان رب الدار ، مستويا على فراشه ، رافلا فى نفيس ثيابه ، والمجلسُ والسرير كما خَلَّفهما[٢] ربهما يوم محنته لم يغير شيئاً من رياشهما وزينتهما ، ووصائفه مضمومات الشعور ، قائمات على رأسه ، ساعيات فى خدمته ، فرحَّبَ بى ، وسألنى عن قَصْدى ، فعرفته وجهه ، وأشرت إلى وفور ما أَبذله فى بعض اللواتى على رأسه وفيهن كانت حاجتى ، فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك!

أَعْرِضْ عمن هنا وتَعَرَّضْ لمن شئت ممن صيرته لحصنى من سَبْيِي وأَسْرَاىَ أُقَارِبْكَ[٣] فيمن شئت منهن[٤] ، فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأى لى فيه ، وبقربك أنست ، وفى كنفك اطمأننت ، فسُمْنِي ببعض من هنا فإنى أصير إلى رغبتك ، فقال : وما عندك ؟ قلت : العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب ، فقال : كأنك تشهينى ماليس عندى ، يا مجة[٥] ، ينادى بعض أولئك الوصائف ، يريد «يا بهجة» فغيره بعجمته ، قومى فاعرضى عليه ما فى ذلك الصندوق ، فقامت إليه وأقبلت ببِدَرِ الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلى ، فكشف وجعل بين يدى العلج حتى كادت توارى شخصه ، ثم قال لها : أدنى إلينا من تلك التخوت ، فأدنت منه عدة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر مما حار له ناظرى وبُهِتَ ، واسترذلْتُ ماعندى ، ثم قال لى : لقد كثر هذا عندى حتى ما ألذ به ، ثم حلف بإلاهِهِ أنه لولم يكن عنده شىء من هذا ثم بذل له بأجمعه فى ثمن تلك ما سَخَتْ بها يدى ، فهى ابنة صاحب المنزل ، وله حسب فى قومه ، اصطفيتها لمزيد جمالها

---

(١) فى ا « فيما كان يعرفه »

(٢) فى ا « كما تخلفهما ربهما »

(٣) فى ب « وأسراى من أقاربك » وليس بذاك ، وأقاربك : مضارع مجزوم فى جواب « تعرض لمن شئت »

(٤) فى أصل ا « منهم »

(٥) فى ب « يا باجة »

لولادتى حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم ، وقد رد لنا الكرة عليهم ، فصرنا فيما تراه ، وأزيدك بأن تلك الخودَةَ الناعمةَ ، وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى ، مغنية والدِهَا التى كانت تشدو[١] له على نشواته ، إلى أن أيقظناه من نوماته ، يا فلانة ، يناديها بلكنته[٢] ، خذى عودك فغنى[٣] زائرنا بشَجْوك ، قال: فأخذت العود ، وقعدت[٤] تسويه ، وإنى لأتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارق العلجَ مسحه ، واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا فضلا عن العلج ، فصار من الغريب أن حَثَّ شربه هو عليه ، وأظهر الطرب منه ، فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً عنـه ، وارتَدْتُ لتجارتى سواه ، واطلعت لكثرة مالدى القوم من السبى والمغنم على ما طال عجبى به ، فهذا فيه مقنع لمن تدبره ، وتذكر لمن تذكره .

قال ابن حيان : قد أشفينا[٥] بشرح هذه الحالة[٦] الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بمـا احتملوه عمن قبلهم من أثارة[٧] ، ولا شك عند ذوى الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليـه على شَفَا جُرُفٍ يؤدى إلى الهلكة لا محالة . انتهى ببعض اختصار

وذكر بعده كلاما فى ذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس ، وأنهم يعللون أنفسهم بالباطل ، وأن من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم ، و بعدهم عن طاعة خالقهم ، ورَفْضَهم وصيةَ نبيهم ، وغفلتهم عن سَدِّ ثغورهم ، حتى أطل عدوّهم الساعى لإطفاء نورهم ، يجوس خـلال ديارهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، و يقطع

---

(١) فى نسخة « تنشد له »
(٢) فى ب « يناديها بلكنة »
(٣) فى ا « تغنى زائرك »
(٤) فى نسخة « ووقعت تسويه »
(٥) فى نسخة « أفشينا »
(٦) فى أصل ا « الحادثة الفادحة »
(٧) فى ا « من إشارة »

كل يوم طرفا ، ويبيدأمة ، ومَنْ لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صُمُوت عن ذكرهم ، لُهَاة عن بثهم ، ما إن سمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مُذَكرلهم أوداع ، فضلا عن نافر إليهم أو ماشٍ لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا أو كأنَّ بَثْقهم[١] ليس بمُفْضٍ إلينا ، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغَنَاء ، عجائبُ فاتته التقدير ، وعرضت للتغيير ، ولله عاقبة الأمور ، وإليه المصير .

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، فإن البَثْقَ سرى إليهم جميعاً كما ستراه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال قبله : إن بربشتر هذه تناسختها قرون المسلمين منذ ثلثمائة وثلاث وستين سنة ، من عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس ، فرسخ فيها الإيمان ، وتُدُورس القرآن ، إلى أن طرق الناعى بها قرطبتنا صدر رمضان من العام ، فصك الأسماع ، وأطار الأفئدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكل شغلاً يشغل[٢] الناس فى التحدث به ، والتساؤل عنه ، والتصور لحلول مثله ، أياما لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد[٣] الوَجَل ، والاغترار بالأمل ، والاستناد[٤] إلى أمراء الفرقة الهَمَل ، الذين هم منهم مابين فشَل ووَكَل ، يصدونهم عن سواء السبيل ، ويلبسون عليهم الدليل[٥] ، ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين هم كالملح فيهم الأمراء والفقهاء بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صِنْفَيهم لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون[٦] قد نكبوا عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وَجَرْيا إلى الفرقة ،

---

(١) البثق : الخرق ، وفى نسخة « كأن فتقهم » بمعناه ، وفى أصل ا « ثبقهم » وفى نسخة « نبقهم » تحريف فيهما .

(٢) فى نسخة عند ا « يشتغل الناس »

(٣) فى نسخة « استيعاد » تحريف . (٤) فى نسخة « والإسناد » تحريف .

(٥) فى ا « ويلبسون عليهم وضوح الدليل » (٦) القاسطون : الظالمون .

والفقهاء[١] أعمتهم صُمُوت عنهم صُدوف عما أكده الله تعالى عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا مابين آكل من حَلْوَائهم ، وخابط فى أهوائهم ، و بين مستشعر مخافتهم ، آخذ فى التَّقِية من صدقهم[٢] ، وأولئك هم الأقلون فيهم ، فما القولُ فى أرض فسد ملحها الذى هو المصلح لجميع أغذيتها ؟ وما هى إلا مُشْفية من بَوارها ، ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء ، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق ، وتعلية الأسوار ، وشَدِّ الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعَدُوِّهم عن السَّوْأة السَّوْأَى من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليه أموراً قبيحات الصور ، مؤذنات الصدور بأعجاز الغير .

أمور لو تَدَبَّرها حـكيمٌ إذا لنَهَى وَهَبَّبَ ما استطاعا[٣]

ثم قال ابن حيان : فلما كان عقب جمادى الأولى سنة ٤٥٧ شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين إليها ، وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها ، والمتهم على أهلها ، لانحرافهم إلى أخيه ، صَمَدَلها مع إمداد الخليفة[٤] عَبَّاد ، وسعى لإصمات سوء المقالة عنه ، وقد كتب الله تعالى عليه منها مالا يمحوه إلا عفوه ، فتأهَّبَ لقصد بربشتر فى جموع من المسلمين ، فجالدوا الـكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جَبَان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان ، وحَمِىَ الوطيسُ بينهم إلى أن نصر الله تعالى أولياءه ، وخذل أعداءه ، وولَّوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملـكوهم أجمعين ، إلا من فر من مكان الوقعة ، ولم يدخل المدينة ، فأجيل السيف فى الـكافرين ، واستؤصلوا أجمعين ، إلا من استرق من

---

(١) فى نسخة « والعلماء أعمهم » .

(٢) فى ا « فى صدقهم »

(٣) البيت للقطامى عمير بن شييم (ديوانه ٣٩) وهو فى ديوانه هكذا :

أمور لو تلافاها حليم إذا لنهى وهبب ما استطاعا

وفى ب « لنهى وحبب » وفى ا « إذن لنهى وهيب » (٤) فى ا « الحليفه عباد »

أصاغرهم، وفُدِيَ من أعاظمهم، وسَبَوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم، وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارىء، وأصيب في منحة[1] النصر المُتاح طائفة من حُماة المسلمين الجادين في نصر الدين، نحو الخمسين، كتب الله تعالى شهادتهم، وقتل فئة[2] من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل، فغسلها المسلمون من رِجْس الشرك، وجلوها من صدإ الإفك. انتهى

وليت طليطلة البائسة استرجعت كهذه، ومع هذا فقد غلب العدو بعدُ على الكل، والله سبحانه المرجو في الإدالة.

أخذ مدينتي تطيلة وطرشونة

وقال ابن اليسع: أخذ العدو مدينة تطيلة وأختها طرشونة[3] سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ولما صار أمر بَلَنْسِيَة إلى الفقيه القاضي أبي أحمد بن جحاف قاضيها صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فحصره بها القادر بن ذي النون الذي مكن الأذفونش من طُلَيْطلة، فهجم عليه القاضي في لمة من المرابطين، وقتله، ودفع ابن جحاف لما لم يعهد من تدبير السلطان، ورجعت عنه[4] طائفة الملثَّمين الذي كان يعتد بهم، وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين فيبطىء عليه، وفي أثناء ذلك أنهض يوسفُ بن أحمد بن هود صاحبُ سرقسطة لذريق[5] الطاغية للاستيلاء على بَلَنْسِية، فدخلها، وعاهده القاضي ابن جحاف، واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر ابن ذي النون، فأقسم أنها ليست عنده، فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله، فاتفق أنه وجدها عنده، فأحرقه بالنار، وعاث في بَلَنْسِية، وفيها يقول ابن خَفَاجة حينئذ:

---

(١) في ا «على منحة النصر»

(٢) في ا «وقتل فيه من أعداء الله»

(٣) في ا «طرسونة»

(٤) في ا «ورجعت عند ذلك طائفة الملثمين»

(٥) في ا «ردريق»

عاثت بساحتِكِ الظـبا يا دارُ | ومَحَا محاسنك البِـلَى والنارُ
فإذا تردد فى جنـابك ناظر | طال اعتبار فيك واستعـبار[١]
أرض تقاذَفَتِ الخطوبُ بأهلها | وتمخضت بخرابها الأقـدار
كتبت يدُ الحدثان فى عرصاتها | لا أنت أنت ولا الديار ديار

وكان استيلاء القبنطور[٢] ـ لعنة الله تعالى! ـ عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائه ، وقيل : فى التى قبلها ، و به جزم ابن الأبار قائلا : فتم حصار القبنطور[٢] إياها عشرين شهراً ، وذكر أنه دخلها صلحاً، وقال غيره : إنه دخلها عنوة ، وحرقها[٣] ، وعاث فيها، وممن أحرق فيها الأديب أبو جعفر البَتِّى[٤] الشاعر المشهور رحمه الله تعالى وعفا عنه ، فوجه أمير المؤمنين [يوسف] بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلى[٥] ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وتوالى عليها أمراء الملثمين ، ثم صارت ليحيى ابن غانية الملثم حين ولى جميع شرق الأندلس ، فقدم عليها أخاه عبد الله بن غانية، ولما ثارت الفتنة فى المائة السادسة أخرجه منها مروان بن عبد العزيز ، إلى أن قام عليه جيش بَلَنْسِية سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وبايعوا لأُبن عياض ملك شرق الأندلس ، ففر مروان إلى المَرِية ، ثم رجعت بلنسية إلى أبى عبد الله ابن مَرْدَنيش ملك شرق الأندلس بعد ابن عياض ، وقدم عليه أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، إلى أن رجع أبو الحجاج إلى جهة بنى عبد المؤمن ، إلى أن ولى عليها السيد أبو زيد عبد الرحمن ابن السيد أبى عبد الله بن أبى حفص ابن أمير المسلمين عبد المؤمن بن على ، فلما ثار العادل بمُرْسِيَة تمنع واعتز ، وأظهر

---

(١) فى نسخة « اعتبار فيك واستبصار »
(٢) فى أصل « القنبيطور » وفى نسخة « القينطور »
(٣) فى أصل ا « وأحرقها »
(٤) كذا فى أصل ا ، وفى ب « أبو جعفر بن البنى » وفى نسخة « أبو جعفر بن البناء »
(٥) فى ب « مرزلى » وفى نسخة « مذدلى »

طاعة فى باطنها معصية ، ودام على ذلك مع أبى العلاء المأمون ، وكان قائد الأعنة المشار إليه فى الدفاع عن بَلَنْسِية الأمير زيان بن أبى الحملات بن أبى الحجاج ابن مَرْدَنيش ، فأخرجه من بَلَنْسِية ، وملكها ، وفر السيد إلى النصارى ، ولم يزل أمر بَلَنْسِية يضعف باستيلاء العدو على أعمالها إلى أن حصرها ملك بَرْشِلونة النصرانى ، فاستغاث زيان بصاحب إفريقية أبى زكريا بن أبى حَفْص ، وأوفد عليه فى هذه الرسالة كاتبه الشهير أبا عبد الله بن الأبار القضاعى صاحب كتاب « التكملة » و « إعتاب الكتاب » وغيرهما ، فقام بين يدى السلطان منشداً قصيدته السينية الفريدة التى فضحت مَنْ بَارَاها ، وكَبَادونها مَنْ جاراها ، وهى :

أدْرِكْ بخيلك خَيْلِ الله أنْدَلُسَا ... إن السبيل إلى مَنْجَاتها دَرَسَا[1]

وهَبْ لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عزُّ النصر مُلْتَمَسَا

وحَاشِ مما تعانيه حُشَاشَتَهَا ... فطالما ذاقت البلوى صباحَ مَسَا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جَدُّهَا تَعِسَا[2]

فى كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدا عُرُسَا[3]

وكل غاربة إجحال شائبة ... تثنى الأمان حذاراً والسرورَ أسى[4]

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفى بَلَنْسية منها وقرطبة ... ماينسف النفس أوماينزف النفسا[5]

مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان ، وارتحل الإيمان مبتئسا

وصيرتها العوادى العائثات بها ... يستوحش الطرفُ منها ضعف ما أنسا

(١) منجاتها : أراد نجاتها مما حل بها ، ودرس : عفت آثاره وطمست معالمه

(٢) الجد : البخت والحظ

(٣) فى ا « فى كل شارقة إلمام بائقة »

(٤) فى نسخة « وكل غاربة إجحاف نائبة »

(٥) فى نسخة « ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا »

فمن دساكر كانت دونها حرسا ... ومن كنائس كانت قبلها كُنُسا(١)

يا للمساجد عادت للعدا بِيَعاً ... وللنداء غدا أثناءها جَرَسا

لهفى عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثانى أصبحت دُرُسا

وأرْبُعاً نمنمت أيدى الربيع لها ... ما شئت من خِلَع مَوْشية وكُسا

كانت حدائق للأحداق مُونِقة ... فصَوَّحَ النضر من أدواحها وعسا

وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا(٢)

سرعان ماعاث جيش الكفر واحَرَبا ... عَيْثَ الدَّبَى فى مغانيها التى كبسا(٣)

وابتز بزتها مما تَحَيَّفَها ... تحيف الأسد الضارى لما افترسا(٤)

فأين عيش جنيناه بها خضرا ... وأين عصر جليناه بها سلسا

محا محاسنَهَا طاغٍ أُتيح لها ... ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا

ورَجَّ أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشُّمَّ من أعلامها خنسا(٥)

خَلاَله الجوُّ فامتدت يداه إلى ... إدراك مالم تطأ رجلاه مختلسا

وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ... ولو رأى راية التوحيد مانَبَسَا

صِلْ حَبْلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المِرَاسُ لها حبلا ولا مرسا

وأحْيِ ما طمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدىِّ ماطمسا

أيام صرت لنصر الحق مستبقا ... وبِتَّ من نور ذاك الهدى مقتبسا

وقمت فيها بأمر الله منتصراً ... كالصارم اهتز أو كالعارض انْبَجَسَا

تمحو الذى كشف التجسيم من ظلم ... والصبح ماحيةٌ أنوارهُ الغَلَسَا

---

(١) الكنس : جمع كناس بوزن كتاب وكتب ، والكناس : مسكن الظباء فى الشجر

(٢) فى نسخة « يستوقف الركب أو يستركب الجلسا » وحال : تحول وتغير من حال إلى حال

(٣) الدبى : الجراد ، ووقع فى ب ونسخة عند ا « عبث الربا » تحريف

(٤) تحيفها : تنقصها (٥) الأعلام : الجبال ، واحده علم

وتقتضى الملك الجبـــار مهجته … يوم الوغى جهرة لا ترقُبُ الخلسا
هذى رسائلها تدعوك من كَثَبٍ … وأنت أفضل مَرْجُوٍّ لمن يئسا
وافتْكَ جارية بالنجح راجيـة … منك الأمير الرضا والسيدَ النَّدُسَا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها … عبابه فتعانى اللين والشرسا(١)
وربما سبحت والريح عاتيـــة … كما طَلَبْتَ بأقصى شَدِّهِ الفَرَسَا(٢)
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى … حفص مُقَبِّلة من تربه القدسا
ملك تقلدت الأمــلاك طاعته … دينا ودنيا فغَشَّاها الرضا لبســا
من كل غاد على يمناه مستلما … وكل صاد إلى نعمــاه ملتمساً
مؤيد لو رمى نجما لأثبتـــــه … ولو دعا أفقاً لَـــبَّى وما احتبسا
تالله إن الذى تُزْجَى السعود له … ما جال فى خَـلَدٍ يوما ولاهَجَسا(٣)
إمارة يحمل المقــدار رايتها … ودولة عـزها يستصحب القَعَسَا
يبدى النهار من ضوئه شَذَباً … ويطلع الليـل من ظلمائه لَعَسَا
ماضى العزيمة والأيام قد نكلت … طَلْقُ المحيا ووجه الدهر قد عبسا
كأنه البدر والعلياء هالتـــــه … تحف من حوله شُهُبُ القنا حَرَسَا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت … وعُرْفُ معروفه وَاسَى الورى وأَسَا(٤)
قامت على العدل والإحسان دولته … وأنشرت من وجود الجود مارَمِسَا(٥)
مبارك هـــديه باد سكينته … ما قام إلا إلى حسنى وما جلسا
قد نوّر الله بالتقوى بصـــيرته … فما يبالى طروق الخطب ملتبسا

---

(١) فى نسخة « يعليها ويحفظها » وليس بذاك
(٢) فى نسخة « وربما سمحت والريح عاتية »
(٣) تزجى : تساق ، ووقع فى أصل ا « ترجى السعود له »
(٤) واسى من المواساة ، وأسا : من قولهم « أسا الجرح يأسوه » ووقع فى أصل ا « راس الورى وأسا »
(٥) فى ا « قامت . . . دعوته »

بَرَى العصاة وراش الطائعين فقل ... فى الليث مفترسا والغيث مرتجسا
ولم يغادر على سهل ولا جبل ... حَيًّا لقاحا إذا وافيته بخسا
فرُبَّ أصْيَدَ لا تلفى به صَيَدًا ... ورب أشوس لا تلقى له شوسا(١)
إلى الملائك ينمى والملوك معا ... فى نَبْعَةٍ أثمرت للمجد ما غرسا(٢)
من ساطع النور صاغ الله جوهره ... وصان صيقله أن يقرب الدنَسَا
له الثرى والثريَّا خطتان فلا ... أعز من خطتيه ما سما ورسا
حَسْبُ الذى باع فى الأخطار يركبها ... إليه محياه أن البيع ما وكسا
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته ... عصاه محتزما بالعدل محترسا
فظل يوطن من أرجائها حرما ... وبات يوقد من أضوائها قبسا
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حَدَا ... آماله ومن العذب المعين حَسَا(٣)
كأنما يمتطى واليمن يصحبه ... من البحار طريقا نحوه يَبَسَا
فاستقبل السعد وضاحا أسرته ... من صفحة فاض منها النورُ وانعكسا
وقبل الجود طَفَّاحا غواربه ... من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك مَنْ ... يُحْيِي بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة مالم تغسل النجسا
وأوطئ الفَيْلَقَ الجرار أرضهمُ ... حتى يطأطئ رأسا كُلُّ من رأسا
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعا تهمى زكا وخسا(٤)

---

(١) فى أصل ا « ورب أشرس لا تلقى له شرسا »

(٢) فى أصل ا « فى ينعه أثمرت للمجد ما غرسا »

(٣) فى أصل ا « ومن العد المعين حسا » والعد — بكسر العين المهملة وتشديد الدال — الماء الجارى الذى له مادة لا تنقطع

(٤) زكا وخسا : أي شفعا ووترا

هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داء متى لم تباشر حَسْمَه انتكسا[١]

فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها ... جُرْدًا سَلاَهِبَ أو خَطِّيةً دعسا

واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادى قد أتى وعَسَى[٢]

تغلب الإفرنج على بلنسية

فبادر السلطان بإعانتهم ، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم ، من المال والأقوات والكُسَى ، فوجدوهم فى هُوّة الحصار ، إلى أن تغلب الطاغية على بَلَنْسِية ، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس ، وكان تغلب العدو على بَلَنْسِية صلحا يوم الثلاثاء السابع عشر لصفر من سنة ست وثلاثين وستمائة ، فهزَّتْ هذه القصيدة من الملك عِطْفَ ارتياح ، وحركت من جَنَانه أخفض جَنَاح ، ولشغفه بها وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها ، فجاوبها غير واحد ، وحال العدو بين بلنسية و بينه ، وتعاهد أهلُها مع النصرانى على أن يسلمهم فى أنفسهم ، وذلك سنة سبع وثلاثين وستمائة ، أعادها الله تعالى للاسلام .

وقعة كتندة

وكانت وقعة كتندة على المسلمين قبل هذا التاريخ بمدة ، وكتندة ــ ويقال « قتندة » بالقاف ــ من حيز دورقة من عمل سَرَقُسْطَة من الثغر الأعلى ، وكانت الهزيمة على المسلمين جبرهم الله تعالى ، قتل فيها من المطوّعة نحو من عشرين ألفا ، ولم يقتل فيها من العسكر أحد ، وكان على المسلمين الأمير إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذى ألَّفَ الفتحُ باسمه « قلائد العقيان » وكانت سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وممن حضرها الشيخُ أبو على الصدفى[٣] السابق الذكر ، وقرينه فى الفضل أبو عبد الله بن الفراء خرجا غازيين ، فكانا ممن فقد فيها .

---

(١) فى ب « راء متى لم تباشر جسمها انتكسا » وفى نسخة عند ا « لم تباشر جسمه » .

(٢) فى نسخة « لعل يوم الأعادى قد أنى » بالنون — أى حان وقرب .

(٣) فى نسخة « الصدقى » وفى أخرى « الصوفي » وكلاهما تحريف .

وقال غير واحد : إن العسكر انصرف مفلولا [١] إلى بَلَنْسِية ، وإن القاضى أبا بكر بن العربى كان ممن حضرها ، وسئل مخلصه منها عن حاله ، فقال : حال من ترك الخباء والعباء ، وهذا مثل عند المغاربة معروف ، يقال لمن ذهبت ثيابه وخيامه ، بمعنى أنه ذهب جميعُ ما لديه .

الاستيلاء على لوشة

ودخل العدو لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، مع السيد أبى محمد البياسى فى الفتنة التى كانت بينه و بين العادل ، فعاثوا فيها أشد العَيْث، ثم ردها المسلمون إلى أن أخذت بعد ذلك كما يأتى .

الاستيلاء على المرية

ودخل العدو مدينة الْمَرِيَّة يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، عَنْوَة .

وحكى أبوزكريا الجعيدى [٢] عن أبى عبدالله بن سعادة الشاطبى المعمر أن أبا مروان بن ورد أتاه فى النوم شيخ عظيم الهيئة فرمى يديه فى عضديه من خلفه ، وهزه هزا عنيفا حتى أرعبه ، وقال له قل :

ألا أيها المغرور ويحك لا تَنَمْ ... فللّه فى ذا الخلق أمر قد انْبَهَمْ

فلابدّ أن يُرْزَوْابأمر يسوءهم ... فقد أحدثوا جرما على حاكم الأمم [٣]

قال : وكان هذا فى سنة أربعين وخمسمائة ، فلم يمض إلا يسير حتى تغلب الروم على المرية فى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، بعد تلك الرؤيا بعامين أونحوهما

وهو مما حكاه ابن الأبار الحافظ فى كتاب « التكملة » له .

وفى وقعة المرية هذه استشهد الرُّشَاطى الإمام المشهور ، وهو أبو محمد عبد الله

---

(١) فى نسخة « مغلولا » وفى أخرى « معلولا » تحريف فيهما .

(٢) فى نسخة « الجعدى » .

(٣) فى نسخة « فلا بد أن يزروا بأمر يسوءهم » .

أبو محمد بن عبد الله بن على الرشاطى

ابن على بن عبد الله بن على بن خلف بن أحمد بن عمر ، اللخمى ، الرشاطى ، المريى[1] ، وكانت له عناية كبيرة[2] بالحديث والرجال والرواة والتواريخ ، وهو صاب كتاب « اقتباس الأنوار ، والتماس الأزهار ، فى أنساب الصحابة ورواة الآثار » أخذه الناس عنه ، وأحسن فيه ، وجمع وما قصر[3] ، وهو على أسلوب كتاب أبى سعد بن السمعانى الحافظ المسمى « بالأنساب » .

وولد الرُّشَاطى سنة ٤٦٦ بقرية من أعمال مُرْسِية يقال لها أوريوله ـ بفتح الهمزة ، وسكون الواو ، وكسر الراء ، وضم المثناة التحتية ، و بعد الألف لام مفتوحة ، وبعدها هاء ـ وتوفى شهيدا بالمرية عند تغلب العدوّ عليها صبيحة الجمعة العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ .

والرشاطى ـ بضم الراء ، وفتح الشين المخففة ـ وذكر هو أن أحد أجداده كان فى جسمه شامة كبيرة ، وكانت حاضنته عجمية ، فإذا لاعبته قالت : رُشَاطة ، وكثر ذلك منها ، فقيل له : الرشاطى ، انتهى ملخصا من « وفيات الأعيان » ، و بعضه بالمعنى .

عودة المرية إلى المسلمين ثم فقدانها

و بعد أخذ النصارى المرية هذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين ، واستنقذها الله تعالى على يد الموحدين ، و بقيت بأيدى أهل الإسلام سنين ، وكان أول الولاة عليها حين استولى عليها أميرُ المسلمين عبد المؤمن بن على رجلا يقال له يوسف بن مخلوف فثار عليه أهل المَرِية ، وقتلوه ، وقدموا على أنفسهم الرميمى ، فأخذها النصارى منه عنوة كما ذكرنا ، وأحصى عدد من سبى من أبكارها فكان أربعة عشر ألفا .

---

(١) فى نسخة « المرينى » تحريف .

(٢) فى ابن خلكان « عناية كثيرة »

(٣) فى ابن خلكان « وما أقصر »

وقال ابن حَبيش آخر الحفاظ بالأندلس: كنت فى قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها تعالى للإسلام ، فتقدّمت إلى زعيم الروم السليطين ، وهو ابن بنت الأذفونش ، وقلت له : إنى أحفظ نسبك منك إلى هرقل ، فقال لى: قل ، فذكرته له ، فقال لى : اخرج أنت وأهلك ومَنْ معك طلقاء بلا شىء .

وابن حبيش شيخ ابن دَحْيَة وابن حَوْط الله وأبى الربيع الـكلاعى ، رحمهم الله تعالى !

ولما أُخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين فحصرا النصارى بها[1] ، وزحف إليهما أبو عبدالله بن مَرْدَنيش ملكُ شرق الأندلس محاربا لهما ، فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلا وخارجا ، ثم رأى ابنُ مردنيس العارَ على نفسه فى قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى ، فارتحل ، فقال النصارى : ما رحل ابنُ مردنيش إلاوقد جاءهم مدد ، فاصطلحوا ، ودخل الموحدون المدينة ، وقد خربت وضعفت ، إلى أن أحيارَمَقَها الرئيس[2] أبو العباس أحمد بن كمال ، وذلك أن أُخته أخذت سَبِيَّة فى دخلة عبد المؤمن لبجانة[3] ، فاختلت بقصره واعتنت بأخيها ، فولاه بلده ، فصلح به حالها ، وكان جوادا حسن المحاولة كثير الرفق ، واشتهر من وُلاتها فى مدة بنى عبد المؤمن فى المائة السابعة الأمير أبو عمران بن أبى حفص عم ملك إفريقية أبى زكريا .

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة وثارت الأندلس على مأمون بنى عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود بِمُرْسِيَة قام فى المرية بدعوة[4] ابن هود أبو عبد

---

(١) فى ١ « فحصر النصارى بهما » .

(٢) فى ١ « الرائس أبو العباس » .

(٣) فى نسخة « لبجاية » .

(٤) فى نسخة « يدعوه ابن هود » وليس بذاك .

الله محمد بن عبد الله بن أبى يحيى بن الرميمى ، وجده أبو يحيى هو الذى أخذها النصارى من يده ، ولما قام بدعوة ابن هود وفد عليه بِمُرْسِيَة وولاه وزارته، وصرف إليه سياسته ، وآل أمره معه إلى أن أغراه بأن يحصن قلعة المرية ، ويجعلها له[١] عدة ، وهو يبغى[٢] ذلك عدة لنفسه ، وترك ابن هود فيها جارية تعَلق ابن الرميمى بها ، واجتمع معها ، فبلغ ذلك ابن هود ، فبادر إلى المرية ، وهو مضمر الإيقاع بابن الرميمى ، فتغدّى به قبل أن يتعشى به[٣] ، وأخرج من قصره ميتا ، ووجهه فى تابوت إلى مُرْسِية فى البحر ، واستبدّ ابن الرميمى بملك المرية ، ثم ثار عليه ولده ، وآل الأمر بعد أحوال إلى أن تملكها ابنُ الأحمر صاحبُ غَرْناطة ، و بقيت فى يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدوّ الكافر عندما طوى بساط بلاد الأندلس كما سننبه عليه ، والله غالبٌ على أمره .

وما أحسن قول أبى إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلى فى هزيمة العقاب بإشبيلية :

وقائلة أراكَ تُطِيلُ فكرا ... كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر فى عقاب ... غدا سببا لمعركة العقاب

فما فى أرض أندلس مُقَامٌ ... وقد دخل البلا من كل باب

وقول القائد أبى بكر ابن الأمير ملك شِلْبَ أبى محمد عبد الله[٤] ابن وزيرها[٥] يخاطب منصور بنى عبد المؤمن وقد التقى هو وأصحابه مع جماعة من الفرنج فتناصفوا ، ثم كان الظفر للمسلمين :

---

(١) فى نسخة عندنا « ويجعلها له مدة » .

(٢) فى نسخة « وهو يبتى ذلك » تحريف .

(٣) هذا مثل ، والمقصود أنه عاجله بالفتك قبل أن يستطيع الفتك به .

(٤) فى عندنا « أبى محمد بن عبد الله » .

(٥) فى نسخة عندنا « ابن وزير » .

ولما تلاقينا جرى الطعن بيننا　　فمنا ومنهم طائحون عديد
وجال غِرَارُ الهند فينا وفيهمُ　　فمنا ومنهم قائم وحصيد
فلا صَدْرَ إلا فيه صدر مُثَقَّف　　وحول الوريد للحُسام ورود
صبرنا ولا كهف سوى البيض والقَنَا　　كلانا على حَرِّ الجلاد جليد (١)
ولكن شددنا شَدَّةً فتبلدوا　　ومن يَتَبَلَّدْ لا يزال يحيد
فولَّوْا وللسُّمْر الطِّوال بهامهم　　ركوعٌ وللبيضِ الرقاق سُجُودُ

وكان المذكور من فرسان الأندلس ، وكان ابنه الفاضل أبو محمد غير مقصر عنه فروسيةً وقدراً وأدبا وشعراً ، وولاه ناصر (٢) بنى عبد المؤمن مدينة قصر أبى دانس فى الجهة الغربية ، وقتله ابن هود بإشبيلية ، وزعم أنه يروم القيام عليه ، ومن شعره قوله فى ابن عمرو صاحب أعمال إشبيلية (٣) :

لا تيأسن من الخلافة بعد ما　　ولى ابن عمرو خطة الأشراف
تبًّا لدهر هذه أفعاله　　يضع النوافج فى يَدَىْ كَنَّاف

أخذ ماردة

رجع ـ ودخل العدو (٤) كورة ماردة من محمد بن هود سنة ست وعشرين وستمائة ، وكان (٥) مفتتح المصائب على يده ، أعادها الله تعالى للاسلام ! وهى قاعدة بلاد الجوف فى مدة العرب والعجم ، والحضرةُ المستجدّة بعدها هى مدينة بَطَلْيَوْس ، وبين ماردة وقرطبة خمسة أيام .

المظفر ابن الأفطس

وملك بَطَلْيَوْسَ وماردة وما إليها (٦) المظفر محمد بن المنصور بن الأفطس مشهور، وهو من رجال « القلائد » و « الذخيرة » وهو أديب ملوك عصره بلا مدافع (٧) ولا منازع ، وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بـ « التذكر المظفرى » خمسون مجلداً اشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ومثل وخبر وجميع علوم

---

(١) فى ب ونسخة عند ا « كلانا على حد الجلاد جليد »
(٢) فى نسخة « ناصر بنى هود »　(٣) فى ب « فى ابن صاحب أعمال ـ إلخ »
(٤) كذا فى ا ، ب ولعله « وأخذ العدو ـ إلخ »　(٥) فى ا « وكانت مفتتح »
(٦) فى نسخة « وما والاها »　(٧) فى ا « غير مدافع »

الأدب ، وقال يوما : والله ما يمنعنى من إظهار الشعر إلا كونى لا أقول مثل قول أبى العشائر بن حمدان :

أقرأت منــه ما تخط يد الوغى والبيض تشكل والأسـنة تَنْقُطُ

وقول أبى فراس ابن عمه :

وجدنا العــوالى فى مقام تحدث عنــه رَبَّاتُ الحجال

كأن الخيل تعـلم من عليها ففى بَعْضٍ على بعض تعَالِى

فأين هذا من قولى[1] :

أنفت من المدام لأن عقـلى أعز عَلَىَّ من أنس المدام

ولم أرتح إلى روض وزهر ولـكن للحمائل والحســام[2]

إذا لم أملك الشهوات قهــراً فَلِمْ أبغى الشفوف على الأنام[3]

وله رحمه الله تعالى :

يا لحظــهُ زِدْ فتوراً تزد علىَّ اقتــدارا

فاللحظ كالسيف أمضا ه ما يرقُّ غِــرَارا

وابنه المتوكل من رجال « القلائد » و « المسهب » وكان فى حضرة بَطَلْيَوْس كالمعتمد بن عباد بإشبيلية ، قد أُناخت الآمال بحضرتهما ، وشُدَّتْ رحال الأداب إلى ساحتهما ، يتردد أهل الفضائل بينهما كتردد النواسم بين جنتين ، و ينظر الأدب منهما عن مقلتين ، والمعتمد أشعر ، والمتوكل أ كتب .

رجع ــ وقال الفاضل الكاتب أبو عبد الله محمد الفازازى[4] ، وقيل : إنها وجدت برقعة فى جيبه يوم موته :

---

(١) فى أصل ا « من قوله »

(٢) فى أصل ا « ولم أرتح إلى روض ونهر »

(٣) الشفوف : أراد به الظهور ، ووقع فى نسخة « فلم أبغى الشفوق »

(٤) فى نسخة عند ا « الفازاري »

الروم تضرب فى البلاد وتغنم   والجور يأخذ ما بَقَى والمغْرَمُ[١]
والمال يورد كُلُّه قشتالة   والجند تسقط والرعية تسلم
وذوو التعين ليس فيهم مُسْلم   إلا معين فى الفساد مُسَلِّم
أسفى على تلك البلاد وأهلها   الله يلطف بالجميع ويرحم[٢]

وقيل: إن هذه الأبيات رفعت إلى سلطان بلده ، فلما وقف عليها قال بعد ما بكى : صدق رحمه الله تعالى ، ولو كان حياً ضربت عنقه !

أبو عبد الله محمد الفازازى

وهذا الفازازى أخو الشاعر الشهير الكاتب الكبير أبى زيد عبد الرحمن الفازازى صاحب الأمداح فى سيد الوجود [محمد] صلى الله عليه وسلم ، وهو كما قال فيه بعضهم : صاحب القلم الأعلى ، والقِدْح المعلَّى ، أبرع من ألَّف وصنف ، وأبدع من قَرَّط وشنف ، فقد طاع القلم لبنانه ، والنظم والنثر لبيانه ، كان نسيجَ وَحْدِهِ رواية[٣] وأخبارا ، ووحيد نَسْجه روية وابتكاراً ، وفريد وقته خبراً وإخباراً ، وصدر عصره إيراداً وإصدارا ، صاحب فهوم ، ورافع ألوية علوم ، أما الأدب فلا يُسْبق فيه مضماره ، ولا يشق غباره ، إن شاء إنشاءً أنشى ووشَّى[٤] ، سائل الطبع ، عذب النَّبْع ، له فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، بدائع قد خضع لها البيان وسلم ، أعجز بتلك المعجزات نظماً ونثراً ، وأوجز فى تحبير تلك الآيات البينات فجلا سِحْراً ، ورفع للقوافى رايةَ استظهارٍ تخير فيها الأظهر ، فعِبَر وعشر وشفع وأوتر ، وأما الأصول فهى [التى] من فروعه ، فى متفرق منظومه ومنثور مجموعه ، وأما النسب ، فإلى حفظه انتسب ، وأما الأيام والدول ، ففى تاريخه الأواخر والأول ، وقد سبك من هذه

---

(١) بقى ، هنا بفتح القاف ، وهى لغة ربعية ، والمشهور بكسر القاف تتلوها ياء ، ووقع فى نسخة « الروم تطرب فى البلاد وتغنم »

(٢) فى أصل ا « أسفى على تلف البلاد وأهلها »

(٣) فى ا « رؤية وأخبارا » تحريف

(٤) فى أصل ا « إن شاء أنشى ، وإن أنشى وشى »

العـلوم فى منثوره وموزونه ، ما يشهد بإضافتها إلى فنونه ، وله سماع فى الحديث ورواية ، وفهم بقوانينه ودراية ، سمع من أبى الوليـد اليزيد بن عبد الرحمن بن بقى القاضى ، ومن أبى الحسن جابر بن أحمد القرشى التاريخى ، وهو آخر من حدّث عنه ، ومن أبى عبد الله التُّجِيبى كثيرا وهو أول من سمع عنـه فى حياة الحافظ أبى الطاهر السِّلفى إذ قدم عليهم تِلِمْسَان ، وأجازه الحافظ السهيلى وابن خلف الحافظ وغيرهما ، وولد بعد الخمسين والخمسمائة ، وتوفى بمراكش سنة ٦٣٧[١] ، رحمه الله تعالى ! . انتهى ملخصا

أخذ ميورقة

رجع ـ ولما ثارت الأندلس على طائفة عبد المؤمن كان الوالى بجزيرة مَيُورْقة أبو يحيي بن أبى عمران التينملى[٢] فأخذها الفرنج منه ، كذا قال ابن سعيد ، وقال ابن الأبار : إنها أخذت يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة سبع وعشرين وستمائة ، وقال المخزومى فى تاريخ ميورقة : إن سبب أخذها من المسلمين أن أميرها فى ذلك الوقت محمد بن على بن موسى كان فى الدولة الماضية أحَدَ أعيانها ، ووليها سنة ست وستمائة ، واحتاج إلى الخشب المجلوب من يابسة ، فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية ، فعلم بها والى طرطوشة ، فجهز إليها مَنْ أخذها ، فعظم ذلك على الوالى ، وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم ، وكان ذلك رأيامشئوما ، ووقع بينه و بين الروم ، وفى آخر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بلغه أن مسطحا[٣] من برشلونة[٤] ظهر على يابسة ، ومركبا آخر من طرطوشة انضم إليه ، فبعث ولده فى عدة قطع إليه حتى نزل [فى] مرسى يابسة ، ووجد فيه لأهل جنوة مركبا كبيراً ، فأخذه وسار حتى

---

(١) فى نسخة عند ا « سنة ٦٢٧ » .

(٢) فى ا « التينمللى » وفى نسخة عندها « التيفلى » تحريف فيهما .

(٣) فى أصل ب « مسطحا »

(٤) فى نسخة عند ا « برحلونه »

أشرف على المسطح ، فقاتله وأخذه ، وظن أنه غالب الملوك ، وغاب عنه أنه أشأم من عاقر الناقة[١] ، وأن الروم لما بلغهم الخبر قالوا لملكهم وهو من ذرية أذفونش : كيف يرضى الملك بهذا الأمر ونحن نقاتل بنفوسنا وأموالنا ؟ فأخذ عليهم العهد بذلك ، وجمع عشرين ألفا من أهل البلاد ، وجهز فى البحر ستة عشر ألفاً ، وشرط عليهم حمل السلاح ، وفى سنة ست وعشرين وستمائة اشتهر أمر هذه الغزوة فاستعد لها الوالى ، وميز نيفاً على ألف فارس من فرسان الحضر والرعية مثلهم ، ومن الرجالة ثمانية عشر ألفاً ، وذلك فى شهر ربيع الأول من السنة ، ومن سوء الاتفاق أن الوالى أمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر ، فساقهم وضرب أعناقهم ، وكان فيهم ابنا خاله ، وخالهما أبو حفص بن سيرى ذو المكانة الوجيهة ، فاجتمعت الرعية إلى ابن سيرى ، فأخبروه بما نزل ، وعزوه[٢] فيمن قتل وقالوا : هذا أمر لا يطاق ، ونحن كل يوم إلى الموت نساق ، وعاهدوه على طلب الثار ، وأصبح الوالى يوم الجمعة منتصف شوال ، والناس من خوفه فى أهوال ، ومن أمر العدو فى إهمال ، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم ، و إذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالى ، وأخبره بأن الروم قد أقبلت ، وأنه عد فوق الأربعين من القلوع ، وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر من جانب آخر وقال : إن أسطول العدو قد تظاهر ، وقال : إنه عد سبعين شراعا ، فصح الأمر عنده ، فسمح لهم بالصفح والعفو ، وعرفهم بخبر العدو ، وأمرهم بالتجهز ، فخرجوا إلى دورهم ، كأنما نشِرُوا من قبورهم ، ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد ،

---

(١) عاقر الناقة : الذى قتل ناقة صالح عليه الصلاة والسلام فكان سببا فى دمار قومه

(٢) فى أصل ا « وأغروه بمن قتل » وفى نسخة « وغروه »

فإنهم عدوا مائة وخمسين قلعاً، ولما عبر وقصد المرسى أخرج الوالى جماعة تمنعهم النزول ، فباتوا على المرسى فى الرجل والخيل ، وفى الثامن عشر من شوال ، وهو يوم الاثنين ، وقع المصافّ ، وانهزم المسلمون ، وارتحل[١] النصارى إلى المدينة ، ونزلوا منها على الحربية[٢] الحزينة من جهة باب الكحل ، ولم يزل الأمر فى شدة وقد أشرفوا على أخذ البلد ، ولما رأى ابن سيرى[٣] أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى البادية ، ولما كان يوم الجمعة الحادى عشر من صفر قاتلوا البلد قتالا شديداً ، ولما كان يوم الأحد أخذ البلد ، وأخذ منه أربعة وعشرون ألفا قتلوا على دم واحد ، وأخذ الوالى ، وعُذب ، وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يوما ، ومات تحت العذاب ، وأما ابن سيرى فإنه صعد إلى الجبل ، وهو منيع لا يُنَال مَنْ تحصن فيه ، وجمع عنده ستة عشر ألف مقاتل ، وما زال يقاتل إلى أن قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وجده من آل جَبَلة بن الأيهم الغسانى ، وأما الحصون فأخذت فى آخر رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وفى شهر شعبان لحق مَنْ نجا من المسلمين إلى بلاد الإسلام ، انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزومى ملخصاً

وكان بمَيُورْقَة جماعة أعلام وشعراء ، ومن شعر ابن عبد الولى الميورقى :

هل أَمانٌ من لحظك الفتّانِ وقوام يميل كالخيزران

مهجتى منك فى جحيم ، ولكنَّ جفونى قد متعت فى جِنَانِ

فتنتنى لواحظ ساحرات لست أخشى من فتنة الشيطان

ولما استولى النصارى مَيُورْقَةَ فى التاريخ المتقدم ثار بجزيرة منورقة[٤] ، وهى قريبة

---

(١) فى نسخة « وارتجل النصارى إلى المدينة »

(٢) في أصل ا « الحربية الحزينة » وفى نسخة « الحرينة الحرينة »

(٣) فى نسخة « ولما رأى ابن أبى شيرى »

(٤) فى أصل ب « ميورقة » هنا أيضا

منها الجواد العادل العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشى ، وكان واليها من قبل الوالى أبى يحيى المقتول ، وتصالح مع النصارى على ضريبة معلومة ، واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى ، وضبطها أحسن ضبط ، قال أبو الحسن على بن سعيد : أخبرنى أحد من اجتمع به أنه لقى منه براً حبب إليه الإقامة فى تلك الجزيرة المنقطعة ، وذكر أنه ركب معه فنظر إلى حمالة سيف ضيقة وقد أثرت فى عنقه ، فأمر له بإحسان وغنباز ، وكتب معه :

حمالة السيف توهِى جِيدَ حاملها … لا سيما يوم إسراع وإنجاز
وخير ما استعمل الإنسان يومئذ … لحسم علتها إلباس غنباز

والغنباز عند أهل المغرب : صنف من الملبوس غليظ يستر العنق .

وأصل أبى عثمان من مدينة طلبيرة[1] من غرب الأندلس ، وقد ألفت باسمه التآليف المشهورة بالمغرب ككتاب « روح الشحر ، وروح الشعر »[2] وغيره .

أخذ مدن عديدة

وأخذ العدو منورقة[3] بعد مدة .

وأخذ العدو جزيرة شقر صلحا سنة تسع وثلاثين وستمائة فى آخرها .

وأخذ العدو — دمره الله تعالى ! — مدينة سَرَقُسْطة يوم الأربعاء لأربع خلون من رمضان سنة اثنتى عشرة وخمسمائة .

وكان استيلاء الإفرنج على شرق الأندلس شاطبة وغيرها وإجلاؤهم مَنْ يشاركهم من المسلمين فيما تغلبوا عليه منها فى شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة

وكان استيلاء العدو — دمره الله تعالى ! — على مدينة قُرْطُبة يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال[4] من سنة ست وثلاثين وستمائة .

---

(١) فى أصل ا « طبيرة » وفى نسخة عندها « طبرية » وأثبتنا مافى ب
(٢) فى أصل ا « دوح الشجر ، وروح الشعر »
(٣) فى ب ونسخة عند ا « ميورقة » وقد مضى ذكر أخذ العدو ميورقة
(٤) فى ب « من شوال »

وكان تملك العدو مُرْسية صُلحا ظهر يوم الخميس العاشر من شوال قدم أحمد ابن محمد بن هود ولد والى مرسية بجماعة من وجوه النصارى ، فملكهم إياها صلحاً ولا حول ولا قوة إلا بالله [العلى العظيم !] .

وحصر[1] العدو أشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة .

وفى يوم الاثنين الخامس من شعبان للسنة بعدها ملكها الطاغية صاحب[2] قشتالة صلحاً بعد منازلتها حولا كاملا وخمسة أشهر أو نحوها .

وقال ابن الأبار فى ترجمة أبى على الشلوبين من « التكملة » ما صورته : وتوفى بين يدى منازلة الروم إشبيلية ليلة الخميس منتصف صفر سنة خمس وأربعين وستمائة ، وفى العام القابل ملكها الروم .

وكانت وقعة أنيجة[3] التى قتل فيها الحافظ أبو الربيع الكلاعى رحمه الله تعالى يوم الخميس لعشر بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة ، ولم يزل رحمه الله تعالى متقدما أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مقبلا على العدو ينادى بالمنهزمين : أعن الجنة تفرون ؟ حتى قتل صابراً محتسباً بَرَّدَ الله تعالى مضجعه ! وكان دائما يقول : إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها فى صغره ، فكان كذلك ، ورثاه تلميذه الحافظ أبو عبد الله بن الأبار بقصيدته الميمية الشهيرة التى أولها :

أَلِمَّا بأشلاء العُلَا والمكارم ... تقدّ بأطراف الْقَنَا والصَّوارم

وعوجا عليها مأربا ومفارة ... مصارع خصت بالطلا والجماجم

نُحَيِّي وجوها فى الجنان وجيهة ... مجاسد من نسج الظُّبا واللهازم

---

(١) في أصل ا « وحضر العدو إشبيلية »

(٢) فى نسخة « ملك قشتالة »

(٣) فى أصل ا « أينجة » وفى نسخة « أنبجة » وفى أخرى « أنجية »

وهى طويلة .

ومن شعر الحافظ أبى الربيع المذكور :

توالت ليال للغواية جُونُ … ووافى صباحٌ للرشـــاد مبين(١)
ركاب شبابٍ أزمعت عنك رحلة … وجيش مشيب جهزته مَنُونُ
ولا أكذب الرحمن فيما أجِنُّهُ … وكيف ولا يخفى عليه جَنِينُ
ومن لم يَحَلْ أن الرياء يشينه … فمن مذهبى أن الرياء يشين
لقـد رِيعَ قلبى للشباب وفقـده … كما ريع بالعلق الفقيـد ضنين(٢)
وآلمنى وَخْطُ المشيب بلمتى … فخُطَّتْ بقلبى للشجون فنـون
وليـل شبابى كان أنْضَرَ منظراً … وآنَقَ مهما لاحظتـــه عيون
فآها على عيش تـكدر صفوه … وأنسٍ خَـلاَ منـه صَفًا وحُجُونُ(٣)
ويا وَيْحَ فَوْدِى أو فؤادىَ كلما … تزيد شيبى كيف بعـد يكون(٤)
حرام على قلبى ســكونٌ بغرة … وكيف مع الشيب المُمِضِّ سكون
وقالوا شـــباب المرء شعبة جنة … فمالى عرانى المشيب جنون
وقالوا شجاك الشيب حدثان ماأتى … ولم يعلموا أن الحـديث شجون

وقال أيضاً :

أمولى الموالى ليس غيرك لى مولى … وما أحـد يارب منك بِذَا أولى(٥)
تبارك وجـه وجهت نحوه المنى … فأوزعها شـــكراًوأوسعها طَوْلاَ
وما هو إلا وجهك الدائم الذى … أقل حِـلىً عليائه يُخْرِسُ القولا

---

(١) جون : سود ، والجون من الأضداد ، يطلق على الأبيض أيضا
(٢) العلق – بالكسر – النفيس الذى يضن عليه .
(٣) فى أصل ا « فإيها على عيش تـكدر صفوه »
(٤) فى نسخة « تزايد شيبى كيف بعد يكون »
(٥) فى نسخة « وما أحد يارب منك بنا أولى »

تبرأت من حولى إليك وقوتى فكن قوتى فى مطابى وكُن الحولا

وهب لى الرضا مالى سوى ذاك مبتغى ولو لقيت نفسى على نيله الهَوْلاَ

وكان ــ رحمه الله تعالى ! ــ حافظاً للحديث، مُبرِّزاً فى نقده ، تام المعرفة بطرقه ، ضابطاً لأحكام أسانيده ، ذاكراً لرجاله ، ريَّان من الأدب ، خطب ببلنسية ، واستقضى ، وكان مع ذلك من أولى الحزم والبسالة ، والإقدام والجزالة ، حضر الغزوات وباشر القتال بنفسه ، وأبلى بلاء حسنا ، وروى عن أبى القاسم بن حَبيش وطبقته ، وصنف كتبا منها « مصباح الظلم » فى الحديث ، و « الأربعون » عن أربعين شيخا لأربعين من الصحابة ، و « الأربعون السباعية » و « السباعيات » من حديث الصدفى ، و « حلية الأمالى[1] فى الموافقات والعوالى[2] » و « وتحفة الوُرَّاد ، ونجعة الرُّوَّاد » و « المسلسلات و « الإنشادات » و « كتاب الاكتفاء ، فى مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى الثلاثة الخلفاء » و « ميدان السابقين ، وحلبة الصادقين المصدقين » فى غرض كتاب الاستيعاب ، ولم يكمله ، « والمعجم » فيمن وافقت كنيته زوجه[3] من الصحابة ، و « الإعلام ، بأخبار البخارى الإمام » و « المعجم ، فى مشيخة أبى القاسم ابن حَبيش » و « برنامج رواياته » و « جنى الرطب ، فى سنى الخطب » و « نكتة الأمثال ، ونَفْثة السحر الحلال » و « جهد النصيح ، فى معارضة المعرى فى خطبة الفصيح » و « والامتثال ، لمثال المبهج فى ابتداع الحكم واختراع الأمثال » و « مفاوضة القلب العليل ، ومنابذة الأمل الطويل ، بطريقة المعرى فى ملقى السبيل » و « مجازفتى اللحن ، للاحن الممتحن » مائة مسألة ملغزة ، « نتيجة الحب الصميم ،

---

(١) فى أصل ا « حلبة الأمالى » بالباء الموحدة .

(٢) فى نسخة « فى المواقعات والعوالى » .

(٣) فى أصل ا « وافقت كنيته من وجه من الصحابة » ولا نجد لها معنى مقبولا

وزكاة المنثور والمنظوم ، فى مثال النعل النبوية على لابسها أفضل الصلاة والسلام » قال ابن رشيد : لو قال وزكاة النثير والنظيم لكان أحسن ، وله كتاب « الصحف المنشرة ، فى القطع المعشرة » و « ديوان رسائله » سفر ، و « ديوان شعره » سفر ، وكتب إلى الأديب الشهير أبى بحر صَفْوان بن إدريس [المرسى] عقب انفصاله من بلنسية سنة ٥٨٧ (١) :

أحن إلى نجد ومن حل فى نجد ... وماذا الذى يغنى حنينىَ أو يُجدِى

وقد أوطنوها وادِعِينَ وخَلَّفُوا ... محبهمُ رهن الصبابة والوجد

تبين بالبين اشتياقى إليهمُ ... ووجدى فساوى ما أُجِنُّ الذى أُبْدِى (٢)

وضاقت علىَّ الأرض حتى كأنها ... وشاح بِخَصْرٍ أو سوار على زند

إلى الله أشكو ما ألاقى من الجوى ... وبعض الذى لاقيته من جَوًى يُرْدِى

فراق أخلاء وصَدٌّ أحبة ... كأنّ صروف الدهر كانت على وعد (٣)

فيا سَرْحَتَىْ نجدٍ ، نداء متيم ... له أبداً شوق إلى سرحتى نجد

ظمئت فهل طل يبرد لوعتى ... ضحيت فهل ظل يسكن من وجدى

ويا زمناً قد بان غير مُذَمَم ... لعل لأنس قد تصرَّمَ مِنْ رَدِّ

ليالىَ نجنى الأنس من شجر المنى ... ونقطف زهر الوصل من شجر الصد

وسَقْياً لإخوان بأكناف حاجرٍ ... كرام السجايا لا يحولون عن عهد

وكم لى بنجد من سرىٍّ ممجد ... ولا كابن إدريس أخى البشر والمجد

أخو همة كالزهر فى بعد نيلها ... وذو خُلُقٍ كالزهر غِبَّ الحيا العِدِّ

(١) فى نسخة عند ا « سنة ٥٠٧ » .

(٢) فى أصل ا « فساوى ما أجن وما أبدى » .

(٣) فى نسخة « فراق أخلاء وصد حبائب »

تجمعت الأضداد فيـه حميـدة فمن خلق سبط ومن حسب جعد
أيا راحلا أودى بصبرى رحيـلُه وفلل من عزمى وَثَلَّم من حَدِّى
أتعلم ما يلقى الفؤاد لبعـــدكم ألا مذ نأيتم ما يعيـد ولا يبدى
فيا ليت شعرى هل تعود لنا المنى وعيشٌ كما نَمْنَمْتُ حاشيتى برد
عسى الله أن يدنى السرور بقربكم فيبـدو ، ومنا الشمل منتظم العقد

وقال الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى فى « أحكام القرآن » عنـد تفسير قوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) ماصورته : ولقد نزل بنا العدوّ ـ قصمه الله تعالى ! ـ سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فجاس ديارنا ، وأسر جيرتنا[(١)] ، وتوسط بلادنا فى عَدَدٍ حدد الناس عدده فكان كثيراً ، و إن لم يبلغ ماحدوده ، فقلت للوالى والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل فى الشَّرَك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليـه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحـد فى جميع الأقطار ، فيحاط بهم ، فإنه هالك لا محالة ، و إن يسركم الله له فغلبت الذنوب ، ورجفت بالمعاصى القـلوب ، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وِجَاره ، و إن رأى المـكيدة بجاره[(٢)] ، فإنا لله و إنا إليه راجعون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !.

ولاخفاء أن هذا كان قبل أخذ العدو [الجزيرة][(٣)] وشرق الأندلس وسَرَقُسْطة ومَيُورْقة وغيرها مما قدمنا ذكره ، والبدايات ، عُنْوَانُ [على] النهايات .

---

(١) فى نسخة عند ا « وأسر جبرتنا » تحريف .

(٢) فى نسخة عند ا « وإن وارى المـكيدة بجاره » تحريف .

(٣) كلمة « الجزيرة » ثابتة فى ب وحدها .

وقال أبو جعفر الوقشى البلنسى (١) نزيل مالقة يمدح أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على :

أبت غير ماء بالنخيل وُرُودا وهامت به عذب الجِمَامِ بَرُودَا (٢)

وقالت لحاديها أتمَّ زيادةً على العشر فى وِرْدِى له فأزيدا (٣)

غلبتك ما هذا القنوع وما أنا عهدتك لا تثنين عنه وريدا

أنونا إذا ما كنت منه قريبة وضبا إذا ما كان عنك بعيدا (٤)

رِدِى حضرة الملك الظليل رواقهُ لعمرى ففيها تحمدين ورودا

بحيث إمام الدين يوسع فضله جميع البرايا مبدئا ومُعِيدا

أعاد إليها الأنس بعد شروده وأحيا لنا ما كان منه أبيدا

ولَيَّنَ أيام الزمان بعدله وكانت حديداً فى الخطوب حديداً

فلا ليلة إلا يروقك حسنها ولا يوم إلا عاد بفضل عيدا

ومنها يصف حال الأندلس و يبعث على الجهاد :

ألا ليت شعرى هل يمد لى المدى فأبصر شمل المشركين طريدا

وهل بعد يقضى فى النصارى بنصرة تغادرهم للمُرْهَفَاتِ حصيدا

و يغزو أبو يعقوب فى شنت ياقب يعيد عميد الكافرين عميدا

و يلقى على إفرنجهم عبء كلكل فيتركهم فوق الصعيد هجودا

يغادرهم جَرْحَى وقتلى مبرحا ركوعا على وجه الفلا وسجودا

و يفتك من أيدى الطغاة نواعما تبدلن من نظم الحجول قيودا

---

(١) فى أصل ا « الوقشي » دون « البلنسى » وفى نسخة عندها بالعكس، وجمع بينهما فى ب

(٢) فى ب ونسخة عند ا « عذب الحمام » تحريف

(٣) فى ب « أتم زيارة » وفي ا « أتم زيادة » وكلاهما تحريف

(٤) النون : الحوت مسكنه الماء ، والضب : من حيوان البر

وأقبلن فى خشن المسوح وطالما سحبن من الوشى الرقيق بُرُودَا
وغَبَّرَ منهن الترابُ ترائباً وخدد منهن الهجير خدودا
فحق لدمعى أن يفيض لأزرق تملكها دعج المدامع سودا
ويالهف نفسى من معاصم طَفْلَة تجاور بالقد الأليم نهودا[١]
ويا أسفى ما إن يزال مُرَدَّدًا على شمل أعياد أعيد بَديدا
وآها بمد الصوت منتحبا على خلو ديار لو يكون مفيدا[٢]

وقال فى آخرها ، وهو مما استحسنه الناس :

حملت إليه من نظامى قلادة يلقبها أهل الكلام قصيدا
غدت يوم إنشاد القريض وحيدة كما قصدت فى المعلوات وحيداً

ولما تمهدت الأندلس لعبد المؤمن وبنيه كان لهم فيها وقائع مع عدوّ الدين ، واجتاز إليها عبدُالمؤمن ، ثم لماولى بعده ملكه ابنهُ يوسف دخل الأندلس سنة ٥٦٦[٣] ، وفى صحبته مائة ألف فارس من المغرب[٤] والموحِّدين ، فنزل بإشبيلية ، فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن مَرْدَنِيش صاحبُ شرق الأندلس مُرْسِية وأعمالها وما انضاف إليها ، فحمل على قلبه ، فمرض ، فمات ، وشرع السلطان يوسف فى استرجاع بلاد المسلمين من أيدى الفرنج ، فاتسعت مملكته بالأندلس ،وأغارت سراياه على طُلَيْطلة إذهى قاعدة ملكهم ، ثم إنه حاصرها ، فاجتمعت طائفة الفرنج عليه ، واشتد الغلاء فى عسكره ، فرحل عنها ، وعاد إلى حضرة ملكه مراكش المحروسة .

ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى ــ دمرهم الله تعالى! ــ على كثير

(١) فى نسخة « ويالهف نفسى من معاطف طفلة »
(٢) فى أصل ا « واها بمد الصوت » وفى نسخة عندها « وآها نمد الصوت » وفى أصل ا « أو يكون مفيدا » وكل ذلك ليس بشىء
(٣) فى نسخة عند ا « سنة ٥٥٦ » (٤) فى أصل ا « من العرب »

منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثار ، بالنظم والنثار ، فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخرق ، وأعضل الداء أهل الغرب والشرق ، فمن القصائد الموجهة فى ذلك قولُ بعضهم لما أخذت بلنسية يخاطب صاحب إفريقية أبا زكريا عبدالواحد(١) بن أبى حفص :

نادتك أندلس فَلَبِّ نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخَتْ بدعوتك العلية فاُحبها ... من عاطفاتك ما يقى حَوْبَاءَهَا(٢)
واشدد بجانبك جُرْدَ خيلك أَزْرَهَا ... تردد على أعقابها أرزاءها
هى دارك القصوى أوت لإيالة ... ضمنت لها مع نصرها إيواءها
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى ... سُبُل الضَّراعة يسلكون سواءها
خلعت قلوبهم هناك عزاءها ... لما رأت أبصارهم ما ساءها
دُفِعُوا لأبكار الخطوب وعُونِهَا ... فهمُ الغداةَ يصابرون عناءها(٣)
وتنكرت لهم الليالى فاقتضت ... سَرَّاءها وقضتهم ضراءها(٤)
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا ... لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رِشْ أيها المولى الرحيم جناحها ... واعقد بأرشية النجاة رِشاءها
أشفى على طرف الحياة ذَمَاؤها ... فاستبق للدين الحنيف ذماءها(٥)
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد ... قَصَرَتْ عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها ... ترجو بيحيي المرتضى إحياءها
واستشرفت أمصارها لإمارة ... عقدت لنصر المستضام لواءها
يا حسرتى لعقائل معقولة ... سئم الهدى نحو الضلال هداءها

(١) فى أصل ا « أبا زكريا بن عبد الواحد بن أبى حفص »

(٢) الحوباء : النفس ، ووقع فى أصل ا « مايفى حوباءها »

(٣) فى أصل ا « فهم العداة يصابرون » تحريف

(٤) فى أصل ا « وقفتهم ضراءها »

(٥) الذماء — بالفتح كسحاب — بقية الروح فى البدن

إيه بلنسية وفى ذكراك ما | يمرى الشؤون دماءها لا ماءها[١]
كيف السبيل إلى احتلال معاهد | شب الأعاجمُ دونها هيْجَاءها
وإلى رُبًا وأباطح لم تعرَ من | حُلَلِ الربيع مصيفَها وشتاءها
طاب المعرَّسُ والمَقِيلُ خلالها | وتطلعت غرر المنى أثناءها
بأبى مدارس كالطلول دوارس | نسخت نواقيسُ الصليب نِدَاءها[٢]
ومصانع كسف الضلال صباحها | فيخاله الرائى إليه مساءها[٣]
ناحت بها الورقاء تسمع شَدْوَهَا | وغدت تُرَجِّع نوحها وبكاءها[٤]
عجبا لأهل النار حَلُّوا جنة | منها تمد عليهم أفياءها
أمْلَتْ لهم فتعجلوا ما أملوا | أيامهم لا سُوِّغوا إملاءها
بعدًا لنفس أبصرت إسلامها | فتوكفت عن حزبها إسلاءها
أما العلوج فقد أحالوا حالها | فَمَنِ المطيقُ علاجها وشفاءها
أهدى إليها بالمكاره جارح | للكفر كرّه ماءها وهواءها
وكفى أسى أن الفواجع جمة | فمتى يقاوم أسْوُهَا أسواءها
هيهات فى نظر الإمارة كف ما | تخشاه، ليت الشكر كان كفاءها
مولاى هاك معادة أنباءها | لتنيل منك سعادة أبناءها
جرّد ظُبَاك لمحو آثار العدا | تقتل ضَرَاغِمَها وتسب ظباءها
واستدع طائفة الإمام لغزوها | تسبق إلى أمثالها استدعاءها
لا غرو أن يعزى الظهور لملة | لم يبرحوا دون الورى ظُهراءها

---

(١) يمري : يفيض ، والشؤون : مجارى الدموع
(٢) أراد بالنداء الأذان للصلوات
(٣) فى أصل ا « كشف الضلال صباحها » وليس بشىء
(٣) فى أصل ا « راحت بها الورقاء » والورقاء : الحمامة

إن الأعاجم للأعارب نهبة ... مهما أمرت بغزوها أحياءها
تالله لو دَبَّتْ لها دبابها ... لَطَوَت عليها أرضها وسماءها[١]
ولو استقلت عوفها لقتالها ... لاستقبلت بالمقربات عفاءها
أرسل جوارحها تجئك بصيدها ... صيدا وناد لطحنها أرحاءها
هُبُّوا لها يا معشر التوحيد قد ... آن الهبوب وأحْرِزُوا علياءها[٢]
إن الحفائظ من خلالكم التى ... لا يرهب الداعى بهن خلاءها
هى نكتة المحيا فخير الأ بها ... تجدوا سَنَاها فى غد وسناءها
أولوا الجزيرة نصرة إن العدا ... تبغى على أقطارها استيلاءها
نُقِصت بأهل الشرك من أطرافها ... فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها[٣]
حاشا كمو أن تضمروا إلغاءها ... فى أزمة أو تضمروا إقصاءها[٤]
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم ... رَهْوًا وجوبوا نحوها بيداءها
وافى الصريخ مثوِّبا يدعو لها ... فلتجملوا قصد الثواب ثَوَاءها
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة ... ساوت بها أحياؤها شهداءها
هذى رسائلها تناجى بالتى ... وقفت عليها رَيْثَهَا ونجاءها
ولربما أنهت سوالب للنهى ... من كائنات حملت أنهاءها
وفدت على الدار العزيزة تجتنى ... آلاءها أو تجتلى آراءها
مستسقيات من غيوث غياثها ... ما وَقْعُه يتقدَّم استسقاءها
قد أمنت فى سبلها أهواءها ... إذ سوّغت فى ظلها أهواءها

---

(١) دبابها : جمع داب ، مثل كفار وتجار وفساق ، جمع كافر وتاجر وفاسق ، ووقع فى ب « أدبابها »

(٢) فى أصل ا « وأجرزوا علياءها »

(٣) فى نسخة « فاستحفظوا بالمسلمين نماءها »

(٤) فى أصل ا « أو تقصروا إقصاءها »

وبحسبها أن الأمـــير المرتضى ... مترقِّبٌ بفتوحهـــا آناءها
فى الله ما ينويه من إدراكهـا ... بكَلَاءة يَفْدِى أبِى أكلاءها
بشرى لأندلس تحب لقــاءهُ ... ويحب فى ذات الإله لقــاءها
صدق الرواة المخـــبرون بأنه ... يَشْفى ضَنَاها أو يعيــد رُوَاءها
إن دوّخ العربُ الصعابَ مقادة ... وأبى عليهـــا أن تطيع إباءها
فكأنْ بفَيْلقه العَرَمْرَمِ فالقا ... هامَ الأعاجم ناسفاً أرجاءها(١)
أنذرهُمُ بالبطشة الـكبرى فقـد ... نذرت صوارمه الرقاق دماءها(٢)
لا يعـدم الزمن انتصار مؤيد ... تتسوغ الدنيـــا به سَرّاءها
ملك أمدّ النـــيرين بنوره ... وأفاده لألاؤه لألاءها(٣)
خضعت جبـــابرة الملوك لعزه ... ونضت بكف صغارها خُيَلَاءها
أبقى أبو حفص أمارته له ... فسما إليهـــا حاملا أعباءها
سل دَعْوَةَ المهـدى عن آثاره ... تنبيـــك أن ظُبَاه قمن إزاءها
فغزا عداها واسترقَّ رقابهـــا ... وحمى حمـاها واسترد بهـاءها
قبضت يداه على البسيطة قبضة ... قادت له فى قِدِّهِ أمراءها
فعلى المشارق والمغـــارب ميسم ... لهـــداه شرف وَسْمُه أسماءها
تطمو بتونسها بحـار جيوشه ... فيزور زاخر موجهـــا زَوْرَاءها
وسع الزمان فضاق عنــه جلالَةً ... والأرض طرا ضنكها وفضاءها
ما أزمع الإيغـالَ فى أكنافها ... إلا تصيد عَزْمُه زُعَمـــاءها

---

(١) الفيلق : الجيش ، والعرمرم : الـكثير العدد ، والأرجاء : جمع رجا ، وهو الناحية

(٢) فى نسخة « ذماءها » وهو بقية الروح فى الجسم

(٣) فى أصل ا « ملك أمد النيرات بنوره »

دانت له الدنيـــا وشُمٌّ ملوكها ... فاحتلَّ من رُتَبِ العـلا شماءها[١]

ردت سعادته على أدراجهـا ... ليـل الزمان ونهنهت غُلَوَاءها[٢]

إن يعتم الدول العزيزة بأسـه ... فالآن يولى جـوده إعطاءها[٣]

تقع الجلائلُ وهو راسٍ راسخ ... فيهـــا يوقِّع للسعود جلاءها

كالطود فى عصف الرياح وقصفها ... لا رَهْوَهَا يخشى ولا هوجاءها

سامى الذوائب فى أعز ذؤابة ... أعلت على قمم النجوم بنـــاءها

بركت بكل محـــلَّةٍ بركاتُهُ ... شفعا يبادر بذلهـــا شفعاءها

كالغيث صبَّ على البسيطة صَوْبَهُ ... فسقى عمـــائرها وجاد قَوَاءَهَا

ينميه عبد الواحـد الأرضى إلى ... عليـــا فتجنح بأسها وسخاءها

فى نَبْعة كرمت وطابت مغرساً ... وسمت وطالت نضرة نظراءها

ظهرت لمحتـدها السماء وجاوزت ... لسرادقات فخارها جوزاءها[٤]

فئـة كرام لا تكفُّ عن الوغى ... حتى تصرِّعَ حولهـا أكفاءها

وتكبُّ فى نار القرى فوق الذرا ... من عزة ألويها وكباءها

قد خلقوا الأيام طيبَ خلائق ... فثنت إليهم حمـــدها وثناءها

يَنْضُونَ فى طلب النفائس أنفساً ... حبسوا على إحرازها أمضاءها

و إذا انتضوا يوم الكريهة بِيضَهُمْ ... أبصرت فيهم قطعهـا ومَضَاءها[٥]

لاعذر عند المكرمات لهم متى ... لم تستبن لعُفَاتهم عـــذراءها

قوم الأمير فمن يقوم بمـــالهم ... من صالحات أفحمت شعراءها

---

(١) فى نسخة عند ا « دانت له الآمال ثم ملوكها »

(٢) فى ب « ونهنهت علداءها » وفى أصل ا « غلاءها » وفى نسخة عندها « ونهنهت أعداءها »

(٣) كذا فى ا ، ب ، وفى نسخة عند ا « إن يغتم »

(٤) فى أصل ا « طهرت » بالطاء مهملة

(٥) بيضهم : سيوفهم ، واحدها أبيض

صفحا جميلا أيها الملك الرضى عن محـكمات لم نُطِقْ إحصاءها

تقف القوافى دونهن حسيرة لا عِيّهَـا تُخْفِي ولا إعياءها

فلعل عليا كم تسامح راجيـا إصغاءها ومؤمـلا إغضاءها

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها الله تعالى للإسلام :

لثُـكلِكِ كيف تبتسم الثغور سروراً بعد ما بئست ثغور (١)

أما وأبى مصاب هُدَّ منه ثَبِيرُ الدين فاتصل الثبور

لقد قُصِمَتْ ظهور حين قالوا أمير الـكافرين له ظُهورُ

ترى فى الدهر مسروراً بعيش مضى عنـا لِطِيَّته السرور

أليس بها أبِىُّ النفس شهم يدير على الدوائر إذ تدور (٢)

لقد خضعت رقاب كُنَّ غلبا وزال عتوُّها ومَضَى النفور

وهان على عزيز القوم ذلٌّ وسامح فى الحريم فتى غيور

طليطلة أباح الـكفر منها حماها ، إن ذا نبأ كبير

فليس مثالها إيوان كسرى ولا منها الخَوَرْنَقُ والسدير

محصَّنة محسَّنة بعيـد تنـاولها ومطلبها عسير

ألم تك معقلا للدين صَعْباً فذلله كما شاء القـدير

وأخرج أهلها منهـا جميعاً فصاروا حيث شاء بهم مصير

وكانت دار إيمان وعـلم معالمها التى طمست تنير

فعادت دار كفر مصطفاة قد اضطربت بأهليها الأمور

---

(١) بئست : وقعت فى البؤس ، ووقع فى ا « سبيت ثغور » والثغور : فى النصف الأول من البيت الأفواه ، والثغور فى آخر البيت جمع ثغر ، وهو الموضع القريب من العدو يخاف منه

(٢) في نسخة عند ا « يدور على الدوائر إذ تدور »

مساجدها كنائس ، أى قلب ... على هـــذا يقر ولا يطير؟
فيا أسفاه يا أسفاه حــزناً ... يُكَرَّرُ ما تــكررت الدهور
وينشر كل حسن ليس يطوى ... إلى يوم يــكون به النشور
أُدِيلَتْ قاصراتُ الطرف كانت ... مَصُونات مسا كنُها القصور
وأدركها فتــــور فى انتظار ... لِسِرْبٍ فى لواحظه فتـــور
وكان بنا وبالقينـــــات أولى ... لو انضمت على الــكل القبور[1]
لقــــد سَخِنَتْ بحالتهن عَيْنٌ ... وكيف يصح مغلوب قرير
لئن غبنا عن الإخوان إنا ... بأحزان وأشجان حُضُورُ
نُذُور كان للأيام فيهم ... بمُهْلَكِهِمْ فقد وفت النــذور[2]
فإن قلنـا العقوبة أدركتهم ... وجاءهُمُ من الله النــكير
فإنا مثلهم وأشـــد منهم ... نجور وكيف يســلم من يجور
أنأمن أن يحــل بنا انتقام ... وفينـا الفسق أجمع والفجور
وأكْلٌ للحرام ولا اضطرار ... إليـه فيَسْهُلَ الأمرُ العسير
ولــكن جرأة فى عقر دار ... كذلك يفعل الــكلب العقور
يزول الستر عن قوم إذا ما ... على العصيان أُرْخِيَتِ الستور
يطول على ليـــلى ، رب خطب ... يطول لهوْلِهِ الليـــلُ القصير
خـــذوا ثار الديانة وانصروها ... فقد حامت على القَتْلَى النسور[3]
ولا تهنــــوا وسُلُّوا كل عَضْبٍ ... تهاب مضاربا عنه النحـــور[4]

---

(١) فى ا « وكان بنا وبالفتيان أولى » .

(٢) مهلــكهم : هلاكهم ، وفى أصل ا « بملــكهم فقد وفت النذور »

(٣) فى نسخة عند ا « خذوا دار الصيانة »

(٤) العضب : السيف القاطع ، وسله : إخراجه من غمده ، وفى نسخة « تهاب مصارعا عنه النحور »

وموتوا كلكم فالموت أولى بكم من أن تُجارُوا أو تَجُورُوا

أصبرا بعد سبى وامتحان يلام عليهما القلب الصبور

فأمُّ الصبر مِذْكار ولود وأم الصقر مقلاةٌ نزور (١)

نخور إذا دهينا بالرزايا وليس بمعجب بَقَر يخور (٢)

ونجبن ليس نزأر، لو شجعنا ولم نجبن لكان لنا زئير

لقد ساءت بنا الأخبار حتى أمات المخبرين بها الخبيرُ

أتتنا الكُتْبُ فيها كلُّ شر وبشَّرَنَا بأنحسنا البَشِيرُ

وقيل تجمعوا لفراق شمل طليطلة تملكها الكَفُورُ

فقل فى خطة فيها صَغار يشيب لكربها الطفل الصغير

لقد صم السميع فلم يعوّل على نبإٍ كما عمى البصير

تجاذبنا الأعادى باصطناع فينجذب المخوّل والفقير

فباقٍ فى الديانة تحت خزى تثبطه الشُّوَيْهَةُ والبعير

وآخر مارقٌ هانت عليه مصائب دينه فله السعير

كفى حُزْناً بأن الناس قالوا إلى أين التحوّل والمسير

أنترك دورَنَا ونفر عنها وليس لنا وراء البحر دورُ

ولا ثَمَّ الضياع تروق حسنا نباكرها فيعجبنا البكور

وظلٌّ وارف وخرير ماء فلا قرٌّ هناك ولا حَرورُ

ويؤكل من فواكهها طَرِىٌّ ويشرب من جداولها نمير

---

(١) أصل هذا البيت قول الشاعر :

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلاة نزور

ووقع فى ا « فأم الشكل مذكار ولود »

(٢) نخور : نصوت ، وأصل الخوار صوت البقر .

يؤدى مغرم فى كل شهر ... ويؤخذ كلَّ صائفة عُشُورُ

فهم أحمى لحوزتنا وأولى ... بنا وهُمُ الموالى والعشير

لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وغر القومَ بالله الغَرورُ

فلا دين ولا دنيا ولكن ... غرور بالمعيشة ما غرور

رَضُوا بالرق يالله ماذا ... رآه وما أشار به مشير

مضى الإسلام فابْكِ دمًا عليه ... فما ينفى الجوى الدمعُ الغزير[1]

ونُحْ واندب رفاقا فى فلاة ... حيارى لا تحط ولا تسير

ولا تَجْنَحْ إلى سلم وحارب ... عسى أن يُجْبَرَ العظم الكسير

أنعمى عن مراشدنا جميعا ... وما إن منهم إلا بصير

ونلقى واحدا ويفر جَمْعٌ ... كما عن قانص فرت حمير[2]

ولو أنا ثبتنا كان خيرا ... ولكن مالنا كرم وخِيرُ

إذا مالم يكن صبر جميل ... فليس بنافع عدد كثير

ألا رجل له رأى أصيل ... به مما نحاذر نستجير

يكر إذا السيوف تناولَتْهُ ... وأين بنا إذا ولت كرور

ويطعن بالقنا الخَطَّار حتى ... يقول الرمح ما هذا الخطير

عظيم أن يكون الناسُ طرا ... بأندلس قتيل أو أسير

أذكر بالقراع الليث حرصا ... على أن يقرع البَيْضَ الذكورُ

يبادر خَرْقهَا قبل اتساع ... لخطب منه تنخسف البدور

---

(١) الجوى : الحزن ، والدمع الغزير : الكثير المتوالى ، يقول : لا يذهب البكاء الأحزان ، ووقع فى نسخة « فما يبقى الجوى الدمع الغزير » ومعناه أن البكاء يذهب الحزن .

(٢) القانص : الصياد ، وقد يكون أراد به السبع ، ويكون أخذه من قوله تعالى : (كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة)

يوسِّع للذى يلقاه صـــدرا ... فقد ضاقت بما تلقى صـدور
تنغَّصت الحياة فلا حيـــاة ... وودع جـــيرة إذ لا مجير
فليل فيـــه هم مستكنٌّ ... ويوم فيـــه شر مستطير
ونرجـــو أن يُتيحَ الله نصرا ... عليهم ، إنه نعم النصـــير(١)

ومن مشهور ماقيل فى ذلك قول الأديب الشهير أبى البقاء صالح بن شريف الرندى رحمه الله تعالى :

نونية ابن شريف الرندى

لـكل شىء إذا ماتم نُقْصَانُ ... فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ
هى الأمور كما شاهدتها دُوَلٌ ... مَنْ سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تُبْقِى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شَانُ
يمزق الدهر حتما كلَّ سابغة ... إذا نَبَتْ مشرفيات وخرصان(٢)
وينتضى كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شَـدَّاد فى إرم ... وأين ماساسه فى الفرس سَاسَانُ
وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الـكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خيال الطيف وَسْنَانُ
دار الزمان على دَارَا وقاتِلِهِ ... وأمَّ كسرى فما آواه إيوان(٣)
كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوما ولا ملك الدنيا سليمان

(١) يتيح : يهيىء ويقدر
(٢) السابغة : الدروع ، والمشرفيات : السيوف ، ونبوها : ألا تصيب الضريبة ، والخرصان : أراد بها الرماح
(٣) قاتل دارا هو الإسكندر الأكبر

فجائع الدهر أنواع منوّعة ... وللزمان مَسَرَّات وأحزان

وللحوادث سُلْوان يسهلها ... وما لما حلَّ بالإسلام سلوان

دهى الجزيرةَ أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهدَّ ثهلان (١)

أصابها العين فى الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار و بلدان (٢)

فاسأل بَلَنْسية ما شأن مُرْسِية ... وأين شاطبة أم أين جَيَّانُ

وأين قُرْطبة دارُ العلوم ، فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نُزَه ... ونهرها العذب فيَّاض وملآن (٣)

قواعد كنّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبْقَ أركان

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلْفِ هَيْمَانُ

على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عُمْرَانُ

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصُلْبان

حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان

يا غافلا وله فى الدهر موعظة ... إن كنت فى سِنَةٍ فالدهر يقظان

وماشيا مرحا يلهيه موطنه ... أبعد حِمْصٍ تغر المرءَ أوطانُ

تلك المصيبة أنْسَتْ ما تقدمها ... وما لها مَعَ طولِ الدهر نسيان

يا راكبين عتاقَ الخيل ضامرةً ... كأنها فى مجال السبق عقبان

وحاملين سيوفَ الهند مُرْهَفة ... كأنها فى ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر فى دَعَةٍ ... لهم بأوطانهم عز وسلطان

---

(١) أحد وثهلان : جبلان

(٢) فى ا « أصابها العين فى الإسلام فامتحنت »

(٣) حمص : اسم إشبيلية ، سميت بذلك لأن الفاتحين من أهل حمص الشام نزلوها

أعندكم نبأ مِنْ أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم رُكْبَانُ

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان(١)

ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتمُ يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيّاتٌ لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحالَ حالَهم كُفْرٌ وطغيان

بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم ... واليومَ هم فى بلاد الكفر عبْدَانُ

فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهم ... عليهمُ من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالَكَ الأمر واستهوتك أحزان

يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تَفَرَّقُ أرواح وأبدان

وطَفْلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هى ياقوت ومَرْجَانُ

يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوبُ القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان

انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدى [بعض] الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف ، وما اعتمدته منها نقلته من خط مَنْ(٢) يوثق به على ما كتبته ، ومَنْ له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها فى البلاغة ، وغالبُ ظنى أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون هِمَمَ الملوك بالمشرق والمغرب فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد

---

(١) فى أصل ا « كم يستغيث بنو المستضعفين وهم — إلخ »

(٢) فى أصل ا « نقلته من خط بعض من يوثق به »

بينت ذلك فى « أزهار الرياض » فليراجع .

من نظم صالح ابن شريف الرندى أيضا

وصالح بن شريف الرندى صاحب القصيدة من أشهر أدباء الأندلس ، ومن بديع نظمه قوله :

سَلِّم على الحى بذات العَرَارْ ... وحَىِّ من أجل الحبيب الدِّيَارْ
وخَلِّ مَنْ لام على حبهم ... فما على العشاق فى الذل عار
ولا تقصِّر فى اغتنام الْمُنَى ... فما ليالى الأنس إلاَّ قصار
وإنما العيش لمن رامه ... نفس تدارى وكؤس تدار
ورَوْحُه الراح وريحانه ... فى طيبه بالوصل أو بالعُقَار (١)
لا صبر للشىء على ضده ... والخمر والهم كماء ونار
مُدامة مُدْنيــة للمنى ... فى رقة الدمع ولون النضار (٢)
ممـا أبو ريق أباريقها ... تنافست فيها النفوس الكبار
مُعلِّلتى والبرء من علتى ... ما أطيب الخمرة لولا الْخُمَار (٣)
ما أحسن النار التى شكلها ... كالماء لو كف شرار الشرار
وبى وإن عُذِّبْتُ فى حبه ... ببعده عن اقتراب المَزَار
ظبىٌ غرير نام عن لوعتى ... ولا أذوق النوم إلاَّ غِرار
ذو وجنة كأنها روضة ... قد بَهَرَ الورد بها والبهار (٤)
رَجَعْتُ للصبوة فى حبه ... وطاعة اللهو وخلع العذار
يا قوم قولوا بذمام الهوى ... أهكذا يفعل حب الصغار

---

(١) العقار : الخمر ، سميت بذلك لأنها تعقر عقل شاربها

(٢) النضار — بضم النون — الذهب

(٣) الخمار — بالضم — الصداع وأذى الخمر

(٤) فى نسخة عندنا « ذو وجنة تحسبها روضة »

وليــــلة نَبَّهْتُ أجفانها والفجر قد فجر نهر النهار(١)

والليل كالمهزوم يوم الوَغَى والشهب مثل الشهب عند الفرار

كأنما استخفى السُّهَا خيفَةً وطولب النجم بثار فثار

لِذَاكَ ما شابت نواصى الدجا وطَارَحَ النسر أخاه فطار(٢)

وفى الثريا قمر ســـافر عن غرة غَيَّر منهـا السفار

كأن عنقوداً تثَنَّى به إذ صار كالعرجون عند السِّرار

كأنها تَسْبكُ دينـــاره وكفها يفتـل منه السوار(٣)

كأنمـا الظلماء مظلومة تحـكم الفجر عليها فجار

كأنما الصبح لمشـــتاقهِ عز غِنًى من بعد ذل افتقَار

كأنما الشمس وقد أشرقت وَجْه أبى عبد الإلٰه استنار

محمد محمد كاسمـــه شخص له فى كل معنى يشار

أما المعـــالى فهو قُطْبٌ لها والقطب لا شك عليه المَدَار

مُؤَثَّل المجد صريح العـلا مهذب الطبع كريم النِّجار

تُزْهَى به لخم وســاداتها وتنتمى قيس له فى الفخـار

يفيض من جود يديه على عافيه ما منـه تحار البحار(٤)

اليمن من يمناه حكم جرى واليسر من شيمة تلك اليسار

أخٌ صفا منه لنا واحـد فالدهر مما قد جنى فى اعتذار

فإن شـكرنا فضله مرة فقد سكرنا من نَدَاه مرار

---

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى نسخة « فجر النهار » وفى أخرى «فجر عين النهار»

(٢) فى ب « كذاك ما شابت نواحى الدجى * وطير النسر — الخ »

(٣) فى نسخة « كأنما تسبك ديناره »

(٤) عافيه : طالب معروفه ، وفى ا « ما فيه تحار البحار »

ونحن منه فى جوار العـلا تدور للسعد بنا منـه دار
الحافظ الله وأسمـاؤه لذلك الجار وذاك الجوار

لأبى المطرف فى أخذ العدو بلنسية

رجع – وقد رأيت أن أثبت هنا رسالةً خاطب بها الـكاتب البارع القاضى أبو المطرف ابن عميرة المخزومى الشيخَ الحافظ أبا عبد الله بن الأبار ، يذكر له أخذ العدو مدينة بَلَنْسية وهى :

ألا فَيْئَـة للدهر تدنو بمن نأى وبُقْيا يرى منها خلاف الذى رأى[١]
ويا من عذيرى منه يَغْدِر مَنْ أوى إليه ولا يدرى سوى خلف من وأى[٢]
ذخائر ما فى البر والبحر صيده فلا لؤلؤاً أبقى عليـه ولا وأى

أيها الأخ الذى دُهش ناظرى لـكتابه ، بعد أن أدهش خاطرى من إغبابه ، وسرنى من بشره إيماض ، بعد أن ساءنى من جهته إعراض ، جرت على ذكره الصلة فقوّم قِدْحَ نَبْعَتها ، وروى أكناف قلعتها ، وأحـدث ذكراً من عهدنا الماضى فَنَقَّط وجه عروسه ، وشعشع خمر كؤسه ، وسقى بماء الشبيبة ثراه ، وأبرز مثال مرآة الغريبة[٣] مرآه ، فبورك فيه أحوذيا وصَلَ رحمه ، وكسا منظره من البهجة ما كانَ حَرَمَه ، وحيا الله تعالى منه وليا على سالف عهدى عمادى ، و بشعار ودى نادى ، و بين الإحسان شيمته[٤] ، وأبان والبيانُ لا تنجاب عنه دِيمَتُه ، ولا تغلو بغير قلمِهِ قيمته واعتذر عن كلمة تمنى تبديلها ، ودعوة ذكر وجوم النادى لهـا ، ثم أرسلها تَرجُف بوادرها من خيفة ، وتوغر زَعْم صدور قلم وصحيفة[٥] ، وتنذر من ريحانة قريش أن تمنعه عرفها ، وتحدق إليه طَرْفَها ، واتقى غارة على غرة ، من الناجى برأس طِمِرَّة ، ولم

---

(١) فيئة : عودة ورجوع ، ووقع فى ب « ألا نئة للدهر تدنو بمن نأى »
(٢) فى ب « ويا من عذيرى منه يعذر من أوى » وضمير « منه » يعود للدهر ، ووأى : وعد
(٣) فى ا « وأبرز مثل مرآة الغريبة مرآه »
(٤) في ب « وبين والإحسان شيمته »
(٥) فى ا « وتوغر رغم صدر قلم وصحيفة »

يأمن هجران المهاجر بعد وَصْله ، وعكر عكرمة المغطى بحلمه على أبى جهله ، وعند ذكر كتيبة خالد أحجم [(١)] ، وذكر يوم أحاطت به فارس فاستلجم [(٢)] ، فاعتذر عما قال ، وأضمر الحذر إلا أن يقال ، فَمَهْلاً أيها الموفى على عَلَمِهِ ، النافث بسحر قلمه ، أتظن منزلتك فى البلاغة ومَهْيَعُهَا لاحب ، ومنزعها بالعقول لاعب ، تسفل وقد ترفعت ، أو تخفى وإن تلفعت ، عرفناكِ يا سَوْدَه ، وشهرت حلَّةَ عطاردٍ الملاحةُ والجودة ، فلم حين تهيب الأخ الأوحد من قُصَىٍّ غطارفهَا [(٣)] ، ولو استثار من حفائظها تالدها [(٤)] وطارفها ، لم يذكر يد قومه عند أبيها ، وقد رام خطة أشرف على تأبِّيها ، حين أهاب بكم لمُهِمِّه ، ودعا منكم أخاه لأمه ، ولو ذلك لما خلاله وَجْهُ الكعبه ، ولا خلص من تلك المضايق الصعبه ، وبأن أعرتموه نجدتكم الموصوفه ، غلب على ما كان بأيدى صُوفه ، فكيف نجحد اليد عند عمنا ، أو نشحذ أسنة الألسنة لذمنا ، أو كيف نلقاكم بجدنا [(٥)] ، وأبوكم بكر [(٦)] مَعَدُّنا ، وماتيا مُنكم إلى سبأ بن يشجب ، وإن أطلنا فيه التعجب ، بالذى يقطع أرْحَامَنَا ، ويمنع اشتباكنا والتحامنا ، بعد أن شددنا فعالنا بفعالكم ، ورأينا أقدامنا فى نعالكم ، ولو شئتم توعدتم بأسود سؤددكم عند الإقدام ، وإلحاح إلحافكم فى ضَرْب الهَام ، لكن نقول إن قومنا لكِرَام ، ولو شاؤا كان لنا منهم شِرَّةٌ وعُرَام ، وأعود من حيث بدأ الأخ الذى أبثه شوقى ، وأتطعم حلاوة عشرته باقية فى حاسة ذوقى ، طارَحَنى حديث مَوْرِدِجَف ، وقطين خَفَّ ، فيا لله لأتراب دَرَجُوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قصت الأجنحة وقيل طيروا ، وإنما هو

---

(١) فى أصل ا « أجحم »

(٢) فى أصل ا « فاستلحم »

(٣) فى ا « غطاريفها »

(٤) فى ا « تالدها وطريفها »

(٥) فى ا « بجدنا »

(٦) فى ا « وأبوكم أبو بكر معدنا »

القتل أو الأسر أو تسيروا ، فتفرقوا أيدى سَبَا ، وانتشروا ملء الوهاد والرُّبا ، ففى كل جانب عَويل وزَفْره ، و بكل صدر غليل وحَسْرَه ، ولـكل عين عَبْره ، لا ترقأ من أجلها عبره ، داء خامر بلادنا حين أتاها ، وما زال بها حتى سَجَّى على موتاها ، وشَجَا ليومها الأطول كهلها وفتاها ، وأنذر بها فى القوم بحران أنيجه[1] ، يوم أثاروا أسدها المهيجه ، فكانت تلك الحطمة طَلّ الشؤبوب[2] ، و باكورة البلاء المصبوب ، أثكلتنا إخوانا أبكانا نعيهم ، ولله أحْوَذِيُّهم وألْمَعِيُّهُمْ ، ذاك أبو ربيعنا ، وشيخ جميعنا ، سعد بشهادة يومه ، ولم ير مايسوءه فى أهله وقومه ، و بعد ذلك أخذ من الأم بالمخنّق ، وهى بَلَنْسية ذات الحسن والبهجة والرونق ، وما لبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان ، وأخرج من جسدها روح الإيمان ، فبَرِحَ الخفاء ، وقيل : على آثار مَنْ ذهب العَفَاء ، وانعطفت النوائب مفردة ومركبة كما تعطف الفاء ، فأودت الخفة والحَصَافه ، وذهب الجِسْرُ والرصافه ، ومزقت الحلة والشمله ، وأوحشت الجرف والرمله ، ونزلت بالحارة وقعة الحرَّه ، وحصلت الـكنيسة من جآذرها وظبائها على طول الحسره ، فأين تلك الخمائل ونَضْرتها ، والجداول وخضرتها ، والأندية وأرَجُها ، والأودية ومُنْعَرجها ، والنواسم وهبوب مُبْتَلِّها ، والأصائل وشحوب معتلها ، دار ضاحكت الشمسُ بَحْرها و بُحَيْرتَهَا ، وأزهار ترى من أدمع الطل فى أعينها تردُّدَهَا وحَيْرتَهَا ، ثم زحفت كتيبة الـكفر[3] بزُرقها وشُقْرها ، حتى أحاطت بجزيرة شقرها ، فآها لمسقط الرأس هوى نجمُه ، ولفادح الخطب[4] سرى كَلْمه ، ويالجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها ، وروضة أجاد

(١) فى ا « وأنذرها في القوم بحران أينجة »

(٢) فى نسخة « ظل الشؤبوب »

(٣) فى نسخة « ثم ذهبت كتيبة الـكفر »

(٤) فى نسخة عند ا « ولفادح الخطب »

أبو إسحاق نَعْتَها ، و إنما كانت داره التى فيها دبَّ، وعلى أوصاف محاسنها أكب، وفيها أتته منيته كما شاء وأحب ، ولم تعدم بعده محبين قشيبهم إليها ساقوه، ودمعهم عليها أراقوه ، وقد أثبت من النظم ما يليق بهذا الموضع ، و إن لم يكن له ذلك الموقع :

أقلُّوا ملامى أو فقولوا وأكثروا ... مَلُومُكم عما به ليس يُقْصِرُ(١)

وهل غَـيْرُ صب ماتَنِى عبراته ... إذا صعـدت أنفاسهُ تتحدر

يحن وما يجدى عليـه حنينُهُ ... إلى أربُعٍ معروفها متنكر

و يندب عهـدا بالمشَقَّرِ فاللوى ... وأين اللوى منـه وأين المشقر

تغير ذاك العهـدُ بعدى وأهله ... ومن ذا على الأيام لا يتغير(٢)

وأقفر رَسْمُ الدار إلا بقيـة ... لسائلها عن مثل حالىَ تُخْـبِر

فلم تبق إلازفرة أثر زفرة ... ضلوعى لها تنقدّ أو تتفطر

و إلا اشتيـاق لا يزال يَهُزُّنى ... فلا غاية تدنو ولا هو يَفْتُرُ

أقول لسارى البرق فى جنح ليلة ... كلانا بها قد بات يبكى ويَسْهَرُ

تعرض مجتازا فكان مذكِّراً ... بعهد اللوى، والشىء بالشىء يذكر

أتاوى لقلب مثل قلبك خافقٍ ... ودمع سفوح مثل دمعك يقطر(٣)

وتحمل أنفاسا كَوَمْضِكَ نارها ... إذا رفعت تبـدو لمن يتنوّر

يقر لعينى أن أعاين من نأى ... لما أبصرته منك عيناى تبصر(٤)

وأن يتراآك الخليط الذين هُمْ ... بقلبى و إن غابوا عن العين حُضَّرُ

---

(١) فى أصل ا « ملامكم عما به ليس يقصر »

(٢) أخذ عجز هذا البيت من قول كثير عزة :

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها ... ومن ذا الذى يا عز لا يتغير ؟

(٣) فى ا « ودمع سفوح مثل قطرك يقطر »

(٤) فى ا « يقر بعينى » و « عيناك تبصر » وفى نسخة « مثل عيناك تبصر »

كفى حَزَنًا أنا كأهل مُحَصَّبٍ بكل طريق قد نفرنا وننفر[١]
وأن كلينا من مَشُوقٍ وشائق بنار اغتراب فى حَشَاه تسعُّر
ألا ليت شعرى والأمانىُّ ضلة وقَوْلِى ألا ياليت شعرى تحيُّر
هل النهر عقد للجزيرة مثل ما عهدنا وهل حصباؤه وهى جوهر
وهل للصَّبَا ذيل عليه تجره فيروزٌ عنه موجه المتكسر[٢]
وتلك المغانى هل عليها طلاوة بما راق منها أو بما رقَّ تسحر
ملاعب أفراس الصَّبابة والصبا تروح إليها تارة وتبكر
وقبلىّ ذاك النهر كانت معاهد بها العيش مطلول الخميلة أخضر
بحيث بياض الصبح أزرارجيبه تطيب وأرْدَانُ النسيم تعطر
ليالٍ بماء الورد ينضح ثوبها وطيب هواء فيه مسك وعنبر
وبالجبل الأدنى هناك خُطاً لنا إلى اللهو لا نكبو ولا نتعثر[٣]
جناب بأعلاه بهار ونرجس فأبيض مفتر الثنايا وأصفر[٤]
وموردنا فى قلب فلت كمقلة حذارا علينا من قذى العين تستر
وكم قد هبطنا القاع نذعر وَحْشَه ويا حسنه مستقبلا حين يذعر[٥]
نقود إليه طائعا كلَّ جارح له منخر رحب وخصر مضمر
إذا ما رميناهُ به عبثت به مدلاة الأطراف عنهن تكشر[٦]
تضم لأروى النيق حزَّانَ سهلها وقد فقدت فيها مهاة وجؤذر[٧]
كذاك إلى أن صاح بالقوم صائح وأنذر بالبين المشتت منذر

(١) فى أصل ا « قد نفرنا وينفر » (٢) فى نسخة « ذيل عليه يجره »
(٣) فى ا « لا تكبو ولا تتعثر »
(٤) فى ا « جنان بأعلاه بهار » وفى نسخة « بأعلاها »
(٥) فى ا « تذعر وحشه » (٦) فى نسخة « مذللة الأطراف »
(٧) فى ب « جرذان سهلها »

وفرّقهم أيدى سَـبـاً وأصابهم على غِرة منهم قضاء مقـدر

ونعود إلى حيث كنا من تبدد شمل الجيره ، وطَىِّ بساط الجزيره :

أما شاطبة فكانت من قصبتها شوساء الطرف ، و ببطحائها عروسا فى نهاية الظرف فتخلى عن الذروة مَنْ أخلاها ، وقيل للـكافر : شأنَكَ وأعلاها ، فقبل أن تضع الحرب أوزارها ، كَشَطَ عنها إزارها ، فاستحلَّ الحرمة أو تأوّلها[1] ، وما انتظر أقصر المدة ولا أطولها ، وأما تُدْمير فجاد عِرْدها[2] على الهَصْر ، وأمكنت عَدُوها من القَصْر ، فداجى الـكفر الإيمان ، وناجى الناقوس الأذان ، وما وراءها من الأصقاع التى باض الـكفرُ فيها وفَرَّخ ، وأنزل بها ما أنسى التاريخ ومَنْ أرخ ، فوصفكم على الحادثة فيها أتى ، وفى ضمان القدرة الانتصاف من عدوّ عثا وعَتا[3] ، و إنا لنرجوها كرة تفك البلاد من أسْرِها ، وتجبرها بعد كَسْرها ، و إن كانت الدولة العامرية منعت بالقراع ذِمارها[4] ، ورفعت على اليَفاع[5] نارها ، فهذه العمرية بتلك المنقبة أخلق ، والعدوّ لها أهيب ومنها أفرق ، وما يستوى نسب مع البقل نَبَت ، و بالمستفيض من النقل ما ثَبَت ، وآخرعلت سماؤه على اللمس ، ورَسَا ركنه فى الإسلام رُسُوَّ قواعِده الخمس ، وكان كما قال أبوحنيفة فى خبر المسيح : جاءنا مثل الشمس ، والأيام العمرية هى أم الوقائع المحكية ، ومن شاء عدها من اليرموكية إلى الأركية ، وهذه الأيام الزاهرة هى زبدة حلاوتها ، وسجدة تلاوتها ، و إمامتها العظمى أيدها الله تعالى ، تمهل الـكافر مدة إملائه ، ثم تشفى الإسلام من دائه ، وتطهر الأرض بنجس دمائه ، بفضل الله تعالى ، المرجو زيادة نعمه قبلها وآلائه ،

---

(١) فى نسخة « فاستحل الحرمة وتأولها »

(٢) فى أصل ا « فخار عودها على الحصر »

(٣) عثا ــ بالمثلثة ــ أفسد ، وعتا ــ بالمثناة ــ تجبر وتـكبر

(٤) في ا « منعت بالقراع دمارها » أى حالت دون تخريبها بالحرب

(٥) فى ا « ورفعت على البقاع نارها »

راجعت سيدى مؤديا ما يجب أداؤه ، ومقتديا وما كل أحد يحسُنُ اقتداؤه ، وإنما ناضلت ثُعَليا[١] ، وعهدى بالنضال قديم ، وناظرت جدلياً ، وما عندى للمقال تقديم ، وأطعته فى الجواب ولقريحتى يعلم الله تعالى نكول ، وروِيتى لولا حق المسألة بطير الحوادث المرسلة عَصْفٌ ما كول ، أتم الله تعالى عليه آلاءه ، وحفظ مودته وولاءه ، ومتع بخُلَّته الكريمة أخلاءه ، بمنه ، والسلام ، انتهت الرسالة

ورأيت فى رحلة ابن رشيد لما ذكر أبا المطرف ماصورته : وأما الكتابة فقد كان حامل لوائها ، كما قال بعض أصحابنا : ألان الله تعالى له الكلام ، كما ألان الحديد لداود عليه السلام ، وأخبرنى شيخنا أبو بكر أن شيخه أبا المطرف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فأعطاه حزمة أقلام ، وقال : استعن بهذه على كتابتك ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

رسالة لابن الأبار فى الموضوع

وبعد كتبى لهذه الرسالة رأيت أن أذكر رسالة الحافظ ابن الأبار التى هذه جوابٌ عنها ، وهى من غرض ما نحن فيه فلنقتبس[٢] نور البلاغة منها ، وهى :

سيدى وإن وَجَمَ لها النادى[٣] ، وجمجم بها المنادى ، ذلك لصغرها عن كبره فى المعارف الأعلام ، وصدرها يوغر صدور الصحائف والأقلام ، وأعيذ رَيْحَانَة قريش ، أن تروح من حفيظتها فى جيش ، قد هابتها مَغَاوير كل حى ، وأجابتها الغطاريف من قُصَى ، تدلف بين يديها كتيبة خالد ، وتحلف لا قدحت نار الهيجاء بزَنْد صالد ، أو تنصف من غامطها ، وتقذف به وسط[٤] غُطَامطها ، لا جرم أنى من جريمتى حَذِر ، وعما وضحت به قيمتى للمجد معتذر ، إلا أن يصوح[٥] من

---

(١) ثعليا : منسوبا إلى ثعل ، وهم قوم من العرب اشتهروا بجودة الرمى وإصابة المرمى ، ووقع فى ا « ناضلت تعليا » تحريف

(٢) فى نسخة « فلنقبس »

(٣) فى نسخة « وإن وجم بها النادى » والضمير فى « بها » يعود إلى كلمة « سيدى »

(٤) فى ا « من وسط غطامطها » (٥) فى ا « إلى أن يصوح »

الروض نبتـه وجنَّاته ، ويصرح بالقبول حلمه وأناته ، الحديث عن القديم شُجُون[١] ، والشأن بتقاضى الغريم[٢] شؤن ، فلاغرو أن أطارحه إياه ، وأفاتحه الأمل فى لُقْياه ، ومن لى بمقالة مستقلة ، أو إخالة[٣] غير مُخِلة ، أبت البلاغة إلا عمادها ، ومع ذلك فسأنبىء عمادها[٤] ، درجت اللِّدات[٥] والأتراب ، وخرجت الرومُ بنا إلى حيث الأعراب ، أيام دفعنا لأعظم الأخطار ، وفجعنا بالأوطان والأوطار ، فإلامَ نداري بَرْحَ الألم ، وحتام نسارى النجم فى الظلم ، جمع أوصاب ماله من انفضاض ، ومضض اغتراب شذ عن ابن مُضَاض ، فلو سمع الأول بهذا الحادث ، ما ضرب المثل بالحارث ، يالله من جلاء ليس به يدَان ، وثناء قلما يُسْفر عن تدَان ، وعد الجدّ العاثر لقاءه فأنجز ، ورام الجَلْد الصابر انقضاءه فأعجز ، هؤلاء الأخوَان ، مكنهم لا يمتع به أوان ، و بينهم كَنَبْتِ الأرض ألوان ، بين هائم بالسُّرَى ، ونائم فى الثرى ، من كل صنديد بطل ، أو منطيق غير ذى خطَأ ولا خَطَل ، قامت عليه النوادب ، لما قعدت [به] النوائب ، وهجمت بيوتها لَمَنْعاه الجماجم والذوائب ، وأما الأوطان المحبَّبُ عهدها بحكم الشباب ، المشبَّبُ فيها بمحاسن الأحباب ، فقد ودعنا معاهدها وَدَاعَ الأبد ، وأخنى عليها الذى أخنى على لُبَد ، أسلمها الإسلام ، وانتظمها الانتثار والاصطلام ، حين وقعت أنسُرُهَا الطائرة ، وطلعت أنْحُسُها الغائرة ، فغلب على الجَذَل الحزن ، وذهب مع المسكن السَّكَن :

كزعزع الريح صَكَّ الدوحَ عاصفُها   فلم يَدَع من جَنًى فيها ولا غُصُنِ

وآهاوواها يموت الصـبر بينهما   موت المحامد بين البخل والجبن

---

(١) أخذه من قولهم فى مثل « الحديث ذو شجون »

(٢) فى ا « يتقاضي الغريم » وليس بذاك

(٣) فى نسخة عند ا « أو حالة غير مخلة »

(٤) فى ا « فاستنبىء عمادها »

(٥) فى ا « درجت اللذات والأتراب » تحريف

أين بَلَنْسية ومَغَانيها ، وأغاريد وُرْقِها وأغانيها ، أين حِلَى رُصَافتها وجِسْرِها ، ومنزلا[١] عطائها ونَصْرِها ؟ أين أفياؤها تندى غَضَاره ، وركاؤها[٢] تبدو من خضاره ؟ أين جداوِلها الطفَّاحة وخمائلها ؟ أين جنانُها[٣] النفاحة وشمائلها ؟ شذ ما عطل من قلائد أزهارها نحرُهَا ، وخلعت شعشعانية ضحاها بحيرتُها و بحرُها ، فأية حيلة لا حيلة فى صرفها مع صرف الزمان ، وهل كانت حتى بانت إلا رَوْنَق الحق و بشاشة الإيمان ، ثم لم يلبث داء عقرها ، أن دبَّ إلى جزيرة شقرها ، فأمَرَّ عَذبُها النَّمير ، وذَوَى غُصنها النَّضِير ، وخَرِسَت حمائم أدْوَاحِها ، وركدت نواسم أرواحها ، ومع ذلك اقتحمت[٤] دانيه ، فنزَحَتْ قطوفُها وهى دانيه ، و يا لشاطبة و بطحائها ، من حَيْفِ الأيام و إنحائها ، ولَهفَاه ثم لهفَاه على تُدْمِير و تِلاعها ، وجَيَّان و قِلاعها ، وقرطبة ونوادِيها ، وحمص ووادِيها ، كلها رُعى كَلَؤُهَا ، ودهى بالتفريق والتمزيق مَلَؤُها[٥] ، عض الحصار أكثرها ، وطمس الـكفر[٦] عينها وأثَرَهَا ، وتلك البيرة بصَدَدِ البوار ، ورية فى مثل حَلْقَة السِّوار ، ولا مرية فى المرية وخفضها على الجوار ، إلى بنيات ، لواحق بالأمهات ، ونواطق بهاكِ لأول ناطق بهات ، ما هذا النفخ بالمعمور ؟ أهو النفخ فى الصور ؟ أم النَّفْر عاريا من الحج المبرور ؟ وما لأندلس أصيبت بأشرافها[٧] ، ونُقِصت من أطرافها ؟ قوّض عن صوامعها الأذان ، وصَمَّتْ بالنواقيس فيها الآذان ، أجَنَتْ مالم تَجْنِ الأصقاع ؟ أعَقّتِ الحقّ فخاق بها الإيقاع ؟ كلا بل دانت للسُّنَّة ، وكانت من البدع فى أحسن جُنة ، هذه المروانية مع اشتداد أركانها ، وامتداد سُلْطانها ، ألقت حبَّ آل النبوّة فى حبات القلوب ، وألوت

---

(١) فى أصل ا « ومنزل إعطائها و صرها » وفى نسخة « ومنن لإعطائها » .

(٢) فى أصل ا « وذكاؤها تبدو من خضارة »

(٣) فى ب « أين جنائها » تحريف .

(٤) فى ا « ومع ذلك اقتحمت من الأيام دانية » ولعل أصله « اقتحمت مع الأيام »

(٥) فى ا « كلاها . . . ملاها » (٦) فى ا « وطمس الـكفار »

(٧) فى نسخة « بإسرافها » ولها وجه لا بأس به

ماظفرت من خلعه ولا قلعه بمطلوب ، إلى المرابطة بأقاصى الثغور ، والمحافظة على معالى الأمور ، والركون إلى الهضبة المنيعة ، والروضة المريعة ، من مُعاداة الشيعة ، وموالاة الشريعة ، فليت شعرى بم استوثق تمحيصها ؟ ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها ، اللهم غفراً طالما ضر ضجر ، ومن الأنباء مافيه مُزْدَجَر ، جرى بما لم نُقَدِّره المقدور ، فما عسى أن ينفث به المصدور ؟ وربنا الحكيم العليم ، فحسبنا التفويض له والتسليم ، ويا عجباً لبنى الأصفر أنسيت مَرْجَ الصفر ، ورميها يوم اليرموك بكل أغلب غَضَنْفَر ، دع ذا فالعهد به بعيد ، ومن اتَّعظ بغيره فهو سعيد ، هلا تذكرتِ العامرية وغزواتها ، وهابت العامرية وهبواتها ، أما الجزيرة بخيلها محدقة ، وبأحاديث فتحها مصدقة ، هذا الوقت المرتقب ، والزمان الذى زجيت له الشهور والحِقَب ، وهذه الإمامة[1] أيدها الله تعالى هى المنقذة من أسْرها ، والمنفذة[2] لسلطانها مراسمَ نَصْرها ، فيتاح[3] الأخذ بالثار ، ويُزاح عن الجنة أهل النار ، ويعلم الكافر لمن عُقْبى الدار ، حاورتُ سيدى بمثار الفاجى الفاجع ، وحاولت برء الجوى من جوابه بالعلاج الناجع ، وبودِّى لو تقع فى الأرجاء مُصاقبة ، فترفع من الإزراء معاقبه ، أليس لديه أسْوَاء المكلوم ، وتدارك المظلوم ؟ وبيديه أزِمَّة المنثور والمنظوم ، خيال يخترق فى إقناع إياد ، وصوغ مالم يخطر على قلب زيد ولا بخاطر زياد ، بُسَّت الجبال الطوامح[4] لمابست وأبو فتحها ، وغيضت البحار الطوافح فمن يعبأ بالركايا وَمتْحها[5] ، أين أبو الفضل بن العميد من العماد الفاضل ؟ وصَمْصامة عمرو من قلمه الفاضل[6] ، هذا مِدْرَهُها الذى فعل الأفاعيل ، وأحمدها الذى سما على

---

(١) فى نسخة عند ا «وهذه الأمانة»

(٢) فى أصل ا « والمنقدة لسلطانها » ولعل أصلها « المنقادة لسلطانها »

(٣) فى أصل ا « فيباح الأخذ بالثأر » (٤) فى أصل ا « الجبال الطوافح »

(٥) فى أصل ا « بالركابا وفتحها » تحريف

(٦) فى أصل ا « قلمه الفاصل »

إبراهيم و إسماعيل ، وهما إماما الصناعة ، وهماما البراعة واليراعة ، بهما فَخْرُ من نطق بالضاد ، و بسببهما حسدت الحروفَ الصاد ، لكن دفعهم بالراح ، وأعرى مُدَرَّعهم من المراح ، وشرف دونهم ضعيف القصب على صُمّ الرماح ، أبقاه الله تعالى و بيانه صادق الأنواء ، وزمانه كاذب الأسواء ، ولا زال مكانه مجاوزاً ذُؤابة الجوزاء ، و إحسانه مكافئاً بأحسن الجزاء ، والسلام .

من كلام ابن الأبار

وقد عرفت بابن الأبار فى « أزهار الرياض » بما لا مزيد عليه ، غير أنى رأيت هنا أن أذكر فصولا مجموعة من كلامه فى كتابه المسمى « بدرر السمط ، فى خبر السبط »

قال رحمه الله تعالى : رَحْمَةُ الله و بركاته عليكم أهل البيت ، فروع النبوة والرسالة ، و يَنَابيع السماحة والبسالة ، صفوة آل أبى طالب ، وسَرَاة بنى لؤى بن غالب ، الذين جاءهم [1] الروح الأمين ، وحَلاَّهم الكتابُ المبين ، فقُلْ فى قوم شَرَعُوا الدين القيِّم ، ومنعوا اليتيم أن يقهر والأيِّم ، ما قُدَّ من أديم آدَمَ أطيبُ من أبيهم طينة ، ولا أخذت الأرض أجمل من مساعيهم زينة ، لولا هم ما عُبِدَ الرحمن ، ولا عهد الإيمان ، وعُقِدَ الأمان ، ذؤابة غير أشابة[2] ، فضلهم ما شانه نقص ولا شابه ، سراة محلتهم سر المطلوب ، وقرار[3] محبتهم حَبَّاتُ القلوب ، أذهب الله عنهم الرجس ، وشرف بخلقهم الجنس ، فإن تميزوا فبشريعتهم البيضاء ، أوتحيزوا فلعشيرتهم الحمراء ، من كل يَعْسُوب الكتيبة[4] ، منسوب لنجيب ونجيبه ، نِجَارُهُ الكرم ، وداره الحرم ، نَمَتْه العَرَانين من هاشم أبى النسب[5] الأصرح الأوضح ، إلى نبعة فَرْعُها فى السماء ومغرسها سُرَّة الأبطح ، أولئك السادة أحَيِّي

---

(١) فى أصل ا « حباهم الروح الأمين »

(٢) الأشابة — بضم الهمزة — الأخلاط الذين لا تمايز بينهم ، قال الشاعر :

أولائك قومى لم يكونوا أشابة   وهل يعظ الضليل إلا أولالكا

(٣) فى ا « وقرارة محبتهم »   (٤) فى ا « يعسوب كتيبة »

(٥) فى ا « إلى النسب » تحريف

وأفدى ، والشهادة بحبهم أوفى وأؤدى ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه .

فصل - ما كانت خديجة لتأتى بخِدَاج[١] ، ولا الزهراء لتلد إلا أزاهر كالسِّراج ، مثل النحلة لا تأكل إلا طيباً ، ولا تضع إلا طيبا ، خلدت بنتُ خُوَيْلد ليزكو عقبها من الحاشر العاقب[٢] ، و يَسْمُو مَرْقها على النجم الثاقب ، لم تجُدْ بمثلها المَهَارى ، ولم يلد له غيرها من المهارى ، آمَتْ من بعولتها قبله ، لتصل السعادة بحبلها حَبْله ، مِلاكُ العمل خواتمه ، رُبَّ رَبَّات حِجَال ، أنفذ من فحول رجال .

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التـــذكير فخر للهلال[٣]

هذه خديجة من أخيها حزام أحزم ، ولشعار الصدق من شعارات القص ألزم ، ركنت إلى الركن الشديد ، وسُدِّدَت للهدى كما هديت للتسديد ، يوم نبىء خاتم الأنبياء ، وأنبىء بالنور المنزل عليه والضياء .

فصل - وكان قبيل المبعث بين يدى لم الشعث ، يثابر على كل حسنى وحسنة ، ويجاور شهراً من كل سَنَة ، يتحرى حِراء بالتعهد ، ويزجى تلك المدة فى التعبد ، وذلك الشهر المقصور على التبرر[٤] ، المقدور فيه رفع التضرر ، شهر رمضان ، المنزل فيه القرآن ، فبيناه ، لا ينام قلبه و إن نامت عيناه ، جاءه المَلك مبشراً بالنجح ، وقد كان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح ، فغمره بالـكلاءة ، وأمره بالقراءة ، وكلما تحبس له غَطَّه ثم أرسله ، وإذا أراد الله بعبد خيراً عسله .

تريدين إدراك المعالى رخيصة ولا بدَّ دون الشَّهْد من إبر النحل

كذلك حتى عاذ بالأرق من الفرق ، وقد عَلِق فاتحة العَلَق ، فلا يجرى

---

(١) الخداج — بكسر الخاء — الناقص
(٢) الحاشر العاقب : هو الرسول صلي الله عليه وسلم لأن الناس يحشرون على عقبه
(٣) البيت لأبى الطيب المتنبى فى مرثية أم سيف الدولة
(٤) التبرر : التحنف والتعبد

غيرها على لسانه ، وكأنما كتبت كتابا فى جَنَانه .

فصل ـ ولما أصبح يؤمُّ الأهـل ، وتوسط الجبل يريد السهل ، وقد قضى الأجل ، ومانضا الوجل، نوجِىَ[1] بمافى الكتاب المسطور ، ونودى كما نودى موسى من جانب الطور ، فعرض له فى طريقه ، ما شغله عن فَرِيقه ، فرفع رأسه متأملا ، فأبصر الملك فى صورة رجل متمثلا ، يُشَرِّفه بالنداء ، ويعرفه بالاجتباء[2] ، وإنما عضد خبر الليلة بعيان اليوم ، وأرِىَ فى اليقظة مصداق ما أسمع فى النوم ، ليحق الله الحق بكلماته ، وعلى ماورد فى الأثر ، وسرد رُوَاة السير ، فذلك اليوم كان عيد فطرنا الآن وغير بِدْع ولا بعيد ، أن يبدأ الوحى بعيد كما ختم بعيد (اليوم أكملت لكم دينكم) فبهت عليه السلام لما سمع نداءه ورَاءَه[3] ، وثبت لا يتقدم أمامه ولا يرجع وراءه .

وَقَفَ الهوى بى حيث أنت،فليس لى مُتَقَــدَّم عنــه ولا متأخَّرُ

ثم جعل فى الخوف والرجاء ، لا يقلب وجهه فى السماء ، إلا تعرض له فى تلك الصورة ، وعرض عليه ما أعطاه الله سبحانه من السورة ، فيقف موقف التوكل ، ويمسك حتى عن التأمل .

تتوق إليك النفس ثم أردها حياء ، ومثلى بالحيـاء حقيق
أذود سواد الطرف عنك ، وماله إلى أحـد إلا إليك طريق[4]

فصل ـ وفَطِنَتْ خديجة لاحتباسِهِ ، فأمعنت فى التماسه ، تزوّجوا الودود الولود ، ولفورها بل لفوزها بعثت فى طلبه رُسُلَها ، وانبعثت تأخذ عليه شعاب مكة وسُبُلَها

---

(١) فى ا « نوحى » بالحاء مهملة — تحريف

(٢) الاجتباء : الاصطفاء والاختيار .

(٣) راءه ، هنا بمعنى رآه ، مقلوب منه ، والواو عاطفة ، وفى ا «لماسمعه وراءه»

(٤) فى ا « أذود سوام الطرف »

* إن المحب إذا لم يُسْتَزَرْ زارا *[١]

طال عليها الأمد ، فطار إليها الكمد ، والمحب حقيقه ، من لا يفيق فيقه، بالنفس النفيسة سماحُه وجودُه ، وفى وجود المحبوب الأشرف وجُودُه .

كأن بلاد الله مالم تكن بها وإن كان فيها الخلق طرا بلاقع

أقَضِّى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهمَّ بالليل جامع

نهارى نهار الناس حتى إذا دجى لى الليل هزتنى إليك المضاجع[٢]

لقد نبتت فى القلب منك محبة كما نبتت فى الراحتين الأصابع[٣]

فصل - و بعد لأْيٍ ما ورد عليها ، وقعد مضيفا إليها ، فطفقت بحكم الإجلال تمسح أركانه ، وتفسح مجال السؤال عما خلف له مكانه ، فباح لها بالسر المغيب ، وقد لاح وسم الكرامة على الطيب المطيب ، فعلمت أنه الصادق المصدوق ، وحكمت بأنه السابق لا المسبوق ، اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وما زالت حتى أزالت ما به من الغُمَّة ، وقالت : إنى لأرجو تكون نبى هذه الأمة .

إنى تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم أنْ ما خاننى البَصَرُ

أنت النبىُّ ومَنْ يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر

لا ترهب فسوف تبهر ، وسَيَبْدُو أمْرُ الله تعالى و يظهر ، أنت الذى سجعت به الكهان ، ونزلت له من صوَامعها الرهبان ، وسارت بخبر كرامته الركبان ، أنت الذى ما حَمَلَتْ أخفَّ منه حامل ، ودَرَّتْ ببركته الشاةُ فإذا هى حافل[٤] .

وأنت لما ولدت أشرقت الا أرض وضاءت بنورك الأفق

---

(١) فى ا « إن المحب إذا ما لم يزر زارا »

(٢) حفظى * نهاري نهار الناس حتى إذا بدا *

(٣) فى أصل ا « لقد ثبتت فى القلب منك محبة . . كما ثبتت — إلخ »

(٤) حافل : كثيرة اللبن ، وفى نسخة « جافل » تحريف

فنحن فى ذلك الضياء وفى النور وسُبُلَ الرشاد نخترق

فصل ــ وما لبثت أن غلقت أبوابها ، وجمعت عليها أثوابها ، وانطلقت إلى وَرَقَةَ بن نوفل ، تطلبه بتفسير ذلك المجمل ، وكان يرجع إلى عقل حَصِيف ، ويبحث عمن يُبْعَثُ بالدين الحنيف ، فاستبشر به ناموسا ، وأخبر أنه الذى كان يأتى موسى ، فازدادت إيمانا ، وأقامت على ذلك زَمَانا ، ثم رأت أن خبر الواحد قد يلحقه التفنيد ، ودَرَتْ أن المجتهد لا يجوز له التقليد ، طلبُ العلم فريضة على كل مسلم ، فرجعت أدراجها فى ارتياد الإقناع ، وألقى فى روعها إلقاء الخمار والقناع ، فهناك وَضَحَ لها البرهان ، وصحّ لها أن الآتى مَلَكٌ لا شيطان .

تولى عليه الروح من عند ربه ينزل من جوّ السماء ويرفع

نشاوره فيما نريد وقصدنا إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع

فصل ــ سبقت لها من الله[1] تعالى الحسنى ، فصنعت حَسَناً وقالت حُسْناً ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، مافتر الوحى بعدها ، ولا مطل الحق الحى وعدها ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، دانت لحب ذى الإسلام ، فحياها المَلَكُ بالسّلام ، من الملك السّلام ، مَنْ كان لله كان الله له[2] ، أغنت غناء الأبطال ، فغناها لسان الحال .

هل تذكرين فَدَتْكِ النفسُ مجالسنا يوم التقينا فلم أنطق من الحَصَرِ

لا أرفعُ الطرف حولى من مراقبة بقّى على ، و بعضُ الحزم فى الحذر[3]

يسرت لاحتمال الأذى والنصب ، فبشرت ببيت فى الجنة من قَصَب ، هل أمنت إذ آمنت من الرعب ، حتى غنيت عن الشبع بما[4] فى الشعب .

---

(١) فى أصل ا « سبقت لها عن الله الحسنى » .

(٢) فى نسخة « من كان يؤمن بالله كان الله له » .

(٣) فى نسخة « بغي على ، وبعض الحزم فى الحذر » تحريف

(٤) كلمة « بما » لاتوجد فى ا

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبِرَا

وَاهاً لها احتملت عض الحصار ، وما أطاقت فَقْدَ النبى[١] المختار .

يطول اليوم لا ألقاك فيه   وشهر نلتقى فيه قصير

والحبيبُ سَمْعُ المحبِّ و بصره ، وله طول محياه وقصره .

أنت كل الناس عندى فإذا   غِبْتَ عن عينىَ لم ألق أحد

مكثت للرياسة مواسية وآسية ، فثلثت فى بحبوحة الجنة مريم وآسية ، ثم ربعت البَتُولُ فبرعت ، نطقت بذلك الآثار وصدعت ، خير نساء العالمين أربع .

فصل — إلى البَتُول سِيَر بالشرف التالد ، وسبق[٢] الفخر بالأم الكريمة والوالد حلت[٣] فى الجيل الجليل ، وتحلت بالمجد الأثيل ، ثم تولت إلى الظل الظليل .

وليس يصح فى الأفهام شىء   إذا احتاج النهار إلى دليل[٤]

وأبيها إن أم أبيها ، لا تجد لها شبيها ، نثرة النبى ، وطلبة الوصى ، وذات الشرف المستولى[٥] على الأمدِ القَصِى ، كلٌّ ولدِ الرسول دَرَجَ فى حياته ، وحملت هى ما حملت من آياته ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، لا فرع للشجرة المباركة مِنْ سواها ، فهل جَدْوَى أوفر من جَدْوَاها ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، حفت بالتطهير والتكريم ، وزفت إلى الكفؤ الكريم ، فوردا صفو العارفة والمنه ، وولدَا سيدى شباب أهل الجنة ، عوضت من الأمتعة الفاخرة ، بسيدى الدنيا والآخرة ، ما أثقل نحوها ظهرا ، ولا بذل غير درعه مَهْرًا ، كان صِفْرَ اليدين من البيضاء والصفراء ، و بحالة لاحيلة معها فى إهداء الحلة السِّيَرَاء ، فصاهره الشارع وخالَّهُ ،

---

(١) كلمة « النبى » لاتوجد فى أصل ا

(٢) فى أصل ا « وسيق الفخر »

(٣) فى أصل ا « خلت فى الجيل الجليل »

(٤) فى نسخة « وليس يصح فى الأذهان شىء » وهو المروى فى أصل البيت .

(٥) فى ب « المستوى » .

وقال فى بعض صعلوك لا مال له ، نرفع درجات من نشاء .

فصل :

أتنتهب الأيام أفلاذ أحمد ... وأفلاذَ مَنْ عاداهمُ تتودد[(١)]

ويَضْحَى ويَظْمَا أحمد وبناته ... وبنتُ زِيَادٍ وِردها لا يُصَرَّدُ

أفى دينه فى أمنه فى بلاده ... تضيق عليهم فُسْحَة تتورد

وما الدين إلا دين جَدِّهمُ الذى ... به أصْدَرُوا فى العالمين وأوردوا

انتهى ما سنح لى ذكره من « درر السمط » وهو كتاب غاية فى بابه ، ولم أورد منه غير ما ذكرته ، لأن فى الباقى ما تشم منه رائحة التشيع ، والله سبحانه يسامحه بمنه وكرمه [ولطفه] .

رجع إلى ما كنا بصدده[(٢)] — فنقول : قد ذكرنا فى الباب الثانى رسالة أبى المطرف بن عميرة إلى أبى جعفر بن أمية ، وهى مشتملة على التلهف على الجزيرة الأندلسية ، حين أخذ العدوّ بَلَنْسِيَة ، وظهرت له مخايل الاستيلاء على ما بقى من الأندلس ، فراجِعْهَا فيما سبق ، وإن كان التناسب التام فى ذكرها هنا فالمناسبة هناك حاصلة أيضاً ، والله سبحانه الموفق .

وذكرنا هنالك أيضاً جملة غيرها من كلامه ـ رحمه الله تعالى ! ـ تتعلق بهذا المعنى وغيره ، فلتراجع ثَمَّةَ .

ورأيت أن أثبت هنا ما رأيته بخط الأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبى عبد الله محمد بن الحداد الوادى آشى نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ما صورته :

---

(١) فى نسخة « وأفلاذ من عاداهم تتورد » تحريف

(٢) فى أصل ا « رجع إلى ما كنا بسبيله »

حدثنى الفقيه العدل سيدى حسن بن القائد الزعيم الأفضل سيدى إبراهيم العراف أنه حضر مرة لإنزال الطِّلَّسْم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة من غرْناطة بسبب البناء والإصلاح ، وأنه عاينه من سبعة معادن مكتوبا فيه :

إيوان غرناطة الغرّاء معتبر طِلَّسْمُه بولاة الحال دوار
وفارس روحه ريح تدبره من الجماد ، ولكن فيه أسرار
فسوف يبقى قليلا ثم تطرقه دَهْيَاء يخرب منها الملك والدار

وقد صدق قائل هذه الأبيات ، فإنه طرقت الدهياء ذلك القطر الذى ليس له فى الحسن مثال ، ونَسَلَ(١) الخطب إليه من كل حَدَب وانْثَال (١) ، وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه ، ومُقَدَّميه وقضاته وأمرائه ووزرائه ، فكلّ يرومُ الرياسة لنفسه ، ويجر نارَهَا لقرصه ، والنصارى ـ لعنهم الله تعالى ! ـ يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد ، ويضربون عَمْراً منهم بزَيْد ، حتى تمكنوا من أخذ البلاد ، والاستيلاء على الطارف والتلاد ، قال الرأس القاضى العلامة الكاتب الوزير أبو يحيى بن عاصم رحمه الله تعالى فى كتابه « جنة الرضا ، فى التسليم لما قدر الله تعالى وقضى » ما صورة محل الحاجة منه : ومَن استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبارَ الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى ـ دمرهم الله تعالى ! ـ لم يدركوا فى المسلمين ثارا ، ولم يرحضوا (٢) عن أنفسهم عارا ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارا ، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصارا ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم فى وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف ، وتضريبهم بالمكر والخديعـــة بين ملوك الجزيرة ، وتحريشهم بالكيد والخِلَابة

---

(١) نسل الخطب إليه : سارع إليه ، وانثال : تواتر وتوارد وكثر ، ووقع فى أصل ا « من كل حدب وانتثال » تحريف

(٢) لم يرحضوا : لم يغسلوا العار عن أنفسهم ، وفى نسخة « لم يرخصوا » وفى ب « ولم يدحضوا »

بين حُماتها فى الفتن المُبيرة[١] ، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة ، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة ، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة ، فالحرب إذ ذاك سِجَال ، ولله تعالى فى إقامة الجهاد فى سبيله رجال ، وللممانعة فى غرض المدافعة ميدان رَحْب ومَجَال ، وروية وارتجال .

إلى أن قال : وتطاولت الأيام ما بين مُهَادنة ومقاطعة ، ومضاربة ومقارعة ، ومنازلة ومنازعة ، وموافقة[٢] وممانعة ، ومحاربة وموادعة ، ولا أمَل للطاغية إلا فى التمرس بالإسلام والمسلمين ، وإعمال الحيلة على المؤمنين ، وإضمار المكيدة للموحِّدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ، وهو يظهر أنه ساعٍ للوطن فى العاقبة الحسنى ، وأنه مُنْطَوٍ لأهله على المقصد الأسنى ، ومهتم بمراعاة أمورهم ، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجُمْهُورهم ، وهو يُسِرُّ حَسْواً فى ارتغائه[٣] ، ويُعْمل الحيلة فى التماس هُلْك الوطن وابتغائه ، فتبًّا لعقول تقبل مثل هذا المحال ، وتصدق هذا الكذب بوَجْهٍ أو بحال ، وليت المغرور الذى يقبل هذا لو فكر فى نفسه ، وعرض هذا المسموع على مدركات حِسِّه ، وراجع أوَّلِيَّاتِ عقله وتجربيات حَدْسِه[٤] ، وقاس عدوه الذى لا ترجى مودته على أبناء جنسه ، فأنا أناشده الله هل بات قط بمصالح النصارى وسلطانهم مهتما ، وأصبح من خطبٍ طَرَقَهم مغتما ، ونظر لهم نظر المفكر فى العاقبة الحسنة ، أو قصد لهم قصد المدبر فى المعيشة المستحسنة ، أو خطر على قلبه أن يحفظ فى سبيل القربة أربابهم وصُلْبَانهم ، أو عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أحبارهم ورُهْبَانهم ، فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث ،

---

(١) المبيرة : المهلكة ، أباره يبيره : أى أهلكه يهلكه

(٢) فى نسخة « مرافقة » وفى أخرى « وموافقة وممانعة » وليسا بشىء

(٣) هذا من مثل أصله « يسر حسواً فى ارتغاء » يضرب لمن يأخذ الكثير وهو يظهر الاكتفاء بالقليل

(٤) فى أصل ا « وتجريبات حدسه »

ولم يُشْرَبْ قلبُه حبُ التثليث ، ويكون صادق اللهجة ، منصفا عند قيام الحجة ، فسيعترف أن ذلك لم يخطر له قط على خاطر ولا مر له ببال ، وأن عكس ذلك هو الذى كان به ذا اغتباط وبفعله ذا اهتبال ، وإن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبال ، وأشد على قلبه من وقع النبال ، هـذا وعقده التوحيد ، وصلاته التحميد ، وملته الغراء ، وشريعته البيضاء ، ودينه الحنيف القويم ، ونبيه الرؤف الرحيم ، وكتابه القرآن الحكيم ، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم ، فكيف نعتقد[1] هذه المريبة الكبرى ، والمنقبة الشهرى ، لمن عقده التثليث ، ودينه المليث ، ومعبوده الصليب ، وتسميته التصليب ، وملته المنسوخة ، وقضيته المفسوخة ، وختانه التغطيس[2] ، وغافر ذنبه القِسِّيس ، وربه عيسى المسيح ، ورأيه ليس[3] البيِّن ولا الصحيح ، وأن ذلك الرب قد ضُرِّجَ بالدماء ، وسقى الخل عوض الماء ، وأن اليهود قتلته مصلوبا ، وأدركته مطلوبا ، وقهرته مغلوبا ، وأنه جزع من الموت وخاف ، إلى سوى ذلك مما يناسب هذه الأقاويل السِّخاف ، فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة ، من الخير مقدار الذرّه ، أو يطمع منهم فى جلب المنفعةِ أودفع المضرة ؟ اللهم احْفَظْ علينا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتدين .

ثم قال بعد كلام ما صورته : كانت خزانة هذه الدار النَّصْرِيَّة مشتملةً على كل نفيسة من الياقوت ، ويتيمة من الجوهر ، وفريدة من الزمرد ، وثمينة من الفيروزج ، وعلى كل واقٍ[4] من الدروع ، وحام من العدّة ، وماض من الأسلحة ، وفاخر من الآلة ، ونادر من الأمتعة ، فمن عقود فذة[5] ، وسلوك جمة ، وأقراط

---

(١) فى نسخة « فكيف تعتمد » (٢) فى ب « وختامه التغطيس »

(٣) فى أصل ا « ونظره ليس البين »

(٤) واق : حافظ ، اسم فاعل من الوقاية

(٥) فذة : يريد عديمة النظير ، وفى أصل ا « قدة » وفي نسخة عندها « عدة »

تفضل على قُرْطَىْ مارِيَة نفاسةً فائقة وحسنا رائقا ، ومن سيوف شواذ فى الإبداع(١) غرائب فى الإعجاب ، منسوبات الصفائح فى الطبع ، خالصات الحلى من التبر ، ومن دروع مقدّرة السَّرْد ، متلاحمة النسج ، واقية للناس(٢) فى يوم الحرب ، مشهورة النسبة إلى داود نبى الله(٣) ، ومن جَوَاشِنَ سابغة اللبسة ، ذهبية الحلية ، هندية الضرب ، ديباجية الثوب ، ومن بيضات عسجدية الطرق(٤) ، جوهرية التنضيد ، زبرجدية التقسيم ، ياقوتية المركز ، ومن مناطق لُجَيْنية الصَّوْغ ، عريضة الشكل ، مزججة الصفح ، ومن دَرَق لمطية ، مصمتة المسام ، لينة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ، ومن قِسِيّ ناصعة الصبغة(٥) ، هلالية الخِلْقة ، منعطفة الجوانب ، زارية بالحواجب ، إلى آلات فاخرة من أوتار نحاسية ، ومنابر بلورية ، وطيافير دمشقية ، وسبحات زجاجية ، وصحاف صينية ، وأكواب عراقية ، وأقداح طباشيرية ، وسوى ذلك مما لا يحيط به الوصف ، ولا يستوفيه العد ، وكل ذلك التهبه شُوَاظ الفتنة ، والتقمه تيار الخلاف والفرقة ، فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله ، وتقصر ديار الملوك المؤثلة النعمة عن بعضه فضلا عن كله ، انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

رجع ــ ولما أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطُلَيْطلة ومُرْسِية وغيرها انحاز أهلُ الإسلام إلى غَرْناطة والمرية ومالقة ونحوها ، وضاق الملك بعد اتساعه ، وصار تنين العدوّ يلتقم كل وقت بلدا أو حصنا ، ويهصر من دَوْح تلك البلاد غُصْنا ، وملك هذا النزرَ اليسيرَ الباقىَ من الجزيرة ملوكُ بنى الأحمر ، فلم يزالوا مع العدوّ فى تعب وممارسة كما ذكره ابن عاصم قريبا ، وربما أثخنوا فى الكفار

(١) فى ب « بالإبداع »

(٢) فى نسخة « وافية للناس »

(٣) ينسب إلى داود نبي الله عليه الصلاة والسلام عمل الدروع ، وذكر ذلك في القرآن الكريم في نحو قوله تعالى : (أن اعمل سابغات وقدر فى السرد)

(٤) فى ا « عسجدية الطوق »

(٥) فى نسخة « ناصعة الصنعة »

كما علم فى أخبارهم ، وانتصروا بملوك فاس بنى مَرِين ، فى بعض الأحايين .

ولما قصد ملوك الإفرنج السبعة فى المائة الثامنة غَرْنَاطة ليأخذوها اتفق أهلُها على أن يبعثوا لصاحِب المغرب من بنى مَرِين يستنجدونه ، وعينوا للرسالة الشيخ أبا إسحاق بن أبى العاصى والشيخ أباعبدالله الطنجالى والشيخ ابن الزيات البلشى [(١)] نفع الله تعالى بهم ! ثم بعدسفرهم نازل الإفرنج غَرْنَاطة بخمسة وثلاثين ألف فارس ونحو مائة ألف راجل مقاتل ، ولم يوافقهم سلطانُ المغرب ، فقضى الله تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أن كُسِرَ النصارى فى الساعة التى كسر خواطِرَهُم فيها صاحبُ المغرب [(٢)] ، وظهرت فى ذلك كرامة لسيدى أبى عبد الله الطنجالى رحمه الله تعالى ! .

ثم إن بنى الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفار على الجل كانوا فى جهاد وجِلاد فى غالب أوقاتهم ، ولم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتهم الهرمُ الذى يلحق الدول ، فلما كان زمانُ السلطان أبى الحسن على بن سعد النَّصْرِى الغالبى الأحمرى ، واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبد الله محمد ابن سعد المدعوّ بالزَّغَل [(٣)] قد بويع بمالقة ، بعد أن جاء به [بعض] القوّاد من عند النصارى وبقى بمالقة برهة من الزمان ، ثم ذهب إلى أخيه ، وبقى مَنْ بمالقة من القوّاد [(٤)] والرؤساء فَوْضَى ، وآل الحالُ إلى أن قامت مالقة بدعوة السلطان أبى الحسن ، وانقضت الفتنة ، واستقل السلطانُ أبو الحسن بملك ما بقى بيد المسلمين من بلاد الأندلس ، وجاهد المشركين ، وافتتح

---

(١) فى نسخة عند ا « البلنشى »

(٢) فى ا « ملك المغرب »

(٣) فى نسخة « المدعو بالرغل » تحريف

(٤) فى ا « من الرؤساء والقواد »

عدّة أماكن ، ولاحت له بارقة الكرة على العدوّ الكافر ، وخافوه ، وطلبوا هُدْنته ، وكثرت جيوشه ، فأجمع على عرضها كلها بين يديه ، وأعدّ لذلك مجلسا أقيم له بناؤه خارج الحمراء قلعة غَرْناطة ، وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر الحجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة ، ولم تزل الجنود تعرض عليه كل يوم إلى الثانى والعشرين من محرم السنة التى تليها ، وهو يوم ختام العرض ، وكان معظم المتنزهين والمتفرجين بالسبيكة[1] وماقارب ذلك ، فبعث الله تعالى سَيْلاً عَرِماً على وادى حدرة بحجارة وماء غزير كأفواه القرب ، عقاباً من الله سبحانه وتأديبا لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر ، واحتمل الوادى ما على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعاصر وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق ، و بلغ تيار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم ، ولم يسمع بمثل هذا السيل فى تلك البلاد ، وكان بين رؤساء الإفرنج فى ذلك الوقت اختلاف ، فبعضهم استقل بملك قرطبة ، و بعض بإشبيلية ، وبعض بشَرِيش ، وعلى ذلك كان صاحب غَرْنَاطة السلطان أبو الحسن قد استرسل فى اللذات ، وركن إلى الراحات ، وأضاع الأجناد ، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورَفَضَ الجهاد والنظر فى الملك ، ليقضى الله تعالى ماشاء ، وكثرت المظالم والمغارم[2] ، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه ، وكان أيضا قد قتل كبار القوّاد وهو يظن أن النصارى لا يغزون بعد[3] البلاد ، ولا تنقضى بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد ، واتفق أن صاحب قَشْتالة تغلب على بلادها بعد حروب ، وانقادله رؤساء الشرك المخالفون ، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد ، والطريق

---

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى نسخة عند ا « بالسبيكية » وفى أخرى « بالسبكية »

(٢) فى ا « وكثرت المغارم والمظالم »

(٣) فى نسخة « لا يغزون بعد ذلك البلاد » وفى أخرى « لايغزون بعض البلاد »

إلى الاستيلاء على البلاد ، وذلك أنه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من بنت عمه السلطانِ أبي عبد الله الأيسر ، وكان قد اصطفى على أمهما رومية كان لها منه بعض ذرية ، وكانت حَظِية عنده مقدمة في كل قضية ، فخيف أن يقدم أولاد الرومية ، على أولاد بنت عمه السنية ، وحدث بين خدّام الدولة التنافر والتعصب ، لميل بعضهم إلى أولاد الحرة ، و بعض إلى أولاد الرومية ، وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمدٍ حدّوه وضربوه ، ولما تم أمدُ الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الأولاد ، وتشكى الناسُ مع ذلك بالوزراء[1] والعمال لسوء ماعاملوا به الناس من الحيف والجور ، فلم يُصْغ إليهم ، وكثر الخلاف واشتدّ الخطب ، وطلب الناسُ تأخير الوزير ، وتفاقم الأمر ، وصح عند النصارى — لعنهم الله تعالى ! — ضَعْفُ الدولة واختلاف القلوب، فبادروا إلى الحامة[2] فأخذوها غدرا آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، وغدوا للقلعة ، وتحصنوا بها ، ثم شرعوا في أخذ البلد ، فملئوا الطرق خَيْلاً ورجالا، وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ، ونهبوا الحريم ، والناسُ في غفلة نيام من غير استعداد كالسكارى ، فقتل من قضى الله تعالى بتمام أجله ، وهرب البعض، وترك أولادهُ وحريمه ، واحتوى العدوّ على البلد بمافيه ، وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عند ما بلغهم العلم ، وكان النصارى عشرة آلاف بين ماش وفارس ، وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه ، وإذا بالسرعان من أهل غَرْنَاطة وصلوا ، فرجع العدو إلى البلد ، فحاصرهم المسلمون ، وشدّدوا في ذلك ، ثم تكاثر المسلمون

---

(١) في نسخة « بعد ذلك بالوزير » وفي أصل ا « مع ذلك بالوزير » وتمام الكلام يؤيد أن أصل الكلام « وتشكى الناس مع ذلك للوزير العمال لسوء ما عاملوا — إلخ » أو « وتشكى الناس الوزير والعمال — إلخ »

(٢) في ا « وبادروا إلى الحمة » هنا ، ولكن ذكر فيها فيما بعد بلفظ « الحامة » مكرراً

خيلا ورجالا من جميــــع بلاد الأندلس ، ونازلوا الحامة ، وطمعوا فى منع الماء عن العـدوّ ، وتبين للعامة أن الجنـد لم ينصحوا ، فأطلقوا ألسنتهم بأقبـح الـكلام فيهم وفى الوزير ، وبينما هم كذلك وإذا بالنـذير جاء أن النصارى أقبـلوا فى جميع عظـيم لإغاثة من بالحـامة من النصارى ، فأقلع جندُ المسلمين من الحامة ، وقصدوا ملاقاة الواردين من [بلاد] العدو ، ولما علم بهم العـدو وَلَّوا الأدبار من غـير ملاقاة محتجين بقلتهم (١) ، وكان رئيسهم (٢) صاحب قرطبة .

ثم إن صاحب إشبيلية جمع جنداً عظيما من جيش النصارى الفرسان والرجالة (٣) ، وأتى لنصرة من فى الحامة من النصارى ، وعند ماصح هذا عند العسكر اجتمعوا ، وأشاعوا عند الناس (٤) أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد ، والصلاحُ الرجوعُ إلى غَرْناَطة ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج إليه الحصار من العدة والعدد ، فعندما أقلع المسلمون عنهـا دخلتها (٥) النصارى الواردون ، وتشاوروا فى إخلائها أو سكناها ، واتفقوا على الإقامة بهـا ، وحصنوها ، وجعلوا فيها [جميع] ما يحتاج إليه ، وانصرف صاحب إشبيلية ، وترك أجناده ، وفرق فيهم الأموال ، ثم عاد المسلمون لحصارها ، وضيقوا عليها ، وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى فى غفلة عنه ، ودخل على النصارى (٦) جملة وافرة من المسلمين ، وخاب السعد بذلك بأن شَعَرَ بهم النصارى ، فعادوا عليهم ، وتردَّى بعضُهم من أعلى الجبل ، وقتل أكثرهم ، وكانوا من أهل بَسْطة ووادى آش ، فانقطع أملُ الناس من الحامة ، ووقع الإياس من ردها .

---

(١) فى أصل ا « محتجين بقتلهم »
(٢) فى ا « وكان رائسهم »
(٣) فى ب « من الفرسان والرجال »
(٤) فى ا « عن الناس »
(٥) فى ا « دخلها النصارى »
(٦) فى ا « ودخل مع النصارى »

وفى جمادى الأولى من السنة تواترت الأخبار أن صاحب قَشْتَالة أتى فى جنود لا تُحْصَى ولا تحصر ، فاجتمع الناسُ بغَرْنَاطة ، وتكلموا فى ذلك ، وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصداً أن يضيفها إلى الحامة ، وجاء بالعدة والعدد ، وأغارت على النصارى جملة من المسلمين ، فقتلوا مَنْ لحقوه ، وأخذوا جملة من المدافع الكبار ، ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غَرْنَاطة ، وناوشوا[1] النصارى ، فألجؤهم إلى الخروج عن الخيام ، وأخذوها وغيرها[2] ، فهرب النصارى ، وتركوا طعاما كثيراً وآلة ثقيلة ، وذلك فى السابع والعشرين من جمادى الأولى من السنة [المذكورة] .

وفى هـذا اليوم بعينه هرب الأميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفا من أبيهما أن يفتك بهما بإشارة حَظِيته الرومية ثُرَيَّا[3] ، واستقرا بوادى آش ، وقامت بدعوتهما ، ثم بايعتهما تلك البلاد المرية و بَسْطة وغَرْناطة ، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة .

وفى صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع جميعُ رؤساء النصارى ، وقصدوا قرى مالقة و بلش ، فى نحو الثمانية آلاف ، وفيهم صاحب إشبيلية وصاحب شَريش وصاحب إستجة وصاحب أنتقيرة[4] وغيرهم ، فلم يتمكنوا من أخذ حصن ، ونشبوا فى أوعار ومضايق وخنادق وجبال ، واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة ، وصار المسلمون ينالون منهم فى كل محل ، حتى بلغوا مالقة ، ففر كبيرهم ، ومَنْ بقى أسر أو قتل ، وكان السلطان أبو الحسن فى ذلك الوقت قد تحرك لنواحى المنكب ، و بقى أخوه أبو عبد الله بمالقة ومعه بعض الجند ، وقتل من النصارى فى

---

(١) فى ا « وفارشوا النصارى » تحريف

(٢) فى ا زيادة كلمة « وقتلوا » بعد « وغيرها »

(٣) فى نسخة عند ا « تشربا »

(٤) كذا فى ا ، وفى ب « النقيرة » وفى نسخة « أشقيرة »

هذه الوقعة نحو ثلاثة آلاف ، وأسر نحو ألفين من جملتها خالُ السلطان وصاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب أنتقيرة[١] وغيرهم، وهم نحو الثلاثين من الأكابر، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة ، و بعقب ذلك سافر أهل مالقة لبلاد النصارى، فكسروا هنالك كسرة شنيعة قُتل فيها أكثر قواد غرب الأندلس .

ولما استقر السلطان أبو عبد الله ابن السلطان أبى الحسن بغَرْناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية تحرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها ، وأتى ابنُه السلطان أبو عبد الله فى جند غَرْناطة والجهة الشرقية ، والتقوا فى موضع يعرف بالدب ، فكسر السلطان أبو عبد الله .

ولما سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بأن عمه بمالقة غنم من النصارى أعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غَرْناطة والشرقية ، وذلك فى ربيع الأول من السنة ، إلى أن بلغ نواحى لشانة ، وقتل وأسر وغنم ، فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحى ومعه كبير قَبْرة[٢] ، وحالوا بين المسلمين و بلادهم فى جبال وأوعار ، فانكسر الجند ، وأسر من الناس كثير وقتل آخرون ، وكان فى جملة من أسر السلطان أبو عبد الله ، ولم يعرف ، ثم علم به صاحب لشانة ، وأراد صاحب قَبْرة أن يأخذه منه ، فهرب به ليلا ، و بلغه إلى صاحب قَشْتَالة ، ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد ، وتفاءل به ، فقلما توجه لجهة أو بعث سَرِيَّةً إلا و بعثه فيها .

---

(١) فى ب « النقيرة » وانظر الهامشة ٤ فى الصحيفة السابقة

(٢) فى نسخة « كبير قرة » تحريف ، وفى ياقوت « قبرة ــ بلفظ تأنيث القبر ، أظنها أعجمية رومية ــ وهى كورة من أعمال الأندلس تتصل بأعمال قرطبة من قبليها » اهـ

ولما أسر السلطان أبو عبدالله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الأندلس ، وذهبوا لمالقة للسلطان أبى الحسن ، وذهبوا به لغرناطة ، وبايعوه ، مع أنه كان أصابه مثل الصَّرْع إلى أن ذهب بصره ، وأصابه ضرر ، ولما تعذر أمره قدم أخاه أبا عبد الله ، وخلع له نفسه ، ونزل بالمنكب ، فأقام بها إلى أن مات ، واستقل أخوه أبو عبد الله المعروف بالزَّغَلِ بالملك بعده .

وأما أبو عبد الله ابن السلطان أبى الحسن فهو فى أسْرِ العدو .

وفى شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو فى قوة إلى نواحى مالقة ، بعد أن كان فى السنة قبلها استولى على حصون ، فاستولى هذه السنة على بعض الحصون ، وقصد [1] ذكوان ، فهد أسوارها ، وكان بها جملة من أهل الغربية ، ورُنْدَة ، ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة ، فأظفر [2] الله تعالى بهم أهلَ ذكوان ، فقتلوهم جميعاً ، ثم طلبوا الأمان وخرجوا .

ثم انتقل فى جمادى الأولى إلى رُنْدَة وحاصرها ، وكان أهلها خرجوا إلى نصرة ذكوان وسواها ، فحاصر رندة وهدّ أسوارها ، وخرج أهلها على الأمان ، وطاعت له جميع تلك البلاد ، ولم يبق بغربى مالقة إلا مَنْ دخل فى طاعة الكافر وتحت ذِمته ، وضيق بمالقة ، وفرق حصصه [3] على بعض الحصون ليحاصر[وا] مالقة ، وعاد إلى بلاده .

وفى تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحبُ غرناطة لتحصين بعض البلاد ، وبينما هو كذلك إذا بالخبر جاءه أن محلة العدو خارجة لذلك الحصن .

---

(١) فى أصل ا « وقفل ذكران » وفى نسخة عندها « زكوان »

(٢) فى نسخة « فأظهر الله »

(٣) فى أصل ا « وفرق جيشه »

وفى صبيحة الثانى والعشرين من شعبان أصبحت جنودُ النصارى على الحصن ، كانوا قد سَرَوْا [١] إليه ليلا ، وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين ، فقاتلهم المسلمون من غير تعبية [٢] ، فاختل نظامُ المسلمين ، ووصل النصارى إلى خباء السلطان ، ثم التحم القتال واشتد ، وقوّى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شرّ هزيمة ، وقُتِل منهم خلائق ، وقصر المسلمون خوفا من محلة سلطان النصارى إذ كانت قادمة فى أثر هذه ، ولما رجعت إليهم الفُلُول [٣] رجعوا القَهْقَرى ، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات ، وجعلوا ذلك كله بالحصن [٤] ، ولم يحدث شىء بعد إلى رمضان ، فتوجه الكافر لحصن قنبيل [٥] ونازله وهدأسواره ، ولما رأى المسلمون أن الحصن قد دُخِلَ طلبوا الأمان ، وخرجوا بأموالهم وأولادهم مؤمنين ، وفر الناس من تلك المواضع من البراجلة هاربين ، واستولى العدو على عدة حصون مثل مشاقر وحصن اللوز ، وضيق العدو بجميع بلاد المسلمين ، ولم يتوجه لناحية إلا استأصلها ، ولا قَصَدَ جهة إلا أطاعته وحصلها ، ثم إن العدوّ دَبَّر الحيلة مع ما هو عليه من القوة ، فبعث إلى السلطان أبى عبد الله الذى تحت أسره وكساه ووعده بكل ما يتمناه ، وصرفه لشرقى بَسْطة ، وأعطاه المال والرجال ، ووعده أن مَنْ دخل تحت حكمه من المسلمين وبايعه من أهل البلاد فإنه فى الهدنة والصلح والعهد والميثاق الواقع بين السلاطين [٦] ، وخرج لبلش فأطاعه أهلها ، ودخلت بلش فى طاعته ، ونودى بالصلح فى الأسواق ، وصرخت به فى تلك البلاد الشياطين ، وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين من غَرْنَاطة ، وكانوا من التعصب وحمية

---

(١) فى أصل ا « أسروا إليه ليلا »

(٢) تعبئة : إعداد وتنظيم للجيش

(٣) الفلول : جمع فل ، وهم المنهزمون

(٤) فى ا « فى الحصن » وفى نسخة عندها « وفعلوا ذلك كله فى الحصن »

(٥) فى ب « قبيل » وفى نسخة عند ا « قبنيل »

(٦) فى ا « بين السلطانين »

الجاهلية والجهل بالمقام الذى لايخفى، وتبعهم بعضُ المفسدين المحبين تفريقَ[١] كلمة المسلمين ، وممن مال إلى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة ، ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماسرتها بتقبيحٍ وتحسينٍ ، إلى أن قام رَبَضُ البيازين بدعوة السلطان الذى كان مأسورا عند المشركين ، ووقعت فتنة عظيمة فى غرناطة نفسها بين المسلمين لما أراده الله تعالى من استيلاء العدو على تلك الأقطار ، ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة ، وعظم الخطب ، وكانت الثورة ثالث شهر ربيع الأول عام أحد وتسعين وثمانمائة ، ودامت الفتنة إلى منتصف جمادى الأولى من العام ، وبلغ الخبر أن السلطان الذى قاموا بدعوته قدم على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزَّغَل صاحب قلعة غرناطة ، بأن العم يكون له الملك ، وابن أخيه تحت إيالته بلوشة أو بأى المواضع أحب ، ويكونون يداً واحدة على عدوّ الدين ، وبينما هم كذلك[٢] إذا بصاحب قَشْتَالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعَدَد وعُدَد ، ونازل لوشة حيث السلطان أبو عبد الله الذى كان أسيرا ، وضيق عليها[٣] الحصار ، وقد كان دخلها جماعة من أهل البيازين بنية الجهاد ولمعاضدة وليهم ، وخاف أهلُ غرناطة وسواها من أن يكون ذلك حيلة ، فلم يأت لنصرتهم غير البيازين ، واشتد عليهم الحصار ، وكثرت الأقاويل، وصرحت[٤] الألسن بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة ، ودخل على أهل لوشة فى رَبَضهم ، وخافوا من الاستئصال ، فطلبوا الأمان فى أموالهم وأنفسهم وأهليهم ، فوفى لهم صاحبُ قشتالة بذلك ، وأخذ البلد فى السادس والعشرين لجمادى الأولى

---

(١) فى أصل ا « المحبين فى تفريق كلمة المسلمين »

(٢) فى ا « وبينما هم فى هذا »

(٣) فى ا « وضيق بها الحصار »

(٤) فى نسخة « وصرخت الألسن أن ذلك »

سنة إحدى وتسعين [وثمانمائة] ، وهى ـ أعنى لوشة ـ كانت بلد سلف الوزير لسان الدين ابن الخطيب ، كما ذكرناه مستوفى فى غير هذا الموضع ، وهاجر أهلُ لوشة إلى غرناطة ، وبقى السلطان أبو عبد الله الذى كان مأسوراً مع النصرانى بلوشة ، فصرح عند[1] ذلك أهلُ غرناطة بأنه ماجاء للوشة إلا ليُدْخِلَ إليها العدو الكافر ، ويجعلها فداء له ، وقيل : إنه سَرَّحَ له[2] حينئذ ابنه إذ كان مرهونا فى الفداء ، وكثر القيل والقال بينهم وبين أهل البيازين فى ذلك ، وظهر بذلك ما كان كامناً فى القلوب ، ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور .

وفى نصف جمادى الثانية خرج إلى البيرة فهد بعض الأسوار ، وتوعد الناس ، فأعطاه أهلُه الحصنَ على الأمان ، فخرجوا وقدموا على غرناطة ، ثم فعل بحصن التلين[3] مثل ذلك ، وقاتلوا قتالا شديداً ، ولما ضاقوا ذَرْعاً أعطوه بالمقادة على الأمان ، فخرجوا إلى غرناطة وأطاع أهل قلنبيرة[4] من غير قتال ، فخرجوا إلى غرناطة ثم وصل العدو إلى مُنْتَ فريد[5] ، فرمى عليهم بالمحرقات وغيرها ، وأحرق دار العدة ، فطلبوا الأمان وخرجوا إلى غرناطة ، وانتقل للصخرة فأخذها ، وحصَّن هذه الحصون كلها ، وشحنها بالرجال والعدة ، ورتب فيها الخيل لمحاصرة غَرْنَاطة ، ثم عاد الكافر لبلاده ، وتعاهد مع السلطان الذى فى أسره بأن من دخل فى حكمه وتحت أمره فهو فى الأمان التام ، وأشاعوا أن ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب إفرنسية ، فخرج لبلش وأطاعته ، ثم بعث لمن والاه من البلاد أنه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق ، وأن مَنْ دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى

---

(١) فى نسخة « فصرخ عند ذلك » (٢) سرحه له : أطلقه

(٣) كذا فى ب ، وفى أصل ا ونسخة عند ب « المثلين » وفى نسخة عند ا « الملتين » وفى أخرى « إشلين » وفى ثالثة « المتلين » .

(٤) فى نسخة « قلنبوه » (٥) فى ب « متن فريد »

عليه ، وأن معه وثائق بخطوط السلاطين ، فلم يقبل الناس ذلك ، إلا القليل منهم مثل أهل البيازين ، فلهجوا بهذا الصلح ، وأقاموا على صحته الدلائل ، وتكلموا فى أهل غرناطة بالكلام القبيح ، مع تمكن الفتنة والعداوة فى القلوب ، فبعث له أهل البيازين أنه إذا قدم بهذه الحجج لتلك الجهات اتبعه الناس ، وقاموا بدعوته من غير التباس ، فأتى على حين غفلة ، ولم يكن يظن إتيانه بنفسه ، فأتى البيازين ودخلها ونادى فى أسواقها بالصلح التام الصحيح ، فلم يقبل ذلك منه أهل غرناطة ، وقالوا : ما بعهد لوشة من قِدَم ، ودَخَل رَبَضَ البيازين بالرجال سادس شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة ، وعمه بالحمراء ، وانتقل للقلعة ، واشتد أمر الفتنة ، ثم إن صاحب قشتالة أمَدَّ صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها ، واشتد أمره بذلك ، وعظمت أسباب الفتنة ، وفشا فى الناس القتل والنهب ، ولم يزل الأمر كذلك إلى السابع والعشرين من محرم سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، فعزم أهل غرناطة مع سلطانهم على الدخول على البيازين عَنْوَة ، وتكلم أهل العلم[1] فيمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعته ، ومن أطاعه عصى الله ورسوله ، ودخلوا على أهل البيازين دخول فَشَل ، ثم أن صاحب غرناطة بعث إلى الأجناد والقواد من أهل بسطة ووادى آش والمرية والمنكب و بلش ومالقة وجميع الأقطار[2] ، وتجمعوا بغرناطة ، وتعاهدوا ، وتحالفوا على أن يدهم واحدة على أعداء الدين ، ونصرة من قصده العدوّ من المسلمين ، وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة فى ذلك فخرج بمحلته[3] قاصداً نواحى بلش ، وكان صاحب

---

(١) يريد أنهم استفتوا العلماء ليفتوهم بتحريم معاونة النصارى والسكون معهم ووجوب مدافعتهم كما هو حكم الشرع .

(٢) فى أصل ا « وجميع الأنظار » تحريف

(٣) فى أصل ا « بمحلمته » تحريف

البيازين بعث وزيره إلى ناحية مالقة و إلى حصن المنشأة يذكر و يخوف ، ومعه النسخة من عقود الصلح ، فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته ، ودخلوا فى إيالته خوفا من صاحب قشتالة وصَوْلته ، وطمعا فى الصلح وصحته ، ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم فى هذه الدعوة ، والسبب الحامل لهم على ذلك ، فلم يرجع أهل بلش عما عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الأندلس من العهود والمواثيق .

وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلش مالقة ، ونزل عليها فى ربيع الثانى سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها ، ولما صح عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس ، فأشاروا بالمسير لإغاثة بلش[1] للعهد الذى عقدوه ، وأتى أهل وادى آش وغيرها وحشود البشرات ، وخرج صاحب غرناطة منها فى الرابع والعشرين لربيع الثانى من السنة ، ووصل بلش ، فوجد العدو نازلا عليها براً و بحراً ، فنزل بجبل هنالك ، وكثر لغط الناس ، وحملوا على النصارى من غير تعبية ، وحين حركتهم للحملة بلغ الزَّغَل[2] أن غرناطة بايعت صاحب البيازين ، فالتقوا مع النصارى فشلين وقبل الالتحام انهزموا ، وتبددت جموعهم مع[3] كون النصارى خائفين وَجِلين منهم ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فرجعوا منهزمين ، وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان ، فقصدوا وادى آش ، وعاد النصارى إلى بلش بعد أن كانوا رتبوا جيوشهم للقاء السلطان وأهل غرناطة ، فلما عادوا إلى بلش دخلوا عنوة ربضها ، وضيقوا بها ، وكانت ثورة غرناطة خامس جمادى الأولى .

ولما رأى أهل باش تكالب العدو عليهم و إدبار جيوش المسلمين عنهم

---

(١) فى نسخة عند ا « لإعانة بلش »
(٢) فى أصل ا « بلغ السلطان الزغل »
(٣) فى أصل ا « من كون النصارى »

طلبوا الأمان ، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة ، وأطاعت النصارى جميعُ البلاد التى بشرقى مالقة وحصن قمارش .

ثم انتقل العدو إلى حصار مالقة ، وكان أهل مالقة قد دخلوا فى الصلح وأطاعوا صاحب البيازين ، وأتى إليها النصارى بالميرة[١] ، ولما نزل بلش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شريش الذى كان مأسوراً عندهم ، فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فاره وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادى آش ، وارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة ونازلها براً و بحراً ، وقاتله أهلها قتالا عظيما بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم ، وطال الحصار حتى أداروا على مالقة من البر الخنادق والسور والأجفان من البحر ، ومنع الداخل إليها ، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار ، وحار بوا حر با شديداً ، وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض ، وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فنى ما عندهم من الطعام فأكلوا المواشى والخيل والحمير ، و بعثوا الكتب للعدوتين وهم طامعون فى الإغاثة فلم يأت إليهم أحد ، وأثر فيهم الجوع ، وفشا فى أهل نجدتهم القتل ، ولم يظهروا مع ذلك هَلَعاً[٢] ولا ضعفاً ، إلى أن ضعف حالهم ، و يئسوا من ناصر أو مغيث من البر والبحر[٣] فتكلموا مع النصارى فى الأمان كما وقع ممن سواهم ، فعوتبوا على ما صدر منهم وما وقع من الجفاء ، وقيل لهم لما تحقق العدو التجاءهم : تؤَمَّنُونَ من الموت ، وتعطون[٤] مفتاح القلعة والحصن ، والسلطان ما يعاملكم إلا بالخير إذا فعلتم ، وهذا خداع من الكفار ، فلما تمكن العدو منهم أخذهم أسْرَى ، وذلك

---

(١) الميرة — بكسر الميم — الزاد والطعام

(٢) الهلع — بفتح الهاء واللام — شدة الخوف والجزع

(٣) فى أصل ا « من البر أو البحر »

(٤) فى ا « وتعطوا مفتاح القلعة »

أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، ولم يبق فى تلك النواحى موضع إلا وملكه النصارى .

وفى عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدوّ الكافر إلى الشرقية و بلش التى كانت فى الصلح ، فاستولى عليها ، واحتجوا بالصلح ، فلم يلتفت إليهم ، وأخذ تلك البلاد كلها صلحا ، ثم رجع لبلاده .

وفى عام أربعة وتسعين [وثمانمائة] (١) خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب ، واستولى على ما هنالك من الحصون ، ثم نازل بسطة ، وكان صاحبُ وادى آش لما تعين العدوّ بمحلته بعث جميعَ جنده وقوّاده ، وحَشَدَ أهل نجدة تلك البلاد من وادى آش والمرية والمُنَكّب (٢) والبشرات ، فلما نزل العدوّ بسطة أتت الحشودُ المذكورة ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تقهقر العدوّ عن قرب بسطة ، ولم يقدر على منع الداخل والخارج ، و بقى الأمر كذلك رجبا وشعبان ورمضان ومحلاتُ المسلمين نازلة خارج البلد ، ثم إن العدوّ شدّ الحصار وجَدَّ فى القتال ، وقرب المدافع والآلات من الأسوار حتى منع الداخل والخارج بعضَ منعٍ ، واشتد الحال فى القعدة والحجة وقل الطّعام ، وفى آخر الحجة اختبروا الطعام فى خفية فلم يجدوا إلا القليل ، وكانوا طامعين فى إقلاع العدوّ عند دخول فصل الشتاء ، و إذا بالعدو بنى وعزم على الإقامة ، وقوىَ اليأس على المسلمين ، فتكلموا فى الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن ، وظن العدوّ أن الطعام لم يبق منه شىء ، وأن ذلك هو الملجىء لهم للكلام ، وفهموا عنه ذلك ، فاحتالوا فى إظهار

---

(١) فى ا هنا زيادة كلمة « برجب »

(٢) قال ياقوت : « المنكب — بالضم ثم الفتح وتشديد الكاف وفتحها وباء موحدة ، من نكبت الشىء فهو منكب ، كأنك تعطيه منكبك — وهو بلد على ساحل جزيرة الأندلس من أعمال البيرة بينه وبين غرناطة أربعون ميلا » .

جميع أنواع الطعام بالأسواق ، وأبدوا للعدوّ القوّة مع كونهم فى غاية الضعف ، والحرب خدعة (١) ، فدخل بعض كبار النصارى للتكلم معهم وهو عَيْن ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس ، وعند تحققهم بقاء الطعام والقوّة أعطوهم الأمان على أنفسهم دون مَنْ أعانهم من أهل وادى آش والمنكب والمرية والبشرات ، فإن دفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الأمان ، وإلا فلا ، فلم يوافق أهلُ البلد على هذا ، وطال الكلام ، وخاف أهل البلد من كشف الستر ، فاتفقوا على أن تكون العقدة على بسطة ووادى آش والمرية والمنكب والبشرات ، ففعلوا ذلك ، ودخل جميع هؤلاء فى طاعة العدوّ على شروط شرطوها وأمور أظهروا بعضها للناس و بعضها مكتوم ، وقبض الخواص مالاً ، وحصلت لهم فوائد .

وفى يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة ، وملكوها ، ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام ، وقالوا لهم : مَنْ بقى بموضعه فهو آمن ، ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالما ، ثم أخرج العدوّ المسلمين من البلد ، وأسكنهم بالرَّبَض خوفَ الثورة ، ثم ارتحل العدوّ للمرية ، وأطاعته جميعُ تلك البلاد ، ونزل صاحبُ وادى آش للمرية ليلقاه بها فلقيه وأخذ الحصون والقلاع والبروج ، و بايع له السلطان أبو عبد الله على أن يبقى تحت طاعته فى البلاد التى تحت حكمه كما أحب ، فوعده بذلك ، وانصرف معه إلى وادى آش ، ومكنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور ، وأطاعته جميعُ البلاد ، ولم يبق غير غرناطة وقراها ، وجميعُ ما كان فى حكم صاحب وادى

---

(١) تروى هذه الكلمة بفتح الخاء وسكون الدال ، وهى المرة الواحدة من الخداع ، وتروى بضم الخاء وسكون الدال ، وهو اسم مصدر بمعنى الخداع ، وتروى بضم الخاء وفتح الدال ، وهو يدل بهذه الصيغة على ما يدل عليه إسم الفاعل ، يقال : فلان ضحكة وسخرة وهزأة ، أى أنه يضحك من الناس ويسخر منهم ويهزأ بهم كثيراً

آش صار للنصارى فى طَرْفة عين ، وجعل فى كل قلعة قائداً نصرانياً ، وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالا من عند صاحب قشتالة إكراما منه لهم بزعمهم ، فتبًّا لعقولهم ، وما ذلك منه إلا توفير لرجاله وعُدَّته ودفع بالتى هى أحسن ، ثم أخذ برج الملاحة وغيره ، و بناه وحصنه ، وشحن الجميع بالرجال والذخيرة ، وأظهر الصحبة والصلح مع صاحب وادى آش ، وأباح الكلام بالسوء فى حق صاحب غرناطة مكراً منه وخداعا ودهاء ، ثم بعث فى السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما مكنه عمه من القلاع والحصون ، ويكون تحت إيالته ، و يعطيه مالا جزيلا على ذلك ، وأى بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه ، قالوا : وأطمعه صاحبُ غرناطة فى ذلك ، فخرج العدو فى محلاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة ، وهذا فى سر بين السلطانين ، فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامة وأخبرهم بما طلب منه العدو ، وأن عمه أفسد عليه الصلح الذى كان بينه و بين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه ، وليس لنا إلا إحدى[1] خصلتين : الدخول فى طاعته[2] ، أو القتال ، فاتفق الرأى على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح ، وخرج بمحلته . ثم إن صاحب قشتالة نزل على مرج غرناطة ، وطلب من أهل غرناطة الدخول فى طاعته ، و إلا أفسد عليهم زروعهم ، فأعلنوا بالمخالفة ، فأفسد الزرع[3] ، وذلك فى رجب سنة خمس وتسعين [وثمانمائة] ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة ، ثم ارتحل العدو عند الإياس منهم ذلك الوقت ، وهدم بعض حصون ، وأصلح برج همدان والملاحة ، وشحنهما بما ينبغى ،

---

(١) فى أصل ا « وليس لنا إلا أحد الخصلتين » تحريف

(٢) فى أصل ا « الدخول تحته »

(٣) فى أصل ا «فأفسد الزروع »

ثم رجع إلى بلاده ، وعند انصرافه نزل صاحب غرناطة بمن معه إلى بعض الحصون التى فى يد النصارى ففتحها عَنْوة ، وقتل مَنْ فيها من النصارى ، وأسكنها المسلمين ، ورجع لغرناطة ، ثم أعمل الرحلة إلى البشرات فى رجب المذكور ، فأخذ بعض القرى ، وهرب مَنْ بها من النصارى والمرتدين أصحابهم ، ثم أتى حصن أندرش فتمكن منه ، وأطاعته البشرات ، وقامت دعوة الإسلام بها ، وخرجوا عن ذمة النصارى ، وهنالك عمه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملة وافرة ، فقصدهم فى شعبان من غَرْنَاطة ، واستقر عمه بالمرية ، وأطاعت صاحبَ غرناطة جميعُ البشرات إلى بَرْجَة ، ثم تحرك عمه مع النصارى إلى أندرش فأخذها[1] لرمضان ، وخرج صاحب غرناطة لقرية همدان[2] ، وكان برجها العظيم مشحونا بالرجال والعدة والطعام ، فحاصره[3] أهل غرناطة ، ونصبوا عليه أنواعا من الحرب ، ومات فيه خلق [كثير] منهم ، ونقبوا البرج الأول والثانى والثالث ، وألجؤهم للبرج الكبير ، وهو القلعة ، فنقبوها ثم أسروا من كان بها ، وهم ثمانون ومائة ، واحتووا على ما هنالك من عدة وآلات حرب .

وفى آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب ، فلما وصل حصن شلوبانية نزله ، وأخذه عنوة بعد حصاره ، وامتنعت القلعة ، وجاءتهم[4] الأمداد من مالقة بحراً فلم تقدر على شىء ، وضيقوا بالقلعة ، فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحلته[5] لمرج غرناطة ، فارتحل صاحب[6] غرناطة عن قلعة شلوبانية ، وجاء غرناطة ثالث شوال ، و بعد وصولهم غرناطة وصل العدو إلى المرج ومعه المرتدون

---

(١) فى أصل ا « أخذوها فى رمضان »

(٢) فى نسخة عند ا « بقرية همدان »

(٣) فى نسخة « فحاصرها أهل غرناطة »

(٤) فى نسخة عند ا « وجاءهم الأمداد » وفى أخرى « وألجأتهم »

(٥) فى نسخة « خرج بمحلة لمرج غرناطة » (٦) فى ا « سلطان غرناطة »

والمدجنون ، و بعد ثمانية أيام ارتحل العدو لبلاده بعد هدم برج الملاحة و إخلائه و برج آخر ، وتوجه إلى وادى آش ، فأخرج المسلمين منها ، ولم يبق بها مسلم فى المدينة ولا الرَّبَض ، وهدم قلعه أندرش ، وحاف على البلاد[١] ، ولما رأى ذلك السلطان الزَّغَل وهوأبو عبدالله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة همَّ بالجواز لبرالعدوة فجاز لوَهْرَان ، ثم لتلمسان ، واستقر بها ، وبها نسله إلى الآن يعرفون ببنى سلطان الأندلس ، ودخل صاحبُ قشتالة لأقاصى مملكته بسبب فتنة بينه و بين الإفرنج ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها وأخذها ، وأسر من كان بها من النصارى وأرادت فتيانه القيام على النصارى ، فجاء صاحب وادى آش ففتك فيهم .

وفى القعدة من السنة رفع صاحب غرناطة من السند وخلت تلك الأوطان من الأنس .

وفى ثانى عشرى[٢] جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة ، وأفسد الزرع ، ودوخ الأرض ، وهدم القرى ، وأمر ببناء موضع بالسور والحفير ، وأحكم بناءه ، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صَرَفَ الهمة إلى الحصار والإقامة ، وصار يُضَيِّق على غَرْناطه كل يوم ، ودام القتال سبعه أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين ، غير أن النصارى على بعد ، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير ، إلى أن تمكن فصل الشتاء ، وكلب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب[٣] ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، واستولى العدو

---

(١) حاف على البلاد : جار يريد أنه ظلم أهلها

(٢) فى أصل ا « وفى ثاني عشر من جمادى الآخرة »

(٣) فى أصل ا « وقطع الجالب »

على أكثر الأماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرث والسبب ، وضاق الحال ، وبانَ الاختلال ، وعظم الخطب ، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، وطمع العدو فى الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ، ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات ، ثم اشتد الأمر فى شهر صفر من السنة ، وقل الطعام ، وتفاقم[1] الخطب ، فاجتمع ناس مع مَنْ يشار إليه من أهل العلم ، وقالوا : انظروا فى أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم ، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا فى هذا المعنى ، وأن العدو يزداد مَدَده كل يوم ، ونحن لامدد لنا ، وكان ظَنُّنَا أنه يقلع عنا فى فصل الشتاء فخاب الظن ، و بنى وأسّس ، وأقام ، وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم ، فاتفق الرأى[2] على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك فى إسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا[3] مطالب وشروطاً أرادوها ، وزادوا أشياء على ما كان فى صلح وادى آش : منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوه[4] من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ، ويحلف على عادة النصارى فى العهود ، وتكلم الناس فى ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام فى ذلك امْتَنَّ عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة ، فانقادوا إليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة ، فقبلها منهم ، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء .

---

(١) فى أصل ا « ثم تفاقم الخطب »

(٢) فى نسخة عند ا « فاتفق الأمر على ارتكاب — إلخ »

(٣) فى أصل ا « ثم عدوا مطالبا — إلخ »

(٤) فى أصل ا « إذا أمكنوه من حمراء غرناطة »

وفى ثانى ربيع الأول من السنة ـ أعنى سنة سبع وتسعين وثمانمائة ـ استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال وإبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورِباعهم وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على (١) أحد منهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا (٢) أحداً ، وأن لا يولى (٣) على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قِبَل سلطانهم قبل ، وأن يفتكّ جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعيانا نصّ عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومَنْ أراد الجواز للعُدْوة لا يمنع ، ويجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ، ثم بعد تلك المدة يُعطُون عُشْرَ مالهم والكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يقهر مَنْ أسلم على الرجوع للنصارى (٤) ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاتب على مَنْ قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ، ولا بسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ،

---

(١) فى أصل ا « ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم »

(٢) فى أصل ا « ولا يغصبون أحدا » وفى نسخة عندها « ولا يغضبون »

(٣) فى أصل ا « ولا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودى »

(٤) فى أصل ا « الرجوع إلى النصارى »

ولا يطلع نصرانى للسور ، ولا يتطلع[1] على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهـل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مُصَلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منهم[2] يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحبُ رومة ويضع خط يده ، وأمثال هـــذا مما تركنا ذكره .

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينـة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاما ومُقَدَّمين بالبلد ، ولما علم ذلك أهل البشرات دخلوا فى هـذا الصلح ، وشملهم حكمه على هذه الشروط ، ثم أمر العدو الـكافر ببناء ما يحتاج إليـه فى الحمراء وتحصينها ، وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها ، وصار الطاغية يختلف إلى الحمراء نهاراً ويبيت بمحلته ليلا إلى أن اطمأن من خوف الغدر ، فدخل المدينة ، وتطوّف بها ، وأحاط خبرا بما يرومه ، ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له فى سكناه بأندرش[3] ، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ، ثم احتال فى ارتحاله[4] لبر العُدْوة ، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب لصاحب المرية أنه ساعة وصول كتابى هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاى أباعبد الله من السفر حيث أراد من بر العدوة ، ومن وقف على هذا الـكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له ، فانصرف فى الحين بنص هذا الـكتاب ، وركب البحر ، ونزل بمليلة ، واستوطن فاسا ، وكان قبلُ طَلَبَ الجواز لناحية مراكش ، فلم يسعف بذلك

---

(١) فى نسخة «ولا يطلع على دور المسلمين»

(٢) فى أصل ا «ومن ضحك منه يعاقب»

(٣) فى أصل ا « وأنها تـكون له ، وسكناه بأندرش »

(٤) فى نسخة « ثم احتال على ارتحاله »

وحين جوازه لبر العدوة لقى شدة وغلاء و بلاء(١) .

ثم إن النصارى نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كَتَبُوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر ، ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ، ثم تعدوا إلى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا ، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم ، وهذا كان السبب للتنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان أن مَنْ قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت ، وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا النصارى(٢) ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق(٣) وأندرش وغيرها ، فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبياً ، إلا ما كان من جبل بللنقة(٤) فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ، ثم بعد هذا كله كان مَنْ أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى ، فشدد عليهم النصارى فى البحث ، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان إخراج النصارى

---

(١) في أصل ا « لقى شدة وغلاء ووباء »

(٢) فى أصل ا « واعتزلوا الناس »

(٣) فى نسخة عندا « بالفيق » وفى أخرى « يلغين »

(٤) فى نسخة عندا « جبل بالنقة »

إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أُخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومَنْ لا يخشى الله تعالى فى الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليلُ من هذه المضرة[1] ، وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية و بلادها ، وكذلك بتطاون[2] وسلا وفيجة[3] الجزائر ، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا ، وبَنَوْا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذا الحال ، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصف ، والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

السلطان الذى ضاعت فى عهده بلاد الأندلس

والسلطان المذكور الذى أخذت على يده غرْناطة هو أبو عبد الله محمد الذى انقرضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس ، ومحيت رسومها ، ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغنى بالله ، واسطة عقدهم ، ومشيد مبانيهم الأنيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة ، وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس ، العائد منها لملكه فى أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس ، وهو سلطان لسان الدين ابن الخطيب ، وقد ذكرنا جملة من أخباره فى غير هذا الموضع ، ابن السلطان أبى الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطرة بمرج غرناطة ابن فرج [بن إسماعيل][4]

---

(١) فى أصل ا « من هذه المعرة »

(٢) فى أصل ا « بتطاوين » وهذه هى المعروفة الآن باسم « تطوان »

(٣) فى أصل ا « متيجة » وفى نسخة « قيجة » وفى أخرى « بهجة »

(٤) لا يوجد فى أصل ا مابين هذين المعقوفين

ابن يوسف بن نَصْر بن قيس ، الأنصارى ، الخزرجى ، رحمهم الله تعالى جميعا ! .

وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرا عما أسلفه ، متلهفا على ما خلفه ، و بنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها ودخلتها ، وتوفى رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ، ودفن بإزاء المصلَّى خارج باب الشريعة ، وخلف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد ، وعَقِبُ هذا السلطان إلى الآن بفاس ، وعهدى بذريته بفاس [إلى الآن](١) سنة ١٠٣٧(٢) ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويُعَدُّون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

نص كتاب إلى سلطان فاس

وقد رأيت أن أذكر هنا الرسالة التى كتب بها المخلوع المذكور إلى سلطان فاس الشيخ الوطاسى ، وهى من إنشاء الكاتب المجيد البارع البليغ أبى عبد الله محمد بن عبدالله العربى(٣) العُقَيلى رحمه الله تعالى وسماها «بالروض العاطر الأنفاس ، فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » ونصها بعد الافتتاح :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم … رَعْياً لمـا مثلُه يُرْعَى من الذِّمَمِ(٤)

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن … جار الزمان عليـــه جَوْرَ منتقم

حتى غـدا ملـكه بالرغم مستلبا … وأفظع الخطِ ما يأتى على الرغم

حكم من الله حتم لا مردَّ له … وهل مرد لحـكم منـــــه منحتم

وهى الليـــالى وقاك الله صَوْلَتها … تصول حتى على الآساد فى الأَجَمِ

كنا ملوكا لنا فى أرضـــنا دول … نمنا بها تحت أفنان من النعم

---

(١) مابين هذين المعقوفين ساقط من ا

(٢) كذا فى أصل ا ، ب ، وفى نسخة عند ا « ١٠٣٨ » وفي أخرى « سـنة ١٠٣٥ »

(٣) فى نسخة عند ا « المغربى » وفى أخرى « العرفى »

(٤) في أصل ا « راعيا لمن مثله يرعى من الذمم »

فأيقظتنا سهامٌ للردى صبب يرمى بأفجع حَتْف مَنْ بهن رُمِي (١)
فلا تنم تحت ظـل الملك نومتنا وأى ملك بظـــل الملك لم ينم
يبكى عليـه الذى قد كان يعرفه بأدمُع مزجت أمواهها بِدَمِ
كذلك الدهر لم يبرح كما زعموا يُشِم بوّ الصَّغار الأنف ذا الشمم
وصِلْ أواصِرَ قد كانت لنا اشتبكت فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
وابسط لنـا الخُلقَ المرجوّ باسطه واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخذونا بأقوال الوشاة ولم نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم (٢)
فمـــا أطقنا دفاعا للقضاء ، ولا أرادتَ أنفُسُنَا ما حل من نقم
ولا ركوباً بإزعاج لســـابحة فى زاخر بأكف الموج ملتطم
والمرء ما لم يُعِنْـــه الله أضيع من طفل تشكى بفقد الأم فى اليتم
وكل ما كان غير الله يحرسه فإن محروسه لحم على وضم
كن كالسموأل إذ سار الهمام له فى جحفل كسواد الليل مرتكم
فلم يبح أدرُعَ الـكندى وهو يرى أن ابنه البر قد أشفى على الرجم
أو كالمعلى مع الضليل الأروع إذ أجاره من أعاريب ومن عَجَمِ
وصار يشكره شكراً يكافئ ما أسدى إليه من الآلاء والنعم
ولا تعاتب على أشياء قد قدرت وخُطَّ مسطورها فى اللوح بالقلم
وَعَدِّ عما مضى إذ لا ارتجاع له وعُـدّ أحرارنا فى جملة الخدم
إيه حنانيك يا ابن الأكرمين على ضيف ألم بفاس غـــير محتشم

---

(١) فى ا « سهام للردى صيب » وتقرأ بضم الصاد والياء المثناة ، ومعناها صائبات.
(٢) فى أصل ا « لاتأخذنا بأقوال الوشاة » ، وقد أخذ هذا البيت من قول كعب بن زهير فى لاميته التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لاتأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فى الأقاويل

فأنت أنت ، ولولا أنت ما نهضت بنا إليهـــا خُطَا الوَخَّادة الرُّسُمِ
رحماك يا راحمـــاً ينمى إلى رُحَمَا فى النفس والأهل والأتباع والحشم (١)
فــكم مواقف صِدْقٍ فى الجهاد لنا والخيل عالــكة الأشداقِ للُّجُمِ
والسيف يخضب بالمحمر من عَلَق ما أبيض من سبل وأسود من لمم (٢)
ولا ترى صَدْرَ عَضْب غير منقصف ولا ترى مَتْن لَدْن غـير منحطم
حتى دهينا بدهيا لا اقتدار بها سوى على الصون للأطفال والحرم
فقال من لم يشاهدهـــا فربتما يخال جامحهـــا يقتاد بالخطم
هيهات لو زَبَنَتْه الحرب كان بها أعيي يدًا من يد جالت على رخَم (٣)
تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا ولا طوت صحة منهـــا على سَقِم
لــكن طلبنا من الأمر الذى طلبت وُلَاتنا قبلنا فى الأعصر الدهم
فخاننا عنده الجـــد الخؤن ، ومن تقعد به نَــكَبَاتُ الدهر لم يقم
فاسودَّ ما اخضر من عيش دهته عِدًا بالأسمر اللَّدْنِ أو بالأبيض الخذِمِ
وشَتَّتَ البين شملا كان منتظما والبين أقطع للموصول من جَلَم (٤)
فربَّ مبنى شديد قد أناخ به ركب البلا فقرته أدمع الديم
قمنا لديه أصـــيلانا نسائله أعيا جوابا وما بالربع من أرم
وما ظَنَنَّا بأن تبقى إلى زمن نرى به غُرَرَ الأحبـاب كالحمم
لكن رِضًا بالقضا الجارى وإن طويت منــا الضلوع على بَرْحٍ من الألم
لبيك يا من دعانا نحـــو حضرته دعاء إبراهَمَ الحُجَّاج للحَـــرَم

(١) رحما : أصله رحماء جمع رحيم ، مثل كريم وكرماء وبخيل وبخلاء ، وقصره لما اضطر لإقامة الوزن .

(٢) العلق ، هنا : الدم

(٣) فى ب « من يد جالت على رحم »

(٤) الجلم : المقراض (المقص)

واعط الأمان الذى رضّت قواعده على أساس وفاء غير منهدم[1]
خليفة الله وافاك العبيد فكن فى كل فضل وطَوْلٍ عند ظنهم
و بين أسلافنا ما قد علمتَ به من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم
وأنت منهم كأصل مُطْلِع غُصُناً أو كالشراك الذى قد قدّمن أدم
وقد خطوت خطاهم فى مآثرهم فلم يذموا إذن فيها ولم تذم
وصِيتُ مولى الورى الشيخ الإمام غدَا فى الناس أشْهَرَ من نار على علم[2]
سلالة الأمراء الجلة الكبرا ء العليـة الطهراء القادة البهم[3]
بنومَرِين ليوث فى عرين أبوا رؤيا قرين لهم فى البأس والكرم
النازلين من البيضاء وسط حِمًى أحمى من الأبلق السامى ومن إرم
والجائسين بدُهْم الخيل كل ذرا والداعسين بسُمْر الخط كل كمى
يريك فارسُهم إن هز عامله فى مارق بلَظَى الهيجاء مضطرم
ليثا على أجدلٍ عار من أُجنحة يسطو بأرقم لدّاغ بغير فم
فى اللام يدغم من عَسَّالِهِ ألفا ولم نجد ألفا أصلا بمدغم
أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم من عصمة الله ما يُرْبِى على العصم
يا من تطير شرار منه محرقة لكل مدّرع بالحزم محتزم
هُمُ بطائفة التثليث قد فتكوا كمثل ما يفتك السرحان بالغنم[4]
وإن يلثمهم يوم الوغى رهج أنسوك ما ذكروه عن ذوى اللثم
تضىء آراؤهم فى كل معضلة إضاءة السرج فى داج من الظلم

---

(١) فى ب ونسخة عند ا « الأمان الذى رضت قواعده »

(٢) فى نسخة عند ا « غدا فى الفضل أشهر من نار على علم »

(٣) فى أصل ا « الظهراء القادة البهم »

(٤) السرحان : الذئب .

هذا ولو مِنْ حياءٍ ذاب محتشم لذاب منهم حيــاءً كلُّ محتشم
طابت مدائحهم إذ طابتَ أُنفسهم فاشتقت النسمات أُسما من النسم
لله درهم والسحب باخــلة بدرهن على الأنعام والنعم
بحيث الأُفق يرى من لون حمرته كالشيب يخضب بالحناء والكَتَمِ
هناك تنهلُّ أيديهم بصوتِ حَيــاً يحيا بالأُحداث ما فيها من الرمم
وأن بَيْتَىْ زيادٍ طالما ذكروا إذا ألمت أحاديث بذكرهم
أحــلام عاد وأجسام مطهرة من المعقَّةِ والآفات والأَثم
يرون حقا عليهم حفظ جارهم فلم يُضَرْ نازل فيهم ولم يُضَمِ (١)
فروعهم بالدواهى لايراع ، ولا يغم منها بما يعـرو من الغمم
هُمُ البحــار سماحا غير أن بها ما قد أناف على الأطواد من همم
وليس يسلم من حتف محاربهم حتى يكون إليهم مُلقِىَ السَّلَمِ
كم فيهمُ من أمير أوحد نَدُسٍ يُقَرْطِسُ الغرض المقصود بالفَهَمِ
ولا كسبط أبى حسون من حسنت أمداحه حُسْنَ ما فيه من الشيم
هذا كم ابن أبى ذكرى الهمام فقل فى أصله المنتقى من مجــده العمم (٢)
خليفة الله حقا فى خليقتــه كنائب ناب فى حكم عن الحــكم
مهما تنر قَسَمَاتٌ منــه نيرة تنل بنازله ماجل من نعم
فوجهه بدُجاً أو كفه بجَــدًى أبهى من الزهر أو أندى من الديم (٣)
وفضــله وله الفضل المبين جرى كجرى الأُمثال فى الأقطار والأُمم

(١) فى أصل ا « يرون حقا عليهم حفظ جارهم » تحريف
(٢) فى أصل ا « من مجده القمم » تحريف
(٣) الجدى — بفتح الجيم — العطاء ، والديم : جمع ديمة ، وأصله المطر الدائم الذى لا ينقطع

وجوده المتــوالى للبرية ما وجـوده بينها طرا بمنهـدم
إذا ابتغت نعما منــه العُفَاة له لم يسمعوا كلمة منــه سوى نعم[(١)]
وإن يعبس زمان فى وجوههم لم يبصروا غير وجــه منه مبتسم
وجـه تبين سِمَاتُ المكرمات به كما تبين سمات الصدق فى الكلم
وراحــة لم تزل فى كل آونه فى نيلها راحة الشاكى من العدم
لله ما التزَمَتْـه من نوافله أيام لا فرْضُ مفروضٍ بملتزم
أنسى الخلائف فى حلم وفى شرف وفى سخاء وفى عــلم وفى فهم
فحــاز معتمدا منهم ومعتضدا وامتاز عن واثق منهم ومعتصم
وناصر الدين فى الإقبال فَاقَ، وفى محبــة العلم أزرى بابنه الحكم
أفعال أعــدائه معتلة أبدا متى يَرُمْ جزمها بالحذف تنجزم
فويل أهل القلى من حيــة ذكر للمُتْلَئِبِّ اللهــام المجر ملتقم[(٢)]
راموا عــداوة مَنْ إن شاء غادرهم مثل الأحاديث عن عاد وعن إرم
فسوف يأكلهم من جيشه لَجِبٌ بكل قــرم إلى لحمانهم قرم
وإن الأعراب إذ ساروا لغايتــه لسائرون إلى لقم على لقم
وهم كما قاله ماضٍ «أرى قدمى بسعيه نحو حتفى قد أراق دمى»[(٣)]
فقل إذن للمُنَاوى الناوِلَانَ أذًى يا غر غرك ما أبصرت فى الحلم
له صــوارم لو ناجتك ألسنها لبشرتك بعمــر منك منصرم
وأن روحك عن قرب سيقبضه قبض المسلم ما قد حاز من سَلَمِ

---

(١) العفاة: جمع عاف، وهو طالب المعروف، وفى نسخة عنـد ا «إذا ابتغت نعما منه البغاة» تحريف

(٢) القلى — بكسر القاف — البغض، وفى أصل ا «فويل أهل الفلا» وفى نسخة عندها «أهل العلا»

(٣) يشير إلى قول الشاعر * أرى قدمى أراق دمى * وهو من أبيات الجناس

فهو الذى ماله ندّ يشابهـــه   من كل متصف بالدهى مُتَّسِمِ
يدبر الأمر تدبيرا يخلصـــه   مما عسى أن يرى فيه من الوهم
و يبصر الغيب لحظ الذهن منه إذا   تعمى عن ادراكه ألحاظ كل عمى
و ينعم النظـــر المفضى بناظره   لصَوْب وجــه صواب واضح اللقم
ذو منطق لم تزل تجلو نتائجـــه   عن مبطل بخصام المبطل الخصم
ومَسْمَع ليس يُصْغِى للوشاة فـلم   ينفق لديه الذى عنهم إليــه نمى
فعقله لا توازيه العقـــول ، وهل   يوازن الطود ما قد طال من أكم ؟
إيهٍ جميعَ الورى من بدو أوحضر   نداء مرتبط بالنصر مرتسم[1]
شدوا وجدوا ولا تعنوا ولا تهنوا   قد لفها الليـــل بالسَّوَّاقَةِ الحُطَمِ[2]
هـــذا الإمام الْمَرِينى السعيد له   ســعد يؤيده فى كل مصطدم
قد أقسمت أنه المنصور ألســنةٌ   من نخبـــة الأوليا مبرورة القسم
فشيعوه وواله تروا عجبـــاً   وتظفروا معــه بالأجر والغنم
والحمد لله إذ أبقى خلافتـــه   كهفا لنا من يخيم فيـــه لم يُرَمِ
حرز حريز وعز قائم ونَدًى   غمر درَاكٌ بلا منّ ولا ســأم
دامت ودام لهـــا سعد يساعدها   فى كل مبتدإ منـــه ومختتم
فالله عز اسمه قد زانهـــا بحُلَى   من غر أمداحـــه كالدر فى النظم
الواهب الألف بعد الألف من ذَهَبٍ   كالجمر يلمع فى مســتوقد الضَّرَمِ
والفاعل الفعل لم يَهْمُمْ به أحد   والقائل القول فيه حكمة الحـــكم

---

(١) كذا فى أصل ا ، وب ، وفى نسخة عند ب « أيد جميع الورى » تحريف
(٢) أخذ هذا من قول الحطم :

قد لفها الليل بسواق حطم   ليس براعي إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم

ذا كم هو الشيخ فاعجب إنه هَرِمٌ جوداً وحاشاه أن يعزى إلى هرم[(١)]

وحَسْبنا أن أيدينا به اعتصمت من حبـله بوثيق غير مُنْفَصِم

فما مخالفه يوما بمضطهد ولا مؤالفه يوما بمهتضم[(٢)]

ولا موافيه فى جَهْد بمُطَّرح ولا مصافيه فى ود بمتهم

ولا مُحَيًّا محبِّيه بمنكسف ولا رجاء مُرَجِّيه بمنخرم

وما تَكَرُّمه سراً بمنكشف ولا تنكره جهراً بمكتتم

وليس لامح مرآه بمكتئب وليس راضع جَدْواه بمنفطم

ولا مقبل يمناه الكريمة فى محلٍّ ممتهن بل دَسْت محترم

وما وسيلتنا العظمى إليه سوى ما ليس ينكر مافيها من العظم

وإنما هى وما أدراك ماهى من وسيلة رَدُّهَا أدهى من الوخم

نبينا المصطفى الهادى بخير هدى محمد خير خلق الله كلهم

داعى الورى من أولى خيم وأهل قرى إلى طريق رشاد لاحِبٍ أَمَمِ

عليه منا صلاة الله ما ذكرت (أمن تذكر جيران بذى سلم)[(٣)]

وما تشفع فيها بالشفيع له دخيل حرمته العلياء فى الحرم

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ، ذلك بأن الله مَوْلَى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مَوْلى لهم ، نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) هرم : شبهه بهرم بن سنان ممدوح زهير بن أبى سلمى المزنى

(٢) فى أصل ا « فما مخالفه » تحريف

(٣) ضمن هذا البيت صدر مطلع قصيدة البوصيري (البردة) والبيت بتمامه :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أما بعدَ حمدِ الله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح ، يدعو إلى سبيل كل فلاح ، أولى قلوب غافلة ونفوس سَوَاه ، والرضا عن آله وأصحابه وعِتْرَته الأكرمين وأحزابه الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونَوَاه [(١)] وعزروه ونصروه فى فى حال قربه ونَوَاه ، فيا مولانا الذى أولانا من النعم ما أولانا لاحَطَّ الله تعالى لكم من العزة أرواقا [(٢)] ، ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصانا ولا أوراقا ، ولا زالت مخضرة العود ، مبتسمةً عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود ، ممطورة بسحائب البركات المتداركات دون بَرْق [(٣)] ولا رُعُود ، هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذِمامكم ، المترجِّى لعواطف قلوبكم وعوارف إنعامكم [و] المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم ، وما [ذا] الذى يقول مَنْ وَجْهُه خَجِل ، وفؤاده وَجِل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجلّ ، بَيْدَ أنى أقول لكم ما أقوله لربى واجترائى عليه أكثر ، واجترامى إليه أكبر : اللهم لا برىء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنى مستقيل ، مستنيل مستعتب [(٤)] مستغفر وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء ، هذا على طريق التنزل والإنصاف [(٥)] ، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف ، وأما على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته الأم ابنه الصديق : والله إنى لأعلم أنى إن أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أنى منه بريئة لأقول [(٦)] مالم يكن ، ولئن أنكرت ماتقولون لاتصدقونى ، فأقول

---

(١) نواه فى الفقرة الأولى جمع نهى على غير قياس ، ونواه فى الفقرة الثانية هو النوى بمعنى البعد مضافا إلى الضمير العائد على النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « رواقا » (٣) فى ا « دون بروق »

(٤) فى نسخة عند ا « مستغيث » مكان « مستعتب »

(٥) فى أصل ا « والاتصاف »

(٦) فى أصل ا « لا أقول مالم يكن » ولا يصح معه المعنى ، وعدم اقتران المضارع المثبت الواقع جواب قسم مقترن بلامه وارد فى الشعر

ما قاله أبو يوسف : صبر جميـل والله المستعان على ما تصفون ، على أنى لا أنكر عيوبى فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى فأنا جَبَلُ الذنوب ، إلى الله أشكو عُجَرى[1] وبُجَرى ، وسقطاتى وغلطاتى ، نَعَمْ كل شىء ولا ما يقوله المتقول ، المشنع المهوِّل ، الناطق بفم الشيطان المُسوّل ، ومن أمثالهم «سُبَّنى واصْدُقْ ، ولا تَفْترِ[2] ولا تخلق » أفمثلى كان يفعل أمثالها ، و يحتمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ؟ و يهلك نفسه و يحبط أعمالها ، عياذاً بالله من خسران الدين ، و إيثار الجاحدين و المعتدين[3] ، قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ، وايْمُ الله لو علمت شعرة فى فَوْدَىَّ تميـل إلى تلك الجهة لقَطَعتها ، بل لقطفت[4] ما تحت عمامتى من هامتى وقَطَّعتها ، غير أن الرعاع فى كل وقت وأوان ، للملك أعداء وعليـه أحزاب وأعوان ، كان أحمق أو أجهل من أبى ثَرْوَان ، أو أعقلَ أو أعلم من أشَجِّ[5] بنى مروان ، رُبَّ مُتَّهم برى ، ومُسَرْبَلٍ بسربال وهو منه عَرِى ، وفى الأحاديث صحيح وسقيم ، ومن التراكيب المنطقية مُنْتج وعقيم ، ولـكن ثم ميزان عقل ، تعتبر به أوزان النقل ، وعلى الراجح الاعتماد ، ثم إشاعة الأحماد ، المتصل المتماد ، والمرجوح الأطراح ، ثم التزام الصراح ، بعد النَّفْض من الراح ، وأ كثر ما تسمعه الـكذب ، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمهُ الله تعالى إليه منجذب ، ولقد قُذِفْنَا من الأباطيل بأحجار ، ورُمِينا بما لا يُرْمى به الـكفار ، فضلا عن الفجار ، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ، ما لديكم منه حفظ الجار و إذا عظم الإنكاء ، فعلى تكاءة التجلد الاتكاء ، أ كثر المـكثرون ، وجهد فى تعثيرنا المتعثرون ، ورَمَوْنا عن قوس واحدة ، ونظمونا فى سلك الملاحِدَة ، أ كفرا أيضاً كفراً ، غفراً اللهم غفراً ، أعد نظراً ياعبد قيس ،

---

(١) فى نسخة « عجزى » (٢) فى نسخة « ولا تغتر »
(٣) فى نسخة « والمتمردين » (٤) فى نسخة « لفظت » وفى أخرى « لقطعت »
(٥) أشج بنى مروان : هو عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، ووقع فى أصل « أو أعلم أو أشجع من بنى مروان » تحريف

فليس الأمر على ماخيل لك ليس ، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ، ممن رام محْقَه ومحقنا ، فطاردنا فى سبيله عُدَاة كانوا لنا غائظين ، فانفتق علينا فتق ، لم يمكنا له رتق ، وما كنا للغيب (١) حافظين ، و بعد فاسأل أهل الحل والعقد ، والتمييز والنقد ، فعند جُهَيْنَتهم تلقى الخبر (٢) يقينا ، وقد رضينا بحكمهم يؤثمنا فيو بقنا أو يبرئنا فَيَقِينَا ، إيه يامن اشرأبَّ إلى مَلامنا ، وقدح حتى فى إسلامنا ، رويداً رويدا ، فقد وجدت قوة وأيْدًا ، ويحك إنما طال لسانُكَ علينا ، وامتد بالسوء إلينا ، لأن الزمان لنا مصغر ولك مكبر ، والأمر عليك مُقْبِل وعنا مُدْبر ، كما قال كاتب الحجاج المو بر ، وعلى الجملة فهبنا صرنا إلى تسليم مقالك جدلا ، وذهبنا فأقررنا بالخطأ فى كل ورْد وصدر ، فلله در القائل :

* إن كُنْتُ أَخْطَأْتُ فما أخطأ القدر *

وكأنا بمعتسف (٣) إذا وصل إلى هنا ، وعدمُ إنصافه يَعْلَمه إلهنا ، قد ازورَّ مُتَجَانِفا ، ثم افتر متهانفا ، وجعل يتمثل بقولهم : إذا عُيروا قالوا مقادير قدرت ، و بقولهم : المرء يعجزه المحال ، فيعارض الحق بالباطل ، والحالىَ بالعاطل ، وينزع بقول القائل : رب مسمع هائل ، وليس تحته [من] طائل ، وقد فرغنا أول أمس من جوابه ، وتركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به (٤) ، وسنلم الآن بما يوسعه تسكيتا ، ويقطعه تبكيتا ، فنقول له : ناشدناك الله تعالى ، هل اتفق لك قط وعرض ، خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض ؟ مع اجتهادك أثناءه فى إصدارك و إيرادك ، فى وقوعه على وفق اقتراحك ومُرَادك ، أو جميعُ ما تزاوله بإدارتك ، لا يقع

---

(١) فى أصل ا « وما كنا عن الغيب حافظين » و العبارة اقتباس من الآية ٨١ من سورة يوسف ، لاجرم كان ما فى ا خطأ

(٢) هذا من مثل وهو قولهم « وعند جهينة الخبر اليقين »

(٣) فى نسخة « بمتعسف » (٤) فى نسخة « حزازة الجوى »

إلا مطابقا لإرادتك ، أو كل ما تقصده وتنويه ، تُحْرزه كما تشاء وتحويه ؟ فلابد أن يقر اضطرارا ، بأن مطلوبه يشذُّ عنه مرارا ، بل كثيرا ما يفلت صَيْدُه من أشراكه ، ويطلبه فيعجز عن إدراكه ، فنقول : ومسألتُنَا من هذا القبيل ، أيها النبيه النبيل ، ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ماشِينَا[1] ، مما يُسايرنا فى غرضنا منه ويماشينا ، كقوله صلى الله عليه وسلم « كل شىء بقضاء وقدر ، حتى العجز والكيس » وقوله أيضا « لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه » أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، فأخْلِقْ به أن يلوذ بأكناف الإحجام ، ويزمَّ على نفثة[2] فيه كأنما ألجم بلجام ، حينئذ نقول له والحق قد أبان وجهه وجلاه ، وقهره بحجته وعلاه : ليس لك من الأمر شىء قل إن الأمر كله لله ، وفى مُحَاجَّة آدم وموسى مايقطع لسان الخَصْم ، ويَرْحَضُ[3] عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دَرَن الوَصْم ، وكيفما كانت الحال ، وإن ساء الرأىُ والانتحال ، ووقعنا فى أوجال وأوحال ، فثُلَّ عرشنا ، وطويت فُرُشُنا ، ونكس لِوَانا ، ومُلِك مثوانا ، فنحن أمثل من سوانا ، وفى الشر خيار ، ويد اللطائف تكسر من صولة الأغيار ، فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفا ، ولا عدمنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عَطْفًا ، وإلا فتلك بغداد دار السلام ، ومُتَبَوَّأ الإسلام ، المحفوف بفرسان السيوف والأقلام ، مَثَابة الخلافة العباسية ، ومقر العلماء والفضلاء أولى السير الأُوَيْسِيَّة[4] ، والعقول

---

(١) شينا : أصله شئنا ، فسهل الهمز بقلبها ياء لسكونها وانكسار ماقبلها

(٢) نفثة فيه : أراد نفخة فمه

(٣) يرحض : يغسل ، وكذلك هو فى ب ونسخة عندا ، وفى أصل ا « يرخص »

(٤) نسبة إلى أويس

الإياسية[١]، قد نوزلت بالجيوش ونزلت، وزوولت بالزحوف وزلزلت، وتحيف جوانبها الحيف[٢]، ودخلها كفار التتار[٣] عنوة بالسيف، ولا تسل إذ ذاك عن كيفية[٤] أيام تجلت عروس المنية كاشفة عن ساقها مبدية، وجرت الدماء فى الشوارع والطرق كالأنهار والأودية، وقيدَ الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المُنتضاه بالعمائم فى رقابهم والأردية، وللنجيع سيول، تخوضها الخيول، فتخضبها إلى أرساغها، وتهم ظماؤها بوردها فتنكل عن تجرعها ومساغها، فطاح عاصمها ومستعصمها، وراح ولم يغد[٥] ظالمها ومتظلمها، وخربت مساجدها وديارها، واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف، حسبما عرفت أو حسبما تعرف، فلاتك متشككا متوقفا، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قِفَا[٦]، فأين تلك الجحافل، والآراء المُدارة فى المحافل؟ حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر، لم تجد ولا قُلامة ظفر، إذن فمن سلمت [له] نفسُه التى هى رأسُ ماله، وعيالُه وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله، وكلّ أوجُلّ أوأقل رياشه، وأسبابُ معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه، ثم وجد مع ذلك سبيلا إلى الخلاص، فى حال مياسرة ومساهلة دون تصعب واعتياص، بعد ما ظن كل الظن أن لا مَحِيد ولا مَناص، فما أحقّه حينئذ وأولاه، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه، على ما أسداه إليه من رِفْدِهِ وخيره، ومعافاته مما ابتُلِيَ به كثير من غيره، ويرضى بكل إيراد وإصدار، تتصرف فيهما[٧]

---

(١) نسبة إلى إياس مضرب المثل فى الزكانة والفطنة

(٢) تحيف : انتقص، والحيف : الجور والظلم

(٣) فى أصل ا « ودخلها كفار الستره » تحريف

(٤) فى ب ونسخة عندنا « عن كيف، أيام تجلت — إلخ »

(٥) فى نسخة « ولم يعد » وفى أخري « ولم يفد »

(٦) أراد أشهر من « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » معلقة امرىء القيس

(٧) فى ا « تتصرف بهما »

الأحكام الإلهية والأقدار ، فالدهر غدّار ، والدنيا دار مشحونة بالأكدار ، والقضاء لا يرد ، ولا يصدّ ، ولا يغالَب ، ولا يطالب ، والدائرات تدور ، ولابدّ من نقص وكمال للبدور ، والعبد مُطِيع لا مُطَاع ، وليس يطاع إلا المستطاع ، وللخالق القدير جلت قدرته فى خليقته علم غيبٍ للأذهان عن مَدَاه انقطاع .

ومالى والتكلف لما لا أحتاج إليه من هذا القول ، بين يدى ذى الجلال والمَجَادة والفضل والطَّوْل ؟ فله من العقل الأرجح ، ومن الخلق الأسجح ، مالا تلتاط معه تهمتى بصفره ، ولا تنفق عنده وشاية الواشى لا عُدَّ مِن نفَره ، ولا فاز قِدْحُه بظفَره ، والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب ، وتجر براحتها إلى المتاعب ، وقديما للأكياس من الناس خَدَعَت [(١)] ، وانحرفت عن وصالهم أعقل [(٢)] ما كانوا وقطعت ، وفعلت بهم مافعلت بيَسَار الكواعب [(٣)] [تلك] التى جَبَّتْ وجَدَعَتْ ، ولئن رهصت وهصرت ، فقد نبهت وبَصَّرَت ، ولئن قرعت [(٤)] ومعضت ، لقد أرشدت ووعظت ، و ياويلنا من تنكرها لنابمرة ، ورميها لنا فى غمرةٍ أىِّ غمرة ، أيام قلبت لنا ظهر المِجَنّ ، وغيم أفقها المصحى وأدجن ، فسرعان ما عاينا حبالها مُنْبَتَّه ، ورأينا منها مالم نحتسب كما تقوم الساعة بَغْتَة ، فمن استعاذ من شيء فليستعذ مما صرنا إليه من الحَوْر بعد الكَوْر ، وانحطاط من النجد إلى الغور .

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نَتَنَصَّفُ
فتبا لدينا لا يدوم نعيمها تَقَلَّبُ تارات بنا وتصرف [(٥)]

وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقا ، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأسا دِهَاقا ، ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجَناب ، المنفتح حين سدت الأبواب ، ولم نلبس غير لباس نعمائكم

(١) فى نسخة عند ا « حدعت » وفى أخرى « جذعت » وأحسبهما محرفتين عن « جدعت » أو عما أثبتناه عن ا ، ب (٢) فى ا « أغفل ما كانوا » تحريف

(٣) يسار : عبد كان يتعرض لبنت مولاه فدهنت استه زيتا و ربطته قريبا من قرية النمل فأكل النمل أنثييه (٤) في أصل ا « فزعت ومعضت »

(٥) في ا « فأف لدنيا ... نقلب تارات بها ونصرف »

حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب ، و إلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفَان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان (١) ، ووَجْهُ الله تعالى يبقى و كُلٌّ مَنْ عليها فان ، و إلى هنا ينتهى القائل ثم يقول : حسبى هذا وكفان .

ولا ريب فى اشتمال العلم الكريم ، على ما تعارفته الملوك بينها فى الحديث والقديم ، من الأخذ باليد عند زَلَّة القدَم ، وقَرْعِ الأسنان وعض البنَان من الندم ، دينا تدينت [حتى] مع اختلاف الأديان ، وعادة اطردت [فيهم] على تعاقب الأزمان والأحيان .

ولقد عرض علينا صاحب قَشْتَالة مواضعَ معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس و يكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصُّفْر ، ولا سوّغ لنا الإيمان الإقامة بين ظَهْرَانى الكفر ، ما وجدنا عن ذلك مَنْدُوحة ولو شاسعة ، وأمنا من المطالب المشاغب حُمَة شرٍّ لنا لاسِعَة ، وادَّكَرْنا أىَّ ادكار ، قولَ الله تعالى المنكِرِ لذلك غاية الإنكار (ألم تكن أرض الله واسِعَة) وقول الرسول عليه الصلاة والسلام ، المبالغ فى ذلك بأبلغ الكلام « أنا برىء من مؤمن مع كافر لا تترا آى ناراهما » وقول الشاعر الحاث على حث المطية ، المتثاقلة عن السير فى طريق مَنْجَاتها البَطِيَّه :

وما أنا والتلدُّدَ نحو نجد وقد غَصَّت تهامة بالرجال (٢)

ووصلَتْ أيضاً من الشرق إلينا ، كتبٌ كريمة المقاصد لدينا ، تستدعى الانحياز إلى تلك الجنَبَات ، وتتضمن ما لا مزيد عليه من الرغبات ، فلم نختر إلا دارنا التى كانت دار آبائنا من قبلنا ، ولم نرتض الانضواء إلا لمن بحَبْله وَصَلَ حبلنا ، و بريش نبله رِيشَ نَبْلُنَا ، إدلالا على محل إخاء متوارثٍ لا عن

---

(١) فى ا « تمتاز السيوف فى الأجفان من الأجفان » وفى نسخة عندها « فى الأجفار من الأجفان »

(٢) فى ا ب « وما أنا والتلذذ نحو نجد » بذالين معجمتين ، وليس بذاك ، والتلدد بالمهملتين — التلبث فى حيرة وتلفت

كَلَالة ، وامتثالا لوَصَاة أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالة وجلالة ، إذ قد روينا عمن سلف من أسلافنا ، فى الإيصاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا ، أن لا يبتغوا إذا دَهَمَهم داهم بالحضرة المرينية بَدَلا ، ولا يحدوا عن طريقها فى التوجه إلى فريقها مَعْدلا ، فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفِجَاج ، وركبنا إلى البحر الفُرَات[1] ظهرَ البحر الأجاج ، فلا غَرْوَ أن نردَ منه على ما يقر العين ، ويشفى النفسَ الشاكيةَ من ألم البَيْن ، ومن توصل هذا التوصل ، وتوسل بمثل ذلك التوسل ، تطارحا على سدة أمير المؤمنين ، المحارب للمحاربين ، والمؤمِّنِ للمستأمنين ، فهو الخليق الحقيق بأن يسوّغ أصفى مشاربه ، ويبلغ أوفى مآربه ، على توالى الأيام والشهور والسنين ، ويخلص من الثبور إلى الحبور ، ويخرج من الظلمات إلى النور ، خروجَ الجنين ، ولعل شعاع سعادته يفيض علينا ، ونفحة قبول إقباله تسرى إلينا ، فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر ، لإنشاد قول الشريف الرضى فى الخليفة القادر :

عَطْفًا أميرَ المؤمنين فإننا ... فى دَوْحَة العليا لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ ... أبداً ، كلانا فى المعالى مُعْرِق[2]

إلا الخلافة ميزتك ، فإننى ... أنا عاطل منها وأنت مطوّق

لا بل الأحرى بنا والأحجى ، والأنجح لسعينا والأرْجى ، أن نعدل عن هذا المنهاج ، ويقوم وافدنا بين يدى علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج ، وينشد ما قال فى الشيرازى ابنُ حَجَّاج :

النَّاس يَفْدُونَكَ اضطراراً ... منهم ، وَأفْدِيكَ باختيارى

---

(١) البحر الفرات : العذب ، وأراد به الملك الذى نزل بساحته ، والبحر الأجاج : الملح ، وهو الذى ركب متنه إليه .

(٢) فى نسخة عند ا « كلانا فى المعالى مغرق » بالغين المعجمة – وهو غير الثابت فى ديوان الشريف وغير المحفوظ .

وبعضهم فى جوار بعض وأنت حتى أموت جارى
فعش لخبزى وعش لمائى وعش لدارى وأهل دارى

ونستوهب من الوهاب تعالى جلت أسماؤه ، وتعاظمت نَعْمَاؤه ، رحمةً تجعل فى يد الهداية أعِنَّتَنَا ، وعصمةً تكون فى موافف(١) المخاوف جُنَّتَنا ، وقبولا يعطف علينا نوافر القلوب ، وصنعا يُسَنِّى لنا(٢) كُلَّ مرغوب ومطلوب ، ونسأله وطالما بَلَّغَ السائل سؤلا ومأمولا ، مَتاباً صادقا على موضوع الندم محمولا ، ثم عزاء حسنا وصبرا جميلا ، عن أرض أورثها مَنْ شاء من عباده معقبا لهم ومُدِيلا ، وسادِلا عليهم من ستور الإملاء الطويلة سُدُولا ، سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فلْيَطِرْ طائر الوسواس المرفرف مَطِيرا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، لم نستطع عن مورده صدورا ، وكان أمر الله قَدَراً مقدورا ، ألا وإن الله سبحانه ، فى مقامكم العلى الذى أيده وأعانه ، سرا من النصر يترجم عنه لسان من النصل ، وترجع فروع البشائر الصادقة ، بالفتوحات المتلاحقه ، من قاعدته المتأصلة ، إلى أصْل ، فبمثله يجب اللِّياذ ، والعياذ ، ولشبهه يحق الالتجاء ، والارتجاء ، ولأمر مّا آثرناه واخترناه ، بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه ، ومنه جل جلاله نرغب أن يَخِير لنا ولجميع المسلمين ، ويؤب(٣) بنا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع وجناب رفيع(٤) آمين آمين آمين ، ونرجو أن يكون ربنا ، الذى هو فى جميع الأمور حسبنا ، قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا ، وساقنا توفيقه وحَدَانا ، إلى الاستجارة بملك حَفِى ، كريم وَفِى ، أعزجاراً من أبى دُوَاد(٥) ، وأحمى أنفا من الحارث بن عُبَاد(٦) ،

(١) فى أصل ا « فى مقام المخاوف » وفى نسخة عندها « فى مواقف الخزى والمخاوف »
(٢) يسنى لنا : ييسر ويسهل . (٣) فى أصل ا « ويؤوينا »
(٤) فى أصل ا « وجناب أمين »
(٥) أبو دواد الإيادى يضرب المثل بجاره ، لأنه حماه أعظم حماية
(٦) الحارث بن عباد : فارس النعامة ، اعتزل حرب البسوس ثم اقتحم أهوالها بعد أن قتل المهلهل ولده وقال : بؤ بشسع نعل كليب

يشهد بذلك الدانى والقاصى والحاضر والباد ، إن أغاث ملهوفا فما الأسود بن قنان يذكر ، وإن أنعش حُشاشةَ هالكٍ فما كعبُ بن مَامة على فعله وحده يشكر ، جليسهُ كجليس القعقاع بن شور ، ومُذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب[1] إلى ثور ، إلى التحلى بأمهات الفضائل ، التى أضْدَادها أمهات الرذائل ، وهى الثلاث الحكمة والعدل والعفة التى تشملها الثلاثة الأقوال والأفعال والشمائل ، وينشأ منها ما شئت من عزم وحزم ، وعلم وحلم ، وتيقظ ، وتحفظ ، واتقاء ، وارتقاء ، وصَوْل ، وطَوْل ، وسماح ونائل ، فبنور حلاه المُشْرِق ، يفتخر المغربُ على المَشْرِق ، وبمحتده[2] السامى خطره فى الأخطار ، وبيته الذى ذكرُهُ فى النباهة والنجابة قد طار ، يباهى جميع ملوك الجهات والأقطار ، وكيف لا وهو الرفيع المُنْتَمَى والنِّجَار[3] ، الراضع من الطهارة صَفْوَ ألبان ، الناشىء من السراوة وسط أحجار ، فى ضِئْضِىء[4] المجد وبحبوح الكرم ، وسَرَاوة أسرة المملكة التى أكنافها حرم ، وذؤابة الشرف التى مجاذبتها لم تُرَم ، من معشر أىِّ معشر بخلوا إن وهبوا ما دون أعمارهم ، وَجَبُنوا إن لم يحموا سوى ذِمارهم ، بنو مَرِين ، وما أدراك ما بَنُو مرين :

سُمُّ العداة وآفة الجزر   النازلون بكل معترك[5]

* والطيبون معاقد الأزر *

لهم من الهفوات انتفاء ، وعندهم من السير النبوية اكتفاء ، انتسبوا إلى بر بن قيس ، فخرجوا فى البرِّ عن القَيْس ، ما لهم القديم المعروف ، قد نفد فى سبيل المعروف ، وحديثهم الذى نقلته رجال الزحوف ، من طريق القنا والسيوف ، على

---

(١) فى أصل ا « المنتسب من الدباب » (٢) فى ب « وبمجده السامى »

(٣) المنتمى : موضع الانتماء والانتساب ، والنجار : الأصل

(٤) ضئضىء المجد : أصله

(٥) هذه الأشطار الثلاثة من قصيدة للخرنق أخت طرفة بن العبد البكرى ترثى فيها قومها وكانوا قتلوا يوم قلاب .

الْحَسَن من المقاصد موقوف ، تَحْمَدُ من صغيرهم و كبيرهم ذابِلَهم ولَدْنَهم ، فلله آباء أنجبوهم وأمهات ولَدْنَهم ، شم الأنوف من الطراز الأول (١) ، إليهـم فى الشدائد الاستناد وعليهم فى الأزمات المعوّل ، ولهم فى الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الْخطْو الواسع والباع الأطول ، كأنما عناهم بقوله جَرْوَل (٢) :

أولئك قوم إن بَنَوْا أحسوا البِنَا … و إن عاهَدُوا أَوْفَوْا و إن عَقَدوا شَدُّوا

و إن كانت النعماء فيهم جزَوْا بها … و إن أنْعَمُوا لا كَدَّروها ولا كدوا

وتعذلنى أبناء سَعْدٍ عليهـم … وما قلت إلا بالتى علمت سـعد (٣)

و بقوله الوثيق مبناه ، البليغ معناه :

قوم إذ عقدوا عقدا لجارهم … شدوا العِنَاجَ وشدوا فوقه الكَرَبَا

يزيحون عن النزيل كل نازح قاصم ، وليس له منهم عائب ولا واصم ، فهو أحق بما قاله فى منقر قيسُ بن عاصم :

لا يفطنون لعَيْبِ جارِهِمُ … وهُمُو لِحفْظِ جوارهم فُطُنُ

حلاهم هـذه الغريزة التى ليست باستكراه ولا جَعْل ، وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل ، ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالأوصاف الملوكية مستعل ، ارْفَضَّ مُزْنُهم منه عن غيث مُلِثٍّ يمحو آثار اللزبة (٤) ، وانشق غِيلهم منه عن ليث ضارٍ متقبض (٥) على برائنه للوَثْبَة ، فقل لسكان الفلا : لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم ، فلا يبالى السرحان المواشى سواء مشى إليها النَّقَرَى أو الجفلى ، بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عِرِنين ، ثم يبتلع بعد أشلاءهم المعفرة ابتلاع

---

(١) عجز بيت لحسان بن ثابت الأنصارى يمدح أبناء جفنة ملوك الشام

(٢) جرول : هو الحطيئة .

(٣) فى نسخ ديوان الحطيئة « وتعذلنى أفناء سعد عليهم »

(٤) اللزبة : الشدة ، والقحط ، والمجاعة

(٥) فى نسخة « منقبض » .

التنين ، فهوهو كما عرفوه ، وعهدوه وألفوه ، أخو المنايا ، وابن جَلاَ وَطَلاَّع الثنايا[١] ، مجتمع أشده ، قد احتنكت سنه وبان رُشْده ، جاد مُجِدّ ، محتزم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجد :

لا يشرب الماء إلا مِنْ قَليبِ دَمٍ ولا يبيت له جارٌ على وَجَلِ

أسَدِيُّ القلبِ آدَمِيُّ الرواء ، لابس جلد النمر يزوى العناد والنواء :

وليس بشاريٍّ عليه دمامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم
ولكنه يسعى عليه مفاضة دِلاَصٌ كأعيان الجراد المنظم

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين ، والوجل الوجل لاحقين به خاضعين ، قبل أن تساقوا إليه مُقَرَّنين فى الأصفاد ، ويَعْيا الفداء بنفائس النفوس والأموال على الفاد ، حينئذ يعض ذو الجهل والفَدَامة ، على يديه حَسْرَة ونَدَامة ، إذا رأى أبطال الجنود ، تحت خوافق الرايات والبُنُود ، قد لفحتهم نار ليست بذات خمود ، وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عادٍ وثمود ، زعقات تؤز الكتائب أزًّا ، وهمزا محققا للخيل بعد المد المشبع للأعنة همزا ، وسَلاًّ للهندية سلا وهَزًّا للخَطِّية هزا ، حتى يقول النسر للذئب : هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ، ثق خليفةَ الله بذاك ، فى كل مَنْ رام أذى رعيتك أوأذاك ، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى فى ذوى الشقاق والنفاق ، الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق ، وينصبون حبائل البغى والفساد فى جميع النواحى والآفاق ، فلن يجعلهم الله عز وجل من الآمنين ، أنّى وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه لا يصلح

---

(١) أخذ هذا ومابعده من قول سحيم:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
أخو خمسين مجتمع أشدى ونجذنى مداورة الشؤون

عمل المفسدين ، ولا يهدى كيد الخائنين ، وها نحن قد وَجَّهنا إلى كعبة مجدكم وجوهَ صَلَوَات التقديس والتعظيم ، بعد ما زينا معاطفها باستعطافكم بدُرِّ ثناء أبهى من در العقد النظيم ، منتظمين فى سلك أوليائكم ، متشرفين بخدمة عليائكم ، ولا فَقَدَ عزة ولا عدمها ، مَنْ قصد مَثَابتكم[١] العزيزة وخدمها ، وإن المترامى على سَنَائكم ، لجدير بحرمتكم واعتنائكم ، وكل ملهوف تبوّأ من كنفكم حصنا حَصِينا ، عاش بقيةَ عمره محروسا من الضَّيْم مصونا ، وقد قيل فى بعض الكلام : من قعدت به نكاية الأيام ، أقامته إغاثة الكرام ، ومولانا أيده الله تعالى ولى ما يزفه إلينا من مَكْرُمة بكر ، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد فى صحائف حسن الذكر ، ويروى معنعن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر ، وغيره مَنْ ينام عن ذلك فيوقَظُ ، ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ ، وما عُهِد منذ وُجِد إلا سريعا إلى داعى الندى والتكرم ، بريئا من الضجر بالمطالبة والتبرم ، حافظا للجار الذى أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بحفظه ، مستفرغا وسعه فى رَعْيه المستمر ولَحْظه ، آخذا من حسن الثناء فى جميع الأوقات والآناء بحظه :

فهو من دَوْحَة السنا فرع عز ... ليس يحتاج مجتنيه لهَزِّ

كفه فى الأمحال أغزر وبل ... وذراه فى الخوف أمنع حرز[٢]

حلمه يُسْفر اسْمُهُ لك عنه ... فتفهم يا مدعى الفهم لغزى

لا تَسَلْه شَيْئاً ولا تستنله ... نظرة منه فيك تغنى وتُجْزِى[٣]

---

(١) المثابة : المكان الذى يرجع إليه ، وأراد مستقره

(٢) الأمحال : جمع محل ، وهو الجدب .

(٣) تستنله : تطلب نواله ، وتجزى : أصله تجزىء ـ بالهمزة ـ فقلب الهمزة ياء لسكونها بالوقف وانكسار ما قبلها

فنــداه هو الفرات الذى قد عام فيــه الأنام عَوْمَ الأوز

وحِمَاه هو المنيع الذى تر جع عنـه الخطوب مرجع عجز

فدعوا ذهنــه يزاول قولى فهو أدرى بما تضمن رَمْزِى

دام يحيى بكل صنع ومن ويعافى من كل بؤس ورجز

وكأنا به قد عمل على شاكلة جلاله ، من مد ظلاله ، وتمهيد خلاله ، وتلقى ورودنا بحسن تهلله واستهلاله ، وتأنيسنا بجميل قبوله و إقباله ، و إيرادنا على حوض كوثره الْمُتْرَع بزُلَالِه(١) ، والله سبحانه يسعد مقامه العلى و يسعدنا به فى حله وارتحاله ، ومآله وحاله ، و يؤيد جنده المظفر و يؤيدنا بتأيده على نزال عدوه واستنزاله ، وهز الذَّوابل لإطفاء ذُبَالِه ، وهو سبحانه وتعالى المسؤل أن يريه قرة العين فى نفسه وأهله وخدامه وأمواله ، وأنظاره وأعماله ، وكافة شؤنه وأحواله ، وأحق ما نصل بالسلام وأولى على المقام الجليل مقام الخليفة المولى ، أزكى الصـلاة والسلام على خاتمة أنبيائه وأرساله ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع أصحابه وآله ، صلاة وسلاما دائمين أبدا موصولين بدوام الأبد واتِّصاله ، ضامنين لمجددهما ومرددهما صلاح فساد أعماله(٢) ، و بلوغ غاية آماله ، وذلك بمشيئة الله تعـالى و إذنه وفضله و إفضاله ، انتهى .

كلمة عن أبى عبد الله العقيلى

وكاتب هذه الرسالة على لسان السلطان المخلوع ، قال الوادى آشى فى حقه : إنه إمام [هذه] الصناعة ، وفارس حَلْبة القرطاس والْيَرَاعة(٣) ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة(٤) ، الذى قطف الـكمال لمانوّر ، ورتّب محاسن البديع فى درر فِقَرِه وطوّر

(١) فى أصل ا « المنزع بزلاله » تحريف

(٢) فى أصل ا « صلاح فاسد أعماله »

(٣) اليراعة : القلم

(٤) فى أصل ا « البداعة »

وغرف من بحر عجاج ، واقتطف من خاطر وَهَّاج ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربى العقيلى ، وما أحسن قوله فيمن قد ظفر به المسلمون :

ألا رب مغـــرور تنصر ضـلة لحاق به شؤم الضـــلال وشَرُّهُ
فإن يرتفع عند النصارى بالابتدا فـكم عندنا من حرف حبلٍ يجره

وقال الوادى آشى أيضا فى موضع آخر مانصه : ولشاعر العصر ، [و] مالك زمامى النظم والنثر ، [و] الفقيه العالم المتقن المتفنن العارف الأوحد النبيه النبيل ، سيدى محمد العربى وصل الله تعالى رفعة قدره ، وحرس من غِيَرِ الأيام أشعة بَدْرِه :

الحبُّ فى جُمْهُور أنوارهِ فأين الأُخوان والأُحباب
وأين أين الاجتماعات ، قد تهيأت لهن الأُسباب
وأين بنت الجبن ؟ لما بدت طارت إليها شوقا أُلباب(١)
وأين الأُلبان لأكوابها فى بُرَمِ الأرز تسكاب
واللحم بالبسباس قد ألفت لطبخه فى القدر الأُحطاب
والعود ذو دندنة يَطِّبى آثارها للطـــار دبداب
ومُلَح الأصوات قدطورحت وجاء معبـــد وزرياب
وفُضَّ للهو ختـــام ولم يسدّ فى وجه الهوى باب
وقيل للوقار قم قبل أن تسلب عنك الآن الأُثواب
وكل إنسان وما يشتهى ليس على منـــاه حُجَّابُ
مسترسلا ليس له عُذَّلٌ كلا ولا عليـــه رُقَّابُ

---

(١) فى أصل ا وقع هذا البيت هكذا :

وأين بنت الجبن ، مهما بدت طارت لها شوقا الالباب

في راحة خلعت أرسانها لمثلها تعصر الأعناب
فكل بستان قد استأسدت فيه النواوير والأعشاب
وأطلع التراب أدواحه كأنها العرب الأتراب[(١)]
لما تحلت بحلى زهرها داخلها بالحسن الأعجاب
عرائس ليس لها في سوى مائه إذ ينبه خطاب[(٢)]
إمام تبدى ثمرات بدا في جنباتهن الأرطاب
كأنه في العين ياقوت أو كأنه في الفم جُلاّبُ
هيهات هيهات أمان لها خُلّبُ برقٍ لك خلاب
ما حوت الرؤسُ أمثالها فكيف تحويهن الأذناب
قد عاق عن ذلك دهر به تعدم الأفراح والأطراب
يروم الإنسان غِلاباً لهُ والدهر للانسان غلاب

وقال رحمه الله تعالى لما نزل النصارى لمحاصرة غَرْناطة :

بالطبل في كل يوم وبالنفير نُرَاعُ
وليس من بعد هذا وذلك إلا القِرَاعُ
يارب جَبْرَكَ يرجو مَنْ هِيضَ منه الذراع[(٣)]
لا تسلبنِّيَ صَبْرًا منه لقلبي ادرّاع

وله رحمه الله تعالى في الموشحات اليدُ الطولى ، فمن ذلك قوله :

بَدْرَ أهل الزمان الرفيع القدر لا تزل في أمان من كسوف البدر

---

(١) العرب — بضمتين — جمع عروب، وهي المرأة المتحببة إلى زوجها، والأتراب : جمع الترب ، وهي اللدة

(٢) لا يتجه لي معنى هذا البيت ، وكل هذه الكلمة غث بارد سمج

(٣) في ب « يارب خيرك يرجو »

وله من أخرى :

هل يصح الأمانْ من شبيه البدر
وهو مثل الزمانْ منتم للغـدر

لم يغـرَّ الأغرَّ غيرَ غمرٍ جاهل
عيشه الحلو مُرٌّ وهو فيه ناهل
والصبا الغض مَرّْ وهو عنه ذاهل
مرشف البهرمان فوق ثغر الدر
مطمع للأمان باقتراب الدر

وعارض رحمه الله تعالى بهاتين الموشحتين الموشحة المشهورة :

ضاحك عن جُمَان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

ومن عارض هذه الموشحة ابن أرقم إذ قال :

مبسم البهرمان فى المحيا الدرى
صاد قلبى وبان وأنا لم أدر

والإنصاف أن معارضة العربى أحسن من هذه .

وله أيضاً معارضتان غير ما تقدم : الأولى قوله :

بان لى ثم بان ذا خدود حُمْرِ
ينثنى مثل بانٍ فى ثياب خضر

والثانية قوله :

هل لِمرْآك ثان فى سَنَاه الدُّرِّى
أو لحوبائى ثان عن هواها العُذْرِى
يا مليحا جلا عن محيا جميل
همت فيه ولا هيمان جميل

مل قليلا إلى مَنْ إليك يميل
عاشق فيك فان كاتم للسر
لكِ منه مكان في صميم الصدر

ومن نظم العربي المذكور لما عرض عليه السلطانُ رياسةَ كتابه من قصيدة :

أوَجْهُ سعدى انحطَّ عنه اللثام أم بدر أُفْقِي فُضَّ عنه الغمام (١)
أم أنا في حاليَ لا عقل لي أم حلم قد لاح لي في المنام
يا لك مَرْأًى من رأى حسنه هاج لقلبه غراما فهام (٢)
كأنما أقبس نور البها من وجه مولانا الإمام الهمام
ابن أبي الحسن الأسرى الذي قد كان للأملاك مسك الختام
ضرغام قد أنجب شِبْهاً له في صدق بأس ومَضاء اعتزام
حامي وسامي فأفاعيلُه تنقلها أبناء سام وحام
دام له النصر الذي جاءه والسيف من طلَى أعاديه دام
فيا أمير المؤمنين الذي له بعروة اليقين اعتصام
أبشر بجد مُقْبل لم يؤل إلى انصراف لا ولا لانصرام
وعزة لم يُفْضِ بنيانها إلى انهداد لا ولا لانهدام
لله منك مَلِكٌ جنده زُهْرُ النجوم وهو بدر التمام (٣)

ومنها :

يطرب من مادحه مثل ما يطرب قلب الصَّبِّ سجع الحمام
فيفعل الشعر بأعطافه ما ليس تفعل بهن المدام (٤)

---

(١) في نسخة عند ا « فض عنه الختام »

(٢) في نسخة « هاج إلى القلب غراما » وفي أخرى « هيج للقلب غراما »

(٣) في أصل ا « زهر الدراري وهو بدر التمام »

(٤) في أصل « ما ليس تفعله بهن المدام » .

وإن حكى فى مدحه يوسفا فحسنه يشبه زهر الكمام(١)

ومنها:

فداره ليست ببغدادهم مَعْ أنها تدعى بدار السلام

ومنها:

أسأله الإعفاء من كل ما أعْجِزُ عن حملٍ له والتزام

ومنها:

مستشفعا له بخير الورى محمد عليه أزكى السلام

ومنها :

وكل إنسان وما اختاره ورب ذى عذر قد أُضحى يُلَامْ

وآخرها :

فالحمد لله على أن غدا للشمل بعد الانصداع التئام

ولنختم هذه الترجمة بقوله :

جز بالبساتين والرياض فما أبهج مَرْئِيَّهَا وأحلاهُ(٢)

واعجب بها للنبات ولتك فى أسفله ناظراً وأعلاه

وقَدِّسِ الله عند ذاك وقل سبحانه لا إله إلا هو

سبحان وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين

والحمد لله رب العالمين

قد تم القسم الأول من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب » ويليه — إن شاء الله تعالى — القسم الثانى الخاص بالتعريف بلسان الدين ابن الخطيب

---

(١) فى ا « وإن حكى فى حسنه يوسفا * فمدحه . . إلخ »

(٢) فى أصل ا « أبهج مرآها وأحلاه » ولا يتم معها الوزن .

القسم الثانى من الكتاب

فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، وذكر أنبائه التى يَرُوق سماعُها ويتأرج نَفْحُها و يطيب ، وما يناسبها من أحوال العلماء الأفراد ، والأعلام الذين اقتضى ذكرَهُم شجونُ الكلام والاستطراد ، وفيه أيضا من الأبواب ثمانية ، موصِّلة إلى جناتِ أدبٍ قُطوفُها دانية ، وكل غُصْن منها رطيب .

الباب الأول

في أوّلية لسان الدين وذكر أسلافه ، الذين وَرِثَ عنهم المجدَ وارتضع دَرَّ أخلافِهِ[1]، وما يناسب ذلك مما لا يَعْدِلُ المنصفُ إلى خِلافه .

أقول : هو الوزير ، الشهير الكبير ، لسان الدين الطائر الصِّيت فى المغرب والمشرق المُزْرِى عَرْفُ الثناء عليه بالعَنْبر والعبير[2]، المثَلُ المضروب فى الكتابة والشعر والطبِّ ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها ومُصَنَّفاته تُخْبِرُ عن ذلك ولا ينبئك مثل خبير، علمُ الرؤساء الأعلام ، الوزير الشهير الذى خدَمَتْه السيوفُ والأقلام ، وغَنِيَ بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والإعلام ، واعترف له بالفضل أصحابُ العقول الراجحة والأحلام .

قال سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الأحمر نزيل فاس رحمه الله فى كتابه المسمى « بفرائد الجمان ، فيمن نظَمنى و إياه الزمان» فى حق المذكور مانصه : ذوالوزارتين ، الفقيه الكاتب أبوعبد الله بن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المنتزى ببلده لَوْشَةَ عبد الله ، ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله ، بن الفقيه الصالح ولى الله الخطيب سعيد ، السَّلْمانى ، اللَّوْشى ، المعروف بابن الخطيب .

وقال القاضى ابن خلدون المغربى المالكى رحمه الله فى تاريخه الكبير ، عندما أجرى ذكر لسان الدين ، ما نصه : أصل هذا الرجل من لَوْشَةَ ، على مرحلة من

---

(١) الدر — بفتح الدال — اللبن ، والأخلاف : جمع خلف — بكسر الخاء وسكون اللام — وأحله حلمة ضرع الناقة ، ويقال « رضع فلان در المجد » ونحو ذلك كناية عن كونه نشئ عليه من صغره وتعهد بما يكسبه حتى شب وترعرع ماجدا

(٢) أزرى به : عابه ، والعرف ـ بالفتح ـ الرائحة الطيبة

غَرْنَاطة فى الشمال من البسيط الذى فى ساحتها المسمى بالمرج ، وعلى وادى شنجيل [١] ، ويقال شنيل ، المخترق فى ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال ، كان له بها سلك معدود فى وزرائها ، وانتقل أبوه عبد الله إلى غَرْنَاطة ، واستخدم لملوك بنى الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ، انتهى .

وقال غيره : إن بيتهم يعرف قديما ببنى الوزير ، وحديثا ببنى الخطيب ، وسعيدٌ جَدُّه الأعلى أوّل من تلقب بالخطيب ، وكان من أهل العلم والدين والخير ، وكذلك سعيد جدّه الأقرب كان على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب ، خَيِّرًا صَدْرا [٢] ، توفى عام ثلاثة وثمانين وستمائة ، وأبوه عبد الله كان من العلماء بالأدب والطب ، وقرأ على أبى الحسن البلوطى وأبى جعفر ابن الوزير وغيرهما وأجازه طائفة من أهل المشرق ، وتوفى بطريف عام أحد وأربعين وسبعمائة شهيدا يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام المذكور مفقوداً ثابت الجأش [٣] ، شكر الله فِعلَه !

قلت : وما ذكره هؤلاء أكثره مأخوذ من كلامه عند تعريفه رحمه الله بنفسه آخِرَ « الإحاطة » ، ولنذكر ملخصه إذ صاحبُ البيت أدرى بالذى فيه ، مع ما فيه من الزيادة على ماسبق ، وهى تتم للطالب أَمَلَه وتوفِّيه .

قال رحمه الله : يقول مؤلف هذا الديوان تغمد الله خَطَله فى ساعاتٍ أضاعها ، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها ، وأوقات للاُشتغال بما لا يَعْنيه استبدل بها اللهوَ لما باعها : أما بعدَ حمدِ الله الذى يغفر الخطِيَّة ، ويَحُث من النفس اللَّجوجِ المطية ، فتحرك

---

(١) سيأتى فيما نقلناه عن ياقوت (ص ٣١٣) أنه ذكره باسم « شنجل » بدون ياء

(٢) الصدر : المتصدر على أقرانه

(٣) يقال « فلان ثابت الجأش » إذا كان بحيث لا تزعزعه الأحداث ولا تنال منه

ركائبها البَطِية(١)، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد مُيَسِّر سبل الخير الوطية(٢) والرضا عن آله وصحبه منتهى الفضل ومُناخ الطِّية(٣) ، فإننى لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذى حمل عليه فضلُ النشاط ، مع الالتزام لمراعاة السياسة السلطانية والارتباط ، والتفتُّ إليه فراقنى منه صِوَان دُرر ، ومطلع غُرَر ، قد تخلدت مآثرهم مع ذهاب أعيانهم ، وانتشرت مفاخرهم مع انطواء زمانهم ، نافَسْتُهم فى اقتحام تلك الأبواب ، ولباس تلك الأثواب ، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو فى الكتاب ، وحرصت على أن أنال منهم منهم قُرْبا ، وأخذت أعقابهم أدبا وحبا ، وكما قيل : ساقى القوم آخرُهم شُرْبًا ، فأجريت نفسى مجراهم فى التعريف ، وحذوت بها حَذْوَهم فى بابى النسب والتصريف بقصد التشريف ، والله سبحانه لا يعدمنى وإياهم واقفا يترحم ، وركابَ الاستغفار بمنكبه يَزْحَم ، عندما ارتفعت وظائف الأعمال ، وانقطعت من التكسبات حبال الآمال ، ولم يبق إلا رحمة الله التى تنتاش النفوسَ وتخلصها ، وتعينها بميسم السعادة وتخصصها ، جعلنا الله ممن حَسُنَ ذكره ، ووقف على التماس ما لديه فكره ، بمنه .

نسب لسان الدين وأوليته

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن على بن أحمد السَّلْمانى ، قرطبى الأصل ، ثم طُلَيطليه ، ثم لَوْشيه ، ثم غُرْناطيه ، يكنى أبا عبد الله ، ويلقب من الألقاب المَشْرِقية بلسان الدين (أوَّلِيَّتى) يعرف بيتُنا فى القديم ببنى وزير ، ثم حديثا بلَوْشة ببنى الخطيب ، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيى بن يحيى الليثى وأمثاله عند وقعة الرَّبَض الشهيرة ، إلى طليطلة ، ثم تسربوا محوّمين على وَطَنهم

(١) البطية : أصلها البطيئة ، فسهل الهمزة بقلبها ياء ، ثم أدغم الياء فى الياء ، كما قالوا : الخطية والرزية ، فى الخطيئة والرزيئة

(٢) الوطية — الممهدة الميسرة ، وأصلها الوطيئة

(٣) الطية — بكسر الطاء — النية والوجهة

قبل استيلاء الطاغية عليه ، فاستقر منهم بالموسطة الأندلسية جملة من الفقهاء تضمن منهم ذكرخلق ، كعبد الرحمن قاضى كورة باغة ، وسعيد المستوطن بِلَوْشَةَ[1] الخطيب بها ، المقرون اسمه بالتسويد عند أهلها ، جاريا مجرى التسمية بالمركب تاريخ الغافقى وغيره ، وسكن عَقِبهم بها ، وسكن بعضهم منتقرير مملكين إياها مختطين جبل التحصن والمنعة فنسبوا إليها .

سعيد جده الأعلى

وكان سعيد هذا من أهل العلم والخير والصلاح والدين والفضل وذكاء الفطنة[2] ، أوقفنى الوزيرُ أبو الحكم بن محمد المنتقريرى ـ وهو بقية هذا البيت وإخباريه ـ على جدار برج ببعض رُبَا أملاكنا بلوشة تطؤه الطريق المارة من غَرْنَاطة إلى إشبيلية ، وقال : كان جدّك يذيع بهذا المكان فصولا من العلم ، ويجهر بتلاوة القرآن ، فيستوقف الرفاق المدلجة الحنينُ إلى نغمته ، والخشوع إلى صدقه ، فتعرِّسُ رحالها لصَقَ جداره ، وتريح ظهرها مَوْهِنا إلى أن يأتى على ورده ، وتوفى وقد أصيب بأهله وحرمه عند ما تغلب العدوّ على بلده عَنْوة فى خبر طويل ، وقفت على مكتوبات من المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هُود أمير المسلمين بالأندلس فى غرض إعانته والشفاعة إلى الملكة زوج سلطان قَشْتَالة بما يدلُّ على نباهة قديم يفيد أثارة عبرة ، واستقالة عثرة .

عبد الله بن سعيد ، وسعيد ابنه

وتخلف ولده عبد الله جاريا مجراه فى التجلد والتمعش من حُرِّ النَّشَب ، والتزِّيى بالانقباض ، والتحلى بالنزاهة ، إلى أن توفى وخلف ولده سعيداً جدَّنا الأقرب ، وكان صدراً خيراً مستوليا على خلال حميدة ، من خط وتلاوة وفقه وحساب

---

(١) « لوشة » قال ياقوت فى التعريف بها : « لوشة — بالفتح والسكون وشين معجمة — مدينة بالأندلس غربى البيرة قبل قرطبة منحرفة يسيرا ، وهى مدينة طيبة على نهر شنجل (كذا) نهر غرناطة ، وبينها وبين قرطبة عشرون فرسخا ، وبين غرناطة عشرة فراسخ » اهـ

(٢) فى ب « وذكاء العظمة »

وأدب ، نافس جيرته بنى الطنجالى الهاشميين ، وتحول إلى غرْناطة عند ما شعر بعملهم على الثورة ، واستطلاعهم إلى النَّزْوَة التى خَضَدْت الشوكة ، واستأصلت منهم الشأفة ، وصاهر بها الأعيان من بنى أضحى بن عبد اللطيف الهمدانى أشراف جند حمص الداخلين إلى الجزيرة فى طلعة بلج بن بشير القشيرى ، ولحقه من جراء مُنَافسيه لما جاهروا السلطان بالخلعان اعتقالٌ أعتبه السلطان بعده ، وأحظاه على تفئته ، وولاه الأعمال النبيهة والخطط الرفيعة .

حدثنى من أثقه قال : عزم السلطان أن يُقْعد جَدَّك أستاذاً لولده ، فأنفت من ذلك أم الولد إشفاقا عليه من فظاظة كانت فيه ، ثم صاهر القواد من بنى الجعدالة على أم أبى ، ومَتَّتْ إلى زوج السلطان ببنوة الخؤلة ، فنبه القدر ، وانفسحت الحظوة ، وانثال على البيت الرؤساء والقرابة ، وكان – على قوة شكيمته وصلابة مكسره – مؤثراً للخمول ، محبا فى الخير ، حدثنى أبى عن أمه قالت : قلما تهنأنا نحن وأبوك طعاما حافلا لإيثاره به مَنْ كان يكمن بمسجد جواره من أهل الحاجة وأحلاف الضرورة ، يهجم علينا منهم بكل وارد ، ويجعل يده مع يده ، ويشركه فى أكيلته ، ملتذاً بموقعها من فؤاده ، وتوفى فى ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، صَهرته الشمس مستسقيا فى بعض المحول ، وقد استغرق فى ضَرَاعته ، فدلَّت الحتف على نفسه .

وتخلف والدى نابتا فى الترف نبت العليق يكنفه رَعْى أم تجر ذيل نعمة وتحنو منه على واحد تحذر عليه النسيم إذا سرى ، ففاته لتَرَفه حظ كبير من الاجتهاد ، وعلى ذلك فقرأ على الخطيب أبى الحسن البلوطى والمقرىء أبى عبد الله بن سمعون وأبى جعفر بن الزبير خاتمة الجلة ، وكان يفضله ، وانتقل

إلى لوشة بلد سَلَفه مخصوصا بلقب الوزارة إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد متخطيا إلى الحضرة هاويا إلى ملك البيضة ، فعضد أمره ، وأدخله بلده ، لدَوَاع يطول استقصاؤها ، ولما تم له الأمر صحب ركابه إلى دار ملكه مستأثراً بشقص عريض من دنياه ، وكان من رجال الكمال ، طَلْقَ الوجه ، مع الظرف ، وتضمن كتاب التاج المحلى والإحاطة رائقا من شعره ، وفُقِد فى الكائنة العظمى بطريف يوم الإثنين سابع جمادى الأولى سنة واحد وأربعين وسبعمائة ، ثابت الجأش ، غير جَزُوعٍ ولاهيَّابة ، حدثنى الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة الفقيه أبوعبدالله بن اللوشى قال : كبا بأخيك الطِّرْفُ ، وقد غشى العدو ، وجَنَحْتُ إلى إردافه ، فانحدر إليه والدُكَ ، وصَرَفنى ، وقال : أنا أولى به ، فكان آخر العهد بهما ، انتهى .

بعض مارثى به والد لسان الدين وأخوه

ومما رثى به والدُ لسان الدين وأخوه ما ذكره فى الإحاطة فى ترجمة أبى محمد عبد الله الأزدى إذ قال ما نصه : ومما كتب إلى فيما أصابنى بطريف :

خطبٌ ألمَّ فأذهبَ الأخ والأبا	رغما لأنف شاء ذلك أو أبى
قَدَرٌ جرى فى الخلق لايجُ أمرؤ	عما به جرت المقادر مَهْرَبا (١)
إما جزعت له فعذر بين	قضت الدواهى أن تَحُلَّ له ا لْحُبا
لا كان يومهما الكريه فكم وكم	فيه المجلِّى والمصلِّى قد كبَا
يوم لوى لَيَّانه لم يبق للإسلام حد مهند إلا نبَا	
وتجمعت فيه الضلال فقابلت	فيه الهدى فتفرقت أيدى سَبَا
آها لعز المحتدين صرامة	لَأَذَلَّ عز المهتدين وأذهبا
دهم المصاب فعمَّ إلا أنه	فيما يخصك ما أمرَّ وأصعبا

(١) المقادر : جمع مقدار ، وأصل الجمع المقادير — بياء منقلبة عن ألف المفرد كما فى مفاتيح وسراديب — وقد حذف الياء استغناء عنها بكسر ما قبلها ، وقد ورد فى القرآن الكريم (وعنده مفاتح الغيب) وهو جمع مفتاح ، ويقال : هو جمع مفتح

يا ابن الخطيب خطاب مكترث لما … قد ألزم البث الألد وأوجبـــا

قاسمتك الشجو المقاسمـــة التى … صارت بخالص ما محضتك مذهبا

لم لا وأنت لَدَىَّ سابق حلبة … تُزْهى بمن فى السابقين تأدَّبَا

لا عاد يوم نال منـك ولا أتت … سنة به ما الليـل أبدى كوكبا

يهنى الشهيدين الشهادةُ إنهـا … سبب يزيد من الإله تقربا

وردا على دار النـعيم وحُورها … كلفا ببرهما يزدن ترحُّبَاَ

فاستغن بالرحمن عمن قد توَى … من حزب خير من ارتضى ومن اجتبى

رد لسان الدين على صاحب المرثية

فأجبته بقولي :

أهـلا بمقدمك السنىِّ ومرحبَاَ … فلقـد حَبَانى الله منك بما حبا

وافيت والدنيا علىَّ كأنهـــا … سَمُّ الخياط وطِرْفُ صبرى قد كبا[(١)]

والدهر قد كشف القناع ولم يدع … لى عُدَّة للروع إلا أذهبـــا

صَرَف العنان إلى غير مدافع … عنى وأثبت دون نصرتى الشَّبا[(٢)]

خطب تأوبنى يضيق لهوله … رحب الفضا وتَهِى لموقعه الربا

لو كان بالوُرْقِ الصوادح فى الدجى … مابى لعاق الوُرْقَ عن أن تندبا[(٣)]

فأنَرْتَ من ظلمـاء همى مادَجَا … وقدحت من زند اصطبارى ماخبا

فـكأننى لعب الهجير بمهجتى … وبعثْتَ لى من نفحها نفس الصَّبَاَ

لا كان يومك يا طريف فطالما … أطلعت للآمال برقا خُلَّبَاَ

ورميت دين الله منك بفادح … عم البسيط مُشَرِّقًا ومغربا

---

(١) يضرب سم الخياط مثلا فى الضيق ، والخياط — بكسر الخاء — مثل المخيط والمخياط — بكسر الميم فيهما — وهو الإبرة يخاط بها ، والطرف — بالكسر — الحصان ، وكبا : عثر .

(٢) الشبا : جمع شباة ، وشباة السنان : حده .

(٣) الورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة

وخصصتنى بالرزء والثكل الذى أوهى القوى منى وهدَّ المنكبا[١]

لا حُسْنَ للدنيا لدى ولا أرى للعيش بعد أبى وصنوى مأربا[٢]

لولا التعلل بالرحيل وأننا ننضى من الأعمار فيها مركبا

فإذا ركضنا للشبيبة أدْهماً حال المشيب به فأصبح أشهبا

والملتقى كَثَبٌ وفى ورد الرَّدَى نهل الورى من شاء ذلك أو أبىٰ

لجريت طوع الحزن دون نهاية وذهبت من خلع التصبر مذهبا

والصبر أولى ما استكان له الفتى رغما ، وحق العبد أن يتأدبا

وإذا اعتمدت الله يوما مفزعا لم تلف منه سوى إليه المهربا

وواقعة طريف هذه استشهد فيها جماعةٌ من الأكابر وغيرهم ، وكان سببها أن سلطان فاس أميرَ المسلمين أبا الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المَرينى أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس برَسْم الجهاد ونُصْرة أهلها على عدوهم ، حسبما جرت بذلك عادة سلفه وغيرهم من ملوك العُدْوة ، وشمَّر عن ساعد الاجتهاد ، وجر من الجيوش الإسلامية نحو ستين ألفا ، وجاء إليه أهلُ الأندلس بقصد الإمداد ، وسلطانهُم ابن الأحمر ومن معه من الأجناد ، فقضى الله الذى لا مرد لما قَدَّره ، أن صارت تلك الجموع مُكَسَّرة ، ورجع السلطان أبو الحسن مفلولا[٣] ، وأضحى حُسام الهزيمة عليه وعلى مَنْ معه مسلولا ، ونجا برأسٍ طِمِرّةٍ ولجام ، ولا تسل كيف ، وقتل جمعٌ من أهل الإسلام ، ولمة وافرة من الأعلام ، وأمضى فيهم حكمه السيف ، وأسر ابن السلطان وحريمه وخدمه ، ونهبت ذخائره ، واستولت على الجميع أيدى

موقعة طريف

(١) الرزء — بالضم — المصاب ، والثكل — بالضم أيضا — الفقد ، وأصل المرأة الثاكل التى فقدت ولدها ، وأوهى : أضعف

(٢) صنوه — بالكسر — أراد به أخاه ، لأنهما انحدرا عن أصل واحد كالشجرتين تخرجان عن أصل واحد

(٣) مفلولا : منهزما . ووقع فى ب «مغلولا»

الـكفر والحيف(١)، واشرأبَّ العدوّ الـكافر لأخذ ما بقى من الجزيرة ذاتِ الظل الوريف ، وثبتت قدمه إذ ذاك فى بلد طريف ، وبالجملة فهذه الواقعة من الدواهى المُعْضِلة الداء ، والأرزاء التى تَضَعضع لها ركن الدين بالمغرب ، وقرت بذلك عيون الأعداء ، ولولا خشية الخروج عن المقصود لأوردت قصتها الطويلة، وسردت منها ما يحق لسامعه أن يكثر بكاءه وعَويله(٢)، وقد ألم بها الولى قاضى القضاة ابن خلدون المغربى فى كتاب « العبر ، وديوان المبتدا والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » فليراجعه من أراده فى المجلد الثامن من هذا التاريخ الجامع ، فإنه ذكر حين ساق هذه الـكائنة ما يخرس الألسن و يصم المسامع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وقول لسان الدين رحمه الله فى أوّلية سلفه « إنهم انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية — إلى آخره » أشار بذلك إلى واقعة الرَّبَض الشهيرة(٣) التى ذكرها ابن حُيَّان فى تاريخه الـكبير المسمى « بالمقتبس ، فى تاريخ الأندلس » وقص أمْرَها غيرُ واحدْ كابن الفرَضى وابن خلدون ، وملخصها أن أهل رَبَض قرطبة ثاروا على الأمير الحـكَم الأموى ، وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب إمامنا مالك رضى الله عنه وغيره ، فكانت النصرة للحـكم ، فلما ظفر وقتل من شاء أجْلَى مَن بقى إلى البلاد ، و بعضهم إلى جزيرة إقريطش ببحر الإسكندرية ، وفى قصتهم طول ، وليس هذا محلها .

والد لسان الدين

وقال لسان الدين رحمه الله أيضا فى حق والده ما حاصله : عبد الله بن سعيد

---

(١) الحيف — بفتح فسكون — الجور

(٢) العويل — بفتح العين — هو البكاء

(٣) تقدمت الإشارة إلى هذه الواقعة في الجزء الأول (ص ٣١٨ و ٣٢٠)

ابن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن على السَّلْمانى ، أبو محمد ، غرناطى الولادة والاستيطان ، لَوْشى الأصل ، طليطليه قرطبيه .

وقال فى الإكليل : إن طال الكلام ، وجمحت الأقلام ، كنت كما قيل : مادح نفسه يقرئك السلام ، وإن أحجمت ، فما أسديت فى الثناء ولا ألحمت ، وأضعت الحقوق ، وخفت ومُعاذ الله العقوق ، هذا ولو أنى زجرت طَيْرَ البيان من أوكاره ، وجئت بعُونِ الإحسان وأبكاره ، لما قضيت حقه بعد ، ولا قلت إلا بالتى علمت سَعْد[١] ، فقد كان رحمه الله ذَمِرَ عزمٍ[٢] ، ورَجُلَ رخاء وأزم ، تروق أنوار خلاله الباهرة ، وتضىء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة ، ذكاء يتوقد ، وطلاقة يحسد نورها الفرقد ، وكانت له فى الأدب فريضة ، وفى النادرة العذبة مَنادِمُ عريضه ، تكلمت يوما بين يديه فى مسائل من الطب وأنشدته أبياتا من شعرى ورقاعا من إنشائى فتهلل ، وما برح أن ارتجل :

الطب والشعر والكتابه ... سِمَاتنا فى بنى النجابه[٣]
هن ثلاث مبلغات ... مراتبا بعضُها الحجابه

ووقَّع لى يوما بخطه على ظهر أبيات بعثتها إليه أعرض عليه نمطها :

وردت كما صَدَرَ النسيم بسحرةٍ ... عن روضة جاد الغمام رباها
وكأنما هاروتُ أودع سِحْرَهُ ... فيها وآثرها به وحَبَاهَا
مصقولة الألفاظ يبهر حسنها ... فبمثلها افتخر البليغ وباهى
فقررت عينا عند رؤية حسنها ... إنى أبوك وكنت أنت أباها

---

(١) هذا مأخوذ من بيت للحطيئة ، وهو بتمامه :

وتعذلنى أفناء سعد عليهم ... وماقلت إلا بالذى علمت سعد

(٢) الذمر — بوزن كتف — الشجاع والداهية .

(٣) السمات : جمع سمة — بكسر السين — وهى العلامة

ومن نظمه قوله :

وقالوا قد دنا فاصبر ستشفى فترياق الهوى بعد الديار

فقلت هبوا بأن الحق هذا بقلبي يَمَّمُوا فبِمَ اصطبارى ؟

وقال :

عليك بالصمت فكم ناطق كلامه أدى إلى كَلْمِه

إن لسان المرء أهدى إلى غِرَّته والله من خصمه

يرى صغير الجرم مستضعفا وجرمه أكبر من جرمه

وقال :

أنا بالدهر يابنىَّ خبيرٌ فإذا شئت علمه فتعالى[(١)]

كم مليك قدِ ارتعى منه روضا لم يدافع عنه الردى ما ارتعى لا[(٢)]

كل شيء تراه يفنى ، ويبقى ربنا الله ذو الجلال تعالى[(٣)]

مولده بغرناطة فى جمادى الأولى عام اثنين وسبعين وستمائة ، وفقد يوم الوقيعة[(٤)] الكبرى بظاهر طريف ، يوم الاثنين سابع جمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبعمائة ، ورثيته بقصيدة أولها :

سِهَامُ المنايا لا تطيشُ ولا تُخطِى وللدهرِ كفٌّ تستردُّ الذى تُعطِى

وإنا وإن كنا على ثَبَجِ الدنا فلا بد يوما أن نحل على الشط[(٥)]

تساوى على ورد الردى كل وارد فلم يغن رب السيف عن ربة القرط

وسِيَّانِ ذل الفقر أو عزة الغنى ومن أسرع السير الحثيث ومن يبطى

---

(١) تعالى ، هنا : فعل أمر بمعنى أقدم وأقبل

(٢) ارتعى : فعل ماض من الرعى ، ولا : حرف نفى ، والمنفى به محذوف

(٣) تعالى ، هنا : فعل ماض بمعنى تقدس

(٤) يوم الوقيعة : أراد واقعة طريف (٥) أصل الثبج البحر

وهى طويلة .

قال : ورثاه شيخنا أبو زكريا بن هذيل بقصيدة يقول فيها :

إذا أنا لم أرْثِ الصديقَ فما عذرى ... إذا قلت أبياتا حسانا من الشعر
ولو كان شعرى لم يكن غير نُدْبة ... وأجريت دمعى لليراع عن الحبر
لما كنت أقضى حق صحبته التى ... توخَّيتها عونا على نُوَب الدهر
رمانىَ عبدُ الله يوم وداعه ... بداهية دهياء قاصمة الظهر
قطعت رجائى حين صحَّ حديثه ... فإن يوف لى دمعى فقد خاننى صبرى
وهل مؤنس كابن الخطيب لوحشتى ... أبث له همى وأودِعُه سرى

ومنها :

تولَّى وأخبار الجلالة بعده ... مُؤَرَّجة الأنباء طيبة النَّشْرِ
رضينا بترك الصبر من بَعْد بُعْده ... على قدر ما فى الصبر من عظم الأجر
أتى بفتَيِت المسك فوق جبينه ... نجيعا يفوق المسك فى موقف الحشر (١)
لقد لقى الكفارُ منه بعزمة ... لها لقيته الحور بالبر والبشر
تجلَّت عروسا جنةُ الخلد فى الوغى ... تقول لأهل الفوز لا يُغْلِكم مهرى
فكان من القوم الذين تبادروا ... إلى العالم الأعلى مع الرفقة الغر
تعالوا بنا نسقى الأباطح والربا ... بقطر دموع غالبات على القطر
ألا لا تلم عينى لسكب دموعها ... فما سكبت إلا على الماجد الحر

---

(١) فتيت المسك : ما تكسر وتفتت به ، والنجيع : الدم ، يريد أن ريح دمه الذى أريق فى المعركة كريح المسك ، وهو مأخوذ من حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشهداء ، وفيه « فإنهم يبعثون يوم القيامة وأوداجهم تشخب دما ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » أو كما قال صلى الله عليه وسلم

ومنها :

أإخواننا جِدُّوا فكم جَدَّ غيركم وسيروا على خف من الحوب والوزر
على سَفَرٍ أنتم لدار تأخرت وما الفوز فى الأخرى سوى خيمة الظهر
وما العيش إلا يقظة مثل نومة وما العمر إلا كالخيال الذى يَسْرِى
على الحق أنتم قادمون فشمروا فليس لمخذول هنا لك من عذر

وهى طويلة ، تجاوز الله عنا وعنهم أجمعين ! انتهى ماخلصته من كلام لسان الدين رحمه الله .

ترجمة أبى بكر ابن عاصم بقلم ابنه

قلت : على منوال كلامه فى تحلية أبيه النبيه نسَجَ الوزيرُ الكاتب الشهير القاضى أبو يحيى بن عاصم القيسى الأندلسى رحمه الله فى وصف أبيه القاضى أبى بكر ابن عاصم صاحب التحفة فى علم القضاء ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الأندلسى الغرْناطى ، قاضى الجماعة ، الرئيس أبو بكر، ونص المحتاج إليه فى هذا المحل من كلام ولده قوله رحمه الله : إن بسطت القول ، أوعددت الطَّوْل[١] ، وأحكمت الأوصاف ، وتوخَّيْتُ الإنصاف[٢] ، أنفدت الطروس[٣] ، وكنت كما يقول الناس فى المثل من مدح العروس[٤] ، وإن أضربْتُ عن ذلك صفحا فلبئسما صنعت ، ولشر ما أمسكت المعروف ومنعت ، ولكمْ من حقوق الأبوة أضعت ، ومن ثَدْى للمعَقَّةِ رَضَعْت[٥] ، ومن شيطان لغَمْصَة الحق[٦] أطعت ، ولم أرد إلا الإصلاح ما استطعت ، وإن توسطت واقتصرت ، وأوجزت واختصرت ، فلا الحقَّ نصرت ، ولا أفنان البلاغة هصرت ، ولا سبيلَ الرشد أبصرت ، ولا عن هوى الحَسَدَة أقصرت ،

(١) الطول — بفتح فسكون — الفضل
(٢) توخيت الإنصاف : قصدته
(٣) الطروس : جمع طرس ، وهو ما يكتب فيه من كاغد ونحوه
(٤) قطعة من مثل ، وهو بتمامه « من يمدح العروس إلا أهلها »
(٥) المعقة : العقوق ، وهو ضد البر
(٦) غمصة الحق : أراد كفران النعمة وترك الشكر عليها

هذا ولو أنى أجهدت ألسنة البلاغة فجهدت ، وأيقظت عيون الإجادة فسهدت [١] ، واستعرت مواقف عُـكاظ [٢] على ما عهدت ، لما قررت من الفضل إلا ما به الأعداء قد شهدت ، ولا استقصيت من المجد إلا ما أوصت به الفئة الشانئة لخلفها الأبتر وعهدت ، فقد كان ـ رحمه الله ! ـ علم الكمال ، ورجل الحقيقة ، وقارا لا يخف راسيه ، ولا يَعْرَى كاسيه ، وسكونا لا يطرق جانبه ، ولا يرهب غالبه ، وحلما لا تزل حَصاته [٣] ، ولا تهمل وَصَاته ، وانقباضا لا يتعدى رَسْمُه ، ولا يتجاوز حكمه ، ونزاهة لا ترخص قيمتها ، ولا تلين عزيمتها ، وديانة لا تحسر أذيالها ، ولا يَشِفّ [٤] سِرْبالها ، وإدراكا لا يفل نَصْله ، ولا يدرك خصله ، وذهنا لا يَخْبو نوره ، ولا ينبو مَطْروره [٥] ، وفهما لا يخفى فلقه ، ولا يهزم فيلقه ، ولا يلحق بحره ، ولا يعطل نحره ، وتحصيلا لا يفلت قنيصه ، ولا يسام حريصه ، بل لا يحل عقاله ، ولا يَصْدَأ صِقاله ، وطلبا لا تتحد فنونه ، ولا تتعين عيونه ، بل لا تحصر معارفه ، ولا تقصر مصارفه ، يقوم أتم قيام على النحو على طريقة متأخرى النحاة ، جمعا بين القياس والسماع ، وتَوْجيه الأقوال البصرية ، واستحضار الشواهد الشعرية ، واستظهار اللغات والأَعْرِبة ، واستبصارا فى مذاهب المعربة ، مُحَلِّياً أجياد تلك الأعاريب ، من علمى البديع والبيان بجواهر أسلاك ، ومُجَلِّياً فى آفاق تلك الأساليب ، من فوائد هذين الفنين زواهر أفلاك ، إلى ما يتعلق بذلك من قافيـة للعروض وميزان ، وما للشعر من بحور وأوزان ، تضلع بالقراآت أكمل اضطلاع ، مع التحقيق والاطلاع ، فيقنع ابنُ الباذش من إقناعه ، ويشرح لابن شريح ما أشكل

---

(١) سهدت ـ بالبناء للمجهول مضعف الهاء ، أو من باب فرح ـ أطيل أرقها

(٢) عكاظ ـ بضم العين ، بزنة غراب ـ اسم موضع قريب من مكة كانت تقوم فيه سوق ، وكان يحضرها الشعراء والخطباء فيتناشدون ويتفاخرون

(٣) الحصاة : العقل

(٤) يشف : يبين ما تحته

(٥) المطرور : المحدد

من أوضاعه ، ويقصر عن رتبته الدانى ، ويُحْرز صدر المنصة من حرز الأمانى ،
ويشارك فى المنطق وأصول الفقه والعَدَد[١] والفرائض والأحكام مشاركةً حسنة ،
ويتقدم فى الأدب نظما ونثرا وكتبا وشعرا ، إلى براعة الخط ، وإحكام الرسم ،
وإتقان بعض الصنائع العملية ، كتفسير الكتب ، وتنزيل الذهب ، وغيرها ،
نشأ بالحضرة العلية لايغيب عن حلقات المشيخة ، ولايَرِيمُ[٢] عن مظان الاستفادة ،
ولايفتر[٣] عن المطالعة والتقييد ، ولايسأم من المناظرة والتحصيل ، مع المحافظة التى
لاتنخرم ولا تنكسر ، والمُفَاوضة فى الأدب ونظم القريض والفكاهة التى لاتقدح
فى وقار ، انتهى ملخصا .

وقد أطال فى تعريفه بأوراق عدة ، ثم قال : مولده فى الربع الثالث من يوم
الخميس ثانى عشر جمادى الأولى من عام ستين وسبعمائة كما نقلته من خط ابنه ، ثم
قال : وله مسائل متعددة فى فنون شتى ضمنها كل سديد من البحث وصحيح النظر ،
وأما كتبه فالدر النفيس ، والياقوت الثمين ، والرَّوْض الأُنفُ ، والزهر النضير ،
نصاعَةَ لفظٍ ، وإصابة غرض ، وسهولة تركيب ، ومتانة أسلوب ، انتهى .

ثم ذكر مشيخته وأطال ، ثم سرد تآليفه : الأرجوزة المسماة بتحفة الحكام ،
والأرجوزة المسماة بمَهْيع الوصول[٤] فى علم الأصول أصول الفقه ، والأرجوزة الصغرى
المسماة بمرتقى الوصول للأصول كذلك ، والأرجوزة المسماة بنيل المنى فى اختصار
الموافقات ، والقصيدة المسماة بإيضاح المعانى فى القراآت الثمانى ، والقصيدة المسماة
بالأمل المرقوب فى قراءة يعقوب ، والقصيدة المسماة بكنز المفاوض فى علم الفرائض ،

(١) العدد : الحساب ، وهو من ألزم اللوازم لإتقان علم الفرائض (تقسيم التركات)
(٢) لايريم : لايبرح ولا يفارق
(٣) لايفتر : لايضعف
(٤) المهيع : الطريق الواضح

والأرجوزة المسماة بالموجز فى النحو ، حاذى بها رَجَزَ ابن مالك فى غرض البسط له والمحاذاة لقصده ، والكتاب المسمى بالحدائق فى أغراض شتى من الآداب والحكايات

توفى بين العصر والمغرب يوم الخميس حادى عشر شوال عام تسعة وعشرين وثمانمائة ، انتهى كلام الوزير ابن عاصم ، وإنما ذكرته لأن أهل الأندلس يقولون فى حقه : إنه ابن الخطيب الثانى ، ولولا خوف الإطالة لذكرت بعض إنشائه ونظمه ، فإنه فى الذِّرْوَة العليا ، وقد ذكرت جملة من ذلك فى « أزهار الرياض ، فى أخبار عياض ، وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض » .

عود إلى ترجمة لسان الدين وسلفه

ولنرجع إلى الترجمة المقصودة فنقول : والسلْمَانى نسبة سَلْمَان ــ باسكان اللام على الصحيح ــ قال ابن الأثير : والمحدّثون يفتحون اللام ، وسلْمَان : حى من مُرَاد من عرب اليمن القحطانيين ، دخل الأندلس منهم جماعة من الشام ، وسلفُ لسان الدين رحمه الله تعالى ينتسبون إليهم كما سبق فى كلامه ، وهو مشهور إلى الآن بالمغرب بابن الخطيب السلْمَانى ، ولذلك خاطبه شيخُهُ شيخ الكتاب الرئيس أبو الحسن بن الجياب حين حل مالقة بقوله :

أيا كتابى إذا ما جِئْتَ مالقة ... دارَ المكارمِ من مَثْنَى ووُحْدَان

فلا تُسَلِّم على ربع لذى سَلَمَ ... بها وسلم على ربع لسَلْمَانِ

فأجابه لسانُ الدين رحم الله تعالى الجميع بقوله :

ياليت شعرىَ هل يُقْضَى تألفنا ... ويَثْنِيَ الشوقَ عن غاياته الثانى[1]

---

(١) « ليت شعرى » معناه المراد منه ليتنى أعلم جواب الاستفهام الذى يذكر بعده ، وخبر « ليت » ملتزم الحذف فى هذه العبارة ، وتقدير الكلام : ليت علمى حاصل ، ويثنى : يميل ، والثانى : اسم الفاعل منه

أو هل يحن على نفسى مُعذِّبها أو هل يرق لقلبى قلبىَ الثانى

وعلى ذكر نسبة ابن الخطيب لسلْمَان فقد تذكرت هنا بيتا أنشدنيه لنفسه صاحبُنَا الوزيرُ الشهير الكبير البليغ صاحب القلم الأعلى سيدى أبو فارس عبدالعزيز القَشْتَالى — صَبَّ الله تعالى عليه شآبيبَ رحماه ! — من قصيدة نونية مدح بها سيد الوجود ، صلى الله عليه وسلم ! وتخلص إلى مدح مولانا السلطان المنصور بالله أبى العباس أحمد الحسنى أمير المؤمنين صاحب المغرب رحمه الله تعالى ، وهو :

أولئك فَخْرِى إن فَخَرْتُ على الوَرَى ونافَسَ بيتى فى الولا بيت سَلْمَان

وأراد كما أخبرنى ببيت سلمان القبيلة التى منها لسان الملة والدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ! أشار إلى ولاء الكتابة للخلافة ، كما كان لسان الدين السلمانى رحمه الله تعالى كذلك ، وفيه مع ذلك تورية بسَلْمَان الفارسى رضى الله عنه وأرضاه .

وقد رأيت أن أسردَ هنا هذه القصيدة الفريدة ، لبلاغتها التى بَذَّتْ[1] شعر اليتيمة والخريدة ، ولأن شجون الحديث الذى جرَّ إليها ، شوقتنى إلى معاهدى المغربية التى أُكْثِرُ البكاء عليها ، بحضرة المنصور بالله الإمام ، سقى الله تعالى عِهادها صَوْبَ الغمام ، حيث الشباب غض يانع ، والمؤمَّلُ لم يحجبه مانع ، والسلطان عارف بالحقوق ، والزمان وهو أبو الورى لم يُشَبْ بره[2] بالعقوق ، والليالى مسالمة غير رامية من البين بنبَال ، والغربة الجالبة للكربة لم تخطر ببال ، ورؤساء الدولة

---

(١) بذت : فاقت ، و « اليتيمة » اسم كتاب أبى منصور الثعالبى جمع فيه أخبار وأشعار جماعة من أعيان الشعراء فى القرن الرابع الهجرى ، و « الخريدة » اسم عدة كتب أشهرها « خريدة القصر ، وجريدة أهل العصر » للعماد الأصفهانى ، وقد جعله ذيلا على « دمية القصر » للباخرزى الذى جعله ذيلا على « يتيمة » الثعالبي

(٢) لم يشب — بالبناء للمجهول — لم يخلط ولم يمزج .

الحسنية السنية ساعُونَ فيما يوافق الغرض ويلائم ، والأيام ثغورُهَا بواسم ، وأوقاتها أعياد ومَوَاسم ، وأفراح وولائم ، فلله فيها عيش ما نسيناه ، وعزطالما اقتبسنا نور الهدى من طورسيناه .

مَضَى مامَضَى من حُلْوعَيْشٍ ومره كأنْ لم يكن إلا كأضغاث أحلام

وهذا نص القصيدة :

نونية القشتالى

هم سَلَبُونى الصبر والصَبْرُ من شانى وهُمْ حَرَمُوا من لذة الغَمْضِ أجفَانى (١)

وهم أخفروا فى مهجتى ذِمَم الهوى فلم ينههم عن سفكها حبىَ الجانى (٢)

لئن أترعوا من قهوة البين أ كؤسى فشوقهمُ أضحى سميرى وندمانى

وإن غادرتنى بالعراء حمولهم لَقًى إن قلبى جاهد إثر أظعان (٣)

قِفِ العيس واسأل ربعهم أيَّةً مضوا ألِلجزع ساروا مدلجين أم البان (٤)

وهل باكروا بالسفح من جانب اللوى مَلَاعِبَ آرام هناك وغزلان

وأين استقلُّوا هل بهضب تهامة أناخوا المطايا أم على كُثْب نعمان

وهل سال فى بطن المسيل تشوقا نفوس ترامت للحمى قبل جثمان

وإذ زجرُوها بالعشى فهل ثنَى أزِمَّتَهَا الحادى إلى شعب بوَّانِ

وهل عرَّسوا فى دير عبدون أم سروا يؤم بهم رهبانهم دير نجران

سَرَوْا والدجى صبغ المطارف فانثنى بأحداجهم شتى صفات وألوان

وأدلج فى الأسحار بيض قبابِهِمْ فلحن نجوما فى معارج كثبان

لك الله من ركب يرى الأرض خطوة إذا زَمَّهَا بدنا نواعم أبدان

---

(١) الغمض — بالفتح ، وبالضم — النوم

(٢) أخفروا ذمم الهوى : نقضوا عهوده ، وواحد الذمم ذمة ، بكسر الذال فيهما

(٣) يقال « هـذا شىء لقى » بفتح اللام ، مثل عصى — ويراد منه أنه ملقى مهمل متبدد

(٤) العيس : الإبل ، والواحد أعيس والأنثى عيساء .

أرِحْهَا مطايا قد تمشى بها الهوى تمشى الحميا فى مفاصل نشوان (١)
ويمم بها الوادى المقدس بالحمى به الماء صَدًّا والكلا نَبْتُ سَعْدَانِ (٢)
وأهْدِ حلول الحجر منه تحيةً تفاوح عَرْفاً ذاكِىَ الرَّنْد والبان
لقد نفحت من شيح يثرب نفحة فهاجت مع الأسحار شوقى وأشجانى
وفتت منها الشرق فى الغرب مسكةً سحبت بها فى أرض دارين أردانى (٣)
وأذكرنى نجـدا وطيب عَرَارهِ نسيم الصَّبا من نحو طيبة حيانى
أحن إلى تلك المعاهد ، إنها معاهد راحاتى ورَوْحِى وريحانى
وأهفو مع الأشواق للوَطَن الذى به صح لى أنسى الهنىُّ وسلوانى
وأصبو إلى أعلام مكة شائقاً إذا لاح برق من شمام وثهلان
أُهَيْلَ الحمى دينى على الدهر زورة أحث بها شوقا لكم عزمى الوانى
متى يشتفى جفنى القريح بلحظة تزجُّ بها فى نوركم عين إنسانى
ومن لى بأن يدنو لقاكم تعطفاً ودهرِىَ عنى دائما عِطْفَه ثانى
سقى عهدهم بالخيف عهد تمده سوافحُ دمع من شؤنِىَ هتَّانِ (٤)
وأنعم فى شط العقيق أراكة بأفيائها ظل المنى والهوى دانى
وحَىِّ ربوعا بين مروة والصفا تحية مشتاق لها الدهرَ حَيْرَانِ
ربوعا بها تتلو الملائكة العـلا أفانينَ وحى بين ذكر وقرآن
وأول أرض باكرت عَرَصَاتِهَا وطرزت البطحا سحائبُ إيمان
وَعرَّسَ فيهـا للنبوة موكب هو البحر طام فوق هضبٍ وغيطان

---

(١) الحميا : الخمر

(٢) أخذ عجز هذا البيت من قولهم فى مثل « ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان »

(٣) دارين : بلد اشتهر بالمسك ، وإليه ينسب فيقال مسك دارى »

(٤) الشؤن : مجارى الدمع ، واحدها شأن

وأدى بها الروحُ الأمين رسالة … أفادت بها البشرى مدائح عنوان (١)

هنالك فص ختمه أشرف الورى … وفخر نزار من معد بْنِ عدنان

محمد خـــير العالمين بأسرها … وسيد أهل الأرض ملأ نس والجان

ومن بشرت فى بعثه قبل كونه … نوامس كهان وأخبار رهبان

وحكمة هذا الكون لولاه ماسَمَتْ … سماء ولا غاضت طوافح طوفان

ولا زخرفت من جنة الخلد أرْبُعٌ … تسبح فيها الحور مع جمع وِلْدَانِ

ولا طلعت شمس الهدى غب دجية … تجهم من ديجورها ليلُ كفرانِ

ولا أحدقت بالمذنبين شفاعة … يذود بهـا عنهم زَبَانِيَ نيران (٢)

له معجزات أخرست كلَّ جاحد … وسَلَّتْ على المرتاب صارم برهان

له انشق قرص البدر شقين وارتوى … بماء هَمَى من كفه كلُّ ظمآن

وأنطقت الأوثان نطقا تبرأت … إلى الله فيـه من زخارف مَيَّانِ (٣)

دعا سرحة عجما فلبت وأقبلت … تجر ذيول الزهر ما بين أفنـان

وضاءت قصور الشأم من نوره الذى … على كل أفق نازح القطر أودانى

وقد بهج الأنوا بدعوته التى … كَسَتْ أوجه الغبراء بهجة نَيْسَان

وإن كتاب الله أعظم آية … بها افتضح المرتاب وابتأس الشانى

وعدى على شأو البليغ بيـانه … فهيهات منه سَجْعُ قُسٍّ وسَحْبَان

نبى الهدى من أطلع الحق أنجما … محا نورُها أسدافَ إفك وبهتان

لعزتهـا ذل الأكاسرة الألى … هم سلبوا تيجانها آلَ ساسانِ

---

(١) الروح الأمين : جبريل عليه السلام النازل بالوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

(٢) الزبانية : الملائكة الموكلون بالنار ، سموا بذلك لأنهم يزبنون أهل النار ، أى يدفعونهم ويسوقونهم إليها ، وفى التنزيل الكريم «فليدع ناديه سندعو الزبانيه»

(٣) الميان : الكثير المين ، وهو الكذب

وأحرز للدين الحنيفي بالظُّبا تراثَ الملوكِ الصيد من عهد يونان (١)
ونقع من سُمْر القنا السم قيصرا فجرعه منه مجاجة ثعبان
وأضحت ربوع الكفر والشك بَلْقعاً يناغي الصدى فيهن هاتف شيطان (٢)
وأصبحتِ السَّمْحا ترِف نضارة ووجه الهدى بادي الصباحة للراني (٣)
أيا خير أهل الأرض بيتاً ومحتدا وأكرم كل الخلق عجم وعربان
فمن للقوافي أن تحيط بوصفكم ولو ساجلت سَبْقاً مدائحَ حسان
إليك بعثناها أماني أجدبت لتسقى بمزن من أياديك هتان
أجرني إذا أبدى الحساب جرائمي وأثقلتِ الأوزار كفة ميزاني
فأنت الذي لولا وسائل عزه لما فتحت أبواب عفو وغفران
عليك سلام الله ما هبت الصبا وماست على كثبانها مُلْدُ قضبان
وحمل في جيب الجنوب تحية يفوح بمسراها شذا كل تَوْقانِ
إلى العمرين صاحبيك كليهما وتلوهما في الفضل صهرك عثمان
وحَيَّا عليا عَرْفها وأريجها ووالى على سبطيك أوفر رضوان
إليك رسول الله صممت عزمة إذا أزمعت فالشحط والقرب سيان
وخاطبتُ مني القلب وهو مقلب على جمرة الأشواق فيك فلَبَّانِي
فياليت شعري هل أزم قلائصي إليك بدارا أو أقلقل كيراني
وأطوي أديمَ الأرض نحوك راحلا نواجي المَهَارى في صحاصح قيعان
يرنحها فَرْطُ الحنين إلى الحمى إذا غرد الحادي بهن وغناني

(١) الظبا — بضم الظاء — حد السيوف
(٢) البلقع — بزنة جعفر — الخالي الموحش
(٣) السمحا : أصلها السمحاء ، وأراد الملة الإسلامية ، وترف — بالراء المهملة — أصله رفيف الأغصان ، ووقع في ب « تزف » بالزاي ، والراني : الناظر ، رنا يرنو

وهل تمحون عنى خطايا اقترفتها ... خُطًا لىَ فى تلك البقاع وأوطان (١)
وماذا عسى يَثْنى عِنانى و إن لى ... بآلك جاها صهوةَ العز أمطانى (٢)
إذاندّ عن زوّارك البأس والعنا ... فجود ابنك المنصور أحمد أغنانى
عمادى الذى أوطا السماكين أخمصا ... وأوفى على السبع الطباق فأدنانى
متوّج أملاك الزمان و إن سطا ... أحل سيوفا فى معاقد تيجان
وقارى أسود الغاب بالصيد مثلها ... إذا اضطرب الخطىّ من فوق جدران
هِزَبْر إذا زار البلاد زئيره ... تضاءل فى أخياسها أسد خفّان
و إن أطلعت غيم القتام جيوشُه ... وأرزم فى مركومه رعد نيران
صَبَبْنَ على أرض العداة صواعقا ... أسلن عليهم بحر خسف ورجفان
كتائب لو يعلون رَضْوَى لصدعت ... صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصا من كل أروع مُعْلَم ... وكل كمىّ بالرُّدَيْنِىّ طَعّانِ
إذا جن ليلُ الحرب عنهم طلَى العدا ... هدتهم إلى أوداجها شهب خُرصان
من اللاء جرَّعْنَ العدا غصَصَ الردى ... وعَفّرن فى وجه الثرى وجه بستان
وفتحن أقطار البلاد فأصبحت ... تؤدى الخراج الجزل أملاكُ سودانِ
إمام البرايا من على نجاره ... ومن عترة سادوا الورى آل زيدان
دعائم إيمان وأركان سودد ... ذَوُو هِمَم قد عرّسَتْ فوق كيوان
هم العلويون الذين وجوههم ... بدور إذا ما أحلكت شهب أزمان
وهم آل بيت شيد الله سمكه ... على هضبة العلياء ثابت أركان

---

(١) خطا : جمع خطوة ، وهو فاعل « تمحون » والخطايا : جمع خطيئة بمعنى الذنب ، وهو مفعول « تمحون »

(٢) أصل الصهوة — بفتح الصاد وسكون الهاء — مقعد الفارس من الفرس ، وأمطانى : أركبنى مطاه ، والمطا — بزنة العصى — الظهر

وفيهم فشا الذكر الحكيم وصرحت بفضلهمُ آيات ذكر وفرقان
فروع ابن عم المصطفى ووصيه فناهيك من فخرين قُرْبى وقربان
ودوحة مجد مُعْشب الروض بالعلا يجود بأمواه الرسالة ريان
بمجدهم الأعلى الصريح تشرفت مَعَدٌّ على العرباء عادٍ وقحطان
أولئك فخرى إن فخرت على الورى ونافَسَ بيتى فى الولا بيت سلمان
إذا اقتسم المداحُ فضلَ فخارهم فقسميَ بالمنصور ظاهر رجحان
إمام له فى جبهة الدهر ميسم ومن عزه فى مَفْرِقِ الملك تاجان
سما فوق هامات النجوم بهمة يحوم بها فوق السموات نسران
وأطلع فى أفق المعالى خلافة عليها وشاح من علاهُ وسِمْطَانِ
إذا ما احتبى فوق الأسرة وارتدى على كبرياء الملك نخوة سلطان
توسمت لقمان الحجا وهو ناطق وشاهدتُ كسرى العدل فى صدر إيوان
وإن هزه حر الثناء تدفقت أنامله عرفا تدفق خلجان
أيا ناظر الإسلام شِمْ بارق المنى وباكر لروض فى ذرا المجد فَيْنَانِ (١)
قضى الله فى علياك أن تملك الدُّنَا وتفتحها ما بين سوس وسودان
وأنك تطوى الأرض غير مدافع فمن أرضِ سودان إلى أرض بغدان (٢)
وتملؤها عدلا يرف لواؤه على الهرمين أو على رأس غمدان
فكم هنأت أرض العراق بك العلا ووافت بك البشرى لأطراف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم أتاك استلابا تاجُ كسرى وخاقانِ

(١) تقول « شام فلان البرق يشيمه » إذا نظر إليه ليعرف أين يمطر ، وباكر : اذهب فى وقت البكور ، وذرا الشىء : أعلاه ، إن فتحت الذال فهو مفرد ، وإن ضممت الذال فهو جمع ذروة ، وفينان : أخضر ملتف مورق

(٢) بغدان : لغة فى بغداد ، ويقال « بغداذ » أيضا

ولو نشر الأملاكَ دهرُكَ أصبحت | عِيالاً على علياك أبناء مروان[١]
وشايعك السفاح يقتاد طائعا | برايته السوداء أهل خراسان[٢]
فما المجد إلا ما رَفَعْتَ سماكه | على عُمُدَىْ سُمْرِ الطوال ومُرَّان
وهاتيك أبكار القوافى جليتها | تغازلهن الحورُ فى دار رضوان[٣]
أتتك أميرَ المؤمنين كأنها | لطائم مسك أو خمائل بستان
تعاظمن حُسْناً أن يقال شبيهها | فرائد در أو قلائد عقيان
فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها | وللدين تحميه بملك سليمان
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزرا | تقاد لك الأملاك فى زى عبْدَان[٤]

انتهت القصيدة التى فى تغزلها شرح الحال ، وأعرب عما فى ضمير الغربة والارتحال ، ولنُعزِّزْهَا بأختها فى البحر والروى ، قصيدة القاضى الشهير الذكر ، الأديب الذى سلبت النهى كواعبُ شعره إذ أبرزها من خُدُور الفِكر ، الشيخ الإمام سيدى أبو الفتح محمد بن عبد السلام ، المغربى التونسى نزيل دمشق الشام ، صَبَّ الله على ضريحه سِجَالَ الرحمة والإنعام ! فإنها نفث مصدور غريب ، وبث مَغْدور أديب ، فارق مثلى أوطانه وما سَلاَهَا ، وقرأ آيات الشجو وتَلاَهَا ، وتمنى أن يجودَ له الدهرُ برؤية مُجْتلاَها ، وهى قوله رحمه الله وأنشأها بدمشق عام واحد وخمسين وتسعمائة :

نونية أبى الفتح المغربى

سلوا البارق النجدىَّ عن سُحْبِ أجفانى | وعما بقلبى من لواعج نيران
ولا تسألوا غير الصَّبا عن صبابتى | وشدّة أشواقى إليكم وأشجانى

---

(١) نشر الأملاك : أعادهم إلى الوجود ، والأملاك : جمع ملك ، والعيال — بكسر العين — العالة الذى لايعول نفسه (٢) السفاح : لقب أول الخلفاء العباسيين

(٣) دار رضوان : أراد بها الجنة ، أضافها إلى خازنها

(٤) عبدان : أحد جموع عبد

فمالى سواها من رسـول إليكم سريع السُّرَى فى سيره ليس بالوانى (١)

فيـا طال بالأسحار ما قد تكفلت بإنعاش محزون و إيقاظ وسنـان (٢)

وتنفيس كرب عن كئيب متيم يحنّ إلى أهل ويصبو لأوطان

فلله ما أذكى شَذَا نَسْمة الصَّبَـا صباحا إذا مرت على الرند والبان (٣)

وسارت مسير الشمس وَهْنًا فأصبحت من الشرق نحو الغرب تجرى بحسبان

وقد وقفت بالشام وقفـة حامل نوافجَ مسكٍ من ظبـاء خراسان (٤)

لترتاض فى تلك الرياض هنيأة وتزداد من أزهارها طيبَ أردانِ (٥)

وما غربت حتى تضاعف نَشْرُهَا بواسطتى رَوْح هناك وريحان

فكم نحـو كم حملتها من رسالة مدوّنة فى شرح حالى ووجـدانى

وناشـدتها بالله إلا تفضلت بتبليغ أحبابى السلامَ وجـيرانى

تحيـة مشتاق إلى ذلك الحمى وسكانه والنازحين بأظعـان

سقى الله هاتيك الديار وأهلهـا سحائب تحكى صَوْبَ مدمعى القانى

وحَيَّا ربوع الحى من خـير بلدة تخيرها قدماً أفاضـلُ يونان

هى الحضرة العليا مدينـة تونس أنيسـة إنسان رآها بإنْسَانِ

لها الفخر والفضل المبين بمـا حوت من الأنس والحسن المنوط بإحسان

لقـد حل منها آل حفص ملوكها مراتب تسمو فوق هامـة كيوان

وسـادوا بها كلَّ الملوك وشيدوا بها من مبانى العز أفخر بنيان

وكان لهم فيهـا بهـاء وبهجة وحسن نظام لا يعـاب بنقصان

---

(١) السرى — بضم السين — هو هنا السير مطلقا ، وأصله خاص بسير الليل والوانى : الفاتر الضعيف

(٢) الوسنان : النائم ، وأصله السنة — بكسر السين — وهى أول النوم

(٣) الشذا — بفتح الشين — الريح ، والرند والبان : نبتان طيبا الرائحة

(٤) نوافج المسك : أوعيته ، واحدها نافجة

(٥) الأردان : جمع ردن ، وهو أصل الكم

وكان لهم فيهـــا عساكر جمة ... تصول بأسياف وتسطو بمُرَّانِ

جيوش وفرسان يضيق بها الْفَضَا ... وتُحْجِم عنها الفرس من آل ساسان

وكان لأهليها المفاخِرُ والعـــلا ... وكان بهـــا حصنًا أمانٍ وإيمَان

وكان على الدنيـــا جمال بحسنها ... وحسن بنيها من ملوك وأعيـــان

وكانت لطلاب المعارف قبـــلة ... لما فى حماها من أئمـــة عرفان

وكان لأهل العـــلم فيها وجاهة ... وجاه وعز مجـــده ليس بالفانى

وكان بواديها المقدَّسِ فتيـــة ... تُقَدِّسُ باريهـــا بذ كر وقرآن

ومن أدباء النظم والنـــثر معشر ... تفوق بناديهـــا بلاغة سَحْبَانِ (١)

وكانت على الأعداء فى حَوْمَة الوغى ... تطول بأبطال وتسطو بشجعان

وما برحت فيها محاسن جَمَّة ... وفى كل نوع أهل حِذْقٍ و إتقان

إلى أن رمتهـــا الحادثات بأسهم ... وسلت عليها سيف بغى وعُدْوَانِ

فمـــا لبثت تلك المحاسن أن عَفَتْ ... وأقفر ربع الْأُنس من بعد سكان (٢)

وشُتِّتَ ذاك الشمل من بعـد جمعه ... كما انتثرت يوما قلائل عقيـــان

فأعْظِمْ برُزء خص خيرمدينـــة ... وخير أناس بين عُجْمٍ وعُرْبَانِ

لعمرى لقد كادت عليهـــا قلوبنا ... تضرم من خطب عراها بنـــيران (٣)

وقد عمنـــا غم بعظم مصابها ... وإن خَصَّنِي منـــه المضرُّ بجثمانى

وما بقيت فيما علمنـــاه بلدة ... من الشرق إلا ألبِسَتْ ثوبَ أحزان

فصبرا أخى صبراً على المحنـــة التى ... رمتك بها الأقدار ما بين إخوان

(١) سحبان وائل : أشهر خطباء العرب فى الجاهلية

(٢) عفت : درست وانمحت معالمها

(٣) الخطب : الرزء الفادح ، وعراها : نزل بها

فما الدهر إلا هكذا فاصطبر له ... رزية مال أو تفرق خلان[(١)]

أأحبابنا إن فرق الدهر بيننا ... وطال مغيبي عنكم منذ أزمان

فإني على حفظ الوداد وحقكم ... مقيم ، وما هجر الأحبة من شاني

ووالله والله العظيم ألية ... على صدقها قامت شواهدُ برهان[(٢)]

لقد زاد وجدي واشتياقي إليكم ... وبَرَّحَ بي طولُ البعاد وأضناني

فلا تحسبوا أني تسليت بعدكم ... بشيء من الدنيا وزُخْرُفها الفاني

ولا أنني يوما تناسيت عهدكم ... بحال ، ولا أن التكاثُرَ ألهاني

ولاراقني روض ، ولا هشَّ مسمعي ... لنغمة أطيار ورنَّةِ عِيدان

ولا حل في فكري سواكم بخلوة ... ولا جلوة ما بين حُورٍ ووِلْدَان

ولا اختلجت يوما ضمائر مهجتي ... لغيركم في سرسري وإعلاني

ولو لم أُسَلِّ النفس بالقرب واللقا ... لأدرج جسمي في مقاطع أكفاني

فما أنا من عَوْدِي إليكم بآيس ... فما اليأس إلا من علامة كفران

عليكم سلام الله في كل ساعة ... تحية صَبٍّ لا يدين بسُلْوان

مدى الدهر ما ناحت مُطَوَّقة وما ... تعاقب بين الخافقين الجديدان

ولصاحب الترجمة لسان الدين ابن الخطيب قصيدة طنانة بهذا الوزن والقافية ، مدح بها السلطانَ أبا سالم المَرِيني حين فتح تلمسان ، وقد رأيت إيرادها في هذا الباب ، لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الأعراب ، الذي حير الألباب ، وللمناسبة أسباب ، لاتخفى على من له فكر مصيب * وكل غريب للغريب نسيب *[(٣)] وهي :

---

(١) « رزية » مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : شأنه رزية مال — إلخ

(٢) الألية — بفتح الهمزة وكسر اللام وتشديد الياء — الحلف والقسم

(٣) هذا عجز بيت من كلام امرىء القيس بن حجر الكندي ، وهو بتمامه :

أيا جارتا إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى وقد لهَجَتْ نفسى بفتح تِلِمْسَانِ

فأطلعتها تفتر عن شَنَب المُنَى وتُسفِر عن وجه من السعد حيانى

كما ابتسم النوّار عن أدمع الحيا وجف بخد الورد عارضُ نيسان

كما صففت ريح الشمال شمولها فبان ارتياحُ السكر فى غُصُن البان

تهنيك بالفتح الذى معجزاته خوارق لم تذخر سواك لإنسان

خففت إليها والجفون ثقيلة كما خف شَثْنُ الكف من أسد خفّانِ

وقدت إلى الأعداء فيها مبادرا ليوثَ رجال فى مناكب عقبان

تمد بنودُ النصر منهم ظلالهَا على كل مطعام العشيات مطعان

جحاجحة غر الوجوه كأنما عمائمهم فيها معاقد تيجان

أمدك فيها الله بالملأ العلا فجيشك مهما حقق الأمر جَيْشَانِ

لقد جليت منك البلاد لخاطب لقد جنيت منك الغصون إلى جانى

لقد كستِ الإسلامَ بيعتك الرضا وكانت على أهليه بيعة رضوان

ولله من ملك سعيد ونصبه قضى المشترى فيها بعزلة كيوان

وسجل حكم العدل بين بيوتها وقوفا مع المشهور من رأى يونان

فلم تخش سهم القوس صفحة بدرها ولم تشك فيها الشمس من بخس ميزان

ولم يعترض مبتزها قطع قاطع ولا نازعت بو بهرها كف عدوان

تولى اختيار الله حُسْنَ اختيارها فلم يحتج الفرغان فيها لفرغان

ولا صرفت فيها دقائق نسبة ولو خفقت فيها طوالع بلدان

وجوه القضايا فى كمالك شأنها وجوب إذا خصت سواك بإمكان

ومَنْ قاس منك الجود بالبحر والحيَا فقد قاس تمويها قياس سفسطانى(١)

وطاعتك العظمى بشارة رحمة وعصيانك المحذور نزغة شيطان

---

(١) سفسطانى : نسبة إلى السفسطة ، وهى قياس مركب من الوهميات ، والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته .

وحبك عنوان السعادة والرضـا ويعرف مقدار الـكتاب بعنوان
ودين الهدى جسم وذاتك روحه وكم وُصْلَةٍ ما بين روح وجثمان
تضنّ بك الدنيا ويحرسك العلا كأنك منها بين لحظ وأجفان
بَنَيْتَ على آساس أسلافك العلا فلا هُدِمَ المبنى ولا عُدِمَ البانى
وصاحت بك العليا فلم تك غافلا ونادت بك الدنيا فلم تك بالوانى (١)
ولم تك فى خوض البحار بهائب ولم تك فى نيل الفخار بكسلان
لقد هزّ منك العزمُ لمـا انتضيتـه ذوائبَ رضوى أومناكبَ ثهْلَان (٢)
ولله عينـا من رآها محـلـة هى الحشر لاتحصى بعدّ وحسبان
وتَنُّور عزم فار فى إثر دعـوة يعم الأقاصى والأدانى بطوفان
عجائب أقطار ، ومألف شـارد وأفلاذ آفاق ، وموعد ركبان
إذاماسرحت اللحظ فى عَرَصَاتها تبلد منك الذهن فى العالم الثانى
جناحان والنصر العزيز اهتصاره إذا انتظمت بالقلب منهاجناحان
فمن سُحُب لاحت بهاشهب القنا ومن كثب بيض بدت فوق كثبان (٣)
مضارب فى البطحاء بيض قبابها كما قلبت للعين أزهار سوسان
وما إن رأى الراؤن فى الدهر قبلها قرارة عزفى مـدينة كتان
تفوت التفات الطرف حال اقتبالها كأنك قد سَخَّرْتَ جن سليمان
فقد أطرقت من خوفها كل بِيعَةٍ وطأطأ من إجلالها كل إيوان
وقد ذعرت خَوْلَان بين بيوتها غداة بدت منها البيوت بخولان
فلو رميت مصر بها وصعيدها لأضحت خلاء بلقعا بعد عمران
ولو يممت سيف بن ذى يَزَنٍ لما تقرّر ذاك السيف فى غمد غمدان
تُراع بها الأوثان فى أرض رومة إذاخَيَّمَتْ شرقا على طرق أوثان

---

(١) الوانى : الفاتر الضعيف ، ونى ينى فهو وان (٢) رضوى وثهلان : جبلان
(٣) كثبان : جمع كثيب ، وهو ما اجتمع وتراكم من الرمل

وتجفل إجفال النعـــام ببرقة　　ليوث الشرى مابين ترك وعربان
وعرضا كيوم العرض أذْهَلَ هوله　　عيانى ، وأعيانى تعدد أعيـان
وجيشا كقطع الليل للخيل تحته　　إذا صَهَلَتْ مفتنة رَجْعُ ألحان
فيومض من بيض الظبا ببوارق　　ويقذف من سمر الرماح بشهبان
ويمطر من ودق السهام بحاصب　　سحائبه من كل عوجاء مِرْنَانِ (١)
وجرداً إذا ما ضمرت يوم غاية　　تعجبت من ريح تقاد بأرسان (٢)
تُسَاَقِ ظلمـاَنَ الفلاة بمثلها　　وتذعر غزلان الرمال بغزلان
ودون مهبِّ العزم منك قواضب　　أبى النصر يوما أن تلم بأجفان
نظرت إليها والنجيعُ لباسها　　فقلت سيوف أم شقائق نعمان
تفتح وردا خدها حين جردت　　ولا ينكر الأقوام خجلة عريان
كأن الوغى نادت بهـا لوليمـة　　قد احتفلت أوضاعها منذ أزمان
فإن طعمت بالنصر كان وضوءها　　نجيعا ووافاها الغبار بأشـنان
لقـد خلصت لله منك سجية　　جزاك على الإحسان منك بإحسان
فسيفك للفتح المبين مصاحب　　وعزمك والنصر المؤزَّرُ إلفـان
فرح واغد للرحمن تحت كلاءة　　وسرحان فى غاب العدا كل سرحان
ودُمْ والمنى تدنى إليـك قطافها　　ميسر أوطار ممهـد أوطان
وكن واثقـا بالله مستنصرا به　　فسلطانه يعلو على كل سلطان
كفاك العدا كافٍ لملكك كافل　　فضدك نِضْوٌ مَيِّتٌ بين أكفان
رضا الوالد المولى أبيك عرفتـه　　وقد أنكر المعروف من بعد عرفان
فـكم دعوة أولاك عنـد انتقاله　　إلى العـالم الباقى من العالم الفانى
فعرفت فى السراء نعمـة منعم　　وألحفت فى الضراء رحمة رحمان

(١) مرنان : ذات صوت

(٢) أرسان : جمع رسن ، وهو ما تقاد به الدابة

عجبت لمن يبغى الفخار بدعوة   مجردة من غير تحقيق برهان
وسنة إبراهيم فى الفخر قد أتت   بكل صحيح عن على وعثمان
ومن مثل إبراهيم فى ثَبْت موقف   إذاما التقى فى موقف الحرب صَفَّانِ
إذا هم لم يلفت بلحظة هائب   وإن من لم ينفث بلفظة مَنَّانِ
فصاحة قس فى سماحة حاتم   وإقدام عمرو تحت حكمه لقمان
شمائل ميمون النقيبة أروع   له قصبات السبق فى كل ميدان
محبته فرض على كل مسلم   وطاعته فى الله عقدة إيمان
هنيئا أمير المسلمين بنعمة   حبيت بها من مطلق الجود منان
لزَيَّنْتَ أجياد المنابر بالتى   أتاح لها الرحمنُ فى آل زَيَّانِ
قلائد فتح هن لكن قدرها   تَرَفَّعَ أن يدعى قلائد عقيان
أمولاى ، حُبِّى فى علاك وسيلتى   ولطفك بى دأبا بمَدْحِكَ أغرانى
أياديك لا أنسى على بعد المدى   نعوذ بك اللهمَّ من شر نسيان
فلا جَحْدُ ما خَوَّلتنى من سجيتى   ولا كفر نعماك العميمة من شانى
ومهما تعجلْتَ الحقوقَ لأهلها   فإنك مولاى الحقيقُ وسلطانى
وركنى الذى لما نبابِىَ منزلى   أجاب ندائى بالقبول وآوانى
وعالَجَ أيامى وكانت مريضة   بحكمة من لم ينتظر يوم بحران
فأمننى الدهر الذى قد أخافنى   وجَدَّدَ لى السعد الذى كان أبلانى
وخَوَّلَنى الفضل الذى هو أهله   وشيكا وأعطانى فأنعم أعطانى(١)
تخوّننى صرف الحوادث فانْثَنَى   يقبل أردانى ومن بعدُ أردانى(٢)
وأزعجني من منشئى ومُبَوَّئى   ومعهد أحبابى ومألف جيرانى
بلادى التى فيها عقدت تمائمى   وجم بها وَفْرِى وجل بها شانى

(١) أعطانى فى آخر البيت : جمع عطن ، وأراد به مسكنه

(٢) أردانى الأولى : جمع ردن ، وهو الكم وأردانى الأخيرة فعل ماض فيه ضمير يعود لصرف الحوادث ، والنون للوقاية ، والياء ضمير المتكلم

تحدثنى عنها الشمال فتنثنى وقد عرفت منى شمائل نَشْوَانِ
وآمل أن لا أستفيق من السكرى إذا الحلم أوطانى بها ترب أوطانى (١)
تَلَوَّنَ إخوانى على وقد جنت على خطوب جمة ذات ألوان
وما كنت أدرى قبل أن يتنكروا بأن خِوَانٍ كان مجمع خُوَّانِى
وكانت وقد حُمَّ القضاء صنائعى على بما لا أرتضى شر أعوانى
فلولاك بعد الله يامالك العلا وقد فت ما ألفيت من يتلافانى
تداركت منى بالشفاعة منعما بر يثارماه الدهر فى موقف الجانى
فإن عرف الأقوام حقك وفقوا وإن جهلوا باؤا بصفقة خسران
وإن خالطوا عرفا بنكر وقصروا وزنت بقسطاس قويم وميزان
وحرمة هذا اللحد يأبى كمالها هضيمة رد أو حطيطة نقصان
وقد نمتُ عن أسرى ونبهت همة تحدق من علو إلى صرح هامان (٢)
إذا دانت الله النفوسُ وأملت إقالة ذنب أو إنالة غفران
فمولاك يا مولاى قبلة وجهتى وعهدة إسرارى وحجة إعلانى
وقفت على مَثْوَاه نفسى قائما بترديد ذكر أو تلاوة قرآن
ولو كنت أدرى فوقها من وسيلة إلى ملك الأرضى لشمرت أردانى
وأبلغت نفسى جهدها غير أننى طلابىَ ما بعد النهاية أعيانى
قرأت كتاب الحمد فيك لعاصم فصحح أدائى واقتدائى و إتقانى
فدونكها من بحر فكرىَ لؤلؤا يفصل من حسن النظام بمرجان
وكان رسول الله بالشعر يعتنى وكم حُجَّةٍ فى شعر كعب وحسان
ووالله ما وفيت قدرك حقه ولكنه وُسْعِى ومبلغ إمكانى

---

(١) أوطانى الأولى : أصلها أوطأنى فسهل الهمزة بقلبها ألفا

(٢) أخذها من قول بشار * فنبه لها عمرا ثم نم *

كتاب لسان الدين بشأن فتح تلمسان

وكتب لسان الدين رحمه الله قبل هذه القَصيدة نثرا من إنشائه يخاطب به السلطان أبا سالم المذكور ، وذلك أنه ورد على لسان الدين وهو بشالة سلا كتابُ السلطان المذكور بفتح تلمسان ، وكان وروده يوم الخميس سابع عشر شعبان عام واحد وستين وسبعمائة ، ونص ما كتب به لسان الدين : مولاى فتاح الأقطار والأمصار ، فائدة الأزمان والأعصار ، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار ، قدوة أولى الأيدى والأبصار ، ناصر الحق عند قعود الأنصار ، مُسْتَصْرَخ الملك الغريب من وراء البحار ، مصداق دعاء الأب المولى فى الأصائل[1] والأسحار ، أبقاكم الله سبحانه لا تقف إيالتكم عند حد ، ولا تُحْصَى فتوحاتُ الله تعالى عليكم بعدٍّ ، ولا تفيق أعداؤكم من كدّ ، مُيسَّراً على مقامكم ما عسر على كل أب كريم وجد ، عَبْدُكم الذى خاص إبريز عبوديته لملك ملككم المنصور ، المعترف لأدنى رحمة من رحماتكم بالعجز عن شكرها والقُصُور ، الداعى إلى الله سبحانه أن يَقْصر عليكم سعادة العصور ، ويذلّلَ بعز طاعتكم أنف الأسَدِ الهَصُور[2] ، ويبقى الملكَ فى عقبكم وعقب عقبكم إلى يوم ينفخ فى الصور ، فلان من الضريح المقدس بشالة ، وهو الذى تعددت على المسلمين حقوقه ، وسطع نوره وتلألأ شروقه ، وبلغ مجده السماء لما بسقت فروعه ووَشَجَتْ عُروقه ، وعظم ببيوتكم فخرا فما فوق البسيطة فخر يفوقه ، حيث الجلال قد رست هِضابه ، والملك قد كسيت بأستار الكعبة الشريفة قِبابه ، والبيت العتيق قد ألحفت الملاحف الإمامية أثوابه ، والقرآن العزيز ترتل أحزابه ، والعمل الصالح يرتفع إلى الله ثوابه ، والمستخبر يخفى بالهيبة سؤاله فيبهر بنعرة العز جوابه ، وقد تفيأ من أوراق الذكر الحكيم حديقة ، وخميلة أنيقة ، وحط بجوديّ الجود نفسا فى طوفان الضر غريقة ، والتَحَفَ رفرف الهيبة التى لا تهتدى النفس فيها إلا بهداية الله تعالى طريقة ، واعتز بعزة الله وقد

(١) الأصائل : جمع أصيل ، وهو الوقت قبيل غروب الشمس

(٢) الأسد الهصور - بفتح الهاء ، بزنة صبور - الذى يكسر فريسته

توسط جيش الحرمة المرينية حقيقة ، إذ جعل المولى المقدس المرحوم أبا الحسن مقدمة وأباه وجده وثيقة ، يرى بركم بهذا اللحد الكريم قد طنب عليه من الرضا فُسْطَاطا ، وأعلق به يدَ العناية المرينية اهتماما واغتباطا ، وضمن له حسن العقبى التزاما واشتراطا ، وقد عقد البصر بطريقة رحمتكم المنتظرة المرتقبة ، ومد اليد إلى لطائف شفاعتكم التى تتكفل بعتق المال كما تكفلت بعتق الرقبة ، وشرع فى المراح بميدان نعمتكم بعد اقتحام هذه العَقَبة ، لما شنفت الأذن البشرى التى لم يبق طائر إلاَّ سجع بها وصَدَح ، ولا شهاب دُجُنَّة إلا اقْتَبَسَ من نورها واقتدح ، ولا صدر إلا انشرح ، ولا غصن عطف إلا سرحْ ، بشرى الفتح القريب ، وخبر النصر الصحيح الحسن الغريب ، فتح تلمسان الذى قلد المنابر عقودَ الابتهاج ، ووهب الإسلام منيحة النصر غَنِيَّةً عن الانتهاج ، وألحف الخلق ظلا ممدودا ، وفتح باب الحج وكان مسدودا ، وأقرعيونَ أولياء الله الذين يذكرون الله قياما وقُعُودا ، وأضرع بسيف الحق جِبَاها أبيَّةً وخدودا ، وملككم حق أبيكم الذى أهان عليه الأموال ، وخاض من دونه الأهوال ، وأخلص فيه الضراعة والسؤال ، من غير كد يغمز عِطْفَ المسرة ، ولا جهد يكدر صفو النعم الثرة ، ولا حصر ينفض به المنجنيق ذؤابته ، ويظهر بتكرار الركوع إنابته ، فالحمد لله الذى أقال العِثار ، ونظم بدعوتكم الانتثار [1] ، وجعل ملككم يجدد الآثار ، ويأخذ الثار ، والعبد يهنئ مولاه ، بما أنعم الله تعالى به عليه وأولاه ، فإذا أجال العبيدُ قِدَاحَ السرور فللعبد المُعَلَّى والرقيب [2] ، وإذا اسْتَهَمُوا حظوظ الجذل فلى القسم الوافر والنصيب ، وإذا اقتسموا فريضة شكر الله فلى الحظ والتعصيب ، لتضاعف أسباب العبودية قِبَلى ، وترادف النعم التى عجز عنها قولى وعَمَلِى ، وتقاصر فى ابتغاء مكافأتها وجدى وإن تطاول أملى ، فمقامكم المقام الذى نفس الكُرْبَة ، وآنس الغربة ، ورعى الوسيلة

---

(١) الانتثار : التفرق والتشتت

(٢) المعلى : أكبر قداح الميسر حظا ، والرقيب : يليه

والقربة ، وأنعش الأرماق[١] ، وفك الوَثَاق ، وأدرَّ الأرزاق ، وأخذ على الدهر بالاستقالة العهدَ والميثاق ، وإن لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء ، ويمثل بين يدى الخلافة العظيمة السنى والسَّنَاء ، ويمد بسبب اليد إلى تلك السماء ، فقد باشر به اليد التى يحن مولاى لتذكر تقبيلها ، ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الأبوية وتكميلها ، ووقفت بين يدَىْ ملك الملوك الذى أجال عليها القداحَ ، ووصل فى طلب وصالها بالمساء الصباحَ ، وكان فتحه إياها أبا عُذْرَة الافتتاح ، وقلت : يهنيك يا مولاى رد ضالتك المنشوده ، وجبر لقطتك المعرفة المشهوده ، ورد أمتك المودوده ، فقد استحقها وارثك الأرْضَى ، وسيفك الأمْضَى ، وقاضى دَيْنِك ، وقرة عينك ، مستنقذ دارك من يد غاصبها ، وراد رتبتك إلى مناصبها ، وعامر المثوى الكريم ، وساتر الأهل والحريم ، مولاى هذه تلمسان قد طاعت ، وأخبار الفتح على ولدك الحبيب إليك قد شاعت ، والأمم إلى هنائه قد تداعت ، وعدوّك وعدوه قد شردته المخافَه ، وانضاف إلى عرب الصحراء فخفضته الإضافة ، وعن قريب تتحكم فيه يد احتكامه ، وتسلمه السلامة إلى حِمَامه ، فليَطب يا مولاى نفسك ، وليستبشر رمسك ، فقد نَمَتْ بركتك وزكا غرسك ، نسأل الله أن يورد على ضريحك من أنباء نصره ما تفتح له أبواب السماء قبولا ، ويترادف إليك مددا موصولا ، وعددا آخرته خير لك من الأولىٰ ، ويعرفه بركة رضاك ظعنا وحلولا ، ويُضْفِى عليك منه سترا مسدولا ، ولم يقنع العبد بخدمة النثر ، حتى أجهد القريحة التى ركضها الدهر فأنضاها[٢] ، واستشفهَّا الحادث الجلل فتقضاها ، فلفق من خدمة المنظوم مايتغمد[٣] حلمكم تقصيرَه ، ويكون إغضاؤكم إذالقى معرة العتب وليه ونصيره ، وإحالة مولاى على الله فى نفسى جبرَها ، ووسيلة عرَفَها مجده فما أنكرها ، وحرمة بضريح مولاى والدِهِ شكرها ، ويطلع العبد منه على كمال

---

(١) الأرماق : جمع رمق ، وهو بقية النفس فى الجسم

(٢) أنضاها : أتعبها وأجهدها (٣) يتغمد : يستر

أمله ، ونجح عَمَلِه ، وتسويغ مقترحه وتتميم جذله * أطاع لسانى فى مديحك إحسانى *
إلى آخر القصيدة التى تقدّمت .

نونية الفقيه الزجال عمر

وحيث افتضت المناسبة جَلْبَ هـذه النونيات فلنضف إليها قصيدة أديب الأندلس الفقيه عمر صاحب الأزجال ، إذ هو من فرسان هذ المَجَال ، وقد وطأ لها بنثر ، وجعل الجميع مقامة ساسانية ، سماها « تسريح النصال، إلى مقاتل الفصال » ونصها : يا عماد السالـكين ، ومحط المستفيدين والمتبركين ، وثمال الضعفاء والمسا كين المتروكين ، فى طريقك يتنافس المتنافس ، وعلى أعطافك تُزْهَى العباآت وتروق الدَّلافس ، و بكتابك تحيي جوامد الأفهام ، و بمذبتك تشرد ذئاب الأوهام ، وفى زنبيلك يدس التالد والطارف، و بعصَاك يهش على بدائع المعارف ، الله الله فى سالك ، ضاقت عليه المسالك ، وشاد ، رُمِيَ بإبعاد ، أدركته متاعب الحرفه ، وأقيم من صف أهل الصُّفَّه ، فلا يجد نشاطا ، على ما يتعاطى ، ولا يلفى اغتباطا ، إن حَلَّ زاوية أو نزل رِبَاطا ، أقصى عن أهل القرب والتخصيص ، وابتلى بمثل حالة برصيص ، فأحيل عليك ، وتوقفت إقالته على ثوبه بين يديك ، فكانبَكَ استدعاء ، واستوهب منك هداية ودعاء ، ليسير على ما سويت ، ويتحمل عنك أشتات ما رويت ، فيلقى الأكفاء الظرفاء عزيزا ، ويباهى بك كل من خاطبك مستجيزا ، فاصرف إلى محيا الرضا ، وعُدْ من إيناسك للعهد الذى مَضَى ، ولا تلقنى معرضا ولا معرضا ، وأَصِخْ لى سمعك كما قدر الله تعالى وقَضَى :

تعال نجددها طريقةَ ساسانِ	نقصُّ عليها ماتوالى الجـديدان[1]
ونَصْرِفْ إليها من مشار عزائم	ونحلف عليهـا من مؤكد أيمان
ونعقد على حـكم الوفاء هواءنا	لنـأمَنَ من أقوال زور و بهتان
ونقسم على أن لا نصدِّقَ واشيا	يروح ويغدو بين إثم وعدوان

(١) ساسان آخر ملوك الفرس ، وقد جرت عادة الأدباء على أن يسموا أهـل الـكدية بأبناء ساسان ، والجديدان : الليل والنهار

يطوف حوالينا ليفسد بيننا بمنطق إنسان وخدعة شيطان
على أننا من عالم كلما بدا تعوذ منه عالم الإنس والجان
وحاشاك أن تلفى عن الصلح معرضا إلى الصلح آلت حرب عبس وذبيان
وإنى أهمتنى شؤون كثيرة وصلحك أولى ما أقدم من شانى
فأنت إمامى إن كلفت بمذهب وأنت دليلى إن صدعت ببرهان
سأرعاك فى أهل العباآت كلما رأيتك فى أهل الطيالس ترعانى
ويا لابسى تلك العباءات إنها لباس إمام فى الطريقة دِهْقَانِ
تفرقت الألوان منها إشارة بأنك تأتى من حلاك بألوان
ويا بأبى الفصال شيخ طريقه خلوب لألباب لعوب بأذهان
إذا جاء فى الثوب المحبر خلته زنيبيرة قد مُدَّ منها جناحان
فما تأمن الأبدان آفة لسعها وإن أقبلت فى سابغات وأبدان
سأدعوك فى حالات كيدى وكُدْيَتى بشيخى ساسان وعمى هامان
فإن كان فى الأنساب منا تباين فما تنكر الآداب أنا نسيبان
ألا فادعُ لى فى جنح ليلك دعوة لتنجح آمالى ويرجح ميزانى
لك الطائر الميمون فى كل وجهة سريت إليها غير نِكْسٍ ولاوانى
فكم من فقير بائس قد عرفته فرفَّتْ عليه نعمة ذات أفنان
وكم من رفيع الجاه واليت أنسه فعاش قرير العين مرتفع الشان
فلو كنت للفتح ابن خاقان صاحبا لما خانه المقدور فى ليلة الخان (١)
ولو كنت للصابى صديقا ملاطفا لما قُبِلَتْ فيه مقالة بهتان
ولو كنت من عبد الحميد مقربا لما هزم السفاح أشياع مروان
ولو كنت قد أرسلتها دعوة على أبى مسلم ما حاز أرض خُراسانِ

(١) الفتح بن خاقان: صاحب «قلائد العقيان» مات قتيلا فى الخان الذى كان ينزل به، ويقال: إن الذى أشار بقتله هو أمير المسلمين أبو الحسن على بن يوسف ابن تاشفين أخو أبى إسحاق إبراهيم الذى ألف له الفتح كتاب القلائد

ولو كنت فى يوم الغبيط مراسلا — لبسطام لم تهزم به آل شيبان
ولو كنت فى حرب الأمين لطاهر — لما هام فى يوم اللقاء ابن ماهان
ولو كنت فى مغزى أبى يوسف لما — رماه بغدر عبـــده فى تلمسان
ولو أن كسرى يَزْدَجِرْدَ عرفتـه — لـما لاح مقتولا على يد طحان
ولو أن لذريقـــا وطئت بساطة — لما أثرت فيــــه مكيدة إليان
وفيما مضى فى فاس أُوضح شاهد — غنى لدينـــا عن بيان وتبيان
ولما اعتنى منك السعيد بكاتب — رأى ما ابتغى من عزملك وسلطان
فلا تَنْسَنِى من أهل ودك إننى — أخاف الليالى أن تطول فتنسانى
ولا خير إن تجعل كفاء قصيدتى — كفاء ابن درَّاج على مدح خيران
فجد بدنانير ولا تكُنِ التى — ألم بها الـكندى فى شعب بوان[(١)]
فجودك فينا الغيث فى رمل عالج — وفضلك فينا الخبز فى دار عثمان
وما زلت من قبل السؤال مقابلا — مرادى بإحساب وقصدى بإحسان
ولا تنس أياما تقضَّتْ كريمة — بزاوية المحروق أو دار همدان
وتأليفنا فيهـــا لقبض إتاوة — وإغرام مسنون وقسمة حلوان
وقد جلس الطرقون بالبعد مطرقا — يقول نصيبى أو أبوح بكتمان
عريفىَ يلحانى إذا ما أتيتـــه — ولم أنصرف عنكم بواجب ألحان
وقد جمعت تلك الطريقة عندنا — أئمة حُسَّاب وأعلام كهان
إذا استنزلوا الأرواح باسم تبادرت — طوائف ميمون وأشياع برقان
وإن بخروا عند الحلول تأرجت — مباخرهم عن زعفران ولوبان
وإن فتحوا الدارات فى رد آبق — ثَنَتْ عزمه أوهام خوف وخذلان
فيحسب أن الأرض حيث ارتمت به — ركائبه سرعان رجل وركبان

---

(١) أراد بالـكندى أبا الطيب المتنبى ، وقد أشار إلى قوله فى شعب بوان :

فسرت وقد حجبن الشمس عنى — وجئن من الضياء بما كفانى
وألقى الشرق منها فى ثيابى — دنانيرا تفر من البنان

وقد عاشرتنا أسرة كيموية ... أقامت لدينا فى مكانٍ وإمكان
فلله من أعيـــان قوم تألفوا ... على عقد سحر أو على قلب أعيان
ونحن على ما يغفر الله إنما ... نروح ونغدو من رباط إلى خان
مع الصبح نُضْفِيها عباءة صفة ... وبالليل نلويها زنانير رهبان
أتذكر فى سفح العقاب مبيتـكم ... ثمانين شخصا من أناث وذكران
لديكم من الألوان مالم يجىء به ... طهور ابن ذنون ولاعرسُ بُوران
وكم شائق منكم إلى عقد تـكة ... وكم هائم فيكم على حل هميان
فأطفأت قنديل المكان تعمداً ... وأومأت فانقضوا كأمثال عقبان
وناديت فى القوم الركوب فأسرعوا ... فريق لنسوان وقوم لذكران
فأقسم بالأيمان لولا تعففى ... عن السوء لانحلت عقيدة إيمانى
فعد للذى كنا عليه فإن لى ... على الغير إن صاحبته حقد غيران
فمن يوم إذ صيرت ودى جانبا ... وأعرضت عنى ما تناطح عنزان
ولا روت الكتاب بعد نفارنا ... محاورة من ثعلبـــان لسرحان
وما هو قصدى منك إلا إجازة ... تخولنى التفضيل مابين خلانى
وإنك إن سخرت لى وأجزتنى ... لنعم ولىّ صـان ودى وجازانى
ولم لا ترويني وأنت أجلُّ من ... سقانى من قبلُ الرحيقَ فروّانى
ألا فأجِـزْ يا إمام بكل ما ... رويت لمدغليس أو لابن قزمان
ولا تنس للدباغ نظما عرفته ... فإنكما فى ذلك النظم سيـــان
ومزدوجات ينسبون نظامها ... إلى ابن شجاع فى مديح ابن بطان
وألمم بشىء من خرافات عنتر ... وألمع ببعض من حكايات سوسان
وإن كنت طالعت اليتيمة وَاسِنِ ... بلامية فى الفحش من نظم واسانى

أجزنى بكشف الدك أرضى وسيلة ... وخير جليس فى بساط ودكان
وناولنىَ المصباح فهو لغربتى ... ميسر أغراضى ورائد سلوانى
وألحق به شمس المعارف إننى ... أسائل عن إسناده كل إنسان
وقد كنت قبل اليوم عرفتنى به ... ولكننى أنسيته بعد عرفان
ولا بدّ يا أستاذ من أن تجيزنى ... ببدء ابن سبعين وفصل ابن رضوان
وكتب ابن أحلى كيف كانت فإنها ... لوزن رقيق القول أكرم ميزان
ولا تنس ديوان الصبابة والصفا ... لإخوان صدق فى الصباخير إخوان
وزهر رياض فى صنوف أضاحك ... وجبذ كساء فى مكايد نسوان
كذاك فناولنى كتابَ حبائب ... وزدنى تعريفا بها وببرجان
ولى أمل فى أن أروّى رسالة ... مضمنة أخبارَ حى بن يقظان
وحبس على الكوز والكاس والعصا ... فإنك مثر من عصىٍّ وكيزان
وصير لى الدلفاس أرفع لبسة ... فقد جَلّ قدرى عن حرير وكتان
وقدرق طبعى واعترتنىَ خشية ... تكاد بها روحى تفارق جثمانى
وخل مفاتيح الطريقة فى يدى ... وسوّغ لهم حكمى مزيدى ونقصانى
فإنى لم أخدمك إلا بنية ... وإنى لم أتبعك إلا بإحسان
فكن لى بالأسرار أفْصَحَ معلنٍ ... فإنىَ قد أخلصت سرى و إعلانى

وليس قصدى ـ علم الله ـ بجلب هذه القصيدة ما فيها من المجون ، بل ما فيها من التلميحات التى يرغب فى مثلها أهل الأدب والحديثُ شجون ، على أن أمثال هؤلاء الأعلام ، لا يقصدون بمثل هذا الكلام ، إلا لمجرد الإحماض[1] ، فينبغى أن ينظر كلامَهم الواقفُ عليه بعين الإغضاء عن النقد والإغماض ، ولا يبادر بالاعتراض ، من لم يعلم فى الأصول برهان القطع والافتراض ، والله سبحانه المسئول

---

(١) تقول « أحمض القوم » تريد أنهم أفاضوا فيما يؤنسهم ويروح عنهم من حديث ، كأن ينشدوا شعرا ، والمراد منه فى هذا المقام المجون خاصة .

فى التجاوز عن الزلات ، والنجاة من الأمور المضلات ، فعفوه سبحانه وراء جميع ذلك ، والله تعالى المطلع على أسرار الضمائر ، والخبير بما هنالك ، لا رب غيره ، ولا خير إلا خيره .

نونية لابن زمرك

وحيث ذكرنا هذه القصائد النونية التى اتفق فيها البحر والروى ، وجرت من البلاغة على النهج السَّوى ، فلا بأس أن نعززها بقصيدة الرئيس الوزير أبى عبد الله بن زمرك ـ سامحه الله تعالى ! ـ وهى قصيدة ميلادية أنشدها سلطان الأندلس عام خمسة وستين وسبعمائة ، ونجعلها مكفرة لما مر فى قصيدة الفقيه عمر من المجون ، ومبلغة للناظرين فى هذا التأليف ما يرجون ، والحديث شجون ، وهى قوله :

لعل الصَّبَا إن صافحت روض نعمان ... تُؤَدِّى أمان القلب عن ظَبْية البان

وماذا على الأرواح وهى طليقة ... لو احتملت أنفاسُها حاجةَ العانى

وما حال من يستودع الريح سرهُ ... ويطلبها ، وهى النموم ، بكتمان

وكالطيف أستقريه فى سِنَةِ الكرى ... وهل تَنْقَعُ الأحلامُ غلة ظمآن[1]

أسائل عن نجد ومرمى صبابتى ... ملاعبَ غزلان الصريم بنعمان

وأبدى إذا ريح الشمال تنفَّست ... شمائل مرتاح المعاطف نشوان

عرفت بهذا الحبِّ لم أدر سلوة ... وإنى لمسلوب الفؤاد بسلوان

فيا صاحِبَىْ نجواى والحب غاية ... فمن سابق جلى مداه ومن وانى

وراءكما ما اللوم يثنى مَقَادتى ... فإنىَ عن شأن الملامة فى شان

وإنى وإن كنت الأبى قياده ... ليأمرنى حبُّ الحسانِ وينهانى

وما زلت أرعى العهد فيمن يُضيعه ... وأذكر إلفى ما حييت وينسانى

فلا تنكرا ما سامنى مَضَضُ الهوى ... فمن قبل ما أودى بقيس وغيلان[2]

(١) تنقع : تزيل حرارة جوفه وتذهب عطشه .

(٢) غيلان : هو غيلان بن عقبة المشهور بذى الرمة ، وقيس : هو قيس ابن الملوح المشهور بمجنون ليلى ، أو قيس صاحب لبنى .

لىَ الله إمّا أومض البرق فى الدجى … أقلبُ تحت الليل أجفان وَسْنَانِ

وإن سُلَّ من غمد الغمام حُسامه … برى كبدى الشوق المِلمّ وأضنانى

تراءى بأعــلام الثنية باسما … فأذكرنى العهد القـديم وأبكانى

أسامر نجم الأفق حتى كأننـا … وقد سـدل الليل الرواق حليفان

ومما أناجى الأفق أعديه بالجوى … فأرعى له سَرْحَ النجوم ويرعانى

ويرسل صوب القطر من فيض أدمعى … ويقدح زند البرق من نار أشجانى

وضاعف وجدى رسمُ دار عهدتها … مطالع شهب أو مراتع غــزلان

على حين شربُ الوصل غير مُصَرَّدِ … وصفو الليالى لم يكدّر بهجران(١)

لئن أنكرت عينى الطلول فانها … تمت إلى قلبى بذكر وعرفان

ولم أر مثل الدمع فى عرصـاتها … سقى تربها حين استهل وأظمانى

ومما شجانى أن سرى الركب مَوْهِنا … تقاد به هوجُ الرياح بأرسان

غواربُ فى بحر السراب تخالهـا … وقد سبحت فيه مواخر غربان

على كل نضو مثله فـكأنما … رمى منهما صَدْرَ المفازة سهمان

ومن زاجر كَوْمَاءَ مُخْطَفة الحشـا … توسد منها فوق عوجاء مِرْنَانِ

نَشَاوى غـرام يستميل رؤسهم … من النوم والشوق المبرح سُكْرَانِ

أجابوا نداء البين طوع غرامهم … وقد تبلغ الأوطار فرقـة أوطان

يؤمون من قبر الشفيع مَثَـابة … تطلع منها جنـة ذات أفنان

إذا نزلوا من طيبة بجـواره … فأكرمُ مولى ضم أكرم ضيفان

بحيث عَلاَ الإيمان وامتـد ظله … وزان حلى التوحيـد تعطيل أوثان

مطالع آيات ، مثابة رحمـة … معاهــد أملاك ، مظاهر إيمان

هنالك تصفو للقبــول موارد … يُسَقَّوْنَ منها فضل عفو وغفران

---

(١) تقول « صرد فلان فلانا » بتشديد الراء — إذا سقاه دون الرى ، أو سقاه متقطعا ، وقالوا « صرد فلان عطاء فلان » إذا جعله قليلا

هناك تؤدى للسلام أمانة يحييهم عنها برَوْحٍ وريحان
يناجون عن قرب شفيعَهم الذى يؤمله القاصى من الخلق والدانى
لئن بلغوا دونى وخُلِّفْتُ إنه قضاء جرى من مالك الأرض دَيَّانِ
وكم عزمة مايت نفسى صدقها وقد عرفت منى مواعدَ لَيَّانِ
إلى الله نشكوها نفوسا أبية تحيد عن الباقى وتغتر بالفانى
ألا ليت شعرى هل تساعدنى المنى فأترك أهلى فى رضاه وجيرانى
وأقضى لبانات الفؤاد بأن أرى أعفر خدى فى ثراه وأجفانى
إليك رسولَ الله دعوة نازح خفوق الحشا رَهْنِ المطامع هيمان
غريب بأقصى الغرب قيَّدَ خَطْوَه شباب تقضى فى مراح وخسران
يحن اشتياقا للعقيق وبانِهِ ويصبو إليها ما استجد الجديدان
وإن أومض البرق الحجازى مَوْهِناً يردد فى الظلماء أنَّةَ لهفان
فيا مُولىَ الرُّحمى ويا مذهب العمى ويا مُنْجى الغرقى ويا منقذ العانى
بسطت يد المحتاج يا خير راحم وذنبىَ أَلْجانِى إلى موقفِ الجانى (١)
وسيلتىَ العظمى شفاعتك التى يلوذ بها عيسى وموسى بن عمران
فأنت حبيب الله خاتم رسله وأكرم مخصوص بزُلْفَى ورضوان
وحسبك أن سماك أسماءه العلا وذاك كمال لا يشاب بنقصان
وأنت لهذا الكون عِلَّة كونه ولولاك ما امتاز الوجود بأكوان
ولولاك للأفلاك لم تجل نيِّراً ولا قُلِّدَتْ لَبَّاتهن بشهبان
خلاصة صفو المجد من آل هاشم ونكتة سر الفخر من آل عدنان
وسيد هذا الخلق من نسل آدم وأكرم مبعوث إلى الأنس والجان
وكم آية أُطلعت فى أفق الهدى يبين صباح الرشد منها ليقظان

(١) ألجانى : أصله ألجأنى ، بمعنى أكرهنى عليه واضطرنى إليه ، فسهل الهمزة بقلبها ألفا ، والجانى فى آخر البيت : اسم الفاعل من جنى يجنى .

وما الشمس يجلوها النهار لمبصر ... بأجلى ظهور أو بأوضح برهان
وأكرم بآيات تَحدَّيتنـــا بها ... ولا مثل آيات لمحكم فرقان(١)
وماذا عسى يُثْنِى البليغ وقد أتى ... ثنــاؤك فى وحى كريم وقرآن
فصلى عليك الله ما انسكب الحَيَا ... وما سجعت ورقاء فى غُصُنِ البان
وأيد مــولانا ابنَ نصر فإنه ... لأشرف من يُنْمَى لملك وسلطان
أقام كما يرضيــك مولدك الذى ... به سَفَرَ الإسلام عن وجه جذلان(٢)
سمى رسول الله ناصر دينـه ... معظمه فى حال سر وإعــلان
ووارث سر المجد من آل خزرج ... وأكرم من تنمى قبائلُ قحطان
ومرسلها ملء الفضــاء كتائبــا ... تدين لها غُلْبُ الملوك بإذعان
حدائق خضر والدروع غــدائر ... وما أنبتت إلا ذوابل مُرَّان(٣)
تَجَاوَبُ فيها الصاهــلات وترتمى ... جوانبها بالأسد من فوق عقبان
فمن كل خوّار العنان قد ارتمى ... به كل مطعام العشيات مطعان
ومُوردها ظَمْأى الكعوبِ ذوابلا ... ومصدرها من كل أَمْــلَدَ ريان
ولله منها والربوع مواحــل ... غمــام ندى كَفتِ المحلَ كفان
إذا أخلف الناسَ الغمامُ وأمحــلوا ... فإن نداه والغمام لَسِيَّانِ
إمام أعاد الملك بعــد ذهابه ... إعادة لاوانى الحسام ولاوانى
فغادر أطلال الضلال دوارســا ... وجــدد للإسلام أرفع بنيان
وشيدها والمجــد يشهد دولة ... محافلها تُزْهَى بيمن وإيمــان
وراق من الثغر الغريب ابتسامه ... وهزله الإسلام أعطاف مردان
لك الخير ما أسنى شمائلك التى ... يقصر عن إدراكها كل إنسان
ذكاء إياس فى سماحة حاتم ... وإقدام عمرو فى بلاغــة سحبان

(١) تحديتنا بها : أراد أظهرت عجزنا عن الإتيان بمثلها
(٢) جذلان : وصف من الجذل ، وهو السرور والفرح
(٣) ذوابل المران : أراد الرماح

أمولاى ما أسنى مناقبك التى هى الشهب لا تحصى بعدّ وحسبان
فلا زلت ياغوث البلاد وأهلها مُبَلَّغَ أوطار ممهد أوطان[١]

ولابن زمرك المذكور ترجمة نأتى بها[٢] فى هذا التأليف إن شاء الله تعالى فى محلها، وهو من تلامذة لسان الدين، ومن عداد خدامه، لحين نبابه الزمان، وتعوّض الخوف بعد الأمان، كان أحَدَ الساعين فى قتله كما سنذكره، وصرح بذمه وهجوه بعد أن كان ممن يشكره، وهكذا عادةُ بنى الدنيا يدورون معها حيث دارت، ويسيرون حيث سارت، ويشربون من الكأس التى أدارت، وقد تولى المذكور الوزارة عوضا عن ابن الخطيب، وصَدَحَ طيرُ عزه بعده على فَنَن من الإقبال رطيب، ثم آل الأمر به إلى القتل، كما سعى فى قتل لسان الدين، وكان الجزاء له من جنس عمله، والمرء يُدَان بما كان به يدين، وعفو الله سبحانه مرجو للجميع فى الآخرة، وهو سبحانه وتعالى المسئول أن ينيلنا و إياهم المراتب الفاخرة، فإنه لا يتعاظمه ذنب، وليس للكل غيره من رب.

رجع إلى ما كنا بسبيله — وأما لوشة التى ينسب إليها لسان الدين فقد تقدم من كلام ابن خلدون أنها على مرحلة من حَضْرَة غرناطة فى الشمال من البسيط الذى فى ساحتها المسمى بالمرج، وقد أجرى ذكرها لسان الدين فى الإحاطة وقال: إنها بنت الحضرة، يعنى غرناطة، وقال ذلك فى ترجمة ابن مرج الكحل، ولنذكر الترجمة بكمالها تتميما للغرض فنقول:

ترجمة ابن مرج الكحل

قال رحمه الله ما نصه[٣]: محمد بن إدريس بن على بن إبراهيم بن القاسم، من أهل جزيرة شقر، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن مرج الكحل، كان شاعرا مفلقا غزلا بارع التوليد رقيق الغزل، وقال الأستاذ أبو جعفر: شاعر مطبوع حسن الكتابة ذاكر للأدب متصرف فيه، قال ابن عبد الملك: وكانت بينه وبين طائفة

---

(١) الأوطار : جمع وطر، وهو الغرض والأمل
(٢) وقد ترجمه فى « أزهار الرياض » (٢/٧)
(٣) أنظر « الإحاطة » (٢/٢٥٢)

من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها إجادته ، وكان مبتذل اللباس ، على هيئة أهل البادية ، ويقال : إنه كان أميا .

من أخذ عنه ـ رَوَى عنه أبو جعفر بن عثمان الوراد ، وأبو الربيع بن سالم ، وأبو عبد الله بن الأبار ، وابن عسكر ، وابن أبى البقاء ، وأبو محمد بن عبد الرحمن ابن برطلة ، وأبو الحسن الرعينى .

شعره ودخوله غرناطة ـ قال فى عشية بنهر الغنداق من خارج بلدنا لوشةَ بنت الحضرة ، والمحسوبِ مَنْ دخلها أنه دخل البيرة ، وقد قيل : إن نهر الغنداق من أحواز بَرْجَة ، وهذ الخلاف داع لذكره :

عرج بمُنْعَرَجِ الكثيب الأعفر ... بين الفرات وبين شَطِّ الكوثر

ولتغتبقها قهوة ذهبيــة ... من راحتى أحوى المراشف أحور (1)

وعشية كم كنت أرقب وقتها ... سمحت بها الأيام بعد تعذر

فلنا بهــذا مالنا فى روضة ... تهدى لناشقها شميم العنبر

والدهر من ندم يُسَفِّه رأيه ... فيما مضى فيـه بغير تكدر

والوُرْقُ تشدو والأراكة تنثنى ... والشمس ترفل فى قميص أصفر

والروض بين مفضض ومذهب ... والزهر بين مدرهم ومدنر

والنهر مرقوم الأباطح والربا ... بمصندل من زهره ومُعَصْفر

وكأنه وكأن خضرة شطه ... سيف يُسَلُّ على بساط أخضر

وكأنما ذاك الحبـاب فرنده ... مهما طفـا فى صفحة كالجوهر

وكأنه ـ وجهاته محفوفة ... بالآس والنعمان ـ خَدٌّ مُعَذَّرِ

نهر يهيم بحسنه مَنْ لم يهم ... ويجيد فيه الشعر من لم يشعر

ما اصْفرَّ وجه الشمس عند غروبها ... إلا لفرقة حسن ذاك المنظر

---

(1) تغتبقها : تشربها غبوقا ، والغبوق ـ بفتح الغين ـ الشرب فى وقت الغداة ، وأحوى المراشف : أراد أسمر الشفة ، وسمرة الشفة مما يتمدحه العرب ، والأحور : الشديد بياض بياض العين مع شدة سواد سوادها .

ولا خفاء ببراعة هذا الشعر ، وقال منها :

أرأَتْ جفونك مثله من منظر ظل وشمس مثل خد مُعَذَّرِ(١)

وجداول كأراقم حصباؤها كبطونها وحبابها كالأظهر

وهذا تتميم عجيب لم يسبق إليه ، ثم قال منها :

وقرارة كالعشر بين خميلة سالت مَذَانبها بها كالأسطر

فكأنها مشكولة بمصندل من يانع الأزهار أو بمعصفر

أمل بلغناه بهضب حديقة قد طرزته يَدُ الغمام الممطر

فكأنه والزهر تاجٌ فوقه ملكٌ تجلى فى بساط أخضر

راق النواظر منه رائق منظر يصف النضارة عن جنان الكوثر

كم قاد خاطر خاطر مستوفز وكم استفزَّ جماله من مبصر

لو لاح لى فيما تقادم لم أقل (عرج بمنعرج الكثيب الأعفر)

قال أبو الحسن الرعينى : وأنشدنى لنفسه :

وعشية كانت قنيصة فتية أَلِفوا من الأدب الصريح شيوخا

فكأنما العنقاء قد نصبوا لها مِنَ الانحناء إلى الوقوع فخوخا

شملتهمُ آدابهم فتجاذبوا سر السرور محدِّثا ومصيخا(٢)

والورق تقرأ سورة الطرب التى ينسيك منها ناسخٌ منسوخا

والنهر قد صفحت به نارنجة فتيممت من كان فيه منيخا

فتخالهم خَلَلَ السماء كواكبا قد قارنت بسعودها المريخا

خرق العوائد فى السرور نهارهم فجعلت أبياتى له تاريخا

ومن أبياته فى البديهة قوله :

وعندى من مراشفها حديثٌ يخبر أن ريقتها مدام

---

(١) معذر : نبت عذارة ، وهو شعر الخد

(٢) مصيخا : منصتا مستمعا

وفى أجفانها السَّكرى دليل | وما ذقنا ولا زعم الهمام[1]
تعالى الله ما أجرى دموعى | إذا عنت لمقلتىَ الخيامُ
وأشجانى إذا لاحت بروق | وأطربنى إذا غنت حمام

ومن قصيدة :

عذيرى من الآمال خابت قصودها | ونالت جزيل الحظ منها الأخابث
وقالوا ذكرنا بالغنى فأجبتهم | خمولا وما ذكر مع البخل ماكث
يهون علينا أن يبيد أثاثنا | وتبقى علينا المكرمات الأثايث
وما ضر أصلا طيباً عدمُ الغنى | إذا لم يغيره من الدهر حادث

وله يتشوق إلى عمرو بن أبى غياث :

أيا عمرو متى تقضى الليالى | بلقيا كم وهن قَصَصْنَ ريشى
أبت نفسى هوى إلا شريشا | ويا بعد الجزيرة من شريش

وله من قصيدة :

طفل المساء وللنسيم تَضَوُّعُ | والأنس يجمع شملنا ويُجمِّعُ
والزهر يضحك من بكاء غمامة | ريعت لشيم سيوف برق تلمع
والنهر من طرب يصفِّق موجه | والغصن يرقص والحمامة تسجع
فانعم أبا عمران واللهُ بروضة | حسن المصيف بها وطاب المربَعُ
يا شادنَ البان الذى دون النقا | حيث الْتقَى وادى الحمى والأجْرَعُ
الشمس يغرب نورها ولربما | كسفت ونورك كل حين يسطع
إن غاب نور الشمس لسنا نتقى | بسناك ليل تفرق يتطلع
أفَلَتْ فناب سناك عن إشراقها | وجلا من الظلماء ما يتوقع
فأمنت ياموسى الغروب ولم أقل | فوددت يا موسى لو أنك يوشع

(١) أراد بسكر الأجفان فتورها ، وهو مما يمتدحونه في النساء ، وأشار بعجز البيت إلى قول النابغة الذبيانى :

زعم الهمام بأن فاها بارد | عذب إذا قبلته قلت ازدد

وقال :

ألا بشروا بالصبح من كان باكيا … أضَرَّ به الليل الطويل مع البكا
ففى الصبح للصب المتيم راحة … إذا الليل أجرى دمعه و إذا شكا
ولا عجبٌ أن يمسك الصبح عبرتى … فلم يزل الكافور للدم ممسكا

ومن بديع مقطوعاته قوله :

مَثَلُ الرزق الذى تطلبه … مثل الظل الذى يمشى معك
أنت لا تدركه متبعا … وإذا وَلَّيْتَ عنه تبعك

وقال :

دخلتم فأفسدتم قلوبا بملكها … فأنتم على ما جاء فى سورة النمل[1]
وبالجود والإحسان لم تتخلقوا … فأنتم على ما جاء فى سورة النحل[2]

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور : رأيت لابن مرج الكحل مَرْجًا أحمر قد أجهد نفسه فى خدمته ، فلم ينجب ، فقلت :

يا مرج كحل ومَنْ هذى المروجُ له … ما كان أحْوَجَ هذا المرج للكحل
ماحمرة الأرض من طيب ومن كرم … فلا تكن طمعا فى رزقها العجل
فإن من شأنها إخلاف آملها … فما تفارقها كيفية الخجل

فقال مجيبا :

يا قائلا إذ رأى مَرْجِى وحمرتَهُ … ما كان أحوج هذا المرج للكحل
هو احمرار دماء الروم سيلها … بالبيض مَنْ مَرَّ من آبائىَ الأول
أحببته أن حكى من قد فتنت به … فى حمرة الخد أو إخلافه أملى

وفاته - توفى ببلدهِ يومَ الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول عام أربعة وثلاثين وستمائة ، ودفن فى اليوم بعده ، انتهى ما فى الإحاطة فى شأن ابن مرج الكحل .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها)
(٢) يشير إلى قوله تعالى فى سورة النحل : (أينما يوجهه لا يأت بخير)

وكتب أبو الحسن على بن لسان الدين على أوّل ترجمته ما نصه : شاعر جليل القدر ، من مشايخ شعراء الأندلس ، من أهل بَلَنْسية ، وسكن جزيرة شقر .

وكتب على قوله « والنهر مرقوم الأباطح » ما صورته : لم يصف أحدٌ النهرَ بأرق ديباجةً ولا أظرف من هذا الإمام ، رحمة الله عليه ؛ اه كلام ابن لسان الدين

قلت : وما رأيت رائية تقرب من التى لابن مرج الكحل السابقة التى أولها « عرّج بمنعرج الكثيب الأعفر » إلا رائية شمس الدين بن الكوفى الواعظ ، وهى قوله :

رائية شمس الدين ابن الكوفى الواعظ

روح الزمان هو الربيع فبكر ... وانهض إلى اللذات غير منكر

هـذا الربيع يبيع من لذاته ... أصناف ما تهوى فأين المشترى

فافْرَحْ به فلِفَرْحة بقـدومه ... رَفَلَ الشقائق فى القَبَاء الأحمر (١)

والكون مبتهجٌ وخَفَّاق الصبا ... يحيى القلوب بنشره المتعطر

والغيم يبكى والأقاحى باسمٌ ... لبكائه كتبسم المستبشر

والسرو إن عبث النسيم فهز أعطـاف الغصون يميسُ ميس موقر

وكأنمـا القدّاح فستق فضة ... يهدى إليك أريج مسك أذفر

وكأنمـا المنثور فى أثوابه ... ألوان ياقوت أنيق المنظر

وترى البَهَار كعاشق متخوف ... متشوق بادٍ بوجـه أصفر

وكأنمـا النارنج فى أوراقه الـقنديل والأوراق شبه مسحر

وكأنما الخشخاش قوم جاءهم ... خـبر يسرهمُ بطيب المخبر

فثنوا ملابسهم لفرط سرورهم ... كى يخلعوا فرحا بقول المخبر

فتعلقت أذيالهـا بأكفهم ... وتعلقت أزياقهـا بالمنحر

والطَّل من فوق الرياض كأنه ... دررَ نثرن على بساط أخضر

---

(١) الشقائق : ورد أحمر اللون ، ويقال « شقائق النعمان » والنعمان : هو الدم ، يريدون أنها حمراء كلون الدم ، ويقال : النعمان هو ابن المنذر ، لأنه حماها فأضيفت إليه

وترى الربا بالنَّوْرِ بين متوج ومدملج ومخلخل ومسور
ورياضها بالزهر بين مقرطق ومطوّق وممنطق ومزنر
والورد بين مضعف ومشنف ومكتف وملطف لم يُهْصَرِ
والزهر بين مفضض ومذهب ومرصع ومدرهم ومدنر
والنثر بين مطيب وممسك ومعطر ومصندل ومعنبر
والوُرْقُ بين مرجع وموجع ومفجع ومسجع فى منبر
ومغرد ومردد ومعدد ومبدد فى الخد ماء المحجر

ولكن قصيدة ابن مرج الكحل أعذب مَذَاقا ، وكل منهما لم يقصر ، رحمهما الله تعالىٰ ! فلقد أجادا فيما قالاه إلى الغاية ، وليس الخبر كالعيان .

من نظم ابن مرج الكحل

ومن نظم ابن مرج الكحل قوله :

الشمس يغرب نورها ، ولربما كسفت ونورك كل حين يسطع
أفلت فناب سَنَاكَ عن إشراقها وجلا من الظلماء ما يتوقع
فأمنت يا موسى الغروب ولم أقل فوددت يا موسى لوَ اَنك يوشع

ولمح بهذه الأبيات إلى قول الرصافى الأندلسى البَلَنْسى يخاطب من اسمه مُوسىٰ بقصيدة أولها :

ما مثلُ موضعك ابنَ رزقٍ موضعُ زهر يرف وجدول يتدفع

ومنها :

وعشية لبست ثياب شحوبها والجوّ بالغيم الرقيق مقنَّعُ
بلغت بنا أمد السرور تألفا والليل نحو فراقنا يتطلع
فابلل بها ريق الغبوق فقد أتى من دون قرص الشمس ما يُتوقَع
سقطت ولم يملك نديمُكَ ردها فوددت يا موسى لو أنك يوشع (1)

(1) يوشع : أحد أنبياء بنى إسرائيل حجبت له الشمس عن المغيب فترة من الزمن ، وقد أولع الشعراء بذكر قصته حتى سموا الشمس « أخت يوشع »

قلت : ومن نثر ابن مَرْج الكحل المذكور ما كتبه إلى أديب الأندلس أبي بحر صَفْوَان بن إدريس مُرَاجعا له بعد نظم ، ونص الجميع :

بين ابن مرج الكحل وصفوان بن إدريس

يا من تبوّأ فى العلياء منزلة | جدَّاهُ قد أسساها أىَّ تأسيس
لم يتركا فى العلا حظا لملتمس | سيان هذا وهذاك ابن إدريس
وافى كتابكُمُ فارتد لى جذلى | واعتضت من فرط أشواقى بتأنيس
وللنوى لوعة تطفو فيطفئها | مسك المداد وكافور القراطيس

حرس الله سناءك وسناك(١) ! وأظفر يُمْنَاك بمُنَاك ! وُدِّى الأسلم كما تعلم ، وعهدى الأقدم ، لم تزلَّ له قدم ، وأنا دام عزكم إن أتَّفِقْ معكم انتسابا فلم أتفق فى شأو الأدب باعا ، ولا قار بتكم طباعا وانطباعا ، بل بذلك الاتفاق تشرفت ، وسموت إلى ذِرْوَة العلا واستشرفت ، وأقررت بذلك الفضل واعترفت ، وكرعت فى مَنَاهله واغترفت ، ولقد وافى كتابُكم فقلت وقد نثر الدر فيه من فيه ، و بلغ نفسى ما كانت تنويه من التنويه :

حديث لَوَانَّ الميت نودى ببعضه | لأصبح حيا بعد ما ضمه القبر

ولولا ما طالعنى وجه من رضاكم وسيم ، وسَقَانى مُزْن اهتبالكم ما أرْوَى به وأسيم ، وحيانى منكم روض ونسيم ، لما ساعدنى الفكر بقسيم ، لا زلتم فى ظل من العيش وارف ، مرتدين رداء المعارف ، والسلام ، انتهى .

وكانت مخاطبة صفوان له التى أجاب عنها بما نصه :

يا قاطع البيد يطويها و ينشرها | إلى الجزيرة يُنْضِى بدّن العيس(٢)
الثم بها عن أخى حُبٍّ وذى كلف | يد العلا والقوافى وابن إدريس

وأبلغها إليه تحية كالمسك صدرا ووردا ، وكالماء الزلال عذوبة و بردا ، يسرى بها إلى دار ابن نسيم ، ويسفر منها بجزيرة شقروجه وسيم ، وهى و إن كانت تذيب

---

(١) السناء ـ بالمد ـ رفعة القدر وشريف المنزلة ، والسنا ـ بالقصر ـ الضوء والنور
(٢) ينضى : يهزل ، والعيس : الإبل ، وبدنها : الضخمات البدن منها

المسك خجلا ، وتستفز بصوتها وجلا ، فما هى إلا خائفة تترقب ، وسافرة تكاد تتنقب ، تمشى على استحياء ، وتعثر من التقصير فى ذَيل إعياء ، هذا لأنها جلبت إلى هَجَر تمْرا[1] ، و إلى شبام و بيت رأس خمرا ، ولـكن على المجد أن يبدى فى قبول عذرها و يعيد ، لعلمه أنه يتيمم مَنْ لم يجد إلا الصعيد ، فله الفضل أن لا يلفحها بنار النقد ، ولا يعرضها على ما هنالك من الحل والعقد ، والله يبقى ذكره فى مقلة الأدب حَوَرًا ، وفى قلب الحسود خَوَرًا ، ويديمه والقوافى طوع قريحته ، والأغراض الجميلة مِلْء تعريضته وتصريحته ، وزهر البيان تطلع فى سماء جِنانه ، وزهر التبيان يونع فى أنداء جَنانه ، وعذرا إليه فإنى كتبت والحامل يمسك زمامه ، و يلتفت فى البيـداء أمامه ، والسلام .

من إنشاء صفوان

ومن إنشاء صفوان خطبة نكاح نصها : الحمد لله الذى تطوّل[2] بالإحسان من غير جزاء ولا ثواب ، وألبس المخلوقات من فواضله سوابغ[3] المطارف وكواسى الأثواب ، وجاؤا على أقدام الرجاء إلى محال نوافله فوجدوها مُفَتَّحة لهم الأبواب ، وسألوه كفاية المؤنة فكان الفعل بدل القول والإسعاف[4] بدل الجواب ، خلق البرية من غير افتقار ولا اضطرار ، ونَقَلهم من الطفولية إلى غيرها نقل البدر من التمام إلى السرار ، وشرف هذه الطبقة الإنسانية ، فرزقها الإدراكات العقلية ، والإبانات اللسانية ، فضرب سرادق اعتنائه عليها ، وأنشأها من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، ومع صنعه الرفيق بهم اللطيف ، وتنويهه الحافّ بأرجائهم المطيف ، رزقهم أحسن الصور الحيوانية وأجملها ، وأتاح لهم أتمّ أقسام الاعتناء وأكملها ، وبعث إليهم الرسُلَ صلوات الله عليهم صنعا منه جميلا ، ورباء للصنيعة لديهم وتكميلا ، فبشروا وأنذروا ، وأمنوا وحذروا ، وباينوا بين الحرام والحلال ، مباينة إدراك البصير بين الـكدر والزلال ، ودلوا على السمت الأهْدَى ، ونصبوا أعلام

(١) هو مثل يضرب لمن يهدى الشىء إلى من لا يحتاجه (٢) تطول : تفضل
(٣) السوابغ : جمع سابغ ، وهو الطويل الـكاسى الساتر
(٤) أراد بالإسعاف قضاء المأمول

التوفيق والهُدَى ، ولم يدعوا شيئا سُدَى ، بل توازنت بهم مقادير الأقوال والأعمال ، وكانت إشاراتهم ثمال الهداية وأى ثمال ، فآب كل متسحب إلى الارتباط ، وشد كل موفق على الاعتلاق بحالهم يدَ الاغتباط ، فصلوات الله الزاكية عليهم ، ونوافح رحمته النامية تغدو وتروح إليهم ، وأتم الصلاة والسلام ، على علم أولئك الأعلام ، الداعى على بصيرة إلى دار السلام ، السراج المنير ، البشير النذير ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تؤل بهم إلى فسيح رضوانه ورحبه ، بعثه الله رحمة للعالمين عامة ، وأرسله نعمة للناس موفورة تامة ، فأخذ بحُجَز مصدقيه عن التهافت فى مَدَاحض الأقدام ، والتتابع فى مَزَلَّات الجراءة على العصيان والإقدام ، فأقام الحجة ، وأوضح المَحَجَّة[1] ، ودل على المقامات التى تمحض الأولياء ، وأفصح عن الكرامات التى تنقذ الأتقياء ، وقال وأهلا به من قائل : تناكحوا فإنى مكاثر بكم الأنبياء ، حرصا منه صلوات الله عليه على الزيادة فى أهل الإسلام والنَّماء ، ودَفْعاً فى صدر الباطل بواضح الحق الصادع غَيْهَب الظلماء[2] ، وحض على ذات الدين الحَصَانِ[3] ، وأغرى بالاعتصام والإحصان ، ونصب أعلام النكاح مشيدة المبانى ، وجاء بها سنة عَذْبَة المَجَانى ، وقال : من تزوّج فقد كمل نصف دينه فليتق الله فى النصف الثانى ، وأمر بالنكاح الذى توافقت فيه الطبيعة والشريعة ، وَلَبَّته النفوس وهى سريعة ، وأخصبت به رَبْوَة التناسل فهى مَرُوضة مَرِيعة[4] ، وسدت به عن اتباع الهوى وارتكاب المحارم الذريعة ، وحفظت به الأنسال والأنساب ، وفاض به نهر الالتئام السلسال المنساب ، إذ لا سبيل لأن يستغنى بذاته ، مَنْ كان أسيرَ هواه ومأمور لذاته ، وإنما الانفراد والاستغنا ، لمن له الكمال والغنى ، ولا يجوز أن يتعاقب عليه الإِنَى[5] ، لا إله إلا هو لهُ السناء والسنا ، وإن فلانا لما ارتقت همته إلى اتباع الصالحات وسَمَتْ ، ووسمته النجابة من أعلامها اللائحة بما وَسَمَتْ ، رأى أن

---

(١) المحجة : الطريقة   (٢) الغيهب : الشديد السواد من الليل والخيل

(٣) الحصان ـ بفتح الحاء ـ العفيفة   (٤) المروضة ، هنا : المعشبة المنبتة ، ومريعة : زاكية النبت   (٥) الإنى : واحد الآناء ، وهى الأوقات

الاعتصام بالنكاح أولى ما حمى به دينه ووقاه ، وأهم ما رفع إليه اعتناءه ورقاه ، فخطب إلى فلان ابنته فلانة خِطْبَة تظافر فيها اليمن والقبول ، ونفحت[1] بها شمال من الجدّ المصمِّم وقَبُول ، وارتقى بها إلى اللوح المحفوظ والديوان المكنون عمل مقبول ، فتلقى فلانُ خطبته بالإجابة ، لما توسم فيه من مخايل النجابة ، حرصا منه على المساعدة والعوْنِ ، واغتباطا بمباشرة أهل الرشد والصوْن ، وانعقد النكاحُ بينهما على بركة الله التى يتضاعف بها العدد القليل ويتزيد ، ويمنه الذى ينتهض به من اعتمده ويتأيد ، وحسن توفيقه الذى يرتبط به من أخلص ضميره ويتقيد ، على أن أصدقها كذا ، تزوّجها بكلمة الله التى علت الكلمات وبَهَرَتْها[2] ، وعلى سنة نبيه التى أحيت الحنيفية وأظهرتها ، وأنقت الملة من أرجاس الجاهلية وطهرتها ، وهداية هَدْيِه التى غلبت الأباطيل وقهرتها ، ولتكون عنده بأمانة الله التى هى جنة واعتصام ، وعهدته للزوجات على أزواجهن التى ليس لعروتها انفصام[3] ، وعلى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وتسلسل فى ميدان التناصف وأرسان ، وله عليها من حسن العشرة التى هى بحقيق الاتفاق عائدة ، مثل ذلك ودرجة زائدة ، والله تعالى يُمَهِّدُ لهما مِهَادَ نعمته الوثير ، ويخلف منهما الطيب الكثير ، ويرزقهما التوفيق الباعث لطول المرافقة المثير ، بمنه ونعمته .

وله رحمه الله من رسالة عتاب : أدام الله سبحانه مدة الأخ الذى أستديمُ إخاءه ، وإن واجهتنى زعازعه أرتقب رُخَاءه ، وتجاوزت عن يومه لأمسه ، وأغضيت عن ظلامه لشَمْسه ، أنى ، واعتنا[4] ، وإنذارا ، وإعذارا ، ورحم الله من اعتمد على الأفهام ، وعصى أوامر الأوهام ، ورأى الخليفة فى المعقول ، لا فى المختلف المنقول ، وبعد فإنه وصلَ كلامُك ، بل ملامك ، وكتابك ، بل عتابك ، ورسالتك ، بل

(١) نفحت : عبقت

(٢) بهرتها : أصابتها بالبهر ، وهى الإعياء

(٣) انفصام : انقطاع

(٤) كذا ، ولم يتضح لى اتضاحا أطمئن إليه

بَسَالتك ، سُمْتَنى بألفاظك[١] العِذاب ، سوءَ العَذاب ، وأريتنى لَمَعَانَ الحُسام ، من فِقَرك الوسام .

وقال صفوان رحمه الله : اجتمعت مع ابن مرج الكحل يوما ، فاشتكى إلى ما يجد لفراقى ، وأطال عتب الزمان فى إشآمه و إعراقى ، فقلت : إذا تفرقنا والنفوس مجتمعة ، فما يضر أن الجسوم للرحيل مزمعة ، ثم قلت له :

أنت مع العين والفؤاد دنوت أو كنت ذا بعاد

فقال وهو من بارع الإجازة :

وأنت فى القلب فى السويدا وأنت فى العين فى السواد

وإذ جرى ذكر صفوان فلا حرج أن نترجمه ، فنقول :

ترجمة صفوان ابن إدريس

قال فى « الإحاطة » ماملخصه : صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عيسى بن إدريس ، التجيبى ، المُرْسِى ، أبو بحر ، كان أديبا حسيبا ، ممتعا من الظرف ، ريان من الأدب ، حافظا سريع البديهة ، ترف النشأة ، على تصاوُن وعفاف ، جميلا ، سريا ، ممن تساوى حظه فى النظم والنثر على تباين الناس فى ذلك روى عن أبيه وخاله ابن عم أبيه القاضى أبى القاسم ابن إدريس ، وأبى بكر ابن مغاور وأبى رجال بن غلبون ، وأبى العباس بن مضا ، سمع عليه صحيح مسلم ، وأبى القاسم بن حَبيش ، وابن حَوْط الله ، وأبى الوليد بن رشد ، وأجازله ابن بَشْكُوال وروى عنه أبو إسحاق بن اليابرى ، وأبو الربيع بن سالم ، وابن عيشون ، وله تواليف أدبية ، منها زاد المسافر ، وكتاب الرحلة ، وكتاب العجالة ، سفران يتضمنان من نظمه ونثره أدبا لا كفاء له ، وانفرد من تأبين الحسين وبكاء أهل البيت بما ظهرت عليه بركته من حكايات كثيرة .

ثم سرد لسان الدين جملة من نظمه إلى أن قال : وقال فى غرض الرصافى من

---

(١) وقع فى ب « أسمعتنى بألفاظك العذاب » والعبارة مأخوذة من قوله تعالى (يسومونهم سوء العذاب)

وصف بلده وذكر إخوانه يُسَاجله فى الغرض والروى عقب رسالة سماها « طراد الجياد فى الميدان ، وتنازع اللدات والأخدان ، فى تقـديم مُرْسِية على غيرها من البلدان» :

لعل رسول البرق يغتنم الأجْرَا فينـــثر عنى ماء عَبْرَته نَثْرَا
معاملة أربى بها غــير مذنب فأقضيه دمع العين عن نقطة بحرا
ليسقى من تُدْمِيرَ قطرا محببا يقر بعين القطر أن تشرب القطرا
ويقرضه ذوب اللجين ، وإنما توفيه عينى من مدامعها تبرا
وما ذاك تقصـيرا بها غير أنه سجية ماء البحر أن يُذْوِىَ الزهرا
خليلى قوما فاحبسا طرق الصبا مخافة أن يحمى بزفرتى الحــرّا
فإن الصَّبا ريح على كريمــة بآية ما تسرى من الجنة الصغرى
خليلى أعنى أرض مُرْسِية المنى ولولا توخِّى الصدق سميتها الـكبرى
محلِّىَ بل جوّى الذى عبقت به نواسم آدابى معطــرة نشرا(١)
ووَكْرِى الذى منه دَرَجْتُ فليتنى فجعت بريش العزم كى ألزم الوكرا(٢)
وما روضة الخضراء قد مثلت بها مجرتها نهــرا وأنجمها زهرا
بأبْهَجَ منهـا والخليج مجرة وقد فضحت أزهار ساحتها الزهرا
وقد أسكرت أعطاف أغصانها الصَّبَا وما كنت أعددت الصبا قبلها خمرا
هنالك بين الغصن والقَطْر والصَّبَا وزهر الربا وَلَّدت آدابى الغرا
إذا نظم الغصن الحيا قال خاطرى تعلم نظام النثر من ههنا شعرا
وإن نثرت ريح الصبا زَهَرَ الربا تعلمت حل الشعر أسبكه نثرا
فوائد أسحار هنــاك اقتبستها ولم أر روضا غيره يقرىء السحرا
كأن هزيز الريح يمدح روضها فملأ فاها من أزاهره درا

(١) النشر — بالفتح — طيب الرائحة
(٢) أصل الوكر — بالفتح — عش الطائر

أيا رنقات الحسن هل فيك نظرة ... من الجرف الأعلى إلى السكة الغرا
فأنظر من هذى لتلك كأنما ... أغير إذ غازلتها أختها الأخرى
هى الكاعب الحسناء تم حسنها ... وقَدَّتْ لها أوراقها حُلَلاً خضرا
إذا خطبت أعطت دراهم زهرها ... وما عادة الحسناء أن تنقد المهرا
وقامت بعرس الأنس قَيْنة أيكها ... أغار يدها تسترقص الغصن النضرا
فَقُلْ فى خليج يلبس الحوت درعه ... ولكنه لا يستطيع بها نصرا
إذا ما بدا فيها الهلال رأيته ... كصفحة سيف وسمها قبعة صفرا
وإن لاح فيها البدر شبهت متنه ... بشط لجين ضم من ذهب عشرا
وفى جرفى روض هناك تجافيا ... بنهر يودُّ الأفق لوزاره فجرا
كأنهما خِلاًّ صفاء تعاتبا ... وقد بكيا من رقة ذلك النهرا
وكم لى بأبيات الحديد عشية ... من الأنس ما فيه سوى أنه مَرَّا
عشيات كان الدهر غضًّا بحسنها ... فأجلت بساط البرق أفراسها شقرا
عليهن أجرى خيلَ دمعى بوجنتى ... إذا ركبت حمراً ميادينها الصفرا
أعهدىَ بالغرس المنعم دوحه ... سقتك دموعى إنها مزنة شَكْرَى (١)
فكم فيك من يوم أغر محجل ... تقضت أمانيه فخلدتها ذكرا
على مذنب كالبحر من فرط حسنه ... تودُّ الثريا أن يكون لها نَحْرًا
سقت أدمعى والقطر أيهما انبرى ... نقا الرملة البيضاء فالنهر فالجسرا
وإخوان صدق لوقضيت حقوقهم ... لما فارقَتْ عينى وجوههم الزُّهْرَا
ولوكنت أقضى حق نفسى ـ ولم أكن ـ ... لما بتُّ أستحلى فراقهم المرا
وما اخترت هذا البعد إلا ضرورة ... وهل تستجيز العين أن تفقد الشفرا
قضى الله أن تنأى بى الدار عنهم ... أراد بذاك الله أن أعتب الدهرا

---

(١) تقول « هذه عين شكرى » بفتح الشين وسكون الكاف ـ تريد أنها ملأى بالدمع ، وتقول « هذه درة شكري » تريد أنها ملأى باللبن

ووالله لو نلت المنى ما حمدتها ... وما عادة المشغوف أن يحمد الهجرا

أيأنس باللذات قلبى ودونهم ... مَرَامٍ يجد الكرب فى طيها شهرا(١)

ويصحب هادى الليل راء وحرفه ... وصاداً ونونا قد تقدس واصفرا

فديتهمُ بانوا وضنوا بكتبهم ... فلا خَبَراً منهم لقيت ولا خُبْرا

ولولا علا هماتهم لعتبتهم ... ولكن عِرابُ الخيل لا تحمل الزجرا

ضربت غبار البيد فى مهرق السرى ... بحيث جعلت الليل فى ضربه حبرا

وحققت ذاك الضرب جمعاً وعدة ... وطرحا وتجميلا فأخرج لى صفرا

كأن زمانى حاسب متعسف ... يطارحنى كسراً وما يحسن الجبرا

فكم عارف بى وهو يحسن رتبتى ... فيمدحنى سراً ويشتمنى جهرا

لذلك ما أعطيت نفسىَ حقها ... وقلت لسرب الشعر لا تَرُمِ الذكرا

فما برحت فكرى عذارى قصائدى ... ومن خلق العذراء أن تألف الخدرا

ولست وإن طاشت سهامى بآيس ... فإن مع العسر الذى يُتَّقَى يسرا

وقال يراجع أبا الربيع بن سالم عن أبيات مثلها :

سقى مضرب الخيمات من عَلَمَىْ نجد ... أسح غمامَىْ أدمعى والحيا الرغد

وقد كان فى دمعى كفاء ، وإنما ... يجففها ما بالضلوع من الوَقْد

فإن فَتَرَتْ نار الضلوع هنيهة ... فسوف ترى تفجيره للحيَا العِدِّ

وإن ضن صَوْبُ المزن يوما فأدمعى ... تنوب كما ناب الجميع عن الفرد

وإن هطلا يوما بساحتها معاً ... فأرواهما ما صاب من منتهى الود

أرى زفرتى تذكى ودمعى ينهمى ... نقيضين قاما بالصلاء وبالورد

فهل بالذى أبصرتم أو سمعتم ... غمام بلا أفق وبرق بلا رعد ؟

لىَ الله كم أهذى بنجد وأهلها ... وما لى بها إلا التوهم من عهد

---

(١) مرام : جمع مرمى ، وأصله مكان الرمى ، ويقولون « ما أبعد مرمى همة فلان » ويقولون أيضا « هذه الموامى ، بعيدة المرامى »

وما بى إلى نجد نزوع ولا هوًى … خلا أنهم شنوا القوافى على نجد
وجاؤا بدعوى حَسَّن الشعرُ زورها … فصارت لهم فى مصحف الحب كالحمد
شغلنا بأبناء الزمان عن الهوى … وللدرع وقت ليس يحسن للبُرْدِ
إلى الله أشكو ريب دهر يغص فى … نوائبه قد ألجمت ألسن العد
لقد صرفت حكم الفؤاد إلى الهوى … كما فوضت أمر الجفون إلى السهد
أما تتوقَّ ويحها أن أصيبها … بدعوة مظلوم على جورها يعدى
أما راعها أن زحزحت عن أكارم … فرافهم دل القلوب على حدى
أعاتبها فيهم فتزداد قسوة … أجِدَّكَ هل عاينت للحجر الصلد
أما علمت أن القساوة نافرت … طباع بنى الآداب إلا من الرد
إذا وعدت يوما بتأليف شملنا … فألمم بعرقوب وما سَنَّ من وعد
وإن عاهدت أن لا تؤلف بيننا … تذكرت آثار السموأل فى العهد
خليلىَّ أعنى النظم والنثر أرسلا … جياد كما فى حَلْبة الشكر والحمد
قفا ساعدانى إنه حق صاحب … برىء جمام الكتم من كَدَر الحِقْد
بآية ما قيدتما ألسن الورى … بذكرى فيا ويح الكنانى والكندى
فأين بيانى أو فأين فصاحتى … إذا لم أعد ذكر الأكارم أو أبدى
فيا خاطرى وَفِّ الثناء حقوقه … وصُغْهُ كما قالوا سوار على زند
ولا تلزمنِّى بالتكاسل حجة … تشبها نار الحياء على خدى
ثكلت القوافى وهى أبناء خاطرى … وغيبها الإقحام عنىَ فى لحد
لئن لم أصغ زُهْرَ النجوم قلادةً … وآتِ ببدر التم واسطة العقد
إلى أن يقول السامعون لرفقتى … نعم طار ذاك السقط عن ذلك الزند
أحيى بِريَّاها جناب ابن سالم … فيقرع فيه الباب فى زمن الورد

وهى طويلة .

ومن مقطوعاته قوله :

يا قمرا مطلعه أضلعى له سواد القلب فيها غسق
وربما استوقَدَ نار الهوى فناب فيها لونها عن شفق
ملكتنى فى دولة من صِبًا وصِدْتَنِي فى شرك من حَدَقْ
عندىَ من حبك ما لو سرت فى البحر منه شعلة لاحترق

وقال :

قد كان لى قلب فلما فارقوا سوّى جناحا للغرام وطارا
وجَرَتْ سحاب للدموع فأوقدت بين الجوانح لوعة وأُوَارَا
ومن العجائب أن فَيْضَ مدامعى ماء ، ويثمر فى ضلوعى نارا

وشعره الرمْلُ والقَطْرُ كثرةً ، فلنختمه بقوله :

قالوا وقد طال بى مدى خطئى ولم أزل فى تَجَرُّمِي ساهى
أعددت شيئا ترجو النجاة به ؟ فقلت : أعددت رحمة الله

وكتب يهنئ قاضى الجماعة أبا القاسم بن بقى برسالة منها : لأن محلَّه دام عمره ، وامتثل نهيه الشرعى وأمره ، أعلى رتبة وأكرم محلا ، من أن يتحلى بخطة هى به تتحلَّى ، كيف يهنأ بالقعود لسماع دعاوى الباطل ، والمعاناة لإنصاف المَمْطُول من الماطل ، والتعب فى المعادلة ، بين ذوى المجادلة ، أما لو علم المتشوفون إلى خطة الأحكام ، المستشرفون إلى مالها من التبسط والاحتكام ، مايجب لها من اللَّوَازم ، والشروط الْجَوَازم ، كبسط الكنف ، ورفع الجَنَفَ ، والمساواة بين العدوّ ذى الذنب ، والصاحب بالجَنْب ، وتقديم ابن السبيل ، على ذى الرحم والقَبيل ، وإيثار الغريب ، على القريب ، والتوسع فى الأخلاق ، حتى لمن ليس له من

خَلَاق ، إلى غير ذلك مما عِلْمُ قاضى الجماعة أحصاه ، واستعمل خلقه الفاضل أدناه وأقصاه ، لجعلوا خُمُولهم ، مأمولهم ، وأضربوا عن ظهورهم(١) ، فنبذوه وراء ظهورهم ، اللهم إلا مَنْ أوتى بَسْطَة فى العلم ، ورسا طَوْدًا فى ساحة الحلم ، وتساوى ميزانه فى الحرب والسِّلم ، وكان كمولانا فى المماثلة بين أجناس الناس ، فقُصاراه أن يتقلد الأحكام للأجر ، لا للتعنيف والزجر ، ويتولاها للثواب ، لا للغلاظة فى رد الجواب ، ويأخذها لحسن الجزاء ، لا لقبيح الاستهزاء ، ويلتزمها لجزيل الذخر ، لا للإزراء والسخر ، فإذا كان كذلك ، وسلك المتولى هـذه المسالك ، وكان مثل قاضى الجماعة ولا مثل له ، ونفع الحق به علله ونقع غلله ، فيومئذ تُهَنَّى به خطةُ القضاء ، وتعرف ما لله تعالى عليها من اليد البيضاء .

ورحل إلى مراكش فى جهاز بنت بلغت التزويج ، وقصد دار الخلافة مادحا ، فما تيسر له شىء من أمله ، ففكر فى خيبة قصده ، وقال : لو كنت أملت الله سبحانه ومدحت نبيه صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين لبلغت أملى ، بمحمود عملى ، ثم استغفر الله تعالى من اعتماده فى توجهه الأوّل ، وعلم أن ليس على غير الثانى مُعَوّل ، فلم يَكُ إلا أن صوّب نحو هذا المقصد سَهْمَه ، وأمضى فيه عَزْمَه ، وإذا به قد وَجَّه عنه فأدخل على الخليفة فسأله عن مقصده ، فأخبره مفحصا به ، فأنفذهُ وزاده عليه وأخبره أن ذلك لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم يأمر بقضاء حاجته ، فانفصل مُوَفَّى الأغراض ، واستمر فى مدح أهل البيت عليهم السلام ، حتى اشتهر بذلك ، وتوفى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وسنه دون الأربعين ، وصلى عليه أبوه ، فإنه كان بمكان من الفضل والدين ، رحم الله تعالى الجميع ! انتهى كلام ابن الخطيب فى حق المذكور ملخصا .

---

(١) ظهورهم ، هنا : مصدر ظهر يظهر ، إذا بدا ، والظهور فى الفقرة الثانية جمع ظهر

ولا بأس أن نزيد عليه ما حضر ، فنقول : قال ابن سعيد وغيره : ولد صَفْوان سنة ستين وخمسمائة ، أو فى التى بعدها ، قال : وديوان شعره مشهور بالمغرب ، انتهى .

ومن نظمه قوله :

أومض ببرق الأضلع واسكب غمام الأدمع
واحزن طويلا واجزع فهو مكان الْجَزَعِ
وانثر دماء المقلتين تألما على الحسين
وابك بدمع دون عين إن قل فيض الأدمع

وهذا من قصيدة عارض بها الحريرى فى قوله « خَلِّ ادِّكار الأرْبُع »

وله أيضاً مطلع قصيدة فيه :

يا عين سُحِّى ولا تَشِحِّى ولو بدَمْعٍ بحَذْفِ عَيْنِ

وقال ابن الأبار : توفى صفوان بمُرْسِية ليلة الاثنين السادس عشر من شوّال سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وثكله أبوه ، وصلى عليه ، وهو دون الأربعين ، إذ مولده سنة إحدى وستين وخمسمائة ، وكان من جلة الكتاب البلغاء ، ومَهَرَة الأدباء الشعراء ، ناقدا فصيحا ، مدركا جليل القدر ، متقدما فى النظم والنثر ، ممن جمع ذلك ، وله رسائل بديعة ، وقصائد جليلة ، وخصوصا فى مراثى الحسين رضى الله تعالى عنه ! .

من رثاء الحسين لناهض ابن محمد

وقد تذكرت هنا قول ناهض بن محمد الأندلسى الوادى آشى فى رثاء الحسين رضى الله تعالى عنه :

أمُرِنَّةً سَجَعَتْ بعُودِ أراكِ قُولى مُوَلَّهَةً : عَلامَ بُكَاكِ ؟
أجَفاكِ إلفك أم بليت بفرقةٍ أم لاح بَرْقٌ بالِحمى فشَجَاكِ ؟

لو كان حقا ما ادعيتِ من الجوى   يوما لما طَرَقَ الجفون كراكِ
أو كان روّعك الفراق إذًا لما   ضَنَّتْ بماء جفونها عيناكِ
ولما ألفت الروض يأرج عرفه   وجعلت بين فروعه مغناكِ
ولما اتخذت من الغصون منصة   ولما بدت مخضوبةً كفاكِ
ولما ارتديت الريش بُرْدًا معلما   ونظمت من قُزَح سلوك طلاكِ
لو كنت مثلى ماأفقت من البكا   لا تحسبى شكواى من شكواكِ
إيه حمامة خبرينى ، إننى   أبكى الحسين ، وأنت ما أبكاكِ ؟
أبكى قتيل الطَّفِّ فرعَ نبينا   أكرم بفرع للنبوّة زاكى
ويل لقوم غادروه مُضرجا   بدمائه نضوا صريع شكاكِ
متعفرا قد مُزقت أشلاؤه   فَرْيًا بكل مهند فتاكِ
أيزيد لو راعيت حرمة جده   لم تقتنص ليث العرين الشاكى
أو كنت تصغى إذ نقرت بثغره   قرعت صماخك أنة المسواكِ
أتروم ويك شفاعةً من جده   هيهات ! لا ، ومدبر الأفلاكِ
ولسوف تنبذ فى جهنم خالدا   ما الله شاء ولات حين فكاكِ

وتوفى ناهض المذكور بوادى آش سنة ٦١٥ .

من شعر صفوان

رجع إلى أخبار صفوان بن إدريس ـ رحمه الله تعالى ! ـ فنقول : ومن شعر صفوان قوله :

قلنا وقد شام الحسام مخوّفا   رشأ بعادية الضراغم عابث
هل سيفه من طرفه أم طرفه   من سيفه أم ذاك طرف ثالث ؟

وقوله :

غيرى يروع بسيفه   رشأ تَشَاجع ساخرا
إن كف عنى طرفه   فالسيف أضعف ناصرا

وقال صفوان المذكور رحمه الله تعالى : حَيَّيْتُ بعضَ أصحابنا بزهرة سوسن ، فقال :

* حيا بسوسنة أبو بحر *

فقلت مجيزا :

* نضراء تفضح يانع الزهر *

عجبا لهـــا لم تُذْوِهَا يده   من طول ما مكثت على الصدر

وقال أيضاً : ماشَيْتُ الوزيرَ الكاتبَ أبا محمد بن حامد يوما ، فاتفق أن قال لأمر تذكره :

بين الكثيب ومنبت السدر   ريم غدا مثواه فى صدرى

فقلت أجيزه :

لوشاحـــه قلم بلا ألم   ولقرطـه خفق بلا ذعر

لو كنت قد أنصفت مقلته   برأت هاروتا من السحر

أو كنت أقضى حق مَرْشَفه   أعرضت لا ورعا عن الخمر

وناولته يوما وردة مغلقة ، فقال :

ومحمرة تختال فى ثوب سندس   كوَجْنَة محبوب أطل عذاره

فقلت أجيزه :

كتطريف كف قد أحاطت بنانها   بقلب محب ليس يخبو أُوَارُهُ

وقال : رآنى الوزير أبو إسحاق وأنا أقيد أشعارا من ظهر دفتر فقال :

* ماذا الذى يكتب الوزير *

قلت :

* بدائع مالهـــا نظير *

فقال :

در ولكنه نظيم   من خير أسلاكه السطور

فقلت :

من أظهر الكتب أقتنيها   وخل ما تحتوى البحور
بتلك تزهو النحور ، لكن   بهذه تزدهى الصدور

ولكن الإنصاف واجب ، هو قال المعنى الأخير نثرا وأنا سبكته نظما .

وقال : جلسنا بعضَ العشايا بالولجة خارج مُرْسية ، والنسيم يهبُّ على النهر ، فقال أبو محمد بن حامد :

* هب النسيم وماء النهر يَطَّرِدُ *

فقلت على جهة المداعبة ، لا الإجازة :

* ونار شوقى فى الأحشاء تتقد *

فقال أبو محمد : ما الذى يجمع بين هذا العجز وذاك الصدر ؟ فقلت :أنا أجمع بينهما ، ثم قلت :

فصاغ من مائه دِرْعًا مفضضة   وزاد قلبىَ وَقْدًا للذى يجد
وإنما شب أحشائى لحاجته   إذ ليس دون لهيبٍ يُصْنَع الزرد

وخطرنا بمقنت على ثمرة تهزها الريح فقال أبو محمد :

وسَرْحة كاللواء تهفو   بعطفها هَبَّة الرياح

فقلت:

كأن أعطافها سقتها   كف النعامى كؤس راح (١)

فقال :

إذا انتحاها النسيم هزت   أعطافها هزة السماح

فقلت:

كأن أغصانها كِرامٌ   تقابل الضيف بارتياح

---

(١) النعامى — بضم النون — اسم لريح الجنوب

ولصفوان رحمه الله :

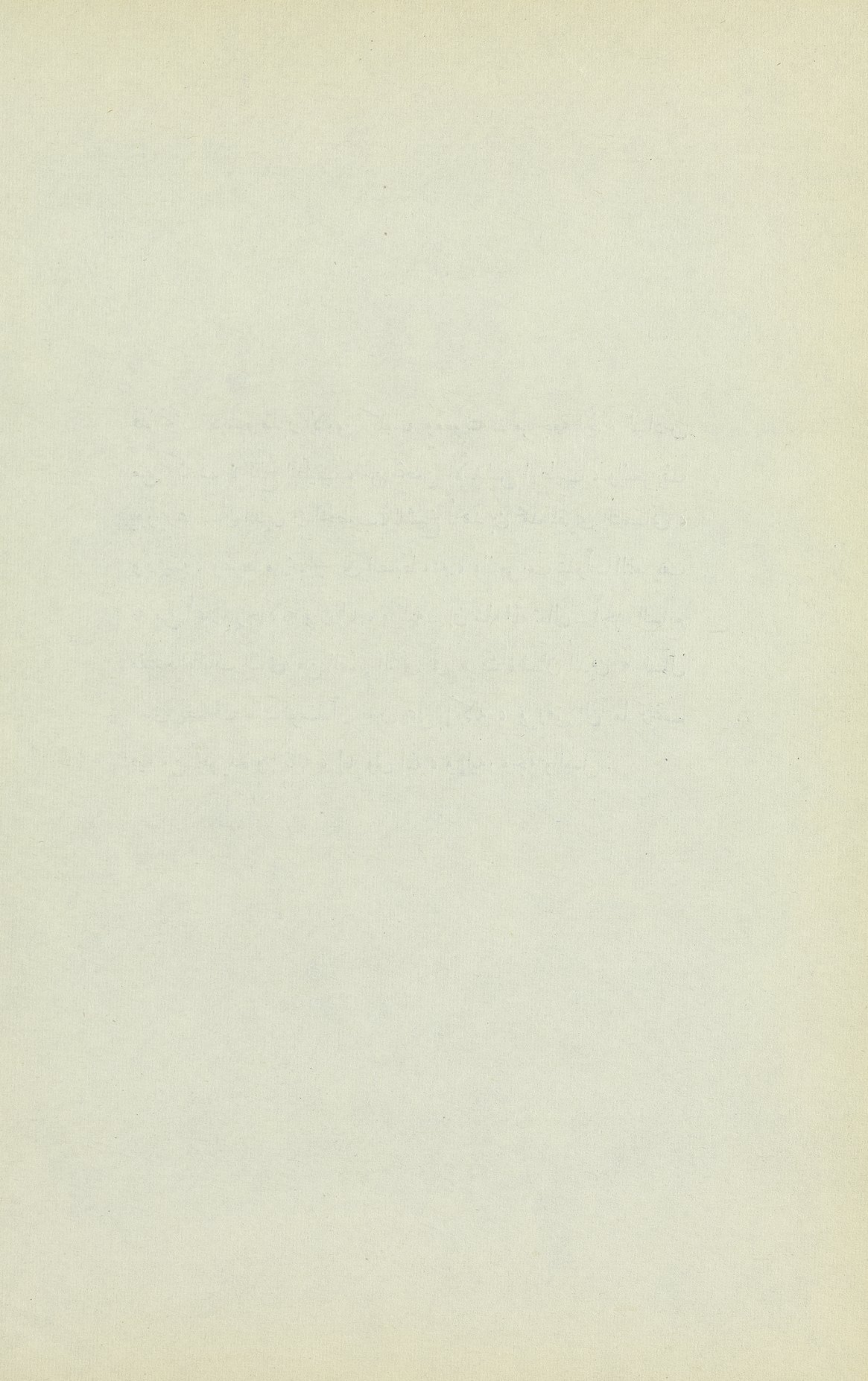
تحية الله وطيب السلام على رسول الله خير الأنام
على الذى فَتَّحَ باب الهدى وقال للناس ادخلوا بالسلام
بدر الهدى غيم الندى والسدى وما عسى أن يتناهى الكلام
تحية تهزأ أنفاسها بالمسك ، لا أرضى بمسك الختام
تخصه منى ولا تنثنى عن أهله الصِّيد السراة الكرم
وقدرهم أرفع لكننى لم ألف أعلى لفظة من كرام

وقال :

يقولون لى لما ركبت بطالتى ركوب فتى جم الغواية معتدى
أعندك شىء ترتجى أن تناله ؟ فقلت : نعم عندى شفاعة أحمد

صلى الله عليه وسلم ،وشرف وكرم، ومجد وعظم ، وبارك وأنعم ، ووالى وكمل وأتم .

قد تمَّ ـ بتيسير مدبر الأمور كلها ، ومعونته ـ مراجعة الجزء السادس من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، والتعريف بوزيرها لسان الدين بن الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد المَقَّرى التلمسانى ، وترقيمه ، وضبط ما يحتاج إلى الضبط منه ، والتعريف بما رأينا التعريف به من أعلام رجالاته و بلدانه ، و يليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء السابع مفتتحا بالباب الثانى من القسم الثانى فى « نشأة لسان الدين » نسأل الذى يصرف الملكوت أن يعين على إكماله ، ويوفق إلى ما نرغب فيه من تجويده و إتقانه ، إنه ولى الله ، و إليه الوجه والعمل .



فهرس الجزء السادس من كتاب

نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب

والتعريف بوزيره « لسان الدين بن الخطيب »

فهرس الموضوعات
الواردة فى الجزء السادس من كتاب

« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، والتعريف بوزيره لسان الدين ابن الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد ، المقرى ، التلمسانى

ص	الموضوع

ص	الموضوع

الباب الثامن من القسم الأول
في خروج الأندلس عن يد المسلمين

* * *

انتهى القسم الأول

من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

تمت فهرس الجزء السادس من كتاب «نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب» للشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، والحمد لله أولا وآخرا ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه .

